

الاکتف

وَمَعَارِئِ رِسُولِ اللَّهِ وَالثَّلَاثَةِ الْحَقَائِدِ

لَا تُهْمَا إِلَيْكَ الشَّرْحُ سَابِقًا مِنْ نُبُوْتِي الْكَرِيمِ الْإِسْلَامِي

A 71-72

مختار

مفتي عبد الوهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحزب الأول

الشيخ
محمد الحارثي القافري



الاكف

فَمَعَاذِي رَسُولَ اللَّهِ وَالْثَلَاثَةِ الْخُلَفَاءِ

لِلْإِمَامِ أَبِي الْبَرَّاجِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى الْكَدَاغِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ

٥٦٥ - ٦٣٤ هـ

تَحْقِيقُ

مُصْطَفَى عَبْدِ الْوَاحِدِ

يُنْشَرُ لِأَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى نِسْخَتَيْ «طُلُعَتِ» و«التَّيْمُورِيَّةِ»

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

النَّاشِرُ
مَكْتَبَةُ الْحَاكِمِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ
وَمَكْتَبَةُ الْحَلَالِيَّةِ بِبُكَرُوتَ

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين

ت ٩٠٦٠١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد . . فهذا كتاب « الاكتفاء بمغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء » لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، أقدمه للأمة الإسلامية لأول مرة بعد أن ظل في طوايا النسيان ثمانية قرون من الزمان . . ولا بد هنا أن نتحدث عن المؤلف قبل أن نتحدث عن كتابه وموضوعه .

الكلاعي^(١) :

هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام الحميري ، ينتهي نسبه إلى ذى السكلاع يكنى أبا الربيع ويعرف بابن سالم . ولد سنة ٥٦٥ هـ في بلد تسمى بالأندلس ، وأصله من ثغورها الشرقية . وقيل : كان مولده بظاهر مرسية في مستهل رمضان سنة ٥٦٥ هـ ، وسيق إلى بلنسية وهو ابن عامين ونشأ بها .

ثقافته :

كانت بلاد الأندلس في عصر الكلاعي لا تزال ترفع لواء العلم ،

(١) ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٤ ط حيدر آباد ، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٦/٣ . والديباج للذهب في معرفة أعيان علماء الذهب ١٢٥ ونفع الطيب ٥٠٢/٢ ، ٦٥٩ ، ٧٦٨ ط ليدن والإحاطة في أخبار غرناطة ، والتكملة لكتاب الصلاة لابن الأبار .

وتعوج بألوان الثقافات ، وكانت العلوم الدينية في مقدمة ما يُمنى به الطالبون ، وقد اتجه الكلاعي منذ نشأته إلى علوم الحديث فسمع ببلده أبا العطاء بن نذير وأبا الحجاج بن أيوب وأبا عبد الله بن نوح وأبا الخطاب بن واجب ، وغيرهم . وتجهول في بلاد الأندلس والصدوة فسمع أبا القاسم بن حُبَيْش وأبا بكر ابن الجلد وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا عبد الله بن الفخار ، وأبا محمد بن عبيد الله ، وأبا محمد بن بونة ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا محمد بن الفرس ، وأبا عبد الله ابن عروس وأبا محمد بن جمهور ، وأبا الحسن بن نجبة ، وخلفاء .

وقد انتفع الكلاعي من هؤلاء الشيوخ ، وصادف ذلك منه ذهناً حاداً وذكاء متقدماً ، فكان حافظاً للحديث مبرزاً في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذا كراً لرجاله .

وقد تميز بذكره لحياة الرجال وحفظه لأسمائهم وخاصة من تأخر زمانه وعاصره ، حتى تقدم على أهل زمانه في ذلك . .

كل ذلك أدّى بالكلاعي إلى أن ارتقى منزلة عالية في صناعة الحديث ، فكان بصيراً به عارفاً بالجرح والتعديل ، لا نظير له في الاتقان وال ضبط ، وعُرف بالمدالة والجلالة ، فكانت إليه الرحلة في عصره للأخذ عنه والسماع منه ، كما يقول عنه ابن الأثير : « وانتفعتُ به في صناعة الحديث كل الانتفاع وأفادني ما لم يقد أحداً مما كان عنده من الغرائب » ولذلك كان يقال عنه : « بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرق » .

وإلى جانب التبحر في الحديث والاتساع في فنونه كان الكلاعي أديباً مبرزاً في الشعر والنثر ، فقد قال عنه ابن الخطيب :

« كان ربّان من الأدب كاتباً بليغاً خطيباً مجامع بلسية » وكان يتميز

بحسن السرد والساق لما يقول ، ويظهر ذلك في كتابه الذى بين أيدينا ،
مما يدل على ملكة أدبية وحس مرهف ووجدان رقيق .
وقد أهلت هذه الملكة الأدبية إلى أن يكون المتكلم عن الملوك في
مجالسهم والنبى عنهم لما يريدونه على المنابر وفي المحافل . .
وذلك يجعلنا نضع الكلاعى في مرتبة الرئاسة في الحديث وفي الكتابة
في عصره . .

أسلوبه :

كان الكلاعى يلتزم في كتابته شارات عصره من السجع والجناس
والعطباق وغير ذلك من المحسنات ، فذلك كان الأسلوب المرضي في ذلك
الحين ، ولكنه كان يتميز بحاسة مرهفة في اختيار الكلمات الرقيقة وحسن
الملازمة بينها في الأسلوب ، وذلك هو مجال التفاضل بين الكتاب ، ويبدو
ذلك واضحاً في مقدمة كتابه هذا ، فإنك تحس فيه روح كاتب يطاوعه
الأسلوب وتحضره الكلمات المعبرة ، ومع التزمه السجع فلا نجد فيه عبارة
مستكرهة ولا لفظة مجتلبة في غير موضعها مع عاطفة بادية وشعور نابض .
وقد جمع الكلاعى رسائله في ديوان لم يصل إلى أيدينا ، وله كتب أدبية
سندكرها في تراثه .

شعره :

كان الكلاعى ينفذ الشعر في مختلف أغراضه ، ومع أنه كان من رجال
الحديث للبرزن فلم يعقه ذلك عن الإجادة في النظم والجمال في التصوير ،
وقد عبّر في شعره عن نفسه وبشّ خواطره ولم يكن نظاماً مقلداً ولا شاعراً
متصعفاً ، فن شعره في شبايه ما كتب به إلى بحر بن صفوان بن إدريس عقب
انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧ هـ :

أَحِنَّ إِلَى نَجْدٍ وَمِنْ حَلٍّ فِي نَجْدٍ وَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي حَبِيبِي أَوْ يُجَدِّدِي
وَقَدْ أَوَّلَطْنَاهَا وَادِّعِينَ وَخَلَّفُوا مَحَبَّتَهُمْ رَهْنَ الصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ
تَبَيَّنَ بِالْبَيْنِ اشْتِيَاقِي إِلَيْهِمْ وَوَجْدِي فَسَاوَى مَا أَجَنَ الَّذِي أَبْدِي
وَضَاقَتْ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى كَانَهَا وَشَاحَ بِخَضِرٍ أَوْ سَوَّارَ عَلَى زَنْدِ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَلَاقِي مِنَ الْجَوَى وَبَعْضَ الَّذِي لَا قِيَّتَهُ مِنْ جَوَى بُرْدِي
فِي أَلَيْتِ شَعْرِي هَلْ تَعُودُ لَنَا الْمَنَى وَعَيْشٍ كَمَا تَمَنَّمْتُ حَاشِيَّتِي بُرْدِ
وَلَمْ يَخْتَلَفْ شَعْرُهُ عَنْ هَذِهِ الرَّقَّةِ فِي كِبَرِهِ ، فَظَلَّ جِيَاشَ الْعَاطِفَةِ حَسَنَ
الرَّوَاءِ ، فَمِنْ شَعْرِهِ فِي شَيْخُوخَتِهِ :

تَوَالَتْ لِيَالٍ لِلْغَوَايَةِ جُودُ وَوَأَقَى صَبَاحٌ لِلرَّشَادِ مَبِينُ
رِكَابُ شَهَابٍ أَزْمَعَتْ عَنْكَ رَحْلَةً وَجَيْشُ مُشَيَّبٍ جَهَّزَتْهُ مَكُونُ
وَلَا أَكْذِبُ الرَّحْمَنَ فِيمَا أَجْنَسُهُ وَكَيْفَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَنِينُ
وَمَنْ لَمْ يَحَلِّ أَنْ الرِّيَاءَ يَشْبِيهِ فَمَنْ مَذْهَبِي أَنْ الرِّيَاءَ يَشِينُ
لَقَدْ رِبِعَ قَلْبِي لِلشَّهَابِ وَفَقَدَهُ كَمَا رِبِعَ بِالْعَلَقِ^(١) الْقَفِيدَ ضَيْقُ
وَأَلَمَنِي وَخَطَّ الْمَشْيَبِ بِلَمَنِي فَخَطَّابَ بَقَلْبِي لِلشَّجُونِ فَنُونُ
وَلَيْلُ شَبَابِي كَانَ أَنْفَرُ مَنَظَرًا وَآنَقَى مَعَهَا لَا حَظَّتْهُ عَيْنُونُ
فَأَيْبَا عَلَى عَيْشٍ تَكْذَّرَ صَفْوُهُ وَأَنْسَى خِلَا مِنْهُ صَفَاً وَحَبُونُ
وَيَا وَيْحَ قَوْدِي أَوْ قَوْدَايَ كَلِمَا تَزِيدُ شَيْبِي كَيْفَ يَمُدُّ يَكُونُ
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي سَكُونٌ بَغَرُهُ وَكَيْفَ مَعَ الشَّيْبِ الْمَمَضُّ سَكُونُ

وقالوا شباب الرء شعبة جنة فالى عرانى للمشيب جنون
وقالوا شجاك الشيب حذتان ماانى ولم يملوا أن الحديث شجون
وهكذا نجد شعر السكلاعى زاخرا بالصور نابضا بالمعاطفة معبرا عن
أحلامه مصورا لمراحل حياته .

وقد كانت له مناجاة لربه عذبة الأسلوب صادقة اللمجة ، منها قوله :

أَمْوَلَى الموالى ليس غيرك لى مَوَلَى وما أحدٌ يارب مفلك بذا أَوَلَى
تبارك وجهه وجهت نحوه الملى فأَوَزَعها سُكُرا وأرسمها طَوَلَا
وما هو إلا وجهك الدائم الذى أَقَلَّ حِلَى عَليَّائه يُخَرِّسُ القولا
تبرأتُ من سَوَلَى إلبك وقوتى فكَنْ قوتى فى مَطَلَبى وكن أَلْخولا
وهَبْ لى الرضا مالى سوى ذاك مُبْتَغَى ولو لقيتُ نفسى على تَئِيله الهَوَلَا

شخصية السكلاعى :

والحق أن أبا الربيع السكلاعى كان نعتا فريدا فى عصره ، فهو حافظ
محدث وأديب مقنن وشاعر رقيق ، أنيق الشارة حسن الزى ، ولكن الأعمج
من ذلك أنه كان فارسا مجاهدا يشهد الغزوات ويباشر القتال بنفسه ويُبلى
البلاء الحسن !

ونحن نعلم أن الأندلس شهدت فى عصر السكلاعى معارك بين المسلمين
وبين الأسبان الذين كانوا يحاولون استرداد الأندلس من أيدي المسلمين ،
حتى تم لهم ما أرادوا على حين غفلة من الأمة الإسلامية وتحاذل
أما السكلاعى فقد كان يخرج مع المجاهدين وهو شيخ كبير ليقاتل

في سبيل الله ، وكأنه لم يكفه أن يجاهد بلسانه وقله حتى أراد أن يقاتل أيضاً بسيفه ويجوز شرف الشهادة في سبيل الله !

وقد تحقق له هذا الأمل في آخر غزوة شهدها ، وكان في سن السبعين !
وهي موقعة تسمى « أنيشة » إذ كانت على نحو سبعة أميال منها ، فلم يزل مقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادى بالتهزمين :
أعن الجنة تفترون ! حتى قُتل صابراً محتسباً ، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ .

وقد كان يذكر دائماً أنه عمره ينتهي في سن السبعين ، لرؤيا رآه في صغره ، فكان كما قال ..

فأى نمط من الرجال كان الكلاعي . . . ! !

وأية نفس تلك التي كان يحملها بين جنبيه ؟

هؤلاء هم العلماء حقاً ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء . .

وما أجل مآثره عبد الله بن الأتار في قوله :

سلامٌ على الدنيا إذا لم يُلح بها محيياً سليمان بن موسى بن سالم
وהל في حياتي متعةً بعد موته وقد أسلمتني للدواهي الدوام
بمانٍ كِلَاعيٍّ نَمَاهُ إلى العلا تمامٌ حَوَاهِ قَبْلَ عَقْدِ التَّسَامِ
أَنَاهُ رَدَاهُ مُقْبِلًا غَيْرَ مُذْبِرٍ ليحظى بإقبالٍ من الله دائم
سقى الله أشلاءً بسفح أنيشة سوافحُ تُزجيهما يُقال الغمام
وصلّى عليها أنفَسًا طاب ذِكْرُهَا فطُيِّبَ أنفَاسَ الرِّيحِ الدَّوَامِ
لقد صَبَرُوا فيها كراماً وصَابَرُوا ولا غِرْوَانُ فَازُوا بِصَفْوِ المَكَارِمِ
وما بذلوا إلا نفوساً نفيسةً تحنّ إلى الأخرى حنينَ الروائمِ

فوا أسفاً للذين أعضل دأؤه وأبلس من آسٍ لشراه حاسم
وبا أسفاً للعلم أقوت ربوعه وأصبح مهدود الذرى والدعائم
فأى به ——— غار ليس بطالم وأى سناء غاب ليس بقادم !

رحمه الله !

كتبه :

يدكر المترجمون للكلاعى أسماء بعض كتبه ، وأغلبها فى علوم الحديث
الذى كان ميدان الكلاعى وشاغله فى عمره الطويل ، فن ذلك :

١ — مصباح الظلم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . نحاه
منعنى الشهاب القضاى .

٢ — الأربعين حديثاً عن أربعين شيعتاً ، لأربعين من الصحابة فى
أربعين معنى . جزء مفيد

٣ — الشبايعات المخرجة من أحاديث أبى على الصدفى . ثلاثة أجزاء .

٤ — أحاديث الصحافة . جزء .

٥ — جزء آخر فى مثل ذلك من حديث أبى بكر بن العربى .

٦ — حلية الأمالى فى اللواقظات من العوالى — خرجها من حديثه فى
أربعة أجزاء .

٧ — كتاب حافل السابقين وحلية الصادقين للصدّيقين فى ذكر
الصحابة الأكرمين ومن فى عدادهم بإدراك العهد الكريم من أكابر التابعين
— لم يكمله — ولو فرغ منه لكان ضعيف الاستيعاب لأبى عمر بن عبد البرّ .

٨ — الإعلام بأخبار البخارى الإمام ، ومن بلغت روايته عنه من
الأغفال والأعلام .

٩ — للمعجم في من وافقت كنيته كنية زوجته من الصحابة رضى الله عنهم . جزء كبير .

١٠ — تهيئة الرّواد ونحفة الرّواد في التوالى البدئية الإسناد . في أربعة أجزاء .

١١ — المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات . جزء كبير .

كما كان له كتب في فنون الأدب منها :

١ — نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال . بنى فيه الكلام على التوضيح بما تضمنه كتاب أبى عبيد من أمثال العرب واضطرار العرب إليها . في سفر غير كبير .

٢ — الجهد النصيح وحظ المنيح من معارضة المعرى خطبة النصيح . سفر .

٣ — الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال . جزء كبير .

٤ — نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم . جزء .

٥ — مفاوضة القلب المليل ومناودة الأمل الطويل على طريقة أبى العلاء المعرى في ملقى السبيل .

٦ — الصحف للنشرة في القلع المعشرة .

٧ — ديوان رسائله — سفر متوسط

٨ — ديوان شعره — سفر

٩ — جنى الرطب في سقى الخطب . جزء جمع فيه خطبه في الجمع والأعياد وغير ذلك . وهي نحو من ثمانين خطبة .

وهذه الكتب نقرأ أسماءها في الكتب التي ترجمت له ولا ندرى ما فعل

بها الزمان ! فليس منها شيء مطلوب ولا نهتدى إلى مكانها بين الخطوط ،
وليت شعري متى تصل أيدينا إلى تراثنا للفقود ، ومتى تتصل حلقات الفكر
الإسلامي ويكتمل صرحه الذي بناه أئمتنا عبر القرون ؟

إننا نهيب بحمة التراث الإسلامي أن يبعثوا عن هذه السكوز للفقودة
فعاماً متوارية في مكتبات الغرب ومتاحفه ، فلم أمانة تركها لنا الأسلاف
ولا بد أن نصونها لنسدها إلى الأُخلاف .

هذا الكتاب :

وكتابنا الذي نقدمه اليوم للكلاعي هو نمط فريد من كتبه ، ذلك هو
كتاب « الاكتفاء في مفازي رسول الله ومفازي الثلاثة الخلفاء » للكلاعي
لم يكن مؤرخاً ولكنه انبعث إلى كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر
مفازيه بدافع ديني عميق يعبر عنه بقوله في المقدمة : « وكل ذلك يشهد الله
أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم وإحسانه الميم ورحمته التي منها شق
لنفسه أنه الرحمن الرحيم . ثم القصد الثاني متوفر على إثارة الرغبة في إيمان
الناس بأخبار نبينهم صلى الله عليه وسلم وعارة خواطرم بما يكون لهم في العاجل
والآجل أنفع وأسلم ^(١) » .

وعنده أن رواية أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأشياء بعد
كتاب الله : « فبالوقوف عليها توجد حلالة الإسلام ويعرف كيف تمهدت
السبل إلى دار السلام ^(٢) » .

وإذا استوفى هذا الغرض وبلغ مقه حاجة نفسه ، فإنه يتبهم بذلك مفازي

(١) الاكتفاء ص ٥ .

(٢) الاكتفاء ص ٦ .

الخلفاء الثلاثة الأول ، أبى بكر وعمر وعثمان ، فتتظلم الفائدتان معاً ويجمع الخبر عن مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه . .

فأين نضع هذا الكتاب بين كتب السيرة والمغازى . ؟

إن ذلك يقتضينا أن نتفهم منهجه وتبين مدى أصالته لندرك الجديد الذى قدّمه فى موضوعه .

لقد بدأ تدوين السيرة والمغازى منذ وقت مبكر ، وأول كتاب فى ذلك هو كتاب موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ثم كتاب محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ هـ الذى اختصره عبيد الملك بن هشام . ومن بعد ذلك مغازى الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ثم طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

والسكلاعى يصرح أنه فى كتابه هذا إنما يلخص من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم واستنفدوا فيه آثامهم^(١) ، وخاصة كتاب محمد بن إسحق وكتاب موسى بن عقبة .

ويذكر أن أعظم تمويله كان على كتاب ابن إسحق ، إذ قصد إلى تجميعه من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار ، وجرى على ترتيبه وتحريره منزعه ، بحيث نجد كتاب ابن إسحق مهذباً فى خلال كتاب «الاكتفاء» فإن السكلاعى رأى أن كتاب ابن إسحق قد تخطّه أشياء من غيرى المغازى تقدح عند الجور فى إمتاعه ، فأراد أن لا يبقى منه إلا الأخبار الجريدة وخلاصة المغازى ، فنقص منه ليزيده كمالات .

وقد عوّض السكلاعى ما قصه من كتاب ابن إسحق ، فيما نقله عن غيره من الكتب ، فقد اختار مواضع من كتاب موسى بن عقبة ، ونقل جُلّاً

من كتاب « المبعث » للواقدي ، واختار نفائس من كتاب أبي عبد الله الزبير بن بكار في أنساب قریش، ومن التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خيثمة .. وأشياء من غيره هذه الكتب يتم به الحديث أو يستكمل الفائدة .

تلك هي مصادر الكلاعي في سيرته التي توضح قيمة عمله ، فقد أمكن الكلاعي الذي عاش في القرن السابع أن ينظر في إحاطة إلى ما خلفه السابقون من تراث في المغازي والسير وأن يتأني في الاختيار والترتيب فيستكمل القمص ويجمع المزايا ، ويحفظ لنا جانباً من تراثنا عدا عليه الزمان .

وقد نجحت ملكة الكلاعي في التأليف وذوقه الرقيق في الترتيب ، في منهجه الذي التزمه في العرض والتنسيق ، فهو لا يلتزم نسبة كل قول إلى صاحبه ولا ذكر كل مرجع فيما ينقله ، بل يراعى في أغلب الأحيان بين الأقوال ليؤلف منها حديثاً متسقاً وقصة مرتبة ما دامت تسير في اتجاه واحد « ليسكون المساق أبين والاتساق أحسن »^(١) .

وهو لا يتدخل برأيه إلا عندما تختلف الآراء ليفصل بينها ويرفع الإشكال عنها . .

وربما فصل بين بعض الأحاديث المتشابهة لضرورة موضعها أو حلالة موقعها . . حسب ما تهدي إليه حاسته الجالية .

ذلك في سيرة رسول الله ومغازيه . .

أما مغازي الخلفاء الثلاثة الأول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن الكلاعي يصرح أنه اعتمد فيها على كتاب شيخه الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش وعلى غيره مما يشابهه .. ولم يورد شيئاً عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه شغل بمقاومة الفتن ومجابهة المتمردين عن الفتوح والغزو .

وبهذا نرى في كتاب السكلاعي مزيتين وانحيتين ، نجلان له أصالة
في موضوعه الذي يعرض له :

الأولى : الجمع والإحاطة وحسن النظر فيما سلف من تراث ، والنقل
عن كتب لم تصل إلى أيدينا ، كغزالي موسى بن عقبة والتاريخ الكبير
لابن أبي خيثمة وللمبعث للواقدي .

وهذا حفظ لنا « الاكتفاء » جانباً هاماً من تراثنا وأغنيانا عن النظر
فيما سواه من كتب للغزالي والسَّير .

الثاني : أنه جمع بين مغازي رسول الله صلوات الله عليه ومغازي خلفائه
الثلاثة الأول ، وهم الذين تمت أعظم الفتوحات الإسلامية في عصرهم الزاهر ،
في كتاب واحد ، بحيث نرى امتداد جهاد الرسول الكريم في جهاد خلفائه
وأصحابه ، فنتمثل حركة الملة الإسلامية على حقيقتها ، ولا نقطع حلقات هي
في حقيقتها متصلة متلاحمة .

وكتاب « الاكتفاء » بهذا الاعتبار عمل جديد بين كتب للمغازي
تتضح فيه حاسة دقيقة في الترتيب ويشده نظام واحد ، فهو ليس نقلاً
أو حشداً للأخبار ، بل هو بقاء جديد كان لابد منه لفتح مرحلة النضج في كتب
المغازي وتكتمل حلقاتها ، في هذه الصورة الجميلة التي أرادها السكلاعي
لكتابه ، الذي تجنب فيه الإسناد والتكرار والحشو وبالف في الدقة والإحاطة .
وهذه الميزة هي التي جعلتني أرى في نشر هذا الكتاب عملاً ضرورياً
وواجباً نحو تراثنا وعصرنا على السواء . .

أصول الكتاب :

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ — نسخة في مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٢٠٧٤

تاريخ في مجلد واحد وهي أقدم النسخ وأوثقها ، إذ كتبت في سنة ٨٦٢ هـ وعدد أوراقها ٢٢٤ ورقة ، في كل صفحة ٤١ - سطراً ، وقد كتبت بخط مشرقى دقيق ، وعلى هامشها مراجعات ، وجاء بآخرها :

« تم كتاب الاكتفا من مغازى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى الثلاثة الخلفاء رضى الله عنهم وحشرنا معهم ، وربنا المحمود لا إله غيره ولا مرجو إلا بركته وخيره ، برسم الفقير إلى الله تعالى جمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن السابق الحنفى الحوى ، لطف الله تعالى به على يد الفقير لعفو ربه القدير محمد بن خليل بن إبراهيم الحنفى ، عامله الله بلطفه العلى . وفرغ من كتابته في اليوم للبارك نهار الأربعاء السادس من صفر سنة ستين وثمانمائة أحسن الله طاعتها . آمين وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » وقد قولت هذه النسخة في تسعة وثلاثين مجلساً بمكة المكرمة ، آخرها يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثمانمائة . كما جاء في آخرها بعد ذلك عدة مقابلات وتعليكات .

٢ - نسخة بالمكتبة القيومية بدار الكتب المصرية في مجلد واحد ، تحمل رقم ١٥٥٧ تاريخ ، وقد كتبت سنة ١٠٨٩ هـ ، وعدد أوراقها ٣٨٠ و في كل صفحة ٣٣ - سطراً ، وهي أيضاً بخط مشرقى ، وإليها الإشارة بحرف (ت) ٣ - نسخة بدار الكتب المصرية في جزء واحد تحمل رقم ٢٦٥٣ تاريخ ، في مجلد واحد ، في ٣٠٨ صفحة في كل صفحة ٣٥ - سطراً وقد كتبت بخط مغربى وفي آخرها ما يفيد أنها كتبت سنة إحدى وسبعين ومائة وألف . وإليها الإشارة بحرف (ا)

٤ - نسخة بدار الكتب المصرية في أربعة مجلدات متوسطة ، تحمل رقم ٥٠٣٦ ، تاريخ ، وهي غير كاملة ، إذ وقفت عند كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى .

وفي الجزء الثاني منها ما يفيد أنها كتبت سنة ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، وقد كتبت بخط مغربي كبير . وإليها الإشارة بحرف (ب)

هذا وقد طُبع من هذا الكتاب جزء يسير في الجزائر سنة ١٩٣١ م بإشراف الأستاذ هنري ماسه الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر ، وهو ملء بالتحريف والتصحيح ، وقد أشرت إلى كثير من أخطائه في هذا الجزء ، ثم أمسكت عن ذلك حين رأيت الخطأ يشيع فيه واكتفت بالإشارة إلى ذلك ، ويبدو أنه طبع على نسخة شائبة .

وقد ورد اسم الكتاب في مقدمة المؤلف : « الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء » ولكنني اخترت الاسم الذي ورد في أكثر مراجع ترجمة الكلاعي : « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء » لإيجازه ووضوحه .

منهج التحقيق :

كان لابد من مقابلة هذه النسخ الخطية الأربع ، وقد جمعت من نسخة طلعت النسخة الأمّ لقدمها ودقتها ، وأشرت إلى أهم الفروق بين هذه النسخ ، وأغفلت الإشارة إلى الفروق التي تنشأ عن التحريف وأخطاء الكتابة إذ ليس لها وزن على .

وفي هذا الجزء الذي أقدمه اليوم يجد القارئ كثرة الفروق بين الكلاعي وبين ابن هشام ، وقد انزمت الإشارة إلى هذه الفروق في المواضع التي يتضح فيها منهج الكلاعي في الإيراد أو التي تقوم من سيرة ابن هشام التي بأيدينا ، فقلل نسخة الكلاعي منها كانت أصح وأوثق ، أما الأجزاء الباقية فإن هذه المقابلات ستقل ، لتختلفها مقابلات بين الكلاعي وبين المصادر الباقية التي ينقل عنها . .

أما الشرح والتعليق فإنى أسير فيه على الخطلة التى أرترضها ، وهى أن يكون ذلك فى مواضع الضرورة التى يحتاج إليها فهم النص أو وضوحه ، بحيث تعين القارئ على حسن الاستفادة منه ، حتى لا نزع النص بشرح يقترب من الحواشى التى طالما نعتينا عليها . أما التخريج فلا أشير إليه إلا فى مواضع اختلاف ، وقد يسر السكلاعى الأمر لقارئه فدلّه على مصادر كتابه التى أشرنا إليها قبل ، فهذه هى المصادر المحدودة التى رجع إليها ، وما بقى منها عدد قليل .

وأرجو أن أستكمل فى الأجزاء الباقية جوانب الجهد الممكن فى إخراج هذا الكتاب ، ليسكون دعوة إلى البحث عن آثار مؤلفه واستنقاذها من يد الفناء ونحن أحوج ما نسكون إلى ما فيها من السنا والضياء . .

ولا أملك هنا إلا شكر الأستاذ العالم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، فقد كان لرغبته إلىّ فى إخراج هذا الكتاب أثر قوى فى اتجاهى إليه وبمضى عن أصوله ، حتى وفقنى الله إلى البدء فيه منذ خمس سنين ، ثم قامت فى سبيله الصعاب ، حتى أراد الله له أن يخرج فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ الأمة الإسلامية ليكون حافظاً للجهد ومذكراً بأعجاد الآباء والأجداد . .

وبعد . .

فله الحمد فى الأولى والآخرة ، منه نستلهم العون والهداية ، نعم للولى ونعم النصير .

{ شوال سنة ١٣٨٧
القاهرة فى { يناير سنة ١٩٦٨

مصطفى عبد الوامر

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٠	إبراهيم يؤذن بالحج	٧ - ١	مقدمة الكتاب
٦١	إبراهيم يتعلم مناسك الحج	٩	ذكر نسب رسول الله
٦٣	وفاة إبراهيم	١١	أولاد عدنان
٦٣	ولاية البيت بعد إسماعيل	١٢	أولاد معد
٦٤	بين جرم وقطوراء	١٥	» نزار
٦٥	ولاية كنانة وخزاعة	١٩	» مضر
٦٦	تعظيم العرب للحرم	٢٠	» الياس
٦٩	خروج جرم من مكة	٢٢	» مدركة
٧١	ولاية خزاعة البيت	٢٢	» خزعة
٧٢	حديث قصي	٢٣	» كنانة
٧٥	صوفة تميز للناس بالحج	٢٤	» النضر بن كنانة
٧٩	عود إلى قصي	٢٤	» فهر بن مالك
٨٤	عبد الدار	٢٥	» غالب بن نهر
٨٥	وفاة قصي	٢٥	» لؤي بن غالب
٨٥	بنو عبد مناف وبنو عبد الدار	٢٩	البسل
٨٨	حلف الفضول	٣١	أولاد كعب بن لؤي
٩١	العرب في جاهليتهم	٣٣	» عبد مناف
٩٢	عمر بن لحي	٣٤	» عبد المطلب
٩٣	بداية الوثنية	٣٤	محمد بن عبد الله
٩٧	اليهودية في بلاد العرب	٣٦	قصيدة أبي عبد الله بن أبي الحصال
١٠٢	من أخبار تبع		في نسب رسول الله
١٠٥	التصراية في بلاد العرب	٤٥	ذكر أولية بيت الله المحرم
١٠٨	عبد الله بن التامر وأصحاب الأخذود	٥١	إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت
١١٤	ريعة بن نصر والسكهان	٥٨	بناء إبراهيم للبيت

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٣	إنذار يهود بالنبي	١١٩	شق وسطيح
٣٣٦	حديث سلمان الفارسي	١٢٢	عمرو يقتل حسان
٢٤٤	حديث أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان	١٢٤	لخنية ذو شنار
٢٥٠	الحنفاء		دخول الحبيشة أرض اليمن
٢٦٠	صفة النبي في التوراة	١٢٦	وقصة أصحاب القيل
٢٦٢	ذكر لأبعت	١٣٩	سيف بن ذي يزن
٢٦٧	بدء نزول القرآن	١٤٥	عود إلى أبناء قصي
٢٧٠	إسلام خديجة	١٥٥	عبد المطلب يحمر زمزم
٢٧١	ققرة الوحي	١٦١	نذر عبد المطلب
٢٧٢	فرض الصلاة	١٦٧	ولادة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٣	إسلام علي بن أبي طالب	١٦٨	من ممي محمداً قبله
٢٧٤	إسلام زيد بن حارثة	١٦٩	الرضاغة
٢٧٧	إسلام أبي بكر	١٧٢	شق الصدر
٢٧٩	الجهنم بالدعوة	١٧٦	وفاة أمة وكفالة جده له
٢٨١	بين قريش وأبي طالب	١٧٨	بشارة سيف بن ذي يزن بالنبي
٢٨٣	إيذاء النبي والمسلمين	١٨٢	وفاة جده
٢٨٥	الوليد بن النخيرة	١٨٨	العباس يلى زمزم
	قصيدة أبي طالب في النطع	١٨٩	حكمة الله أبي طالب
٢٨٦	عن الرسول	١٩٠	رحلته إلى الشام
٢٩٨	قصيدة أبي قيس بن الأسلت	١٩٣	حفظ الله له
٢٩٨	من أذى قريش للرسول	١٩٥	زواجه بمخديجة
٣٠١	إسلام حمزة بن عبد المطلب	٢٠٥	بيان قريش للكعبة
٣٠٢	عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول	٢٠٨	وضع الحجر الأسود
٣٠٤	وقريش تفاوضه	٢٠٩	حكمة الكعبة
٣١٠	وفد قريش إلى أخبار اليهود	٢١٠	أمر الخمس
٣١٣	أول من جهر بالقرآن	٢١٣	ذكر ما حفظ عن الأخبار والرهبان
			والسكان من أمر رسول الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤١٣	بدء إسلام الأنصار والعقبة الأولى	٣١٣	قريش تستمع إلى قراءة النبي
	إسلام سعد بن معاذ وأسيد	٣١٦	عدوان قريش
٤١٦	ابن حضير	٣٢٠	المهجرة إلى أرض الحبشة
٤١٩	ذكر العقبة الثانية	٣٢١	ما قبل من الشعر في الحبشة
٤٢٨	الإذن بالقتال	٣٢٤	وفد قريش إلى النجاشي
٤٣٠	بدء الهجرة إلى المدينة	٣٣٤	إسلام عمر بن الخطاب
٤٣٨	مؤامرة قريش	٣٤١	كتابة الصحيفة
٤٤٢	هجرة رسول الله وأبي بكر الصديق	٣٤٣	من إيذاء قريش للرسول
٤٤٦	قصة أم معبد	٣٥١	رجوع المهاجرين من الحبشة
٤٥٢	حديث سراقه	٣٥٧	ابن الهذلة يجير أبا بكر
٤٥٨	دخول النبي المدينة	٣٥٨	تففس الصحيفة
٤٦٤	الإخاء وموادعة اليهود	٣٦٣	حديث الطفيل بن عمرو الدوسي
٤٦٥	وفاة أسعد بن زرارة	٣٦٧	خبر أعشى قيس
٤٦٥	الأذان	٣٧٠	مع أبي جهل وركانة
٤٧١	إسلام عبد الله بن سلام	٣٧٧	إسراء رسول الله
٤٧٢	إسلام عدي بن	٣٨٤	المعراج
٤٧٣	العداوة	٣٨٨	طاقة المستهزئين
٤٧٨	المنافقون	٣٩٠	وفاة خديجة وأبي طالب
٤٨٥	وفد نصارى نجران	٣٩٥	خروج النبي إلى الطائف
٤٩٣	مرض المهاجرين بالمدينة	٤٠٠	عرض رسول الله نفسه على قبائل العرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدِمَةُ الْكِتَابِ

الحمد لله الذي من علينا بالإسلام ، وأكرمنا بنبيينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل آماره الكريمة ضاللتنا المنشودة ، والافتداء بهدي الأهدى ، ونوره الأوضح الأبدي ، غايتنا المقصودة وأمينتنا المودودة ، وأنعم على قلوبنا بالارتياح لذكره والاهتزاز عند سماع خبره عنه مَصْدَرُهُ أو إليه مُنْتَمَاهُ .

وإنه لأثر رجاء في هذه القلوب البطالة وأثارة خير يُرْسَى ، أن يذودها عن مشارع الجهالة ومنازع الضلالة^(١) ، فإن الارتياح للذكر^(٢) شهادة الحب وأمانة الحب .

وقد رَوَى عنه صلوات الله عليه نَفْلَةُ الشَّيْخَةِ أَنَّ مِنْ أَحَبِّهِ كَانَ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ .

فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكْتَبَ فِي حَبِّهِ حَقِيقَةً ، وَيَسْلُكَ بِنَا مِنْ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَقْتَعَيْ^(٣) أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ طَرِيقَةً إِلَى السَّعَادَةِ خَلِيقَةً .

فإنزال طالبين ذلك من أكرم مطلوب لديه ، راغبين فيه إلى خير مرغوب إليه . وإن لم تكن أهلا للإسعاف بتقصيرنا في الأعمال ، فإنه جل جلاله أهل الجود والإفضال .

(١) المطبوعة : أن يوردها من مشارع الجهالة الضالة ، وهو تحريف ضلج .

(٢) المطبوعة : للدنو ، وهو خطأ .

(٣) ط : مقتضيات .

ونصلي قبلُ وبدُ على هذا النبي المبارك الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله
الطاهرين وصحبه المقربين^(١)، خير محب وخير آل.

وهذا كتاب ذهب فيه إلى إيقاع الإقناع ، وإمتاع النفوس والأسماع ،
بأساق الخبر عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر نسبه ومولده
وصفته ومبعثه ، وكثير من خصائصه ، وأعلام نبوته ومفازيه ، وأيامه من
لدى^(٢) مولده إلى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة إليه ، صلوات الله
وسلامه وبركاته عليه .

مقدِّماً لذلك ما يجب تقديمه ، ومتمِّماً^(٣) من ذكر أوليائه المباركة بلداً
وتحيداً ، بما يحسن عدله وتعليمه ، ملخصاً جميعه من كتب أئمة هذا الشأن الذين
صرفوا إليه اعتناءهم ، واستنفذوا فيه آناهم ، ككتاب محمد بن إسحاق ، الذي
تولى عبد الملك بن هشام تقريبه^(٤) واختصاره ، وكتاب موسى بن عقبة ، الذي
استحسن الأئمة اقتصاده واقتصاره ، وغيرها من المجموعات التي لا يزيد الإنصافُ
فضل^(٥) جامعها ولا يذمُّ الاختيارُ اختياره .

واسكن عظم المولى بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق ، إياه أردتُ ،
وتجريدته من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار قصدتُ ، وعلى ترتيبه ظاهراً
جهرتُ ، ومنزعه في أكثر ما يخص المفازي تحررتُ .

(١) ط : المتضيقين .

(٢) الطبوعة : يوم .

(٣) اب ت : ومتبها .

(٤) ط : تهذيبه .

(٥) ات ط : لا يذمُّ الإنصافُ قصد جامعها ، والطبوعة : لا يذمُّ .

فإنه الذى شرب ماء هذا الشأن فأنقذ ، وحل كتابه من نفوس الخناس
والعام أجل موقع .

إلا أنه تخلفه ، كما أشرنا إليه قبل ، أشياء من غير المناسبات التى قد تدفع عند
الجمهور فى إمتاعه ، وتقطع بالخواطر المستجبة لسماعه .

وإن كانت تلك القواطع عريضة فى نسب العلم ، وحقيقة بالتقييد والنظم .
فمضى أن يكون لها مكان هو بمرادها أخص ، إذ لكل مقام مقال لا يحسن
فى غيره الإيراد له والنقص .

ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلفه من مشتبه الأنساب التى ليس احتياج
كل الناس إليها بالضرورى الحثيث ، ونفيس اللغات المعوق اعتراضها اتصال
الأحاديث ، حتى لا يبقى إلا الأخبار المجردة ، وخلاصة المناسبات التى هى فى هذا
المجموع المقصودة المعتمدة .

فلذا مضى أنه إن أذن الله فى تمامه ، وتكفل تعالى بتيسير محاولته وفق المأمول
وتقريب مرآته ، استأنفت النفوس له قبولا وعليه إقبالا ، ولم يزد هذا^(١)
النقص لدى جمهورهم إلا كالا .

ثم بدأ لى أن أزيد على هذا المقدار ما يحسن فى هذا المضمار ، وأهوض
ما حذفت منه من اللغات والأنساب والأشعار ، بما يكون له إن شاء الله منزلة
الاختيار^(٢) ، ويروق عليه رونق الإيضاح^(٣) ، مُنتقيا ذلك من الدواوين التى

(١) اب ت : ولم يزد له .

(٢) المطبوعة : الأخبار .

(٣) المطبوعة : الآثار .

طار لها^(١) في الناس طائرُ الاشتهار ، ومتخيراً له من الأماكن التي لا يستقلُّ
بمختصرِ فوائدها وانتقاء فرائدها كلُّ مختار .

ككتاب ابن خُقبَة ، وقد سمعته ، فإنه وإن اختصره^(٢) جداً فإنه أيضاً
أحسنَ العبارة ، وأتى بمواضع من المغازي حذاها بسطُّه وحماها اختصاره .
وسأضع على كثير منها ميسمه وأرسمها في هذا المختصر على نحو ما رسمه .

وقد وقفتُ على كتاب محمد بن عمر الواقدي ، ولم يحضرني الآن ، ولكنني
رأيتُه كثيراً ما يجري مع ابن إسحاق ، فاستغفيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق
في الإرادة ، وحسن بيانه الذي لا يُعقل معه استحسانُ الحديث المعاد .

وللواقدي أيضاً كتاب للنبث^(٣) ، وهو مُشبع في بابهِ ، مُمتع باستيفائه
واستحبابه ، قد نقلت هنا منه جُملاً ، تناسب الغرض المسطور ، وتصدُّ المعارض
أن يجوز .

وكذلك كتاب الزبير بن أبي بكر القاضي^(٤) رحمه الله في أنساب قريش ،
وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم بن حَبِيش رحمه الله ، يَحْكِي عن شيخه
أبي الحسن بن مُنيث أنه كان يقول فيه : هو كتابٌ عَجَبٌ لا كتابٌ نَسَبٌ .

التقطتُ أيضاً من دُرَره نفائسٌ مُعْجِبة ، وتحدّرت من فوائده نُخبها
لِمُتَخَيَّرِها مُوجِبة .

(١) ط : جأ .

(٢) اب ت : اختصره .

(٣) ذكره ابن اللديم في الفهرست ١٥٠

(٤) أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن
الزبير بن العوام ، من أهل المدينة ، نوفي بقله وهو قاض عليها سنة ١٥٦

ومثله التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خيثمة ، وناهيك به من بحر لا تُستكدره
الدلاء ، وغمر لا يُنفذه الأخذ الذالك^(١) ، ولا يستنزفه الزد الولاء .

وكم شيء استخسبه من غير هذه الكتب السماء فأنظمه في هذا النظام ،
وأضطر إلى الإفادة به مساق الكلام . إما مُتَمِّمًا لحديث سابق ، وإما مفيداً
بفرض لما تقدمه مطابق .

فإن لم يكن بينهم في الأحاديث اختلاف يُشمر بنقض ، فكثيراً ما أُذخِل
حديث بعضهم في حديث بعض ، ليكون المساقُ أبين والاتساق أحسن .
وإن عرض عارضٌ خلافٍ فالفصل حينئذٍ أرفعُ للإشكال وأذفعُ المقال .

وربما فصلتُ بين بعض أحاديثهم وإن اشبهت معانيها ، بحسب ما تدعو إليه
ضرورة الموضوع ، أو تحمل على إعادته حلالة الموقع .

وكل ذلك يشهد الله أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم ، وإحسانه
العميم ، ورحمته التي منها شقٌ لنفسه أنه الرحمن الرحيم .

ثم القصد الثاني متوقِّفٌ على إثارة الرغبة في إيتاس الناس بأخبار نبينهم صلى الله
عليه وسلم ، وحرارة خواطرم بما يكون لهم في العاجل والأجل أنفع وأسلم .

وقد همَّ عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامع حديثه وبلَّغته ، وقال
صلى الله عليه وسلم : « ما أفاد للمسلم أخاه المسلم أفضل من حديث حسن
بلَّغه قِبَلَنَّهُ » .

(١) النذر بفتح النين وسكون الميم : الماء الكثير ، والأخذ الذراك للتعاجيل .

ولا أَحْسَنَ بمدِّ كتاب الله الذى هو أَحْسَنُ الْقَصَصِ وَأَصْدَقُ الْقَصَصِ ، وَأَفْضَلُ الْحِصَصِ ، وَأَجَلَى الْأَشْيَاءِ لِلْقَصَصِ ، من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بالوقوف عليها تُوجَدُ حلاوةُ الإسلام ، ويُعرَفُ كيف تمهدت الشَّهْلُ إلى دار السلام .

لأنه لا يَخْلُو الحاضرون لهذا الكتاب^(١) من أن يَسْمَعُوا ما صنع الله لرسوله فى أَعْدَاءِ^(٢) تنزيله ، فَيَسْتَعِزُّوا ثوابَ الفرح بنصر الله ، أو يَسْتَمِعُوا ما امتحنه الله به من المِحْنِ التى لا يطيق احتمالها إلا نفوسُ أنبياء الله بتأييد الله ، فيمتحروا بمُعْظِمِ ما لقيه من شدائد الخطوب ، ويصطبروا لعوارض الكروب ، تأدبا بآدابه ، وجَزْياً فى الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه .

وتلك غايات لن تَبْلُغَ عَفْوها بمجهودنا ، ولن نَصِلَ أَدَانِيهَا^(٣) بنهاية رَكْعَتِنَا وَشَدْنَا ، وإِنَّمَا علينا بذلُ الجهد فى قصد الاهتداء ، وعلى الله سبحانه وتعالى المعونة فى الغاية والاهتداء .

وإذا استوفيتُ بفضل الله طَاقَ هذا المعنى كما نويت ، وَبَلَغْتُ حاجةَ نفسى منه وَقَعْنِيَتْ ، فلى نيةٌ ، إِن سَاهَدَتِ المَشِيئَةُ عليها ، فى أن أُصِلَ هذا النرض المتقدم ، من ذكر مغارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذكر مغازى الخلفاء الثلاثة الأوَّل ، رضى الله عنهم ، مُنْتَحِلًا عل رجاء ممونة الله أسبابها ، وَمُتَحِيلًا من كتاب شهتنا الخطيب أبى القاسم رحمه الله تعالى ، ومن غيره مما هو فى نحو معناه ، صَفَّوْهَا وبَسَّأَهَا ، لتتظم الفائدتان معا ، ويكون الخبر عن مغازى

(١) المطبوعة . الطائرون فى هذا الكتاب

(٢) المطبوعة : إعداء ، وهو خطأ

(٣) المطبوعة : أدانها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه ، الذين يَهْدِيهِمُ الْإِتِّمَامُ ، في مكانٍ واحدٍ مجعِماً .

وأرجو بِحَوْلِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ الْعُزُّ وَبِيَدِهِ الْقُوَّةُ وَالْحَوْلُ ، أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَجْمُوعُ كَافِيًا فِي الْبَابَيْنِ ، وَافِيًا بِالْفَرْضَيْنِ الْمُتَتَابِعَيْنِ ^(١) ، وَلِذَلِكَ تَرَجَّمْتُهُ بِكِتَابٍ : « الْأَكْتِفَا جَا تَضَمَّنَهُ مِنْ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَغَازِي الثَّلَاثَةِ اخْتَلَفَا » .

وَفَضَّلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ نِعْمَ الْكَفِيلُ أَنْ يَجْزِيَ بِهِ خَيْرَ الْجُزَاءِ ، وَيَجْمَلَهُ مِنْ عُدَدِنَا النَّافِعَةِ يَوْمَ الْإِقْدَامِ ، فَهُوَ عَزَّ وَجْهَهُ الْمُلْجَأُ وَالْمَعُولُ ، وَبِهِ أَسْتَعِينُ وَعَالِيهِ أَتَوَكَّلُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ ، هُوَ حَسْبِي وَإِلَيْهِ أُلَيْبُ .

ذِكْرُ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ

صلى الله عليه وعلى وآله وسلم تسليماً
وكيف ظهره الله نفسه وخياً^(١) وشرفه حديثاً وقديماً ، وألقى
إلى آياته الأقدمين من الدلائل على اصطفايته لإياه في الآخرين ،
وابتمائه له رحمة للعالمين ، ما صيره لديهم قبل وجوده
بطوائل السنين معلوماً

في الصحيح من حديث وإبلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كندانة ، واصطفى من بنى كندانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » .

وفي حديث عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لم يرَ الله عز وجل ينقلني من الأنصاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صبيئاً
مُهَذَّباً ، لا تشعبُ شعبتان إلا كنت في خيرهما » .

وخرج أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، من حديث المطلب بن أبي وداعة ،
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على اللبر فقال : « من أنا ؟ » فقالوا :
« أنت رسول الله هليك السلام » قال : « أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ،
إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم

(١) الميم بالكسر : العجبة والطيبة

فرقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا ، فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا .

وفي رواية : « فأنا خيرهم نفسا ، وخيرهم بيتا ^(١) » .

وصدق صلى الله عليه وسلم ، والصدق شيمته ، وفوق العالمين حُرّاً قَدْرُهُ الرفيعُ وقيمته ، هو أشرفهم حسَباً وأفضلهم نسباً وأكرمهم أمّاً وأباً .

هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، واسمه حمز ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصي ، واسمه زيد بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، ابن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كدانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، ابن إلياس ^(٢) ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

هذا الصحيح المُجمَع عليه في نسبه ، وما فوق ذلك مختلف فيه .

ولا خلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ، بن إبراهيم خليل الله ، عليهما السلام ، وإنما الاختلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء . فمُعْتَمَدٌ ومُسَكَّنٌ .

وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، لا يُعْلَمُ ذلك على حقيقته إلا الله .

رُوي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اتتهى إلى عدنان

(١) ط : من خيرهم بيتا

(٢) الألب واللام فيه زائدتان وما داخلتان على المصدر الذي هو إلياس وقد تسهل حمز ، الثانية فيقال فيه إلياس ، ويجوز أن تكون حمزه قطعاً كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ، من قولهم : رجل إليس من قوم ليس .

أَمْسَكَ ثُمَّ يَقُولُ : « كَذَبَ النَّسَابُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا » (١) .

ومن عدنان تفرقت القبائل مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ .

[أولاد عدنان]

فَوَلَدَ عِدْنَانُ رَجُلَيْنِ : مَعْدًى بْنُ عِدْنَانَ ، وَمَكَّ بْنَ عِدْنَانَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ هَلِيمَا .
فَصَارَتْ هَكَذَا فِي دَارِ الْبَيْنِ ، لِأَنَّ هَكَذَا تَزَوَّجَ فِي الْأَشْعَرِيِّينَ مِنْهُمْ وَأَقَامَ فِيهِمْ ،
فَصَارَتْ الدَّارُ وَاللُّغَةُ وَاحِدَةً .

وَالْأَشْعَرِيُّونَ هُمْ بَدُو أَشْعَرِ بْنِ نَابِتَ ، بْنِ أَدَدَ ، بْنِ زَيْدِ بْنِ الْهَمَيْسِجِ ، بْنِ هَمْرٍ ،
ابْنِ هَرَيْبَ ، بْنِ بَشَّجُبَ ، بْنِ زَيْدَ ، بْنِ كَهْلَانَ ، بْنِ سَبَأَ ، بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَغْرِبَ ،
ابْنِ قَحْطَانَ .

وقحطان هو عند جمهور العلماء بالنسب أبو البين كلها ، وإليه يجتمع نسبها ،
والعرب كلها عندهم مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَقَحْطَانَ .

وبعض البين يقول : قحطان من ولد إسماعيل ، وإسماعيل أبو العرب كلها .
والله أعلم .

وأما مَعْدًى ، فذكر الزبير بن أبي بكر رحمه الله ، أَنَّ بَنِي مَعْدًى لَمَّا أَمَرَ بِغَزْوِ
بِلَادِ الْعَرَبِ وَإِدْخَالِ الْجُنُودِ هَلِيمِهِمْ فِيهَا ، وَقَتْلِ مَقَاتِلَتِهِمْ لَأَنَّهُمَا كُفِرُوا بِمَعَاذِ اللَّهِ ،
وَاسْتَحْلَاهُمْ عِمَارَهُ وَقَتْلَتُهُمْ أَنْبِيََاءَهُ ، وَرَدَّاهُمْ رِسَالَاتِهِ ، أَمَرَ أَرْمِيَا بْنَ حَلْقِيَا ، وَكَانَ
فِيهَا ذَكَرَ نَهْيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ : أَنَّ اثْنَيْ مَعْدًى بْنِ عِدْنَانَ الْقِيَمِ مِنْ
وَلَدِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، فَأَخْرَجَهُ عَنْ بِلَادِهِ وَاجْهَلَ إِلَى الشَّامِ ، وَتَوَلَّى أَمْرَهُ قَبْلَكَ .

ويقال : بل المحمولُ هذنان ، والأولُ أكثر .
وفي حديث عن ابن عباس ، أن الله بمثل مَلَكين ، فاحتملا مَدَّأ ، فلما
أدْبَرَ الأمرُ رَدَّاهُ فرجع إلى موضعه من تهامة ، بعدما دفع اللهُ بأسه عن العرب ،
فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرهم ، وبها منهم بقية هم ولادة البيت
يومئذ ، فاختلط بهم ولأحدهم ^(١) .

[أولاد معد بن هذنان]

فولَدَ مَدَّدُ بن هذنان نفراً ، منهم قُضَاعَة ، وكان يَكْرَهُ الذي به يُسَكَّى
فيما يزعمون ، وقنص ، ونزار ، ولما د .
فأما قُضَاعَة فتتأملت إلى حَمِير بن سبأ واندتمت إلى ابنه مالك بن حَمِير ، حتى
قال قائل منهم يفضر بذلك :

نحنُ بنو الشَّيْخِ المِجَنِّ الأَزْهَرِ ^(٢)
قُضَاعَة بن مالك بن حَمِيرِ
النَّسَبُ للمروءِ غَيْرُ اللِّفْكِ

وأنكر كثير من الناس منتهام ^(٣) هذا ، وجرت بينهم وبين من قال به من
القضاة في ذلك أقاويل معروفة وأشعار محفوظة .

قال الزُّبَيْر : ولم يُنْجِسْ رَأْيُ قُضَاعَة قُلُوبَ الانْتِسَابِ في المين ، بل أهلُ العلم منهم
والدِّين مقيمون على نسبهم في مَدَّة .

وأما قنص بن معد ، فهلكت بقيتهم فيما زعموا ، وكان منهم النعمان بن النذر
ملك الحيرة .

(١) الطبري وتاريخ ابن خلدون ٢٩٩/٢

(٢) المِجَنِّ : الرجل الحبيب . والأزهر : للفرق الوجه

(٣) ت : منتهام

واحتج من قال ذلك بأن عمر رضى الله عنه حين أرى بسيف النعمان بن المنذر ،
دعا جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي ، فسأله إياه ،
ثم قال : ممن كان يا جبير النعمان بن المنذر ؟

فقال : كان من أشلاء^(١) ، فنص بن معد .

وكان جبير أنسب قریش لقریش والعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما أخذنا
النسب من أبي بكر الصديق .

وكان أبو بكر رضى الله عنه أنسب العرب .

وقد قيل في نسب النعمان غير ذلك ، مما سيأتى ذكره عند تأدية الحديث إليه .
إن شاء الله تعالى .

• • •

وقد ذكر أيضاً في بنى معد الضحاک بن معد .

ذكر الزبير بإسناد له إلى مكحول قال : أغار الضحاک بن معد على بنى إسرائيل
في أربعين رجلاً من بنى معد ، عليهم ذراريع الصوف خاطمى خيلهم بحبال
الاهب ، فقتلوا وسبّوا وغلّفروا ، فقالت بنو إسرائيل : يا موسى ، إن بنى معد أغاروا
علينا ، وهم قليل ، فكيف لو كانوا كثيراً وأغاروا علينا وأنت بيننا ؟ فاذع
الله عليهم .

فغضب موسى وصلّى ، وكان إذا أراد حاجة من الله صلّى ، ثم قال : يا رب إن
بنى معد أغاروا على بنى إسرائيل فقتلوا وسبّوا وغلّفروا ، وسألوني أن
أدعوك عليهم .

(١) الأشلاء : البقاي .

فقال الله : يا موسى لا تدعُ عليهم ، فإنهم عبادى وإنهم يتنهنون عند أمرى ، وإن فيهم نبيا أحبه وأحب أمته .

فقال : يارب ، ما بلغ من محبتك له ؟

فقال : أغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : يارب ما بلغ من محبتك لأمتي ؟

قال : يستغفرونى مستغفرهم فأغفر له ، ويدهونى داعيهم فاستجيب له .

قال : يارب فاجعلهم من أمتي

قال : نبيهم منهم .

قال : يارب فاجعلنى منهم .

قال : تقدمتَ واستأخروا .

قال الزبير : وحدثنى على بن المنيرة قال : لما بلغ بنو معدّ عشرين رجلا أغاروا على عسكر موسى عليه السلام ، فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثم أغاروا ، فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثلاث مرات .

فقال : يارب ، دعوتك على قومٍ فلم تجبني فيهم بشيء .

فقال : يا موسى ، دعوتنى على قومٍ منهم خيرى فى آخر الزمان^(١) .

* * *

وأما زيار بن معد ، واسمه مشتق من النزر وهو القليل ، فيقال : إن أباه معد

(١) خيال خصب وضع هذه الأسطورة ، وافة لايماني قوما هل قوم ، وقد كان موسى عليه السلام مهبطاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وعارفاً به ، فكيف يسأل هذا السؤال وكيف يجاب بهذا الجواب !!

لما ولد له نظر إلى نور بين عينيه ، ففرح لذلك فرحاً شديداً ، ونحر وأطعم ، وقال : إن هذا كله كَنَزٌ في حق هذا للولود .

وما كان الذي رآه إلا نور النبوة ، الذي لم يَزَلْ ينتقل في الأحصلاب ، حتى انتهى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطَلِقَ الأرضَ نوراً ، وهدى الله به من أراد سعادته من عباده ، صراطاً مستقيماً .

وكل هذه الأنوار والآثار شاهدة له ، عليه السلام ، بعظيم عناية الله ، وكرم المكانة عنده ، فلم تَزَلْ بركاته ، صلى الله عليه وسلم ، متعرفة في آياته الماسضين ، وظاهرة على أسلافه الأكرمين ، تشير الخفايا للآلحة فيهم إليه ، وتدل الدلائل الواضحة في أوليئهم عليه ، صلوات الله وبركاته عليه .

[أولاد نزار بن معد]

فولد نزارُ بنُ مُعَدٍّ مَضْرُورِيمةً وأنماراً وإياداً ، وإليه دفع أبوه حِجَابَةَ السَكْمِيَّةِ فيما ذكر .

وأهمهم سَوْدَةُ بنتُ هَلَكَّ بنِ عدنان .

وقيل هي أم مَضْرُورِيمة ، وأم إخوته الثلاثة أختها شقيقة ابنة هَلَكَّ بنِ عدنان .

وقد قيل : إن إياداً شقيق مَضْرُورِيمة ، أمهما مَكَا سَوْدَةُ .

فأنمار هو أبو بَيْمِلَةَ وَخَثْمُ ، وقد تَيَكَّمَتْ بِبَيْمِلَةَ إِيامَن كان منهم بالشام والمغرب فلنهم على نسبهم إلى أنمار بن نزار .

وجريرُ بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سادات بَيْمِلَةَ وله يقول القائل :

: لولا جريرُ هَلَكْتَ بِبَيْمِلَةَ نعم الفتي وبئست القبيلة

وكذلك تيامنت الدار أيضاً بختهم ، وهم بنو أقتل بن أتمار ، وإنما سُمُّوا
جَبَلٌ تحالفوا عنده فسُخِّوا به ، وهم بالسَّراة على نسبهم إلى أتمار .
وإذا كان بين مضر واليمن فيما هنالك حربٌ ، كانت سَخْتهم مع اليمن
على مضر .

* * *

ويروى أن زياراً لما حضرته الوفاة ، قَسَمَ ماله بين بنيه الأربع ، مُضَرَ وربِيعَةَ
وإِلَادٍ وَأَتَمَارٍ .

فقال : هذه القَبَةُ — لقبَةُ كانت له حواء من آدم — وما أشبهها من المال لمُضَرَ ،
وهذا اخْتَبَاهُ الأسود وما أشبهه لربِيعَةَ . وهذه الخِلاصُ — وكانت شِمْطَاءً — وما أشبهها
لِإِلَادٍ . وهذه البَدْرَةُ والجلِيسُ لِأَتَمَارٍ يجلِسُ فيه .

وقال لهم : إنَّ أشْكَلَ عليكم الأمرُ في ذلك واختلافكم في القسمة ، فماليكم
بالأَفْعَى الجُرْهُمَى . وكان بدجران .

فاختلفوا بعده وأشْكَلَ أمرُ القسمة عليهم ، فتوجهوا إلى الأَنْمَى . فبينما هم في
مسيرهم إليه إذ رأى مُضَرٌ كلاً قَدَرُهم ، فقال : إن البعير الذي رَحمَى هذا لَأَعُورٌ .

فقال ربِيعَةُ : وهو أَزْوََرٌ . وقال إِيَادٌ : وهو أَبْتَرٌ . وقال أتمار : وهو شَرُودٌ .

فلم يسيروا إلا قليلاً ، حتى لقيهم رجلٌ تَوَضَّعَ به راحلته ، فسألهم عن البعير ،
فقال مضر : أهو أَعُورٌ ؟ قال نعم . قال ربِيعَةُ : أهو أَزْوََرٌ ؟ قال : نعم . قال إِيَادٌ :
أهو أَبْتَرٌ ؟ قال نعم . قال أتمار : وهو شَرُودٌ ؟ قال : نعم ، هذه والله صفة بعيري ،
دلوني عليه .

فلحقوا له ما رأوه . فلزمهم وقال : كيف أصدقكم وأنتم تصِفون بعيري بصفته ؟!

فساروا حتى قلعوا نجران ، فزولوا بالأفنى الجرهمي فنأدى صاحب البهر يقول :
بميرى ، وصفوا لى صفته ، ثم قالوا : لم تره !

فقال لهم الأفنى : كيف وصفتموه ، ولم تروه ؟

فقال له مضر : رأيته يرعى جانباً ويدع جانباً فعرفت أنه أخور .

وقال ربيعة : رأيته إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فملت أنه
أفسدها لشدة رطئه لازوره .

وقال إيلاد : عرفت بقره باجتماع بقره ، ولو كان ذنباً لمصع^(١) به .

وقال أنمار : عرفت أنه شرود ، أنه كان يرعى فى للكان للثقف نبتة ، ثم
يمجوزه إلى مكان أرق منه وأخيث .

قال الشيخ : ليسوا بأصحاب بميرك ، فاطلبه .

ثم سأله من هم ؟

فأخبروه ، فرحب بهم وقال : تحتاجون إلى وأتم كما أرى !

فدعاهم بطعام ، فأكلوا وشربوا وشربوا .

فقال مضر : لم أر كال يوم خيراً أجود لولا أنها نبتت على قبر .

وقال ربيعة : لما أر كال يوم لحا أطيب لولا أنه رُبى بالين كلبة .

وقال إيلاد : لم أر كال يوم رجلاً سرفى^(٢) لولا أنه ليس لأبيه الذى يُدعى له .

وقال أنمار : لم أر كال يوم كلاماً أنفع فى حاجتنا .

وسمع صاحبهم كلامهم ، فقال : ما هؤلاء ؟ ! إنهم لشياطين .

(١) مصمت الدابة يذبها حركته وضربت به .

(٢) ط : أسرى .

. ثم أتى أمه ، فسألسا ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يؤتد له ، فكرهت أن يذهب الملك ، فأمكنّت رجلا نزل بهم من نفسها ، فوطئها ، فجات به .

وقال للقهرمان : الخمر التي^(١) شربناها ما أمرها ؟

قال : من حُبلة^(٢) غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعي عن اللحم ، فقال : شاة أرضعناها من ابن كذبة ، ولم يكن وُجد في الضم غيرها .

فأتاهم ، فقال : قُصُّوا على قصتكم .

فقصّوا عليه ما أوصى به أبوم ، وما كان من اختلافهم .

فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر .

فصارت إليه الدنانير والإبل ، وهي مُخر ، فسميت مُضَرُّ الخُمَرَاء .

قال : وما أشبه الخيل السوداء من دابة ومال فهو لربيعة .

فصارت له الخيل ، وهي دُهم ، فسمي ربيعة القَرَس .

قال : وما أشبه الخادم ، وكانت شحطاء ، من مال فيه بقاء ، فهو لإياد .

فصارت له المشاة الباق .

وقضى لأنمار بالدرهم والأرض .

فساروا من عنده على ذلك .

وكان يقال : مضر ورببيعة هما المرعمان من ولد إسماعيل .

(١) الأصول : الذي

(٢) الحيلة : السكرة

وروى ميمون بن مهران ، عن عبد الله بن العباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبوا مضرَ وربيعةَ فإنهما كانا مسلمين .
وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « إذا اختلف الناس فالحق مع مُضر » .

وسمع عليه الصلاة والسلام قائلًا يقول :
إني امرؤٌ جعيرٌ حين تَنسُبني لا مِن ربيعةَ آباءِي ولا مُضرًا
فقال صلى الله عليه وسلم : ذلك أهد لك من الله ومن رسوله .

وعما يؤثر من حكم مُضر بن نزار ووصاياه : من يزرع شرًا يحصد ندامة ،
وخير الخبير أخضله ، فاحملوا أنفسكم على مكروها فيها أصلحكم ، واصرفوها
عن هواها فيها أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فَوَاقٍ^(١) .

[أولاد مضر]

فولَدَ مُضرُ بن نزار رجلين : ألياس بن مضر ، وهَيْلان^(٢) بن مضر .
قال الزبير : وأمهما الخنفاء بنت إداد بن معد .
وقال ابن هشام : أمهما جرهمية .

ولما أدرك ألياس بن مضر ، أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن
آبائهم وسيرتهم^(٣) ، وبأن فضله عليهم ولأن جانيبه لهم ، حتى جمعهم رأيه ،
ورضوا به رِضًا لم يرضوه بأحد من ولد إسماعيل بعد أدد^(٤) .

(١) الفواق : هو الوقت بين الحلبتين .

(٢) حاشي ١ : قال بعضهم : ليس في كلام العرب هيلان بالمهجمة إلا هذا .

(٣) ط : وسيرهم .

(٤) كلفا في ط . وبقيّة الأصول : بعده . وأدد من أولاد إسماعيل .

فردُّهم إلى سُنن آبائهم ، حتى رجعت سُنَّتُهم قائمة على أولها .
وهو أول من أهدى البُذُن إلى البيت ، أو في زمانه .
وأول من وضع الركن للناس بعد هلاكه ، حين غرق البيت وانهدم زمن
نوح عليه السلام .
فكان أول من سقط عليه ألياس ، أو في زمانه ، فوضعه في زاوية
البيت للناس .

ومن الناس من يقول : إنما هلك الركن بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام ، وهو الأشبه ، إن شاء الله .
ولم تبرح العرب تعظم ألياس بن مضر تعظيم أهل الحسكة ، كلقمان وأشباهه .

[أولاد ألياس بن مضر]

فولد ألياس بن مضر ثلاثة نفر : مُدْرِكة ، وطابخة ، وقمعة .
وأُمهم خندِف بنت حُلوان بن حمران بن الحاف بن قُصاعة ، واسمها ليلي ،
واسم مدركة عامر ، واسم طابخة عمرو ، واسم قعة عُمر .
وإنما حالت أسماءهم إلى الذي ذكرنا أولاً عنهم ، فيما ذكروا ، أن أربنا
أنفرت إبل ألياس بن مُضَرَ ، فصاح ببنيه هؤلاء أن يطلبوا الإبل والأرنب .
فأما حمير فأطلع من المظلة ثم قمع . فسمى قمعة .

وخرج عامر وعمر في آثار الإبل ، وخرجت أمهم ليلي تسمى خلفهم .
فقال لها زوجها ألياس : أين تخندين ؟ أي أين تسمين . فسميت خندِف .
ومرَّ عامر وعمر وبطحي ، فرماه عمرو فقتله ، ويقال : بل رمى الأرنب . التي

أنفرت الإبل ، فقال له عامر : اطبخ صيدك ، وأنا أكفيك الإبل . فطبخ عمرو ، فسمى طائخة .

وأدرك الإبل عامر ، فسمى مذكرك .

واشتهر بنو خندف هؤلاء بأسمهم خندف للذى سار من فملها في الناس . وذلك أنه لما مرض زوجها ألياس وجدت لذلك وجداً شديداً ، ونفرت إن هلك ألا تقيم في بلد مات فيه ، ولا يُظلمها بيتٌ بمذمة ، وأن تسمع في الأرض . وحرمتم الرجال والطيب .

فلما هلك ألياس خرجت سائمة في الأرض حتى هلكت حزناً .

وكانت وفاته يوم الخميس ، فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم تبكيه حتى تنفب ، فعمارت خندف وما صنعت هجياً في الناس ، يتحدثون به ويذكرونه في أشعارهم .

فقبل لرجل من إداد ، أو همدان ، وقد هلك امرأته : ألا تبكي عليها ؟

فقال : لو كان ذلك يردها لفعلتُ كما فعلت خندف على ألياس .

ثم اندفع يقول :

فلو أنه يُنفى بكيتُ كخندفٍ على ألياس حتى ملها الشرُّ تذبُّ
إذا مؤنسٌ لاحت خراطيمُ شمسهِ بكيتُ غدوةً حتى ترى الشمس تقربُ
ولم تر عينها سوى الدفنِ قبرهِ فساحت وما تدرى إلى أين تذهبُ
فلم يُفني شيئاً طولُ ما بلغتُ به وما طلها دهرٌ وعيشٌ معذبٌ

وفقدت امرأةً من عسان أخاها ثم أباه ، فسكت دهرًا تبكي عليهما ، فهاها قومها ، فقالت :

تَلْحُونُ سَلَىٰ أَنْ بَكْتُ أَهَامَا
 وَقِيلُ مَا قَدْ تَكَلَّمْتُ أَخَامَا
 غَوَّوْا التَّذُلَ إِلَى سَوَامَا
 عَصَيْكُمْ سَلَىٰ إِلَى هَوَامَا
 كَمَا عَصَتْ خَيْدَفُ مَنْ نَهَامَا
 خَلَّتْ بَيْنَهَا أَسْفَا وَرَاهَامَا
 نَهَكَ عَلَى الْيَاسِ فَمَا أَتَاهَا

[أولاد مُدْرَكَة]

فولَد مُدْرَكَة بَنُ الْيَاسِ نَفَرًا^(١) ، مِنْهُمْ خُزَيْمَة بَنُ مُدْرَكَة ، وَهَذَيْلُ بَنُ مُدْرَكَة .

وَأَمُّهَا امْرَأَةٌ مِنْ قُضَاعَة ، قِيلَ هِيَ سَلَىٰ بِنْتُ سُؤَيْدٍ^(٢) بَنُ أَسْلَمَ بَنِ الْخَلَفِ بَنِ قُضَاعَة . وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

[أولاد خُزَيْمَة]

فولَد خُزَيْمَة بَنُ مُدْرَكَة كِنَانَة وَأَسَدًا وَأَسَدَةً وَالْهَوْن .

وَأُمُّ كِنَانَة اسْمُهَا^(٣) عَوَانَة بِنْتُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ حَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ . وَقِيلَ هَدَدُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ قَيْسِ بْنِ حَيْلَانَ . قَرَأَتْهُ بِحُطِّ أَحَدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ جَابِر .

(١) ابن هشام : رجلين خزيمة ...

(٢) ط : بنت سود .

(٣) ط : وأم كنانة منهم عوانة .

وأم سائر بنيهِ بَرَّة بنت مُرّ أخت تميم بن مُرّ بن طابخة .

[أولاد كِنانة]

فولد كِنانة بن خُزَيْمة جماعة منهم : النُّضْر ، وبه كان يُسَمَّى ، ونُضَيْر ، ومالك ، وملكان ، وعرو ، وعامر . وأُمهم بَرَّة بنت مُرّ ، خالف عليها كِنانة بعد أبيه خُزَيْمة ، على ما كانت الجاهلية تفعله ، إذا مات الرجل خالف على زوجته بمده أكبرُ بنيهِ من غيرها . فنهى الله عن ذلك بقوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ^(١) » .

ويقال إن برة هذه ، لما أهديت أولاداً إلى خزيمة بن مدركة ، قالت له : إني رأيت في المنام كائناً ولدت غلامين من خلافٍ بينهما سائياً ^(٢) ، فبينما أنا أنامهما إذا أحدهما أسد يزأر وإذا الآخر قر يدير .

فأتى خزيمة كاهنةً بتهامة ، فقص عليها الرؤيا ، فقالت لئن صدقت رؤياها لقلدنك منك غلاماً يكون لولده قلوبٌ بأسلةً ، ثم لتموتنَّ هما فيخاف عليها ابنك ، فقلد منه غلاماً يكون لولده عزٌّ وعدد وقروم تجدد وعز إلى آخر الأبد .

ثم توفي خزيمة ، فخلف عليها كِنانة بعد أبيه ، فولدت له النضر وإخوانه .

وإنما سُمي النُّضْر ، لنضارة وجهه وجماله .

وأتى أبوه كِنانةُ بن خزيمة وهو نائم في الحِجْر ، فقبول له : تخذِر يا أبا النضر بين العَمَل والمُدْر وعارة الجُدْر وهز الدهر .

فقال : كلُّ يارب .

(٢) السائيا : للشيمة التي تخرج مع الولد .

(١) سورة النساء ٥٢ .

فصار هذا كله في قریش .

والنَّضْر هو جماع قریش في قول طائفة من أهل العلم بالنسب ، والأكثر على أن فِهر بن مالك بن النَّضْر هو قریش .

من كان من ولده فهو قُرَشِي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقُرَشِي .
وذكر الزبير أن هذا هو رأى كل من أدرك من نُسَاب قریش .

[أولاد النَّضْر بن كِفَاة]

فولد النَّضْر بن كِفَاة مالكاً ، ويَحْمَد ، والعَصَلْت ^(١) .

فولد مالك فِهر بن مالك . وأمه جَنْدَلَة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن
سميد بن الحارث بن مُضَاكُس الجُرُهمي . وهو جماع قریش عند الأكثر .

قال الزبير : قد اجتمع النُّسَابُ من قریش وغيرهم أن قریشاً إنما تفرقت من
فِهر . ويقال : إن قریشاً هو اسمه الذي سُمِّيَ به أمه ، ولقبه فِهرأ .

[أولاد فِهر بن مالك]

فولد فِهر بن مالك غالباً ومُحَارِباً والحارث وأسداً ، وأختهم جَنْدَلَة . وأم
جميعهم ليل بنت سمد بن هُذَيْل بن مُدْرَكَة .

ولما حضرت الوفاة فِهر بن مالك ، قال لابنه غالب : يا بني ، إن في الحُزْن ^(٢)
إفلاق النفوس قَبِيل للمصائب ، فإذا وقعت المصيبة برَّد حرها ، وإنما التاق في
غَلَباتها ، فإذا أُنْمِت فَبَرَّد حر مصيبتك بما ترى من وقع اللية أمانتك وخلفك ،

(١) لم يذكره ابن هشام والمصنف على الأولين .

(٢) ط : المنذر .

وعن يمينك وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها في محبي الحياة ، ثم انصرف على قليلك ، وإن قات منفعتك ، فقليل ما في يدك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك .

[أولاد غالب بن فهر]

فولّد غالب بن فهر لؤيّاً وتَيْمَناً^(١) ، وهو الأذرم ، كان مقصود الدين .
ويقال لقومه بنو الأذرم .

وأهم ما في قول ابن اسحق ، سلى بنت عمرو الخزامي .
وفي قول الزبير عاتكة بنت يثمد بن الغضير .

وروي أن لؤيّ بن غالب قال لأبيه ، وهو غلام حديث : يا أبت ، من ربّ معروفة قلّ إخاله ، وتضرّ ماؤه . ومن أخلقه أخله ، وإذا أخل^(٢) الشيء لم يذكّر ، وعلى المولى تسكيره صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغيره كبيره وسنّره .

فقال له أبوه غالب : إني لأستدلّ بما أسمع من قولك هل فضلك ، وأستدعي لك به الطول على قومك ، فإن ظفرت بطولك فعدّ على قومك بفضلك ، وكفّ غرّب جهلهم بجهلك ، وأمّ شعثهم برفقك ، فإنما تفضّل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قابسها على أوزانها أسقط الفضل ولم تنل به درجة على أحد ، وللعلماء فضل أبداً على السفلي .

[أولاد لؤيّ بن غالب]

فولّد لؤيّ بن غالب كعباً ، وعامراً ، وسامة ، وعوفاً ، وسعداً ، وخزيمة^(٣) .

(١) زاد ابن هشام : وقيل بن غالب وأمه سلى بنت كعب بن عمرو الخزامي .

(٢) ط : وإذا أخلق .

(٣) قال ابن هشام : ويقال : والحارث بن لؤيّ .

فدخل بنو خزاعة في شيبان ، ويسمون فيهم بمائذة ، وهى امرأة من الين ، كانت أم بنى عبيد بن خزيمة فَنُسبوا إليها .

وكذلك دخل بنو سمد أيضاً في شيبان ، ويسمّون فيهم بِبُنانة حاضنة كانت لهم من قُضاعة ، وقيل من الذير بن قاسط ، فَنُسبوا إليها .

وأما سامة بن لؤمى ، نفرج إلى مُحان ، ويزعمون أن عامر بن أوى أخرجه .

وذلك أنه كان بينهما شىء ، ففقا سامة حينَ عامر ، فأخافه عامر ، ففرج إلى مُحان .

فيُزعمون أن سامة بن لؤمى بينا هو يسير على ناقه ، إذ وضعت رأسها ترتفع ، فأخذت حية بمشقرها ، فهصرتها حتى وقعت الناقة لشِقها ، ثم نهشت ساقه^(١) فقتلته . فقال سامة حين أحس بالموت ، فيا يزعمون :

عَيْنُ فَاهِكى لِسَامَةَ بْنِ لُؤْمَى حَلَقَتْ مَا بِسَامَةَ^(٢) الْعِلَاقَةُ
لَا أَرَى مِثْلَ سَامَةَ بْنِ لُؤْمَى يَوْمَ حَلَّوْا بِهِ قَتِيلًا لِفَاقَةُ
بَلَقًا عَامِرًا وَكَبًّا رَسُولًا أَنْ نَفْسَى إِلَيْهِمَا مَشَاعَةُ
إِنْ تَسْكُنَ فِي مُحَانَ دَارِى فِإِنِى ظَالِمٌ^(٣) خَرَجْتُ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ^(٤)
رُبُّ كَأْسٍ هَرَقَتْ لِابْنِ لُؤْمَى حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَسْكُنْ مُهْرَاقَةً
رُمْتُ دَفْعَ الْخُتُوفِ لِابْنِ لُؤْمَى مَا لَمْ رَامَ ذَلِكَ بِالْحَقِّ طَاقَةً
وَحُرُوسِ السَّرَى^(٥) تَرَكْتُ رَدِيًّا بَعْدَ جِدَّةٍ وَجِدَّةٍ وَرَشَاقَةٍ

(١) ابن هشام : سامة .

(٢) الأغاني : علقت ساق سامة .

(٣) ابن هشام : من غير ناقة ، وما هنا أصح .

(٤) خروس السرى : ناقة سموت صابرة .

قال ابن هشام : وبلغني أن بعض وفد أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فانتسب إلى سامة بن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشأه ؟ فقال له
بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

رُبَّ كَاسٍ هَرَقَتْ يَابْنَ لُؤَيٍّ حَسْرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مَهْرَاقَهُ
قال : أجل .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي ، فإنه خرج فيا يزعمون في ركب من
قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن قِيلان أبيه به ،
فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد^(١) بن ذُبْيَان بن بغيض
ابن رَبِيع بن غطفان ، فخبسه والتاعاه وآخاه وزوجه ، فانسب بذلك المؤاخاة إلى
سعد بن ذُبْيَان أبي ثعلبة .

وثعلبة ، يزعمون ، هو القاتل له :

احبسْ عليَّ ابنَ لُؤَيٍّ بَحْلَكَ
تَرَكَكَ الْقَوْمُ وَلَا مَوْلَى لَكَ^(٢)

ويروى أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : لو كنتُ مُدْعِيًا حَيًّا من
العرب أو مُلْحِقِمًا بنا لا دُهِيتُ بني مُرَّة بن عوف ، إنا لنعرف منهم الأشباه مع
ما نعرف من مَوَاقِع ذلك الرجل حيث وقع . يعني عوف بن لؤي .

(١) ابن هشام ، وهو أخوه في سب بني ديان .

(٢) ابن هشام ولا مولى .

وهو في نسب غطفان مرة بن عوف بن سعد بن ذُبْيَان ، وهم يقولون إذا ذكر لهم هذا النسب : ما نذكره ولا نجاهده ، وإنه لأحبُّ النسب إلينا .

وقيل : إن امر بن الخطاب قال لرجال من بني مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجموا إليه . وكان القوم أشرفا في غطفان هم ساداتهم وقادتهم ، منهم هَرَم بن سِفَان بن أبي حارثة ، وأخوه خارجة بن سِفَان ، والحارث بن عوف ، والحَصَيْن بن الحُمَام ، وهشام بن حرملة ، قوم لهم صيت وذِكْرٌ في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم .

على أن الحَصَيْن بن الحُمَام قد تحوّر في هذا واختلف رأيه ، فلما سمع قولَ الحارث بن ظالم ، أحد بني مُرَّة بن عوف ، حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش :

وما (١) قَوِيَّ بِشُعْلَبَةَ بْنِ سَعْدٍ وَلَا بِفَزَارَةَ الشُّعْرِ (٢) الرقابا
فَقَوِيَّ (٣) إِنْ سَأَلْتَ بَنُو لُؤَيٍّ بِمَكَّةَ عَلِمُوا مُضَرَ الضَّرَابَا
سَفِينًا بِاتِّبَاعِ بَنِي بَغِيضٍ وَتَرَكِ الْأَفْرِينَ لِمَا انْتَسَابَا
سَفَاهَةً تُخْلِفُ لِمَا تَرَوِي هَرَاقَ الْمَاءِ وَاتَّبَعَ السَّرَابَا
فَلَوْ طَوَّهْتُ تَهْرُوكَ كُنْتُ مِنْهُمْ وَمَا أَلْقَيْتُ اتِّجَعُ السَّحَابَا

قال الحَصَيْن بن الحُمَام يردُّ عليه وينتسب إلى غطفان :

أَلَا لَسْتُمْ مَنَا وَلَسْنَا إِلَيْكُمْ بَرْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ لُؤَيٍّ بَنِ غَالِبِ

(١) ابن هشام : فا .

(٢) الشعير : جمع أهر ، وهو الكثير الشعر .

(٣) ابن هشام : وقوى .

أَقَمْنَا عَلَى عِزِّ الْحِجَازِ^(١) وَأَتَمُّ بِمُتَلَجِّ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

يعنى قريشاً

ثم نديم الحُصَيْنِ عَلَى مَا قَالَ ، وَهَرَفَ صَدَقَ الْحَارِثُ^(٢) ، فَأَكْذَبَ
نَفْسَهُ وَقَالَ :

نَدِمْتُ عَلَى قَوْلٍ مَضَى كُنْتُ قُلْتُهُ تَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ^(٣)

فَلَيْتَ لِي إِنِّي كَانُ نَصِيفٍ مِنْهَا

بِكَيْمٍ وَنِصْفٌ عِنْدَ تَجَرِّى الْكَوَاكِبِ

أَبُونَا كَيْفَانِي* بَكَّةَ قَبْرُهُ بِمُتَلَجِّ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

لَنَا الزُّنْبُعُ مِنْ بَيْتِ الْحَرَامِ وَرِثَاةٌ وَدُبُعُ الْبَطْحَاءِ عِنْدَ دَارِ ابْنِ حَاطِبٍ

يعنى أن بنى لؤى كانوا أربعة ، كعباً ، وطامراً ، وسامة ، وهوقاً .

[الْهَيْلُ]

وَفِي بَنِي مُرَّةَ بْنِ هَوَفٍ كَانَ الْهَيْلُ^(٤) ، وَذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ حُرُمٌ لَهُمْ مِنْ كُلِّ
سَفَةِ مِنْ بَنِي الْعَرَبِ ، يَسِيرُونَ بِهِ إِلَى أَى بِلَادِ الْعَرَبِ شَاءُوا ، وَلَا يَخَافُونَ مِنْهُمْ
شَيْئاً ، قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ لَهُمْ لَا يَدْفَعُونَهُ وَلَا يُفَكِّرُونَهُ .

وَكَانَ سَأَرُ الْعَرَبِ إِذَا تَأَمَّنُوا فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الْأَرْبَعَةِ فَقَطْ .

(١) ط : هَرِ الْحِجَازِ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : وَهَرَفَ مَا قَالَ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ فَأَقْبَضَ إِلَى قَرِيشٍ وَأَكْذَبَ لِنَفْسِهِ .

(٣) ط : أَنَّهُ جَدُّ كَاذِبٍ .

(٤) الْهَيْلُ : الْحَرَامُ وَالْحِلَالُ ، ضِدُّ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ .

وذكر الزبير عن أبي عبيد ، أنه كانت لقريش في هذا مزية على سائر العرب قاطبة ، وذلك أن العربي لم يكن ليخرج من داره في غير الأشهر الحرم إلا في جماعة ، وكان القرشي يخرج حيث شاء أتى شاء ، فيقال : رجل من أهل الله فلا يمرض له عارض ، ولا يرميه أحد بمكرهه ، ويعظمه من لقيه أو ورد عليه ، ولذلك قال من قال منهم : القرشي بكل بلد حرام .

* * *

وأما كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، فهما أهل الحرم ومصرح ولدي لؤي .
وكان كعب منها عظيم القدر في العرب ، وأرخوا بموته إعظاما له ، إلى أن كان عام الفيل فآرخوا به .

وكان بين موته والفيل ، فيا ذكروا ، خمسمائة وعشرون سنة . وكان يوم الجمعة يسمى العروبة ، فسماه كعب الجمعة لاجتماع قومه فيه يخطبهم ويذكّرهم .

فيقول فيا يقول :

أيها الناس اسمعوا وعلّوا ، وافهموا وتعلّوا ، ليل ساجٍ ونهار ضاحٍ ، والجماد بقاء ، والأرض سهاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثا فتضربوا عن أمرها صفحا ، الآخرون كالذولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير غلجكم ، صلبوا أرحامكم ، واحفظوا أسفاركم ، وأوفوا بعهديكم ، وثمّروا أموالكم ، فلنّها قوام مروءاتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظّموا هذا الحرم وتمسكوا به فسيكون له نبأ عظيم ، وسيخرج نبي كريم .

ثم ينشد أبياتا منها :

صُروفٌ وأنباءٌ تقلّبُ أهلها لما عُدّةٌ ما يستحيل مريرها

على غفلة يأتى النبي محمد فيخبر أخباراً صدق خيرها

ثم يقول :

يا ليتنى شاهدتُ فتحوا دعوته حين المشيرة تبهى الحق خذلانا
أما والله لو كنتُ ذا سمع وبصر ويد رجل لتعصبتُ فيها تنصب الفحل ،
ولأزفقتُ فيها إرقال الجمل ، فرحاً بدعوته جذلاً بصرخته .

[أولاد كمب بن لؤى]

فولدت كمب بن لؤى مَرَّةً ، وهُصَيْصَا ، وهَدِيَا .

وأُمهم وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك .
وقيل إن أم عدي وحمه امرأة من فهر ، وهى حبيبة بنت بجالة بن سعد بن
قيس بن عيلان بن مضر بن نزار .

فولدت مرة بن كمب كَلَابَا ، وَتَيْمَا ، وَبَقْلَةَ .

فولدت كلاب رجلين : قُصَيَّا وزُهْرَةَ . وأُمهما فاطمة بنت سعد بن سَيْل ، أحدُ
الجدَّة من جُثْمَةَ^(١) الأزْد من المين ، حلفاء فى بنى الدَّيْل بن بكر بن هبذ مناة
ابن كنانة ، ويقال جُثْمَةُ^(١) الأسد .

واسم سَيْل خير ، وإنما سُمى سَيْلًا لطوله . وسيل اسم جبل .

وهو خير بن حِجَالَةَ بن عوف بن غنم بن هاجر الجادر ، بن عمرو بن جُثْمَةَ^(١)
ابن يَشْكُر ، بن مُبَشَّر ، بن صعب بن دُهْمَان ، بن نصر ، بن الأزْد .

(١) الأصول : من خُثْمَةِ الأسد والتصويب من ابن هشام والسهيل .

وُثِّمِي عامرَ الجادرَ لأنه بنى جداراً للكعبة ، كان وَثَمِي مِنْ سَيِّلِ أُنَى أَيَّامِ
وِلَايَةِ جُرْهُمِ الْبَيْتِ .

وكان عامر تزوج منهم بنتَ الحارث بن مُضاض ، وقول لولده الجَدْرَةَ لذلك .
وذكر الشرق بن القطامي ، أن الحاجَّ كانوا يتمسحون بالسكبة ويأخذون
من طينها وحجارتها تبركا بذلك ، وأن عامراً هذا كان مُوكِلاً بإصلاح ماشعث من
جُدُرِهَا ، فَسَمَّى الْجَادِرَ . والله أعلم .

وسعدُ بن سَيِّلِ جَدُّ قُصَيِّ بنِ كِلَابٍ ، هو أولُ من حَلَّى السيفَ بالفضة
والذهب ، وأهدى إلى كِلَابٍ بنِ مُرَّةٍ مع ابنته فاطمة سيفين مُحَكَّيْنِ ، فجُمِلَا في
خِزَانَةِ الْكَعْبَةِ .

وقصى هو الذى جمع الله به قريشاً ، وكان اسمه زيداً ، فسَمَّى مجْمَعاً لِمَا جَمَعَ
مِنْ أَمْرَاهَا . وسَمَّى قَصِيماً لِتَقْصِيهِهِ عَنْ بِلَادِ قَوْمِهِ مَعَ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ
كِلَابِ بنِ مُرَّةٍ .

وحديثه في ذلك طويل ، وسنذكره إن شاء الله عند ذكر ولايته البيت ،
وهناك لذكر مآثره وعظم خَنَسَائِهِ فِي إِقَامَةِ أَمْرِ قَوْمِهِ ، إن شاء الله ، فإن
القصدَ هنا الإيجاز ما أمكن في إيراد هذا النسب المبارك ، لتحصيل لسامعه
الفائدة بانتظامه واتصاله ، ولا يضل ذلك عليه بما تخلل أنفاده من القواطع
التي تُبَاكِدُ بَيْنَ أَطْرَافِهِ .

فولَدَ قُصَيُّ بنُ كِلَابٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَأَمْرَاتَيْنِ .

عَبْدَ مَعَاذٍ ، وَعَبْدَ الدَّارِ ، وَعَبْدَ الْمُزَيِّ ، وَعَبْدُكَا ، وَتَغْمُرَ ، وَبَرَّةَ .

وَأَسْمَهُمْ جَمِيعًا حُجَيُّ بِنْتُ حَلِيلِ بْنِ حَبِشَةَ^(١) بْنِ سَلُولَ بْنِ كَعْبِ بْنِ
هَمْرٍو أَخْزَأَى .

وسادَ عَهْدُ مَنْفَافٍ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ ، وَكَانَ مَطَاعًا فِي قَرِيشٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى
الْقَمَرُ الْجَلَالُ ، وَاسْمُهُ الْمَذْيَرَةُ .

ذَكَرَ الزُّبَيْرُ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ ، أَنَّهُ وَجَدَ كِتَابًا فِي حَجَرٍ ، فِيهِ : أَنَا الْمَذْيَرَةُ
ابْنُ قِصَى ، أَمَرْتُ بِقَوَى اللَّهِ وَصَلَةَ الرَّحِمِ .

وَأَيُّهُ عَنِ الْقَائِلِ بِقَوْلِهِ :

كَانَتْ قَرِيشٌ بَيْضَةً فَتَنَلَقْتُ فَالْمُحُ خَالِعُكُمْ لِعَهْدِ مَنْفَافٍ

[أَوْلَادُ عَهْدِ مَنْفَافٍ]

فَوَلَدَ عَهْدُ مَنْفَافٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ : هَاشِمًا ، وَعَهْدُ شَمْسٍ ، وَالْقَلْبَلُ ، وَنُوفَلًا .

وَكُلُّهُمْ لِمَنْسَكَةَ بِنْتِ مَرَّةَ بْنِ هَلَالِ بْنِ فَالِجٍ ، بْنِ ذَكْوَانَ ، بْنِ ثَعْلَبَةَ ،
ابْنِ مُهَيْثَةَ ، بْنِ سُلَيْمٍ ، بْنِ مَنصُورٍ ، بْنِ هِكْرِمَةَ ، بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ
عَيْلَانَ ، بْنِ مُضَرَ .

إِلَّا نُوفَلًا مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ لَوَاقِدَةُ بِنْتِ هَمْرٍو الْمَسَازِينَةِ . مَازَنُ بْنُ مَنصُورٍ
ابْنُ هِكْرِمَةَ .

فَوَلَدَ هَاشِمُ بْنُ عَهْدِ مَنْفَافٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَخَمْسَ نِسْوَةٍ .

(١) وَتَضَبُّطٌ أَيْضًا - كَمَا قَالَ ابْنُ هَشَامٍ - بِهَمْزِ الْمَاءِ وَتَكُونُ الْمَاءُ .
(٣ - الْأَكْثَفَا)

عبد المطلب ، وأسداً ، وأبا صفيق ، ونَضْلَة ، والشَّفاء ، وخالدة ، وضعيفة ،
ورثية ، وحسية .

وأمُّ عبد المطلب بينهم سُلَى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خديش ، بن
عامر بن قُثم بن هدي ، بن النجار .

[أولاد عبد المطلب]

فولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة .

المياس ، وحزمة ، وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف ، والزبير ،
والخارث وهو أكبرهم ، والنجيل ، والمقوم ، وضاراء ، وعبد الدزى أبا هلب ،
وصفية ، وأمُّ حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأزوى ، وبرّة .

فأمُّ عبد الله وأبى طالب وجميع النساء غير صفية ، فاطمة بنت عمرو ، بن هانئ ،
ابن حمران ، بن مخزوم ، بن يَقْظَة ، بن مُرة ، بن كعب ، بن لؤى .

[محمد بن عبد الله]

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين
وسيد الأولين والآخرين ، ونُحْبَة اتلحق أجمعين ، فنسبه صلى الله عليه وسلم
أشرف الأنساب ، وسبَّه إلى الله سبحانه باصطفائه إياه واختياره له أفضل
الأسباب ، وبيتَه في قريش أوسط بيوتها الحَرَمية ، وأعرقُ مُعَادِنها السَّكْرَمية ،
لم تَحُلْ قط مكة مِن سببِهم أو سادات، يكونون خيرَ جِئِلهم ورؤساء قَبِيلهم ،
حتى إذا درجوا تَمَّا قَسَمَؤُم في المجد الصميم ، وشركاؤُم في النسب الكريم
إلى ذلك المقام ، فمرَجُوا فصحبوا على ذلك الزمان .

لوازم كل من ناراهم منصور ، وشؤدد البَطحاء عليهم مقصور ، والعيون اليهم أَيْةً سلكوا صُور^(١) .

ثم أتى الوادى فعلم على القرى ، وشد الله أركانَ مجدهم العريق العتيق بهذا النبي الأُمى ، فاحتازوا المجدَّ من آخره ، وغازوا من شرف الدين والدنيا بما تعجز ألسنة البَنَاء عن أدنى مفاخره .

وأمه صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زُهرة ، ابن كلاب ، قسيمةُ أبيه من هذا الأب ، وكريمة قومها أولى المسكان الديبة والحَسَب .

وحَسَبُها من الشرف المدين والكرم المبين والفقر المسكين غاية التمكن ، أن كانت أُمًّا لتمام النبيين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .

فسكف لها من نصاعة الحَسَبِ الحَسَب ، وعتاقة المَنَسب والمَنسب ، ما يقف عند النطاح ، وتعتز له قريشُ البطاح .



فرسول الله صلوات الله وبركاته عليه ، خيرة الخير من كلاً طرفيه .

وقد اعتنى الناسُ بنسبه السكريم نثرًا ونظمًا ، ونقبوا عن آبائه الأجداد ، وأمهاته الطاهرات اللياليد أبًا فأبًا وأُمًّا فأُمًّا .

فَرَادُوا من ذلك الفخار حسدائق غُلَبًا ، وسادوا من شرف تلك الآثار مَرَاتِي مُعَمًّا .

(١) أى ، مثله . قبله سور كبرج مكي ، وهو أسود .

وقد تقدمت من ذلك مُنبَذٌ مَثْوورة أثناء الكلام ، وسأتى إن شاء الله
مُظْهومةً مع أشكلها ، تفوق المَقْد في النظام ، في قصيدة فريدة مفيدة ،
لأبي هب الله بن أبي الخصال ، خاتمة رؤساء الآداب ، والعلماء المبرزين في هذا
الباب ، تَمَّها معراج المساقب ، ومنهاج الحَسَب الثاقب ، في ذكر نسب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ومناقب أصحابه ، قرأتها على شيخنا
الخطيب أبي القاسم بن حَبِيش ، وقد رأيت أن أُورِدَ منها هنا ما يختص بهذا
النسب الكريم على اختصار ، يفي إن شاء الله بالفرض المَرُوم ، إذ الكلام
المنظوم اغْذَبُ جَزِيًّا على الألسن وأغْذَبُ رَأْيًا في الإفادة بالمستحسن .

وأولها :

إليكَ فَهْمِي والفِئْرَادُ بِقُرْبِ وإن عاتَى عن مُطْلَعِ الوحي مُتَقَرِّبِ
أَعْلَلُ بِالْأَمَالِ نَفْسًا أَغْرُهَا بتقديم غَالِي وتَأْخِرُ مَذْهَبِي
وَدَيْنِي عَلَى الْأَمَامِ زَوْزَةَ أَحْمَدِ فهل يَقْضِي دَيْنِي وَيَقْرُبُ مُطَالِي
وَهَلْ أُرِدُنْ فَضْلَ الرَّسُولِ بِطَيْبَةٍ فَيَا بَرْدَ أَحْشَائِي وَيَا عَلِيبَ مَشْرِبِي
وَهَلْ فَضَّلْتُ مِنْ مَرْكَبِ الْعَمْرِ فَضْلَةً

فُهَلْ لِقْنِي أَمْ لَا بِلَاغَ لِيَرْكَبِي ؟
أَلَا لَيْتَ زَادِي شَرِبَةً مِنْ مِيَاهِهَا وهل مِثْلُهَا رَيْبًا لِنُفْلَةٍ مُذْنَبِ
وَيَا لِقْنِي فِيهَا إِلَى اللَّهِ صَائِرٌ وقلبي عن ^(١) الْإِيمَانِ غَيْرُ مُقَلَّبِ
وإن امرأً وارى البقيعُ عِظَاتِهِ لَقِي زُمَرَةً تُنَاقِي بِسَهْلٍ وَمَرْحَبِ
وَفِي ذِمَّةٍ مِنْ خَيْرٍ مِنْ وَطْنِ الْبَرَى وَمَنْ يَمُتْلِقُهُ حَبْلُهُ لَا يُعْذَبِ

ومالى لا أشرى الجنان بزمّة
وماذا الذى يذنى عنانى وإنى
أفقر ؟ فنى كفى لله نعمّة
وقد مرّنت نفسى على الهنيد وانطوت
وكم غربة فى غير حق قطعتها
وكم فاز دونى بالذى رُمْتُ فائز
أراه وأهوى فيملة البرّ فاعدا
أمانى قد أفنى الشباب انظارها
وقد كنت أشرى فى الظلام بأدم
فن لى وأنى لى بريح تحطى
إلى الماشى الأبطى محمدي
إلى صنوة الله الأسين لونه
إلى ابن الدّيعين الذى صبغ تجده
إلى المتقى من عهد آدم فى القرى
إلى من تولى الله تعلم يد يده
لجاء برىء العرض من كل وضمة
فا شئت من أمّ حصّان ومن أب
كرّض الرّهبان كالشمس فى رواق الضّى
كناشء ماء الدّزن^(١) قبل التعويذ

(١) السبب : اللقاة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٢) تلب : أشم .

(٣) الميس - بكسر الميم : الأصل ، والمؤشب : المخطوط .

(٤) ب : السحب .

عليه من الرحمن عين كلابه
إذا أعرضت أعرافه غن قبيلة
وما عبرت إلا على مسلك الهدى
قمن مثل عهد الله خير لوائه
إذا اتصلت بجاءتك أولاد زهرة
ولا خال إلا دون سعد بن مالك
ومن ذاك جد كشيبة ذي الندى
له سودد البطحاء خير مدافع
أبو الحارث السامي إلى كل ذروة
به وبما في برده من أمانة
وأهلك بالطير الأبايل جمعهم
وفيما رآه شيبة الحمد آية
وفي مره عند القداح مرواحا
وما زال يزي والمهام نصيبه
وكانوا أناسا كلا أمهم أذى
وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا
وصرو للمبالي هاشم وثريها
بمثنى جنان كالجواب مضيعة
هو السيد المنبوع والقمر الذي
بقي الله للإسلام هزا بعمره

تجئبه إلى السلام كل مجئبه
فما أعرضت إلا لأمر مغئبه
ولا عثرت إلا على كل طئبه
وأمة في خير صنه (١) ومنعيب
كأشد الشرى من كل أشوس أغلب
ولو كان في عليا معدة ويمرئ
وساق الحبيج بين شرق ومغرب
وحومة ما بين (٢) الصفا والمغص
يقصر عن إدراكها كل كوكب
حتى الله ذاك البيت من كل رهيب
فيا لهم من عارض غير خلب (٣)
تلوح لسين الدائر الممجب
ومن يرم بين العين والأنف يرهيب
إلى أن وقته الكوم (٤) من نسلي أرحب
تكشف عن صنم من الله معجب
وإن أصبحوا في منزل غير مخصب
بحكمة يدعو كل أغبر مجذب
مليح عبيط السام المرهب
على صفحته في الرضا ماه مذهب
إلى منتهى الأحياء من آل يثرب

(١) الضن : الأصل .

(٢) ت : حرمة .

(٣) الحلب . المطبع الخلف . (٤) الكوم : جمع كوما وهو الناقة الظليمة السام

وعهدُ منافٍ دوحةُ الشرف التي
مُطاعُ قريشٍ والكفيلُ بمنزمتها^(١)
وزيدٌ ومن زيدٌ أفعى بن مجيع
به اجتمعت أحياءُ نهرٍ وأحرزتُ
وأصبح حكمُ الله في آل بيتِهِ
وما أسلفته عن تراخ^(٢) خزاعةُ
ولا ذتُ قريشٍ من كلاب بن مرةٍ
ومرةٌ ذو نفسٍ لدى الحرب مُرّةٍ
وكعبٌ عقيدُ الجود والحلم والنهي
خطيبُ لؤمى^(٣) واللاء بكفه
وأولُ من سُمي العروبةُ جُفعةُ
وأزجُ آلُ الله دهرًا بموته
وأضحى لؤمى^(٤) غالبًا كلَّ ماجدٍ
وفهر^(٥) أبو الأسماء جامعُ قبيلها

تفرّع منها كلُّ أرواحٍ مخرب^(٦)
ومائتها من كلِّ ضيّبٍ ومتهبٍ
سمعتُ وبُلقنا وحسبك فاذهب
تراثَ أبيها دون كلِّ مُذبذبٍ
فهم حوله من سادّين وحجّابٍ
ولكن كما عصّ الهقاء بأجرِيبٍ
بجذلي حكاك^(٧) أو بقذيرٍ مُرجّبٍ^(٨)
وفي السلمِ نفسُ الصرخديّ المذوّب^(٩)
وذو الحِكمِ الفرّ البشرُ بالهي
نُططبة نادرٍ أو نططبة مِقْدَب^(١٠)
وصدرُ أمّا بعدُ، يلحنى ويطنى^(١١)
سليّن سُدَيّ يُتَمِينُ كفّ المحسبِ
ومَن غالبٌ يَتميمه للمجد يُغلبِ
وكاسبها من نغره خيرٌ مكسبِ

(١) المحرب : النفس في الحروب .

(٢) ط ب : يَزها .

(٣) ط : تراش .

(٤) الجذل المحسك ، كعظم ، الذي ينصب في البطن لتحتك به البرق . والمقصود أنه يشتت برأيه ، والندق يفتح الدين النخلة بمداها ، والترجيب : ضم أعناقها إلى سملاتها وشدها بالخيوس لئلا تنقضها الرخ أو وض الشوك حولها لئلا يصل إليها آكل ، وفي المثل : أنا جذيلها المحكك وعذيلها الرجيب .

(٥) الصرخدي : الصراب .

(٦) م : مقب . والمقنب : الجماعة من الجيش .

(٧) يلحنى : يلوم ، ويطنى : يستميل .

تقرّض قامتازت قریش بفضله
وغادره اسماً في الكتاب منزلاً
ومالك المزني^(٣) على كل مالك
هو البيت في المهباء والبيت في الندى
تردى بفضفاض على الحمد^(٤) تسجبه
ولنظر يا لنظر^(٥) من كل مشهد
وأعرض^(٥) بهجر من كناية زاجر
وتخبر حكماً في الصهيل أو الزفا
فلم يقتصر واختار كلاً لغازه
له البيت محجوجاً وحرّ مخلد
وخازم آتاف التتاة خزيمه
عظيم استلمى بنت سويد بن أسلم
ومذركه ذو اليمن والنجع عامر
ترامى مطلاً إذ تقمّص صيوة
لأم الجبال الشم والقطر والحصى
والهاس ماوى الناس في كل أزمه
وزاجرهم إذ هدّوا الدين ضلة

وسدّ فسدوا خلة التاوب^(١)
يمر به في آية كل مغرب
فتى النظر حابته السيادة بل حبي
وبذر الداجي حين يسرى ويحتق
وليس عليه ، فليجبر ويشعب
هو الشمس صعد في سناها وصوب
يساق إلى أمواجه كل مذنب
أو البيت أو عز على الدهر مصعب
إلى غاية المز المديد المقيب
وأجرد يثوب إلى جنب أصهب^(٦)
فلاذوا بأخلاق الدلول المنرب
لكل قضاي كريم معصب
وخير مستى في الملا وملقب
فهاز يقدر ظافر لم يحجب
يلجندف إن تستركب الأرض تركب
ومهرهم في كل خوف ومزهب
وأضحوا بلا هاد ولا متحوب^(٧)

(١) مأوه : أمه ليل .

(٢) ت : المبل .

(٣) ١ : الحمد .

(٤) غير ط : ما للنظر ولد سقط هذا البيت من ١ .

(٥) ١ : وأهوس .

(٦) اليسوب : القرس السرم الطويل . والأصعب : بغير لوء ، بشديد الياس .

(٧) المتحوب : التأم الذي يترك الحوب ، وهو الإثم .

وجاءهم بالركن بمد هلاكه

وقد كان في صدع من الأرض أنكسب

وما هو إلا معجز للبهوة وبُشرى وعقبي للبشير المسقب

وحسَّ وأهدى البدن أول مشير لها وفروض الحج لم تترقب

وكم حكمة لم أسمع الأذن مطلقا له إن تلح في ناظر العين تُكتب

إلى قنصر تنموه سوداه ، نَبَتْهُ^(١) كلا طرفيه من ممدد المنسب

وفي مضر تله الكلام وأقبلت ما ترُشدت كل وجه ومدَّهَب

وحينا^(٢) وكأثرنا النجوم بجمها بأكرم منها في العديدي وأتقب

هنالك آتى الله من شاء فضله وقيل لهذا مير وللآخر اركب

وكانا شقي قتيبة فتفاوتا لعلهم وحكمهم ماله من مقب

وما منها إلا حنيف وسلم على نهج إسماعيل غير مكب

وقد سلم الأفتى بنجران حكمته إليهم ولم ينظروا إلى مقب

رأى فطنا أهدت له عن نيجاره وكان لتنعيم فاستحال لأنساب^(٣)

وتلك علامات النبوة كلها تشير إلى منظورها المتقرب

وقال رسول الله هما اختلقت في مضر جرثومة الحق فاعيدوا

وما سيد إلا نزار يفوته إلى مضر تلقوه لم يتقرب

ومَن فاته بدر الدجى لم يؤنب متى بأنهم شعب من الدهر برأب

أبو أنجر الدنيا وأطواها التي بها ثبتت طرا فلم تتقلب

(١) ت : أمه .

(٢) وحيا : أسرعنا

(٣) الأناب : شجر ، واحده بهاء .

ولم يَكْفِهِ حَقُّ أَعَانَاتِ مَعَانَةٍ
 وَجَاءَ مَتَدًّا وَالسَّمَاءُ شَمُوسَهَا
 وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ بَتْنَهَا
 وَقَدْ مَا تَعَفَّى اللَّهُ مِنْ مَحْقَصَرٍ
 وَجَنَّبَهُ أَرْضَ التَّيَوَارِ وَحَاوَزَهُ
 وَحَلَّ بِأَرْمِينِيَّةٍ تَحْتَ حَفْظِهِ
 فَلَمَّا تَعَلَّى الرُّوعُ أَسْرَى بَعْدَهُ
 وَقَدْ كَانَ رَدُّ اللَّهِ عَنْهُمْ كَيْلِيَّةً
 وَجَاءَ بَنُو يَمْقُوبَ بِشَكُونٍ مِنْهُمْ
 فَقَالَ لَهُ : لَا تَدْعُ مُوسَى عَلَيْهِمُ
 أَحَبَّهُمْ فِيهِ رِضًا وَأَحَبُّهُ
 وَأَغْفِرْ لِي بِسِتْفَنَرُونِي ذَوَابْهُمْ
 فَقَالَ إِذَنْ فَاجْعَلْهُمْ رَبًّا أَمَقِي
 فَقَالَ هُمْ فِي آخِرِ الدَّهْرِ صَفَوَقِي
 دَعَائِمُ إِيْمَانِهِ وَأَرْكَانُ سُوْدِدِ
 وَمَصْعَدُ عِدْنَانٍ إِلَى جَذْمِ آدَمِ
 وَنَبِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَدَّ وَجُوهَهَا
 وَإِلَّا فَادُّ بْنُ الْمَتَيْسَعِ مَائِلٌ
 وَوَجْهَهُ أَهْرَاقُ الْكُزْبَى كُلِّ مَنْ تَرَى

بِكُلِّ حَقِيقٍ جُرْهُمِيَّ مَهْدَبِ
 وَأَقَارِهَا فِي ذِيهِ الْمَتَشَحَّبِ
 عَلَى الْأَرْضِ حَقِّ لَا مَسَاغَ لِأَجْبِي
 بِهِ وَالْوَرَى مِنْ هَالِكٍ وَمَكْدَبِ
 إِلَى مَقِيلٍ مِنْ حِرْزِهِ مَقَاشِبِ^(١)
 فَمَدَى مَلِكٌ عَنْ جَانِبِهِ مُدْبَبِ^(٢)
 إِلَى حَرَمٍ أَمْنٍ لِأَيْبَانِهِ اجْتَبِي
 لِهَالِي يَدْعُو دَعْوَةَ الْمُتَغَضَّبِ
 يَنَادُونَهُ هَذَا قَتِيلٌ وَذَا سُبِي
 فَهُمْ لِي أَصْلَفِيهِ وَأَجْعَبِي
 كَذَلِكَ مِنْ أَحْبَبِي يُكْرَمُ وَيُعْجَبِ
 وَمَهْمَا دَعَا دَاعٍ أَحْبَبِي وَأَقْرَبِ
 فَنُزْضَهُ لِرَبِّ يُرْضَى وَيُرْغَبِ
 يَمْعُشُونَ أَعْدَائِي وَيَسْتَقْصِرُونَ بِي
 مَضَتْ بِمَلَاهِمَ مَهْدَدٍ بَلَتْ جُلْعَبِ
 بِأَبْنَيْنِ مِنْ قَصْدِ الْعَصَاخِ وَالْحَبِ^(٣)
 وَكَانَ لَنَا فِي تَنْظُمِهَا شِدُّ مُلْهِبِ
 وَتَبَّتْ بَنُ قَيْدَارٍ سَلَالَةُ أَشْجَبِ^(٤)
 وَأَسْتَعِمْ إِسْمَاعِيلُ دَعْوَةَ مُكْتَبِ

(١) أَشْبَ الشَّجَرِ وَأَشْبَ : الثَّلَب .

(٢) مَذَب : مَذَاب .

(٣) الْحَب : أَوْضَع .

(٤) الْأَسْمَاءُ مِنْ هُنَا إِلَى آخِرِ الْقَعِيدَةِ تَذَكَّرْ لِي الْمُؤَرِّخِينَ عَقْلَةً مَضْطَرِبَةً ، قَالَ ابْنُ خَلْدُونِ : وَلَمَّا اِلْتَفَافٌ جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْفَتَى لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ تَرَجَمَتْ مِنَ الْبَرَابَةِ .

وقام خليلُ الله بـلـوـه آزرَ أغـرُه صبايحُ* لِأَدمَ غَنـبـرِ
إلى الفاحرين الشارح الغمُر يرتقى وللداع ثم القاسم الشامخ الأبـر
وَيَعْبـرُ بـنـعـمـه إلى الجـد شالـخُ إلى الرافد الوهاب بركٍ وطـيـبِ
لسامٍ أبـي السامـين طرّاً سـما بهم لدوحٍ لِّلـسـكان الثـلـي لِنُوبِ
لإدريس ثم الرائد بن مهلول لِقَتَيْنَ ثم الطاهر المتطـيـبِ
إلى هبة الرحمن شيث بن آدم أبـي البشر الأعلى لطـيـن لَأَمَلِيبِ^(١)
فنه خُلِقنا ثم فيه مَعادُنا ومنه إلى عَذَنٍ فسدَّد وقاربِ^(٢)

وهنا انتهى ما يخص المدينى العلـى من هذه الكلمة ، التى فرّى ناظمها فى
الإحسان الفرائى المعهود ، فاقصرتُ منها على ما وقى بالفرض المقصود ، واستوفى
رجال النسب المجد والحسب التقليد ، تعجيلاً لقرى المستفيد ، واكتفاءً من القِلادة
بالتقدّر المحيطة بالجد ، وإنها إن شاء الله لكافية فى الباب ، ومقدّمة فى الكلام
الهاب ، وتحفة إنما يعرف قدرها أولو الألباب .
والله يجزى قائلها الحسنى ، وينفعه بمقصده الأسمى .

وإذ قد انتهينا إلى ما حَسَنَ لدينا إيرادُه فى هذا المعنى وصفًا وذكرًا ، وخدمنا
النسب الأشرَفَ نَظْمًا ونَثْرًا ، فلنعرج على ذكر البقعة التى اختارها الله لرسوله
الكرّم منشأً ، وجعلها لقومه قرارًا ومتبوعًا ، وأولية البيت العتيق الذى جعله
الله مثابةً وأمانًا للناس ، ورفعه على أفضل القواعد وأكرم الأساس ، ثم دحا
الأرض من تحته رفعاً للشبهة فى شرفه والالتباس .

(٢) الأسـل : قرب .

(١) الألب : الرباب .

نم نذكر مَنْ وَلِيَّه من آبائه الكرام ، إذهم أهلُ الأَعْلَوْنَ وأولياؤه الأَحِقَّاه به
الأَوْثَوْنَ ، وهو مأثرتهم التي لم يزالوا إياها يُرَاعَوْنَ ، ومن جِرائِها يُرَاعَوْنَ ،
وتراث الجسد الذي إليهم يُزَيِّ وإليه يُعَزَّوْنَ ، وبسبب شرفه يُعرفون
وباسمه يُدْعَوْنَ .

ونشير إلى حرمة العظيمة في الحرمات ، وما أنزل الله تعالى بمن كفاه بسوء
أو أنى فيه بأمر مذموم مشتموم من أليم العقوبات وعظيم النقبات .
لنخدم البلدَ كما خدمنا المعتد ، ونقضى حق المسكان الشريف كما قضينا حق
الحسب التقليد والطريف .

نختلص إلى ذكر المولد المبارك الذي منه تتدرج إلى المقصود ، الذي نحن
عليه عاملون ، ولإتمامه آمينون ، رجاء أن نجد ذلك مذخوراً عند المولى الذي
يضاعف لمبهده الحسفات ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

ذكر أولية بيت الله المحرم

وركنه المستلم ، ومن تولى بناءه من ملائكته وأنبيائه

صلى الله على جميعهم وسلم

قال الله العظيم : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ^(١) » .

وفي الصحيح من حديث أبي ذَرٍّ النَّفَّارِ ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ ؟ فَقَالَ لَهُ : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ »
قَالَ : قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْمَرُ » قُلْتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ :
« أَرْبَعُونَ حَامًا » .

وذكر الزبير بن أبي بكر بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال :
كنت مع أبي محمد بن علي بمكة في ليالي التشرُّق قبل التَّروِيَةِ بيوم أو يومين ، وأبى
فأُتِمَّ يَصِلُ فِي الْحِجْرِ ، وَأَنَا جَالِسٌ وَرَاءَهُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ ، جَلِيلُ
الْعِظَامِ بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْمَسْكِينَيْنِ هَرِيصُ الصَّدْرِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ غُلُوْظَانِ فِي هَيْئَةِ مُحْرَمٍ ،
فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ ، تَخَفَّفَ أَبِي الصَّلَاةِ ، فَسَلَّمَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ :
يَا أَبَا جَعْفَرٍ ، أَخْبِرْنِي عَنْ هَذِهِ خَلْقَ هَذَا الْبَيْتِ كَيْفَ كَانَ ؟

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ : مِمَّنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
الشَّامِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ : إِنْ أَحَادِيثُنَا إِذَا سَقَطَتْ إِلَى الشَّامِ جَاءَتْهَا صِيْحَابُهَا ،
وَإِذَا سَقَطَتْ إِلَى الْعِرَاقِ جَاءَتْهَا وَقَدْ زِيدَ فِيهَا وَنَقَصَ .

ثم قال : يَذْهَبُ خَلْقُ هَذَا الْبَيْتِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » .

فغضب عليهم ، فعاذوا بالعرش ، فطافوا حوله سبعة أطواف يسألون ربهم ، فرضى عنهم وقال لهم : ابدؤا لى فى الأرض بيتا فيعوذ به من سفطتُ عليه من بنى آدم ويطوفون حوله ، كما فعلتم بهرصى ، فأرضى عنهم .
فبنوا له هذا البيت .

فهذا يا عهد الله بده خلق هذا البيت .

فقال الرجل : يا أبا جعفر ، فما بده خلق هذا الركن ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى لما خلق الملقق ، قال لبنى آدم : ألسنتُ بربكم ؟ قالوا : بلى . وأقرأوا . وأجرى نهراً أحلى من العسل وألذ من الزبد ، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا الحجر ، فهذا الاستلام الذى ترى إنما هو بئمة على إقرارهم بالذى كانوا أقرؤا به .

وقال جعفر بن محمد : كان أبى إذا استلم الركن قال : اللهم أمانتى أدبْتُها ، وميثاقى وقبْتُ به ، ليشهد لى عندك بالوفاء .

قال : وقام الرجل فذهب .

قال جعفر بن محمد : فأمرنى أبى أن أردّه عليه ، فخرجت فى أمره وأنا أراه ، يَحْمُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الزَّحَامَ ، حتى دخل نحو الصفا ، فبصرته على الصفا فلم أرّه ، ثم ذهبت إلى المروة فلم أرّه عليها ، فبحثت إلى أبى فأخبرته فقال لى أبى : لم تكن لتجده ، وذلك الخيضر عليه السلام .

وخرج الترمذى من حديث عبد الله بن عباس وصححه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم » .

ومن حديث عبد الله بن عمرو ، مرفوعاً وموقوفاً ، قال : إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب » .

وفى حديث ابن عباس أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى الخبجر : « والله ليعتقن الله يوم القيامة له هونان يُنصر بهما لسان يطلق به ، يشهد لى من أسأله بحق » .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى من حديث عبد الصمد بن مَعْقِل ، أنه سمع وهب بن منبه^(١) يقول : إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض فرأى سبتها ولم يرفها أحداً غيره ، قال : يارب أما لأرضك هذه عامرٌ يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟

قال الله تعالى : إنى سأجعل فيها من وَلَدِكَ مَنْ يسبح بحمدي ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيتاً تُرفع لى كرى ويسبح فيها خَلْقٌ ويذكرون فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البهوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوتره باسمى ، فأسميه بيتى ، وعاليه وضعتُ جلالى ، ثم أنا مع ذلك فى كل شىء ومع كل شىء ، أجعل ذلك البيت حراماً آمناً ، يتحرّم بحرّمته مَنْ حَوَّلَهُ ومن تعدّته ومن فوقه ، فمن

(١) أخبار وهب بن منبه وأمثاله عن هذه القرون المتطاولة والأخبار الجديدة لا يهدى لها أحد صفة أو ثبوتاً ، وربما ترجموا بها أو رويت لهم وصلات الخلفاء الرابع وإرساء الفضائل الحسب والاستطلاع البعيد ، فلفظهم على هذا النحو . وعاشها يسير .

حرّمه بحرمتى استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد أخفّر ذمى
وأباح حرمتى .

أجمعه أول بيت وُضع للناس ببطن مكة مباركا ، يأتونه شُعْثًا غبرًا على كل
ضامر يأتين من كل فجٍّ حريق ، يزجون بالطلبية زجيجًا ويشجون بجميجًا ،
ويسجون بالتكبير مجيجًا .

فمن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافى ، وحق على الكريم
أن يُكْرِمَ وفدّه وأضيفه ، وأن يُشفّ كلاً بحاجته .

نعموه يا آدم ما كدت حياً ، ثم نعمه الأسمُ والقرون والأنبياء من ولدك ،
أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن .

وفى حديث غير هذا عن عطاء وقتادة ، أن آدم عليه السلام ، لما أهبطه الله
من الجنة وفقد ما كان يسمعه ويأنس إليه من أصوات الملائكة وتسبيحهم ،
استوحش حتى شكا ذلك إلى الله تعالى فدعائه وصلواته ، فوجهه إلى مكة ، وأنزل
الله ياقوته من ياقوت الجنة على موضع البيت الآن .

وقال الله : يا آدم ، قد أهبطُ لك بيتاً تطوف به ، كما يُطاف حول عرشى
وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى .

فانطلق إليه آدم ، فطاف به هو ومن بعده من الأنبياء ، إلى أن كان الطوفان ،
فرفعت تلك الياقوتة ، حتى أمر الله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ، فبناه ،
فذلك قوله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ الْأَ تَشْرِكُ بِي شَيْئًا وَطَعْنُ
يَذِيّ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ^(١) » .

وعن ابن عباس ، أن الله أوحى إلى آدم : أن لي حرمًا بجبال عرشي ، فانطلق فابن لي بيتًا فيه ، ثم حُفَّ به كما رأيت ملائكتي يَحُمُّونَ بعرشي ، فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتى .

فقال آدم : أى ربِّ ، وكيف لي بذلك ؟ لست أقوى عليه ولا أعتدى لمكانه .

فتميّض الله له ملكًا فانطلق به نحو مكة ، فساكن آدم عليه السلام إذا مرَّ بروضه ومكانٍ يمجبه قال لذلك : انزل بنا هاهنا . فيقول له الملك : أمانتك .

حتى قدِم مكة ، فبنى البيت من خمسة أجُبل ، من طور سيناء ، وطور زيتا ، ومن لبنان ، والجلودى ، وبنى قواعده من حجارة .

فلما فرغ مِنْ بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه الملائكة كلها ، التي يفعلها الناس اليوم ، ثم قدِم به مكة ، فطاف بالبيت أسبوعًا ثم رجع إلى أرض الهند فبات بها .

وفى رواية أنه حجَّ من الهند أربعين حجة على رجله .

وذكر الواقديُّ عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة المدنى قال : قلت لأبي جهم بن حذيفة : يا عم ، حدثني عن بناء البيت ونزول اسماعيل عليه السلام الحرم .

قال : يابن أخى سألنى عنه على نشاط منى فأنى أعلم فى ذلك ما لا يعلمه غيرى .

قال : فسكت شهرًا أذكره المرة بعد المرة ، فيقول مثل قوله الأول ، وكان قد كبر ورتق وضُف ، فدخلت عليه يوما وهو مسرور ، فقال لى : اسمع حديثك الذى سألتنى عنه .

إن البيت بناؤه حَرَمٌ في السماء السابعة وفي الأرض السابعة . يعنى أن ما يقابله حَرَمٌ .

وإن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو وحواء ، أسَّسَاهُ بصخر أمثالِ النخلات ، يعنى العوق التى فى بطونها أجنة ، واحداً خلفاً . أذن الله عز وجل للصخر أن يطعمهما .

ثم نزل البيت من السماء من ذهبٍ أحمر ، وكل به من اللائكة سبعون ألف ملك ، فوضعه على أسَّ آدم عليه السلام ، ونزل الركن ، وهو يومئذ دُرَّةٌ بيضاء ، فوضع موضعه اليوم من البيت ، وطاف به آدم وصلى فيه .

فلما مات آدم عليه السلام وليه بعده ابنه شيث ، فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام .

فلما كان الفَرَقُ ، يعنى الطوفان ، بعث الله جل ثناؤه سبعين ألف ملك فروه إلى السماء ، كي لا يصيبه الماء النجس ، وبقيت قواعده ، وجاءت السفينة فدارت به سبماً ثم دَفَرَ البيت ، فلم يحجه من بين نوح وبين إبراهيم أحد من الأنبياء على جموعهم السلام .

وعن غير الواقدى فى غير حديث أبى الجهم ، أن شيث بن آدم عليهما السلام ، هو أول من بَقِيَ الكعبة ، وأنها كانت قبل أن يبنيها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حجَّ إلى موضعها من الهند .

وفى الخبر أن موضعها كان غشاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، فلما بدأ الله خلق الأشياء ، خلق القرية قبل السماء ، فلما خلق السماء وقضاهن سبع سموات ، دحا الأرض ، أى بَطَلها ، وإنما دحاها من تحت الكعبة ، فلذلك سُمِّيَتْ مكة أم القرى .

وذكر ابن هشام أن الماء لم يصل الكعبة حين الطوفان ، ولكنه قام حولها ، وبقيت هي في هواء إلى السماء ، وأن نوحاً قال لأهل السفينة ، وهي تطوف بالبيت : إنكم في حرم الله عز وجل وحول بيته ، فاحرموا الله ولا يمس أحدُ امرأة . وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً ، فتمدى حام ، فدعا عليه نوح بأن يسود لونُ بنيه ، فأجابه الله على وفق ما دعاه ، واسودَّ كوشُ بن حام وولده إلى يوم القيامة .

وقد قيل في سبب دعوته غير هذا ، فإله أعلم .

ويُروى أنه لما نَصَبَ ماء الطوفان ، بقي مكان البيت ربوةٌ من مَدْرَةِ ، فخرج إليه بعد ذلك هودٌ وصالحٌ ومن آمنَ معهما ، وأن يترُفَّ قال لهود عليه السلام : ألا تنبيهه ؟ قال : إنما يئنه نبي كريم يأتي من بعدى ، يتخذهُ الرحمن خليلاً .

[إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت]

قال أبو الجنهم ، من حديث الواقدي : حق أراد الله إبراهيم ما أراد ، فولد له إسماعيل وهو ابن تسعين سنة ، فكان يكرُّ أبيه ، فلما أراد الله عز وجل أن يهوئاً لإبراهيم مكان البيت وأهلامه ، أوحى الله إليه يأمره بالمسير إلى بلده الحرام ، فركب إبراهيم البراق ، وحمل إسماعيل أمامه وهو ابن ستين ، وهاجر خلفه ، ومعه جبريل يده على موضع البيت وتمألم الحرم ، فكان لا يمر بقريّة إلا قال له إبراهيم : بهذه أمرتُ يا جبريل ؟ فيقول جبريل : لا . حتى قدِمَ به مكة ، وهي إذ ذاك عِصَاءٌ وسَمٌّ ،^(١) ، والباقي يومئذ حول الحرم ، وهم أول من نزل مكة ويكونون بمرفة ، وكانت للياه يومئذ

(١) المضاه : شجر الحظ أو كل ذى شوك ، والسلم والسمر : شجر أيضاً .

قليلة ، وكان موضع البيت قد دثر وهو رُبوة حراء مَدْرَة ، وهو يُشرف على ما حوله ، فقال جبريل حين دخل من كداه ، وهو الجبل الذى يظلمك على الحَجْرُون والمقبرة : بهذا أمرت . قال إبراهيم : بهذا أمرت ؟ قال : نعم .

فأتى إلى موضع البيت ، فتميد إبراهيم إلى موضع الحجر فآوى فيه هاجراً وإسماعيل ، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً ، فلما أراد إبراهيم أن يخرج ، ورأت أم إسماعيل أنه ليس بمضرتها أحد من الناس ولا ملاء ظاهر ، تركت ابنها في مكانه وتبعت إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إلى من تَدْعُنَا ؟ فسكت عنها ، حتى إذا دنا من كداه قال : إلى الله عز وجل أَدْعُكُمْ . فقالت : فالله عز وجل أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : لخصي تركننا إلى كافر .

وانصرفت هاجر إلى ابنها ، وخرج إبراهيم حتى وقف على كداه ، ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول دون ابنه ، فنظر إليه ، فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده ، فقال : « رَبَّنَا إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » ، رَبَّنَا لِمَكَ تَتَوَلَّى مَا تَخْفَى وَمَا تَعْلَنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » (١) .

ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام ، وحدث هاجر فجاءت عريشاً في موضع الحجر من تمر وثمأكل فلقه عليه ومعها شئ فيه شيء من الماء ، فلما نفذ الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه ، فانقطع لبنا ، فأخذ إسماعيل كهوثة الموت ، فظلت أنه ميت ، فخرجت وخرجت جزعاً أن تراه على تلك الحال ، وقالت : يموت وأنا غائبة عنه أهونُ عليّ ، وصلى الله أن يعمل لي في تمشأى خيراً .

فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا ، فأشرفت عليه تستنيث ربها عن وجل وتدعوه ، ثم انحدرت إلى اللروة ، فلما كانت في الوادي خَبَتْ^(١) حتى انتهت إلى اللروة ، فملت ذلك سبع مرار ، كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها ، فترآه على حاله ، وإذا أشرفت على المروة فثقل ذلك .

فكان ذلك أول ما سُمي بين الصفا والمروة . وكان من قبلها يطوفون بالبيت ولا يسمون بين الصفا والمروة ، ولا يقفون المواقف ، حتى كان إبراهيم . فلما كان الشوط السابع وبُسْتُ سمعت صوتا ، فاستمعت فلم تسمع إلا الأول ، فقلت أنه شيء عرض لسمتها من الظلم والجور .

فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك ، فأقامت على المروة مليا ، ثم سمعت الصوت الأول ، فقالت : إني سمعت صوتك فأعجبني ، فإن كان عندك خبر فأخبرني ، فإنني قد هلكت وهلك ما عندي .

فخرج الصوتُ بصوت بين يديها ، وخرجت تملؤه قد قويت له نفسها ، حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل ، ثم بدا لها جبريل ، فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم ، فضرب بقمقه مكان البئر ، فظهر الماء فوق الأرض حين لحص بقمقه ، وفارت بالزواء ، وجعلت أم إسماعيل تحظر الماء بالتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشئها^(٢) ، فاستمعت وبادرت إلى ابنها فسقعه وشربت ، فجعل يدها يقطران لبنا ، فكان ذلك اللبن طعما وشرابا لإسماعيل ، وكانت تجزي به زمزم ، فقال لها الملك : لا تخافي أن ينفذ هذا الماء ، وأبشري ، فإن ابنك شيشب ويأتي أبوه من الشام ، فتبدون هاهنا بين يديه عباد الله من أقطار الأرضين ملئين لله جل ثناؤه شئنا غورا ، فيطوفون به ويكون هذا الماء شرابا لضيقتان الله عن وجل الذين يزورون بيته .

(١) خبت : جرت .

(٢) الشئ : الغربة الخلق .

فَقَالَتْ : بَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ . وَطَابَتْ نَفْسُهَا وَحَمَدَتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وَيَقْبَلُ غُلَامَانِ مِنَ الْعَالِيقِ يَرِيدَانِ بِمِيرَا لَهَا أخطاءها ، فَقَدْ عَطَشَا وَأَهْلُمَا بِمِرَّةٍ ، فَنَظَرَا إِلَى طَيْرٍ تَهْوَى قَبْلَ السَّكْمَةِ فَاسْتَفْكَرَا ذَلِكَ ، وَقَالَا : أُنَى يَكُونُ الطَّيْرُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَمَهْلُ حَتَّى نَبْزُدَ ، ثُمَّ نَسْلُكَ فِي مَهْوَى الطَّيْرِ .

فَأَبْرَدَا ثُمَّ تَرَوَّحَا ، فَإِذَا الطَّيْرُ تَرَدُّ وَتَصَدَّرُ ، فَاتَّبَعَا الْوَارِدَةَ مِنْهَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ ، فَنَظَرَا إِلَى الْمَاءِ وَإِلَى الْعَرِيشِ ، فَتَزَلَّا وَكَلَّمَا هَاجِرًا وَسَلَّاهَا مَتَى تَزَلْتِ ؟ فَأَخْبَرْتَهُمَا ، وَقَالَا : لِمَنْ هَذَا الْمَاءُ ؟ فَقَالَتْ : لِي وَلِابْنِي . فَقَالَا : مَنْ حَفَرَهُ ؟ فَقَالَتْ : سَقَّى اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ .

فَمَرَفَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ^(١) يَحْفَرَ هُنَاكَ مَاءً ، وَعَهْدُهَا بِمَا هُنَاكَ قَرِيبٌ وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ .

فَرَجَعَا إِلَى أَهْلِهِمَا مِنْ لَيْلَتِهِمَا ، فَأَخْبَرَاهُمَا ، فَفَحَّوْا حَتَّى نَزَلُوا مَعَهَا عَلَى الْمَاءِ فَأَنْتَبَهَتْ بِهِمْ ، وَمَعَهُمُ اللَّزِيَّةُ ، فَتَشَأَ إِسْمَاعِيلُ مَعَ وَلَدَانِهِمَا .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَنْوَرُ هَاجِرَ فِي كُلِّ شَهْرٍ عَلَى الْبُرَاقِ يَفْدُو غَدُوَّةَ فَيَأْتِي مَكَّةَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَقْبِلُ فِي مَنْزِلِهِ بِالشَّامِ .

فَزَارَهَا بَعْدُ ، وَنَظَرَ إِلَى مَنْ هُنَاكَ مِنَ الْعَالِيقِ وَإِلَى كَثْرَتِهِمْ وَحِمَارَةِ الْمَاءِ ، فَفَسَّرَ بِذَلِكَ .

وَلَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَزْوِيجَ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَالِيقِ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ زَائِرًا لِإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْمَاعِيلُ فِي مَاشِيَةٍ يَرْعَاهَا وَيُخْرِجُ مَتْنَكِبَهَا قَوْسَهُ ، فَبَرَى الصَّيْدَ

(١) ت : أَنْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَحْفَرَ .

مع رِغْبَتِهِ ، فجاء إبراهيم عليه السلام إلى منزله ، فقال : السلام عليكم يا أهل البيت .

قال : فسكنت فلم تردّ ، إلا أن تكون ردّت في نفسها ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت لا هَيْمُ الله إذن ، قال : فكيف طعامكم وشرابكم وشاؤكم ؟ فذكرت جهنّم ، فقالت : أمّا الطعام فلا طعام ، وأمّا الشاء فإنما نَحْلِبُ الشاةَ بَعْدَ الشاةِ الْمَصْرَةِ^(١) ، وأمّا الماء فعلى ما ترى من النلف ، قال : فأين رب البيت ؟ قالت في حاجته .

قال : فإذا جاء فأترثيه السلام ، وقولى له غيرَ عتَبَةٍ بَيْتِكَ .

ورجع إبراهيم إلى منزله ، وأقبل إسماعيل راجعاً إلى منزله بعد ذلك بما شاء الله عز وجل ، فلما انتهى إلى منزله سأل امرأته هل جاءك أحد ؟ فأخبرته بإبراهيم وقوله وما قالت له ، ففارقها وأقام ما شاء الله أن يقيم .

وكانت المالبق هم ولادة الحُكْمِ بِمَكَّةَ فضيّعوا حرمة الحَرَمِ واستحلّوا منه أموراً عظيماً ونالوا ما لم يكونوا ينالون ، فقام فيهم رجل منهم يقال له عَمْرُوقُ^(٢) ، فقال يا قوم أبْقُوا على أنفسكم ، فقد رأيتم وسمعن من أهلِك من هذه الأمم ، فلا تفعلوا ، تَوَاصَلُوا ولا تستغفروا بحرم الله عز وجل وموضع بيته .

فلم يقبلوا ذلك معه ، وتمادوا في هَلَكَةِ أنفسهم .

ثم إن جرّهم وقطرواء ، وهما أبناء عم خرجوا سِيَّارَةً من اليمن ، أجذبت البلاد عليهم ، فساروا بفراريهم وأمواهم ، فلما قدموا مكّة رأوا فيها ماء مَرِيئاً وشجراً ملتقاً ، ونباتاً كثيراً ، وسعة من البلاد ، ودفتاً في الشَّقاء .

(١) المصر : الملب بأطراف الأسابيع ، وناقصة مصور بطيئة خروج الدار لا تحلب إلا مصرأ
(٢) ت : عمروق .

فقالوا إن هذا الموضوع يجمع لئاما نريد .

فأجابههم ونزلوا به ، وكان لا يخرج من الذين قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ،
سنة فيهم جرّوا عليها واعتادوها ولو كانوا نفراً يسيراً .

فكان مضاض بن عمرو على قومه من جرّهم ، وكان على قعوراء السعيدع ،
رجل منهم .

فنزل مضاض بن معه من جرّهم أعلى مكة بقميعة^(١) ، فها حاز .

ونزل السعيدع بقعوراء أسفل مكة بأجباد^(٢) ، فها حاز .

وذهبت المالحق إلى أن يئازحوم أمرهم فعلت أيديهم على المالحق وأخرجهم
من الحرم كله ، فصاروا في أطرافه لا يدخلونه .

وجعل مضاض والسعيدع يقطعان الفازل لمن ورد عليهما من قومهما فسكرّوا
وأثروا ، فكان مضاض يمشر^(٣) ، كل من دخل مكة من أعلاها ، وكان
السعيدع يمشر كل من دخل من أسفلها ، وكل من حل^(٤) قومه لا يدخل أحدهما
على صاحبه ، وكانوا قوماً عرباً وكان اللسان عربياً .

وكان إبراهيم يزور إسماعيل ، فلما نظر إلى جرّهم نظر إلى لسان محبوب
وسمع كلاماً حسناً ، ونظر إسماعيل إلى رة بنت مضاض بن عمرو ، فأجابه
نقطبها إلى أبيها فتزوجها .

فجاء إبراهيم زاراً لإسماعيل ، فجاء إلى بيت إسماعيل ، فقال : السلام عليكم

(١) قميعة جبل بمكة .

(٢) جبل بمكة .

(٣) عسرم يمشرم عسرا وعسورا أخذ عسرا أموالهم .

(٤) ابن مقام : في قومه .

ورحمة الله وبركاته ، فقامت إليه المرأة فردّت عليه ورجبت به ، فقال كيف عيشكم ولبيكم وماشيئكم ؟ فقالت خير عيش بحمد الله عز وجل ، نحن في لبن كثير ولحم كثير وماؤنا طيب ، قال هل من حب ؟ قالت : يكون إن شاء الله ونحن في نعم . قال : بارك الله لكم .

قال أبو جهنم : فسكان أبي يقول : ليس أحد يتخلّى عن اللحم والماء بفير مكة إلا اشتكى بطنه ، ولعمري لو وجد عندنا حبا لدها فيه بالبركة فسكان أرض زرع .

ويقال إن إبراهيم قال لما : ما طعامكم ؟ فقالت : اللحم واللبن . قال فما شرابكم ؟ قالت اللبن والماء . قال : بارك الله لكم في طعامكم وشرابكم ، فاللبن طعام وشراب .

قالت : فانزل رحلك الله فاطم وأثرب . قال : إني لا أستطيع النزول . قالت فإني أراك شعثا أفلا أغسل رأسك وأذهنه ؟ قال بلى إن شئت . فجاءته بالمقام وهو يومئذ حَجَر رَطْب أبيض مثل المِهْء^(١) ، مُلِقَى في بيت إسماعيل ، فوضع عليه قدمه اليمنى وقدم إليها رأسه وهو على دابته ففسلت شِقْ رأسه الأيمن ، فلما فرغت حاولت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى ، وقدم إليها رأسه ففسلت شِقْ رأسه الأيسر ، فالأثر الذي في المقام من ذلك . قال أبو الجهم : فقد رأيت موضع اللقْب والإصبع .

وعن الواقدي من غير حديث أبي الجهم أن أبا سعيد الخدري سأل عبد الله ابن سلام عن الأثر الذي في المقام ، فقال : كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله جل ثناؤه أراد أن يحمل المقام آية من آياته .

قال أبو الجهم : فلما فرغت يعنى المرأة ، من غسل رأس إبراهيم عليه السلام قال لها : إذا جاء إسماعيل فقلولى له : أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

فلما جاء إسماعيل قال : هل جاءك أحد بمدى ؟ فأخبرته إبراهيم وما صدت به ، ثم قال لها : هل قال لك أن تقولى شيئاً ؟ قالت : قال لى أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

ففرح إسماعيل وقال لها : أتدريين من هو ؟ قالت : لا . قال : هذا خليل الله إبراهيم أبى ، وأما قوله « أثبت عتبة بابك » فقد أمرنى أن أفرك وقد كنت على كريمة وقد ازددت على كرامة . فصاحت وبكت ، فقال : مالك ؟ قالت : ألا أكون حلت بن هو فأكرمه وأصنع به غير الذى صنعت ؟ فقال لها إسماعيل : لا تبكى ولا تجزعى فقد أحسنت ولم تكونى تقدرين أن تفعل فوق الذى فعلت ، ولم يكن يزيدك على الذى صنع بك .
فولدت لإسماعيل عشرة ذكور أحدهم نابت .

[بناء إبراهيم للبيت]

فلما بلغ إسماعيل ثلاثين سنة وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة ، أوحى الله جل ثناؤه إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً . قال إبراهيم : أى رب أين أبنيه ؟

فأوحى الله إليه : أن اتبع السكينة ، وهى ريح لها وجه وجناحان ومع إبراهيم الملك والمُعرَد^(١) .

فاتموا إبراهيم إلى مكة ، فنزل إسماعيل إلى الموضع الذى بوأه الله جل وعز للإبراهيم ، وموضع البيت ربوة حمراء مدرة مشرفة على ما حولها .

(١) المراد : طائر ضخم الرأس .

خفر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وليس معهما غيرها ، أساس البيت ،
يريدان أساس آدم الأول .

خفرا من ربّ البيت ، يعنى حوله ، فوجدوا صخرة لا يطيقها إلا ثلاثون
رجلا ، وحفروا حتى بلغوا أساس آدم ثم بنى عليه ، وحاقّت السكينة كأنها سمحابة ،
على موضع البيت ، فقالت : ابنى على .

فذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدا ، كافر ولا جبار ، إلا رأيت هالكة السكينة .

فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فجعل طوله في السماء نسم أذرع ، وعرضه
ثلاثين ذراعا ، وطوله في الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحجر وهو
سبعة أذرع في البيت ، وكان قبل ذلك زربا اسم إسماعيل .

وإما بناء حجارة بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا وحفر له
بئرا عند بابه خزانة للبيت ، يلقى فيها ما أهدي للبيت وجعل الركن
هكذا الناس .

فذهب إسماعيل إلى الوادي يطلب حجرا ، ونزل جبريل بالحجر الأسود ،
وكان قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض ، كما رُفِعَ البيت ، فنزل به جبريل
فوضعه إبراهيم موضع الركن ، وجاء إسماعيل بالحجر من الوادي فوجد إبراهيم
قد وضع الحجر ، فقال : من أين هذا ؟ من جاءك به ؟ قال إبراهيم : من لم يكن
إليك ولا إلى حجرك .

وعن الواقدي أيضا ، من غير حديث أبي الجهم ، أن يزيد بن زومان ، قال :
سمعت ابن الزبير يقول : إن إبراهيم عليه السلام ابتنى الحجر ، فناداه من فوق
أبي قبيس : ألا أنا هذا . فرقى إليه إبراهيم فأخذه ، فوضعه موضعه الذي هو
فيه اليوم .

وكان الله جل ثناؤه لما غرقت الأرض استودع أبا قبيس الركن ، وقال :
إذا رأيت خللي يبيى لى بيتا فأعطه الركن . فأعطاه الركن .

وعن غير ابن الزبير أن أبا قبيس لذلك كان يسمى فى الجاهلية الأمين ، لوفائه
بما استودعه الله إياه .

قال أبو جهم : ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت وأدخل الحجر فى البيت ،
جعل المقام لاصفاً بالبيت عن يمين الداخل ، فلما كانت قرىش قصر الخشب
عليهم ، فأخرجوا الحجر ، وكان ما أخرجوا منه سبعة أذرع .

[إبراهيم يؤذن بالحج]

وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : يا رب ،
وما يبلغ صوتى ؟

فقال الله جل ثناؤه : أذن وعلى البلاغ .

فارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت ، فارتفع به المقام حتى كان
أطول الجبال ، فنادى وأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً ،
يقول : أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم
عن وجل .

فأجابه من تحت البحور السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب
من أطراف الأرض كلها : كَبَيْتِكَ اللَّهُمَّ لِيهِكَ .

أفلا ترام يأتون يُلبّون ؟

فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهو من استجاب لله عز وجل .

وذلك قولُ الله جل ثناؤه : « فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ ، مقامُ إبراهيمَ ^(١) » ، يعنى فداء إبراهيم على المقام بالحج ففى الآية .

قال الواقدي : وقد روى أن الآية هى أثرُ إبراهيم على المقام .

[إبراهيم يتعلم مناسك الحج]

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيم من الأذان ذهب به جبريل فأراه الصفا والبروة ، وأماه على حدود الحرم ، وأمره أن يتغيب عليها الحجارة ، ففعل إبراهيم ذلك ، وكان أول من أدام أنصاب الحرم ، ويريه إياها جبريل .

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة ، خطب إبراهيم عليه السلام بكعة ، حين زاغت ^(٢) الشمس قائماً ، وإسماعيل جالس ، ثم خرجا من القديسمهان على أقدامهما يَلْبِيَانِ مُحَرَّمَيْنِ ، مع كل واحد منهما أداة يعملها وهما يتوكأ عليهما ، فسمي ذلك اليوم يومَ التَّروِيَةِ .

فأتيا مَرَّتَيْنِ فصاعداً بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، وكانا نزلا فى الجانب الأيمن ، ثم أقام حتى طلعت الشمس على تبير ، ثم خرج يمشى هو وإسماعيل حتى أتيا هرفة ، وجبريلُ معهما يريهما الأعلام ، حتى نزلا بِتَبِيرَةِ ، وجعل يريه أعلامَ عرفات ، وكان إبراهيم قد عرفها قبل ذلك ، فقال إبراهيم : قد عرفت . فسبغت عرفتات .

فلما زاغت الشمس خرج بهما جبريل عليه السلام ، حتى اتسوا بهما إلى موضع المسجد اليوم ، فقام إبراهيم فتسكلم بكلمات ، وإسماعيل جالس ، ثم جمع بين

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) زاغت الشمس : ماتت ، وذلك إذا ماها الن .

الظهر والمصر، ثم ارتفع بهما إلى المضاب، فقاما على أرجلهما يدهوان، إلى أن غابت الشمس وذهب الشّاع، ثم دَفَعَا من عرفة على أقدلها، حتى اتّهما إلى جَمْع فَنَزَلَا، فعلى إبراهيمُ المغرب والعشاء في ذلك الموضع الذي يَصَلِّي فيه اليوم، ثم باتا حتى إذا طامع الفجر وقفا على قُزَح^(١)، فلما أسفرا قبل طلوع الشمس دفعا على أرجلها حتى اتّهما إلى مُحَمَّر^(٢)، فأسرعا حتى قطعاه ثم عادا إلى مشيهما الأول، ثم رميا جرة العقبة بسبع حصيات حلاها من جَمْع، ثم نزلا من ريفي في الجانب الأيمن، ثم ذَبَحَا في اللَّحَر اليوم، وحلقا رؤوسهما، ثم أقاما أيامَ مَنَى يرميان الجار حين تزيغ الشمس ماشيتين ذاهبتين وراجعين، وصَدَرَا يومَ العَدَدِ فصلّيَا الظهر بالأبطح، وكل هذا يريه جبريلُ عليه السلام.

قال أبو الجهم: فلما فرغ إبراهيمُ من الحج انطلق إلى منزله بالشام، فكان يهيج البيتُ كلَّ عام، وحجَّته سارَّةٌ، وحجَّته إسحقُ ويمقوب والأسباط، والأنبياء، هلم جرا.

وحجَّته موسى بن عمران عليه السلام.

روى الواقدي بإسناد له عن ابن عباس قال: مرَّ موسى عليه السلام بِصِمَاحِ الرُّوحَاءِ يلهي، تجاوبه الجبالُ، عليه عباءتان قطوانيتان من عباء الشام.

وعن جابر بن عبد الله قال: حجج هارون نبيُّ الله البيتَ، فمرَّ بالمدينة يريد الشام، فرض بالمدينة فأوصى أن يُذْفَن بأصل أحد، ولا تُذَلَّ به يهودُ، مخافة أن يَنْبَشُوهُ، فدَفَنُوهُ فَتَقَرَّرَ هَذَا.

(١) قُزَح: جبل بالزدلفة.

(٢) مُحَمَّر: موضع بمكة.

وعن ابن عباس ، أن الحواريين كانوا إذا بلّغوا الحرم نزلوا يمشون حتى يأتوا البيت .

وعن ابن الزبير : أن الحواريين دخلوا نملهم حين دخلوا الحرم ، إعظاما أن يقتلوا فيه .

[وفاة إبراهيم]

ثم توفى الله خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وجه إليه ملك الموت ، فاستنظره إبراهيم ، ثم أعاده إليه لما أراد الله قبضه ، فأخبره بما أمر به ، فسلم إبراهيم لأمر ربه عز وجل ، فقال له ملك الموت : يا خليل الله ، على أي حال تحب أن أقبضك ؟

قال : تقبضني وأنا ساجد . فقبضه وهو ساجد ، وصعد بروحه إلى الله عز وجل . ودفن إبراهيم عليه السلام بالشام .

وعاش إسماعيل عليه السلام بعد أبيه ما عاش ، وتوفى بمكة ، فدفن داخل الحجر ، مما يلي باب الكعبة ، وهناك قبر أمه هاجر ، دفن معها وكانت توفيت قبله .

[ولادة البيت بعد إسماعيل]

ولما توفى إسماعيل عليه السلام ولي البيت بعده ابنه نابت ، ولم يلبه أحد من ولده غيره .

ثم مات فدفن في الحجر مع أمه رَحْلَةَ بنت مُضَاض . فولي البيت بعده جدّه مُضَاض بن عمرو ، ثم أخواله من جُرهم ، وقاموا عليه ، فسكانواهم ولاتته وحجّابه وولادة الأحكام بمكة .

وكان البيت قد دخله السيل من أعلى مكة فأنهزم ، فأعادته جُرم على بناء إبراهيم ، وجعلت له مصراحين وقُفلا .

[بين جُرم وقطوراء]

قال ابن إسحق : ثم إن جُرمها وقطوراء بنى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها ، ومع مُضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السَّمِيدَع .

فسار بعضهم إلى بعض ، نفرج مُضاض من قَعِيمَان في كتيبتيه سائرا إلى السَّمِيدَع ، ومع كتيبة هُذُنْها من الرماح والدرق والسيوف والجِلاب يُفَقِّع بذلك معه .

فيقال : ما سُمِّي قَعِيمَانُ قَعِيمَانًا إِلَّا لذلك .

وخرج السَّمِيدَعُ من أجياد ومعه الخليل والرجال .

فيقال : ما سُمِّي أجيادُ أجيادًا إِلَّا لخروج الجياد من الخليل مع السَّمِيدَع منه .

وغيرُ ابن إسحق يقول : إنما سُمِّي أجيادًا لأن مُضاضا ضرب في ذلك الموضع أجيادًا مائة رجل من العاقلة . وقيل : بل أمر بعض الملوك ، غيرُ مسمى ، بضرب رقاب فيه ، فكان يقول لسيّافه : توسَّط الأجياد . وهذا ونحوه أصح في تسوية الموضع بأجياد ، مما قال ابن إسحق .

قال : فالتقوا بفاضح ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فقتل السَّمِيدَعُ وفُضحت قطوراء . فيقال ما سُمِّي فاضحُ فاضحًا إِلَّا لذلك .

ثم إن القوم تدارعوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخَ شِعْبًا بأعلى مكة ، فاصطلحوا به وأسلموا الأمر إلى مُضاض .

فلما رجع إليه أمرُ مكة فصار مُلكها له ، نهر للناس وأطعمهم ، فأطبخَ الناسُ وأكلوا . فيقال : ما سميت للطابخِ الطابخَ إلا لذلك . وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت بذلك ^(١) لِمَا كَانَ يُتَّبَعُ نَحْرُهَا وَأُطْعِمَ ، وكانت منزلة .

فكان الذي كان بين مُضَاضٍ والسَّمِيدِجِ أَوَّلَ بَنِي كَانَ بِمَكَّةَ ، فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولدَ إسماعيلَ بِمَكَّةَ ، وأخوالهم من جُرُهم ولاة البيت والحكام بِمَكَّةَ ، لا يَنَازَهُمُ ولدُ إسماعيلَ في ذلك ، غُلُوْلَتِهِمْ وَقُرَابَتِهِمْ ، وإعظاما للحرمة أن يكون بها بني أُوْقَال .

فلما ضاقت مكةُ على ولدِ إسماعيلَ ، انتقشروا في البلاد ، فلا يَنَاطُونُ قَوْمًا إِلَّا أَظْهَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بِدِينِهِمْ قَوْلُهُمْ .

[ولاية كدانة وخزاعة]

ثم إن جُرُهم بنوا بِمَكَّةَ ، واستعملوا خِلَالًا مِنَ الْحَرَمَةِ ، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكَلُوا مَالَ السَّكِمَةِ الَّتِي يُهْدَى لَهَا ، فَرَقَّ أَسْرُهُمْ .

فلما رأت ذلك بنو بكر بن عبد مناة بن كدانة ، وَغُبْشَانُ مِنَ خُزَاعَةٍ ، أَجْعَلُوا لِحُرَبِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ ، فَأَذَنُوا بِالْحَرْبِ .

فَاتَّقَتُوا فَمَلَبَتْهُمْ بَنُو بَكْرٍ وَغُبْشَانُ ، فَفَقِوْهُمُ مِنْ مَكَّةَ .

وكانت مكة في الجاهلية لَا تُقَرُّ فِيهَا ظُلْمًا وَلَا بَغْيًا ، وَلَا يَبْنِي فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ ، فكانت تسمى النَّاسَةَ ، وَلَا يَرِيدُهَا مَلِكٌ يَسْتَعْمِلُ حَرَمَهَا إِلَّا هَلَكَ

(١) ابن هشام : سميت الطابخ .

مكانه . فيقال : ما سميت بِهَيْكَلَةٍ ، إلا أنها كانت تَبْكُ^(١) أعتاقَ الجبابرة إذا أخذوا فيها شيئاً .

[تعظيم العرب للحرم]

فلم يزل أهلها على وجه الدهر يصونون جَمَاعَتَهَا ويحافظون على حُرْمَتِهَا .

يقال : لِمَ اجتمع رأى بنى إسماعيل وخيارهم على أن لا يَدْعُوا أحداً أُخِذَتْ في حَرَمِ اللَّهِ حدثاً إلا غَرَبُوهُ منه ، ثم لم يرجع فيه . ويقال : بل كان ذلك مما سَنَّ لهم أولوهم ، فصارت سُنَّةً فيهم يَدْرِيونَ بها ، ثم خافَ مَنْ خَلَفَ بِهِمْ على ذلك ، يرون فيه رأيهم ، وتَكْثُرُ مُوَاقِعَةُ الظلم في حَرَمِ اللَّهِ والتمدى به في نفوسهم ، ويمتقدون أن الباطي فيه معاقبٌ في دنياه في نفسه وماله ، وأن الخالف هدد البيت حائثاً تخوفٌ عليه مما أصاب قبله مَنْ فعل فعله ، وأن دعاء المظلوم عنده وخصوصاً في الشهر الحرام مُجَابِبٌ في ظلاله ، ويؤثرون في ذلك أشياء أراها الله لإمام ، صَوْنًا لحَرَمِهِ الكريم ، وتنزيهاً لبيت خليله إبراهيم .

ذكر الواقدي من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ، قال : عدا رجل من بنى كندانة بن هذيل على ابن عم له وظلّه واضطهده فناشده بالرحم وعظم عليه ، فأبى إلا ظلّه ، فقال : والله لألحقن بحرم الله في هذا الشهر ، ولأدعون الله عليك . فقال له ابن عمه مستهزئاً به : هذه ناقى فلانة ، فأنا أُنْفِرُكَ ظَهْرَهَا فاذهب فاجتهد .

فأعطاه ناقة ، وخرج حتى جاء الحرم في الشهر الحرام ، فقال : اللهم إني أدعوك جاهداً مضطراً على ابن عمي فلان ، ترميه بداء لا دواء له .

(١) ت ط: سقطت منها كلمة كانت . ومعنى بك: تكثر .

ثم انصرف ، فيجد ابن عمه قد رمى في بطنه فصار مثل الزرق ، فما زال ينتفخ حتى انشق .

قال عبد المطلب : أخذت بهذا الحديث ابن عباس ، فقال : أنا رأيت رجلا دعا على ابن عم له بالعمى ، يعنى فى الحرم ، فرأيتة يقاد أكمة العميان .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يسأل رجلا من بنى سليم عن ذهاب بصره . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، كنا فى بنى ضبماء عشرة ، وكان لنا ابن عم ، فكنا نطلبه ونضطهده ، فكان يذكّرنا بالله والرحم ، وكنا أهل بيت نرتكب كل الأمور ، فلما رأى ابن عمنا أننا لا نكف عنه ولا نرد إليه خلاصه ، أمهل حتى دخلت الأشهر الحرم ، انتهى إلى الحرم فجعل يرفع يديه إلى الله جل ثناؤه ويقول :

لَا هُمْ أَدْعُوكَ دَعَاءَ جَاهِدٍ أَقُولُ بَنَى الضُّبْمَاءُ إِلَّا وَاحِدًا
ثُمَّ اضْرِبِ الرَّجُلَ وَدَعَهُ قَاهِدًا أُنْعَمَى إِذَا تَوَسَّدَ يُعْفَى الْقَاهِدَا

قال : فأت إخوتى تسعة فى تسعة أشهر ، فى كل شهر واحد ، وبقيت أنا ، فميتت ورماني الله عز وجل فى رجلى ، وكسنت فليس يلائمى قائد .

قال ابن عباس : فسمعت عمر يقول : سبحان الله إن هذا هو العَجَب !

وسمعت عمر يسأل ابن عمهم الذى دعا عليهم ، فقال : دعوتُ عليهم كل ليلة فى ليالى رجب الشهر كله بهذا الدعاء ، فأهلِكوا فى تسعة أشهر وأصاب الباقى ما أصابه .

قال ابن عباس : وهذا رجل على ابن عم له فاسق ذودا له ، تفرج يطلبه حتى أصابه فى الحرم ، فقال ذؤيبى فقال الامس : كذبت ليس لك . قال :

فأحلف . قال : إن ذأحاف . خلف عند المقام بالله الخالق ربُّ هذا البيت ما هُنَّ لك .

فقبل له : لا سبيل لك عليه .

فقام ربُّ الدَّود بين الركن واللقام باسطا يديه يدهو على صاحبه ، فما برح مقامه يدهو عليه حتى ذلَّه فذهب عقله ، فجعل يصيح بمكة : مالي وللدَّود ، مالي وللفلان ربُّ الدَّود .

فبلغ ذلك عبدَ الطلب ، فجمع الدَّودَ فدفعها إلى المظلوم تفرج بها ، وبقي الآخر مُدَّكَّها حتى تردَّى من جبل فأكلفه السباع .

وكان عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه يقول : لو وجدتُ قاتلَ الخطَّاب في الحرم ما هبَّته .

وكان يقول : لأنَّ أذنبَ برُكبةٍ سبعةٍ ذنبا أحبُّ إلى من أن أذنب ذنبا واحداً في الحرم .

ورُكبةٌ خارجُ الحرم ، محاذيةٌ للذاتِ هِرَقى .

وذكر رضى الله عنه يوماً وهو خليفة ما كان يعاقب به مَنْ حَلَفَ ظُلماً ، يعنى في الحرم ، زمن الجاهلية ، فقال : إن الناس ليرتكبون ما هو أعظم منها ثم لا يعجلُ لهم من العقوبة مثل ما كان يعجلُ لأولئك ، فما ترون ذلك ؟

فقالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : إن الله جلَّ ثناؤه جعل في الجاهلية ، إذ لادينَ ، حرمةَ حرِّمها وعظمها وشرِّفها ، وجعل العقوبة لمن استحل شيئاً مما حرَّم ، كيُنسكب عن انتهاك ما حرَّم مخافة تمجيد العقوبة ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أوَّعدهم فيها

اتهمكوا بما حرم الساعة ، فقال : « والساعة أذكى وأمره »^(١) .

فآخر العقاب إلى يوم القيامة ، وأراهم الله الاستجابة بعضهم لبعض ليقفوا
عن الظلم ، وآخر أهل الإسلام ليوم الجمع ، ويستجيب الله لمن يشاء ، فاتقوا الله
وكونوا مع الصادقين .

ومن المشهور في هذا الباب أمرُ إسافَ ونائلةَ ، وهما صتما قرشي اللذان
أقاموا على زمنهم ينتحرون عندهما . ذكروا أنهما كانا رجلا وامرأة من جرهم ،
إساف بن بنية ، ونائلة بنت ديك ، فوقع إساف على نائلة في الكعبة ، ففسخهما
الله حجرين . ويقال : أخذنا فيها ففسخهما الله . فالله أعلم .

وأمرهما ممدودٌ فبلى بلفظ إليه جرهم من الاستخفاف بحرمه الحرم^(٢) وقلة
مبالغهم بالتهنى فيه ، مع ما أراهم الله من عظيم الآية بمسخهما حَجَرَيْن ، فأنه
ذلك عن قبيح ما كانوا عليه ، حتى أخرجهم الله عن جواربته بأيدي آخرين من
عباده ، فكان من أمرهم مع خُرَاعة ما كان .

[خروج جرهم من مكة] .

نفرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرهمي بقرآلى الكعبة وبجحر الركن
فدفنها في زمنهم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، وحزنوا على ما فارقوا
من أمر مكة ومثلها حزناً شديداً .

فقال عمرو بن الحارث بن مُضاض في ذلك ، وليس بمضاض الأكبر :

كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجَّوْنَ إِلَى الصَّفَا^(٣) أَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَلَامُ

(١) سورة القمر ٤٦ .

(٢) غيرط : حرمة الله .

(٣) الحجون : جبل بمكة .

بل نحن كنا أهلها فأزالنا^(١) صروفُ الهالكِ والجودُ التواضعُ
وكنا ولاية البيت من بعد نابتِ نطوفُ بذاك البيتِ والغيرُ ظاهرُ
ونحن قلوبنا البيت من بعد نابتِ بجزءٍ فما يغطي لدينا المكانُ
ملكنا قعرنا فأعظمُ بملكنا فليس لحى غيرنا ثم فانيرو
ألم تُنكحوا^(٢) من خير شخصٍ عليته

فأبناؤه منّا ونحن الأصاهرُ
فإن تنكح الدنيا علينا بجمالها فإن لها حالا وفيها التشاجرُ
فأخرجنا منها الملكُ بقدرته كذلك لا للناس تجرى المقاديرُ
أقول إذا نام الخليلُ ولم أتم أذا الترش لا يبعد سهيلُ وهاجرُ
وبدلتُ منها أوجهًا لا أحبها قبائل منها خيرٌ ويحار^(٣)
ومررتنا أحاديثًا وكنا بنبطة كذلك عَضَّتْنَا السُّنُونُ الغوايرُ
فَسَحَّتْ دموعُ العين تبكي لبلدة بها حرمٌ أُمْنٌ وفيها المشاهرُ
وتبكي لبنتٍ ليس يؤذى حمامه يظلُّ به أمنا وفيه المصافرُ
وفيه وحوشٌ لا تُرامُ أُنيسة إذا خرجت معه فليست تُفادُ
وقال عمرو بن الحارث أيضا يُذكرُ بكَرًا وغُبْشَانٍ وساكني مكة الذين
خَلَقُوا فيها بدمهم :

يا أيها الناس شهِدوا إن قَعَرَ كَم^(٤) أن تُصْبِحُوا ذاتَ يومٍ لا تُسِيرُونَا
حُشُوا لِلطِّيِّ وَأَرْحُوا مِنْ أَرْمَتِهَا قَبْلَ الْمَاتِ وَقَصُوا مَا تُفْعَلُونَا
كُنَّا أَفَاسًا سَا كَفَمُ فَفَدَرْنَا دَهْرٌ ، فَأَتَمَّ كَا كُنَّا تَكُونُونَا

(١) ت ط : فأبادنا ؟ وهي رواية ابن مشام .

(٢) ط : ينكحوا .

(٣) ت : ويظهر وهو خطأ . وحيرو ويحارب من قبائل اليمن .

(٤) تصرك : نهايتكم وهايتكم .

قال ابن هشام [هذا ما صح له منها]^(١) وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يُسمَّ لها^(٢) فأنزلها .

[ولاية خزاعة البيت]

ثم إن غُبْشَانَ من خُزَاعَةَ وليت البيت دون بني بكر بن هذيلة .

وغُبْشَانَ لقب ، واسمه الحارث ، وخزاعة يقال إنهم من ولد قَمْعَةَ بن أَلْيَاس ابن مُضَرَ ، وأن أباهم عمرو بن لُحَيٍّ هو عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ [بن خِنْدَف]^(٣) وخزاعة يأتون هذا النسب ، ويقولون إنهم من ولد كعب بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن قَسَّان .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُرِيتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ بن خِنْدَفٍ يَجُرُّ قُعْبَتَهُ »^(٤) في النار ، فسأله عن أبيه وبينه من الأمم ، فقال : هلكوا .

ف قيل له : ومن عمرو بن لُحَيٍّ ؟ قال : أبو هؤلاء الحَيٍّ من خُزَاعَةَ ، وهو أول من غيَّرَ الحنيفية دين إبراهيم ، وأول من نصَّب الأوثان حول الكعبة^(٥) .

فلئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ، فرسول الله أعلم وما قال فهو الحق .

(١) من ابن هشام .

(٢) ابن هشام : لى .

(٣) من ت ط .

(٤) اللصب : الأسماء .

(٥) الذى رواه البخارى إلى قوله : « هلكوا » .

ومحرو بن ربيعة الذي تنسب إليه خزاعة يقال : هو محرو بن لحيّ ، وإن حارثة بن ثعلبة بن محرو خَلَفَ على أم لحيّ ، وألحيّ هو ربيعة بعد أن تأيّم^(٦) من قَمَعة ، وألحيّ صغير ، فبناه حارثة وانسب إليه .

فيكون النسب على هذا صحيحاً بالوجهين ، إلى قَمَعة بالولادة وفق ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ، وإلى حارثة بن ثعلبة بالتبني ، والانساب به موجود كثيراً في العرب .

فلما ولدت خَزَاعَةُ الْبَيْتِ سَفَلَوْهُ مما كانت جرم استباحته ، وتوافروا على تعظيمه والذَّبُّ عنه ، وكان الذي يليه منهم محرو بن الحارث التُّهَشَانِي ، ثم قومه من بعده ، وقريش إذ ذاك حُلُولٌ وَصِرْمٌ^(٧) متقطعون وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة .

فأقامت خزاعة على ولاية البيت ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان آخرهم حُمَيْلُ بْنُ حَبَشَةَ بْنِ سُلُولِ بْنِ كَعْبِ بْنِ محرو الخزاعي .
وبعده انتقلت ولاية البيت إلى قُصَيِّ بْنِ كِلَاب .

[حديث قصي]

وكان من حديث قصي أنه لَمَّا هَلَكَ أبوه كِلَابُ بْنُ مُرَّة ، خَلَفَ ولديه زُهْرَةَ وَقُصَيًّا ، وأما فاطمة بنت سعد بن سَتِيلِ بْنِ عُذْرَةَ ، وزُهْرَةَ يومئذ رجل ،

(٦) ث ط : آت . ولحق واحد وهو موت الزوج عن المرأة .
(٧) الحُلُولُ جمع الحَالِ بشديد اللام والصرم بكسر الصاد وسكون الراء هو الطائفة من القوم ينزلون يليهم ناسية من اللاء والجمع أصرام .

وقُصِيَ قُصِيٌّ ، فقدم مكةَ بدَّ مَهْلِك كلابٍ حاجٌّ من قُضَاعَةٍ فيهم ربيعة بن حَرَام بن ضَنْة بن هُبْد كبير بن عُدْرَة ، فتزوج فاطمة بنت سعد فاحتلمها إلى بلاده ، فاحتلمت ابنها قُصِيًّا لصِهره ، وأقام زُهرَةً في قومه .

فولدت فاطمةُ لربيعة رِزاحاً ، فكان أخا قُصِيٍّ لأمه ، وكان لربيعة بنون ثلاثة من امرأة أخرى ، وم حُنٌّ ومحمود وجُلُمُة ، بنو ربيعة .

وأقام قُصِيٌّ بأرض قُضَاعَةٍ لا يُنسب إلا إلى ربيعة بن حَرَام .

ففاضل يوماً رجلاً من قُضَاعَةٍ يُدعى رفيعاً ، ففَضَّله قُصِيٌّ ، وهو يومئذ شاب ، فغضب المنضول ، فوقع بينهما حقّ تقاولاً وتنازلاً ، فقال رفيع : ألاّ تلحقُ ببهوك وبقومك ، فإنك لست بها !

فرجع قُصِيٌّ إلى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال ، فسألها عن ذلك فقالت : أو قد قال هذا ؟ أنت والله يا بُنَيَّ أَكْرَمُ منه نفساً ووالداً ونسباً وأشرفُ منزلاً ، أنت ابنُ كِلَاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤمَيٍّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النُّضْر بن كِفانة القُرَشِيّ ، وقومك بمكةَ عند البيت الحرام وفيما حوله ، تفقّدُ العرب إلى ذلك البيت ، وقد قالت لي كاهنة رأتك : هذا يلي أمر اجليلا ، فطِبَّ نفساً .

فأجمع قُصِيٌّ الخروجَ إلى قومه والاحقوق بهم ، وكره الغربةَ بأرض قُضَاعَةٍ ، وضاق دَرْحاً بالمقام فيهم ، فقالت له أمه : لا تَمَجِّلْ حقِّي يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاجٍ العرب ، فإنّي أخشى عليك أن يصيبك بعضُ الناس .

فأقام قُصِيٌّ حتى إذا دخل الشهرُ الحرامُ وخرج حاجٌّ قُضَاعَةٍ خرج معهم ،

وهم يظنون أنه إنما يريد الحج ثم يرجع إلى بلاده ، حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وعالجه القضاة على الخروج معهم فأبى .

وكان رجلاً جَلَدًا نَهْدًا نَسِيْبًا ، فلم ينشب أن يخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشَةَ ابنته حَيٍّ ، فعرف حُلَيْل النَّسَبَ ورغب في الرجل فزوجه ، وحُلَيْل يومئذ يلى أمر مكة والحُكْمَ فيها وجِجَابَةَ البيت .

فأقام قصى معه بمكة ، وولدت له حَيٌّ بنيه عبد الدار وعبد مناف وعبد المِزْزَى وعَبْدًا .

فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعُظُمَ شرفه هلك حُلَيْل ، فرأى قصى أنه أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قرِيشاً قرْضَةً^(١) إسماعيل ابن إبراهيم عليها السلام وصريحٌ ولده .

فكَلَّم رجلاً من قرِيش وبني كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، فأجابوه إلى ذلك ، فكعب عند ذلك قصى إلى أخيه من أمه رِزاح بن ربيعة ، يدعوهُ إلى نُصْرته والقيام معه ، ففرج رِزاح ومعه إخوته لأبيه ، حُنُ لا ومحمود وجُلُثُمَةُ ، فيمن تبهم من قضاة في حاج العرب ، وهم مُجْتَمِعُونَ للعصر قصى والقيام معه .

فلما اجتمع الناس بمكة وفرغوا من الحج ولم يبق إلا أن يَصْدُرَ الناسُ ، كان أول ما تعرض له قصى من المفاسك أمرُ الإجازة للناس بالحج .

(١) القرعة : النضبة والحيار

[صوفة تميز للناس بالحج]

وكان صوفة هي التي تلى ذلك مع الدفع بهم من عرفة ورعى الجمار ، وهم
ولد الفوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر .

والفوث هو أول من ولي ذلك منهم .

وذلك أن أمه كانت امرأة من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت
ولدا أن تصدق به على الكعبة عتيذا لما يخلصها ويقوم عليها ، فولدت الفوث
فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، فولى
الإجازة بالناس من عرفة لسكانه الذي كان به من الكعبة ، وولده من بعده
حتى انقرضوا .

فقال مر بن أد أبو الفوث^(١) لوفاء نذر أمه :

إني جعلت رب من يذيه ربيطة بمكة التليمة
فباركن لي بها أليته^(٢) واجعله لي من صالح البرية

وكان الفوث بن مر ، زهوا ، إذا دفع بالناس قال :

لأهم إني تابع ثيابة إن كان إثم فتلى قضاة

وذلك أن قضاة كان منهم أحباء يستأجرون الحرم في الجاهلية ، فكانت
صوفة تدفع بالناس من عرفة ، وتميز^(٣) بهم إذا نفروا من منى ، فإذا^(٤) كان يوم النفر
أتوا ليرعى الجمار ، ورجل من صوفة يرى للناس ، لا يرمون حتى يرى ، فكان

(١) خريط : ابن الفوث .

(٢) الألية : التسم . ويريد بها هنا النفر .

(٣) الأصول : وتعين . وما أئجه من ابن هشام . (٤) ط : إذا

ذوو الحاجات للتمسجون يأتيونه فيقولون له : قم فأرهم حتى نرى . . لك . فيقول : لا والله حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التمجيل يرمونه بالحجارة ويستعملونه بذلك ، ويقولون له : ويالك قم فأرهم بنا^(١) . فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورعى الناس معه .

فإذا فرغوا من رمى الحجار وأرادوا الففر من متى أخذت صوفة بجانب القبة فخبسوا الناس وقالوا : أجيزي صوفة . فلم يجز أحد من الناس حتى يمرؤا ، فإذا نفدت صوفة ومضت خلت سبيل الناس فانطلقوا بهمدم ، فكانوا كذلك حتى انقرضوا .

فورثهم ذلك من بهمدم بالقمعد^(٢) بنو سعد بن زيد مائة بن تميم ، وكانت من بني سعد في آل صفوان بن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب ابن سعد .

فكان صفوان هو الذي يميز للناس بالحج من هرفة ، ثم يهوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام كريب بن صفوان .

وفي ذلك يقول ابن مفرأ السعدي :

لا يفرحُ الناسُ ما حَبَّبُوا مُعَرَّفَهُمْ حتى يُقالَ أجيَزوا آلَ صَفْوَانَا

فأما قول ذي الإصبع المدواني ، واسمه حُرثان بن عمرو ، وقيل له ذو الإصبع لحية لذهبه في إصبعه فقطعها :

عَذِيرَ الحَيِّ من عَمَدُوا نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ

(١) ليست في ابن هشام .

(٢) أي يثرب النسب . قال الأعشى : ورثته بالقمعد : صفة للنسب .

بَقِيَ بَعْضُهُمْ ظُلْمًا فَلَمْ يُرْعَ عَلَى بَعْضٍ^(١)
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَاتُ وَالْمُؤَنُونَ بِالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْهِزُ النَّاسَ بِالشُّقَّةِ وَالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقَضَ مَا يَقْضِي

فإنما قال ذلك لأن الإفاضة من المزدلفة كانت في عدوان ، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ، يتوارثون ذلك كبرا عن كبر ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو سَيَّارَةَ مُحَمِّلَةَ بن الأهل .

قال حويط بن عهد المزني : رأيت أبا سَيَّارَةَ يدفع بالناس من جمع على أنان له عقوق^(٢) . وذكروا أنه أجاز عليها أربعين سنة .

قالوا : وكان إذا وقف للناس قال : اتقوا الله ربكم ، وأصلحوا أموالكم ، واحفظوا جيرانكم ، وقتلوا أعداءكم ، اللهم حبب بين نساءنا ، وبخس بين رعاينا ، واجعل أمر الناس بأيدي صلحائنا . ثم يقول : أفيضوا على بركة الله .

وفيه يقول شاعر من العرب :

نَحْنُ دَقَمْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ وَهِيَ مَوَالِيهِ بَنِي فَزَارَةَ

حَقِّي أَجَازَ سَالِكًا حِمَارَهُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ يَدْعُو جَارَهُ

قوله : « حَكَمٌ يَقْضِي » يعني حامر بن غزيب المدواني ، وكانت العرب لا يكون بينها نائرة^(٣) ولا عُصْلَةٌ في قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه .

(١) أوعيت عليه : أهلكته وترجمته .

(٢) الطوق كسبور : الخائل أو الخائل ، ضد ، أو هو على الفاعول .

(٣) النائرة : المداوة والشناء .

فاختُصِمَ إليه ، في بعض ما كانوا يختلفون فيه ، في رجل خُتِنَى له ما للرجل وله ما للمرأة ، أيجمله رجلا أو امرأة ؟ ولم يأتوه بأمرٍ كان أعضل .

فقال : حق أنظرَ في أمرِك ، فوالله ما نزل بي مثلُ هذه منك يا معشر العرب . فاستأخروا عنه ، فبانت ليلته ساهراً يقلب أمره ويفظز في شأنه فلا يتوجه له منه وجه ، وكانت له جارية يقال لها سُخَيْلَة تَرعى عليه غنمه ، فسكان يعاتبها إذا سَرَحَتْ فيقول : صَبَحَتْ والله يا سُخَيْل . وإذا راحت عليه يقول ^(١) : مَسَيْتِ والله يا سُخَيْل . وذلك أنها كانت تؤخر السرح حتى يسبقها بعض الناس ، وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس .

فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت : مالك لا أهلك ما عراك في ليلتك هذه ؟ قال : ويحك دَمِينِي ، أمرٌ ليس من شأنك . ثم عادت له بمثل قولها ، فقال في نفسه : عسى أن تأتي مما أنا فيه بفرَج . فقال : ويحك ، اخضعي إلى في ميراث خُتِنَى ، أأجمله رجلا أو امرأة ؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجه لي فيه وجه .

فقالت : سبحان الله ! لا أهلك ! أنبيح ^(٢) القضاء للآل ، أقمِذه ، فإن هال من حيث يقول الرجل فهو رجل ، وإن هال من حيث تبول المرأة فهو امرأة .

فقال : مَتَى سُخَيْل بعدها أوصَبِي ، فَرَجَتْها والله .

ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقصى بالذي أشارت عليه .

(١) اب : قال

(٢) ت : وجه .

[عَوْدٌ إِلَى قِصَى]

وهذا كله من الظاهر معترض قطع اتصال حديث صُوفَة وقُصَى ، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه .

حيث ذكر أن صُوفَة هي التي كانت تلى الإجازة للناس من مِثَى والدفع بهم من عرفة ، وأن قُصَيًّا عزم على انتزاع ذلك من أيديهم والقيام به دونهم ، واستدعى لمظاهرة على ذلك أخاه رِزَاحًا فوصله مع مَنْ ذَكَر وصولهم معه .

فلما كان ذلك العام فملت صُوفَة مثل ما كانت تفعل ، قد عرفت ذلك لها العرب ، وهو دين في أنفسهم من ^(١) عهد جُرْهم وخزاعة .

فأنام قُصَى بن معه من قومه من قريش وكِفاة عند التَّعْبَةِ ، فقال : لَنَحْنُ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

فقاتلوه ، فاقْتَتَلَ النَّاسُ قَتَالًا شَدِيدًا ، ثُمَّ انْهَزَمَتِ صُوفَة وَغُلِبَ قُصَى عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ .

وأنمازت عند ذلك خُزَاعَة وبنو بَكْرٍ عَنْ قِصَى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صُوفَة ، وأنه سيمَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّكْبَةِ وَأَمْرِ مَكَّةَ ، فلما انمازوا عنه بأداهم وَأَجْمَعُ لِحَرْبِهِمْ ، وَخَرَجَتْ لَهُ خُزَاعَة وَبَنُو بَكْرٍ فَالْتَقَوْا ، فَاقْتَتَلُوا قَتَالًا شَدِيدًا بِالْأَبْطَاحِ ، حَتَّى كَثُرَتِ الْقَتْلَى فِي الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا ، وَقَشَّتْ الْجِرَاحُ فِيهِمْ وَأَكْثُرُ ذَلِكَ فِي خُزَاعَة .

ثُمَّ لَبَّاهُمْ تَدَاوَعُوا إِلَى الصَّلَاحِ وَإِلَى أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ رِجَالًا مِنَ الْعَرَبِ ، فَحَكَمُوا يَعْمَرُ بْنُ عَوْفٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ حَامِرٍ بْنِ لَيْثٍ بْنِ بَكْرٍ بْنِ عَيْدٍ مَعَاةَ بْنِ كِيفَاةَ بْنِ قِصَى .

(١) ابن هشام : و

فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ قُضِيَ أَوْلَى بِالسَّكْبَةِ وَأَمْرٌ مَكَّةَ مِنْ خُرَاحَةِ ، وَأَنْ كُلَّ دَمٍ أَصَابَهُ قَعَى مِنْ خُرَاحَةِ وَبَنَى بِكَرٍ مَوْضُوعٍ يَشْدَحُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَأَنْ مَا أَصَابَتْ خُرَاحَةُ وَبَنَى بِكَرٍ مِنْ قَرِيشٍ وَكَفَانَةٍ وَقَضَاعَةٍ فِيهِ الدِّيةَ مَوْدَاةً ، وَأَنْ يَحْلَى بَيْنَ قَعَى وَبَيْنَ السَّكْبَةِ وَمَكَّةَ .

فَسَمَّى يَمْعُرُ بْنُ حَوْفٍ يَوْمَئِذٍ الشَّدَانَحَ ، لِأَنَّهُ شَدَحَ مِنْ الدَّمَاءِ وَوَضَعَ مِنْهَا ، وَيُقَالُ الشَّدَانَحُ^(١) أَيْضًا .

فَوَلَّى قَعَى^٢ الْبَيْتَ وَأَمْرَ مَكَّةَ ، وَجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَتَمَلَّكَ حُلَى قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَكَّةَ فَنَفَّسَهُمْ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَقْرَبَ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ دِهْنًا فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي تَغْيِيرَهُ .

فَأَقْرَبَ آلَ صَفْوَانَ وَعَدَوَانَ وَالنِّسَاءَ وَمُرَّةَ بْنِ حَوْفٍ حُلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ .
حَقٌّ جَاءَ الْإِسْلَامَ فَهَدَمَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ .

[النِّسَاءُ]

وَبَنَى مُرَّةَ بْنُ حَوْفٍ أَهْلَ الْبَسَلِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ^(٣) .
وَأَمَّا النِّسَاءُ فَهِيَ بَنُو قُعَيْمِ بْنِ هَدِيٍّ بْنِ حَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِفَانَةَ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ أَلْيَاسِ بْنِ مُصَرَّرٍ .

(١) ضَبَطَهُ فِي الْقَامُوسِ بِالضَّمِّ . قَالَ السَّهِيلُ : وَالشَّدَانَحُ بِضَمِّهَا - أَيْ الشَّهِ - إِعْمَا هُوَ جَمٌّ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَمْسَى هُوَ وَبَنُوهُ بِالشَّدَانَحِ ، كَمَا يُقَالُ : الْمُنَادَةُ فِي الْمَنْزِلِ وَبَلَدِهِ ، وَالْأَشْمَرُونَ فِي بَيْتِ الْأَحْمَرِ .

(٢) تَقَدَّمَ ذَلِكَ س ٢٩

وهم الذين كانوا يفتنون الشهور على العرب في الجاهلية ، فيُحِلُّون الشهر من أشهر الحرم ويحرِّمون مكانه الشهر من أشهر الحِلِّ ويؤخرون ذلك الشهر ، ففيه أنزل الله سبحانه : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، لِيُوَاطِّئُوا هِدَاةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زَيْنٌ لَّهُمْ سُوهُ أَعْمَالُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (١) .

وكان أول مَنْ نَسَأَ الشهور منهم على العرب ، فأحلت منها ما أحلَّ وحرمت منها ما حرَّم : القَدَسُ ، وهو حَذِيفَةُ بن عَدِيٍّ بن قَعْنَمٍ بن عَدِيٍّ ، وتوارث ذلك بدوه مِنْ بَعْدِهِ ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثَمَامَةَ جُنَادَةَ بن هُوَافِ بْنِ أُمَيَّةَ بن قَلْعِ بن قَبَادِ بن حَذِيفَةَ ، وهو القَدَسُ .

قال الزبير : وكان أُنَسِدَهُمْ ذِكْرًا وأطولهم أمرا ، يقال إنه نَسَأَ أربعين سنة .

وكانت العرب إذا فرغت من حَجَّجِهَا اجتمعت إليه ، فحرَّم الأربعة الأربعة : رَجَبًا ، وذا القعدة ، وذا الحِجَّةِ ، والحَرَمَ . فإذا أراد أن يُحِلَّ منها شيئًا أحلَّ الحرم فأحلَّوه ، وحرَّم مكانه صَفَرًا فحرَّموه ، ليواطِّئوا هِدَاةَ الأربعة الأربعة الأربعة .

فإذا أرادوا العِدَّةَ (٢) قام فيهم فقال : اللهم إني قد أحللتُ أحدَ الصَّغَرَيْنِ ، الصَّغَرِ الأول ، ونَسَأْتُ الآخرَ للعام للقبول .

وفي ذلك يقول حميد بن قيس ، جَذَلُ الطَّمَانِ ، أحد بني فِرَاسِ بن عَتَمِ بن مالك بن كنانة ، يفخر بالنِّسَاءِ على العرب :

(١) سورة التوبة ٣٧ .

(٢) أى الرجوع من مكة .

لقد علمتَ مَعْدَةً أَنْ قَوْمِي
 كَرَامُ النَّاسِ إِنْ لَهُمْ كِرَامًا
 فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِزِينَةٍ
 وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تُعَلِّكْ لِيَجَامَا
 أَلَسْنَا النَّاسِيَيْنِ عَلَى مَعْدَةٍ
 شُورَ الْحِلِّ تَجْمَلُهَا حَرَامًا
 فهذا كان شأن النساء في الجاهلية ، فأقره قُصَى على ما كان عليه ، مع سائر
 ما ذُكر لإقراره العرب عليه .
 حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

فكان قُصَى أولَ بني كُثَيْب بن لُؤَيٍّ أصاب مُلْكًا أطاع له به قومه ،
 فسكنت إليه الحجابة والسقاية ، والزفافة ، والندوة ، واللواء . فحاز شرف مكة
 كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأُنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة
 التي أصهبوها عليها .
 ويزعم الناس أن قريشاً هابوا قُطْعَ الشجر من الحرم في منازلهم ، فقطعتهم
 قُصَى بيده وأعوأته .
 فسَمَّته قريشٌ مُجْتَمَعًا ، لِمَا جَمَعَ من أمرها ، وتيسَّلت بأمره ، فأتى مُتَسَكِّح
 امرأته ولا يزوجه رجل من قريش ، ولا يشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون
 لواء الحرب قوم غيرهم إلا في داره ، يعقده لهم بعض ولده ، ولا يُنْذَرُ^(١) غلامٌ إلا في
 داره ، ولا تَدْرِعُ جاريةٌ من قريش إلا في داره ، يُشَقُّ عليها فيها درعها إذا
 بلغت ذلك ، ثم تَدْرِعُه ثم يُنْطَلَقُ بها إلى أهلها .

(١) يعلز : يمتن .

ولا تخرج غير من قريش فيرحلون إلا من داره ، ولا يقدّمون إلا نزلوا في داره .

فكان أسرّه في قريش في حياته ومن بعد موته كالفين المتبع ، لا يُعمل بشيء .

وأخذ لنفسه دارَ الدوة ، وجعل بابها إلى مسجد السكبة ، ففيها كانت قريش تفضي أمورها .

ولما فرغ قصي^٤ من حربه انصرف أخوه رزاح إلى بلاده بمن معه من قومه ، فلما استقر في بلاده نشره الله ونشر حنّاً ، فهما قبيلاً عُدّة اليوم .



فهذا حديث قصي^٥ في ولاية البيت بعد حلّيل بن حُبْشَة وإخراج خزاعة عنه .

وخزاعة تزعم أن حلّيلاً أوصى بذلك قصياً وأسرّه به حين انشره من ابنته من الولد ما انشر ، وقال : أنت أولى بالسكبة والقيام عليها وأمر مكّة . من خزاعة فمعد ذلك طلب قصي ما طلب

قال ابن إسحاق : ولم يُسمع ذلك من غورم . فافقه أهل .

وقد ذكر الواقدي الأمرين على نحو ما ذكر ابن إسحاق .

قال : وقد سمعنا في ذلك وجهاً آخر ، ذكر أن أبا غُبْشان رجلاً من خزاعة ، كان وليّ السكبة فباع حجابتها من قصي^٦ بن كلاب بيمين . وذكر غيره أنه باع منه مفتاح السكبة بزيّ خمر . فلذلك قيل : أخذتُ صَفْقَةً من أبي غُبْشان .

وذكر الواقدي أيضاً بإسناد له ، أن رجلاً من قضاة يقال له أبو الشموس

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة حديث قصى بن كلاب ، وكيف استعان بإخوته على خزاعة ، فاستمع له عمر وتعجب لأول الحديث وقال : ذكرتنا أمرا كان دثر منا ، فالجده رب العالمين ، إن الله عز وجل ليصنع لهذا الحى من قريش ، وهم أولى الناس أن يتقوا الله وتحسن سيرة من ولى منهم ، يصنع الله لهم ، جعل فيهم الإمامة وقبيل ذلك النبوة .

[عهد الحار]

قالوا : فلما كبر قصى ورقي ، وكان عهد الحار يكره ، وكان عهد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وعهد المزنى وعهد ، قال قصى لعهد الحار : أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك .

لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا ينفق لقريش لواء إلا أنت بهدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الحرم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا في دارك .

فأعطاه دار الندوة التي لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الجعابة واللواء والسقاية والرئاسة .

وكانت الرئاسة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

وذلك أن قصى فرّضها على قريش ، فقال لهم [حين أمرهم به] ^(١) يا معشر

قُرَيْشٌ ، لَأَنكُمْ جِيرانُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَهْلُ الْحَرَمِ ، وَإِنْ الْحُجَّاجُ ضَعِيفُ اللَّهِ
وَزَوَّارُ بَيْتِهِ ، وَهِيَ أَحَقُّ الضَّعِيفِ بِالْكَرَامَةِ ، فَاجْعَلُوا لَهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا أَيَّامَ الْحَجِّ
حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ .

فَفَعَلُوا ، فَكَانُوا يُخْرِجُونَ لِلَّذِكِّ كُلِّ عَامٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ خَرْجًا فَيُدْفَعُونَ إِلَيْهِ ،
فَيَصْنَعُهُ طَعَامًا لِلنَّاسِ أَيَّامَ مِثْقَى ، فَيَجْرِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى قَوْمِهِ حَتَّى
قَامَ الْإِسْلَامُ ، ثُمَّ جَرَى فِي الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِنَا^(١) هَذَا ، فَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي يَصْنَعُهُ
السُّلْطَانُ كُلِّ عَامٍ بِمَنْ لِلنَّاسِ حَتَّى يَنْقُضِيَ الْحَجَّ .

فَقَصَى أَمْرَ قُصَى فِي عَهْدِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا كَانَ يَبْدُو مِنْ أَمْرِ
قَوْمِهِ ، وَكَانَ قُصَى لَا يُخَالَفُ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ .

[وَفَاةُ قُصَى]

ثُمَّ إِنَّ قُصَى هَلَكَ ، فَأَقَامَ أَمْرُهُ فِي قَوْمِهِ [وَفِي غَيْرِهِمْ]^(٢) بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ .
فَاخْتَلَفُوا مَكَّةَ رِبَاةً بَعْدَ الَّذِي كَانَ قُصَى قَطَعَ لِقَوْمِهِ بِهَا ، فَكَانُوا يَقْطَعُونَهَا فِي
قَوْمِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنْ حُلَفَائِهِمْ وَيَبِيْعِيْنَهَا .

فَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ مَعَهُمْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَازُعٌ .

[بَنُو عَهْدِ مَنَافٍ ، وَبَنُو عَهْدِ الْحَارِثِ]

ثُمَّ إِنَّ بَنِي عَهْدِ مَنَافٍ بَنِي قُصَى : عَبْدَ شَمْسٍ وَهَاشِمًا وَالْمُطَّلِبَ وَنَوْفَلَ أَجْعَدُوا أَنْ
يَأْخُذُوا مَا فِي يَدِ بَنِي عَهْدِ الْحَارِثِ [بَنِي قُصَى]^(٣) بِمَا كَانَ قُصَى جَعَلَ إِلَى عَهْدِ الْحَارِثِ
مِنْ الْحِجَابَةِ وَاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةِ ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ
وَفَضْلِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ ، فَفَرَّقَتْ عِنْدَ ذَلِكَ قُرَيْشٌ ، فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَ بَنِي

(١) ابْنُ حِشَامٍ : يَوْمُكَ .

(٢) (٣ ، ٤) ابْنُ حِشَامٍ .

عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم في^(١)
قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لا يُنزع منهم ما كان قصي
جعل إليهم .

فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف . وذلك أنه
كان أسنهم .

وكان صاحب أمر بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن
عبد الدار .

وكانت^(٢) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو
تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر . مع بنى عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو ستم بن عمرو بن هصيص بن كعب
وبنو جهم بن عمرو بن هصيص ، وبنو عدي بن كعب ، مع بنى عبد الدار .

وخرجت عامر بن لؤي ومحارب بن فهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

فمقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً
ما بلى بجره صوفة^(٣) .

فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند
السكبة ، ثم غس القوم أيديهم فيها فتعاهدوا [وتعاهدوا]^(٤) ثم حلفوا لهم ، ثم
مسحوا السكبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسئوا المطيعين .

(١) غيرت : من .

(٢) ابن هشام : فكان .

(٣) أي إلى الأبد .

(٤) من ابن هشام .

وتماقد بنو عهد الدار [وتماحدوا هم]^(١) وحلفائهم عند السكبة حلفاء ، وكذا على أن لا يتضادوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً ، فسخطوا الأحلاف .

ثم سَوَّدَ بين القبائل ولزَّ بعضها ببعض ، فَعَبَّثَ^(٢) عبد مناف لبني سهم ، وعَبَّثَ بنو أسد لبني عهد الدار ، وعَبَّثَ زُهْرَةُ لبني جُحج ، وعَبَّثَ نَبِيْلُ لبني مخزوم ، وعَبَّثَ بنو الحارث بن قُحَر لبني عدي ، ثم قالوا : لَقْنُ^(٣) كل قبيلة من أسد إليها .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تَدَاعَوْا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عهد مناف السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ ، وأن تكون الحجابة والاقواء والنَّدَوَةُ لبني عهد الدار كما كانت ، ففعلوا ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتماجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع مَنْ حالفوا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان من حالف في الجاهلية فإن الإسلام لم يَزِدْهُ إلا شدة »^(٤) .

فهذا حلف المطَّيِّبين

(١) من ابن هشام .

(٢) سَوَّدَ : أى قول . ولزَّ : شد بعضها ببعض . وعَبَّثَ : أهدت وجزرت

(٣) ابن هشام : لَقْنُ .

(٤) أى : أسلاف البر والخير ، مثل حلف الفصول الذى قال عنه الرسول : « ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » وبداهة لا يدخل فيه أحلاف العصية والبنى ، ولعل الرسول أراد هنا النزوع في قوله : « لا حلف في الإسلام »

قال ابن الأثير : « أسل الحلب للمعاودة والمهادنة على التصاعد والتساعد والاتفاق ، لما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والفتنارات فذلك الذى ورد التوى عنه في الإسلام بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حلف في الإسلام » ، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وملة الأرحام ، كحلف المطَّيِّبين وما جرى مجراه ، فذلك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيما حلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شدة » يريد من المناقضة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان « انظر لسان العرب ٣٩٩/١٠

[حلف الفضول]

وقد كان في قريش حلف آخر بعده ، وهو حلف الفضول ، تداخت إليه قبائل من قريش ، فاجتمعوا إليه في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة ، لشرفه وسعه ، فتماقذوا وتماهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تُردَّ عليه مظلومه ، فسُمِّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

واختلف في السبب الذي دعا قريشا إلى هذا الحلف ، ولم يسمي^(١) بهذا الاسم .

فأما ما دعام إليه ، فذكر الزبير وغيره أن رجلا من أهل اليمن من بني زُبَيْد قدم مكة مُتَمَرِّكاً ومعه بضاعة له ، فاشتراها رجل من بني سَهْم ، ويقال : إنه الناصر بن وائل ، فلو^(٢) الرجل بحقه ، فسأله ماله فأبى عليه ، وسأله مقامه فأبى عليه ، فجاأ إلى بني سَهْم يستعديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطوف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتعاضدت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك قام على الحجر ، ويقال : بل أشرف على أبي قُبَيْس حين أخذت قريش مجالسها ثم نادى بأعلى صوته ثم قال :

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَ ظَلَمْتُمْ بَضَاعَتَهُ يَبْنَؤُنْ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَأَشْمَتْ مُحْرِمٍ لَمْ يَقْضِ حُرْمَتَهُ بَيْنَ الْإِلَهِ وَبَيْنَ الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ
أَقَامْتُمْ مِنْ بَنِي سَهْمٍ بِذَمِّهِمْ أَمْ ذَاهَبْتُ فِي ضَلَالٍ مَالُ مُتَمَرِّمٍ

(١) ت : يسمى .

(٢) لواه دينه : مظلله .

فلما سمعت ذلك قريش أعظموه وتكلموا فيه ، فقال المطيِّبون : والله لئن
قنا في هذا لتتضبن الأحلاف ، وقال الأحلاف : والله لئن تكلمنا في هذا
لننضبن المطيِّبون . فقال ناس من قريش : تمالوا فلفسكن حلفاء فُضُولاً دون
المطيِّبين ودون الأحلاف .

فلذلك قيل له حلفُ الفضول .

فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل أن يوحى إليه ، فاجتمعت
بنوه هاشم وبنو المطلب وزهرة وأسد وتيم ، فحالفوا على أن لا يُظالم بمكة
قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه
ويردوا إليه مغلغلة من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم حمدوا إلى ماء من ماء زهزم
فجعلوه في جفنة ، ثم بهنوا به إلى البيت ففلست فيه أركانه ، ثم أتوا به
فشر به ، ثم انطلقوا إلى الرجل الذي تمعدى على الرجل المستصرخ ، الدامس
ابن وائل أو غيره ، فقالوا : والله لا نفارقك حتى تؤدى إياه حقه .

فأعطى الرجل حقه ، فسكنوا كذلك لا يُظالم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان
حلفاً ما أحب أن لي به حمرَ القمَر ، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت » .

وحكى الزبير أيضاً أنه إنما سُمي حلفَ الفضول لأهم تحالفوا على أن لا يتركوا
لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه .

وقيل : إنما سُمي بذلك لأنه لما تَدَاخَى له مِن ذِكرِ قبائل قريش كره
ذلك سائرُ المطيِّبين والأحلاف بأشرهم ، وبهموه حلفَ الفضول ، قِيَّياً له ،
وقالوا : هذا من فضول القوم .

وقيل : بل كان هذا الحلف على مثل حلف تقدم إليه نفر من جرهم يقال لهم : الفضل وفضل والفضيل^(١) ، فسئى لذلك هذا الآخر حلف الفضول :

وأيما ما كان من ذلك ، فعى مأثرة لقريش من مأثرها السكرام ، وآثارها العظام ، نالتهم فيه بركة حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو وإن كان فعلاً جاهلياً دعهم السياسة إليه ، فقد صار لحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم له وما قاله بعد النبوة فيه وأكده من أمره ، حُكمًا نزيهًا وفعلًا نبويًا .

وقد نشأ بين حسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن عُتبة بن أبي سفیان زمن معاوية ، والوليد يومئذ أمير المدينة من قبله ، معارضة في مال كان بينهما بذى للروة^(٢) ، فكان الوليد تحامل على حسين في حقه اسلمائه ، فقال له حسين : أحلف بالله لتُصَدِّقَنِي من حقى أو لأخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعوك بحاف الفضول .

فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد : وأنا أحلف بالله أن دعا به لأخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى يُنصف من حقه أو نموت جميعاً .

وبلغت المسور بن تخمرة الزُهري فقال مثل ذلك .

وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليد أنصف الحسين في حقه حتى رضى .

ولم تكن بنو عبد شمس دخلت في هذا الحلف .

(١) ذوالروة : قرية بواى القرى .

(٢) الروض الأم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وعاة ، وفضيل بن الحارث .

وقد سأل عبد الملك بن مروان عن ذلك محمد بن جبير بن مطعم إذ قدم عليه حين قُتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ، وكان محمد بن جبير أعلم قريش ، فلما دخل عليه قال : يا أبا سعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، يعنى بنى عبد شمس وبنى نوفل ابنتى عبد مناف ، فى حلف الفضول ؟ قال : أنت أعلم . قال عبد الملك : لتعيرنى يا أبا سعيد بالحق من ذلك . فقال : لا والله ، لقد خرجنا منه نحن وأنتم . قال : صدقت .

فكان خُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه نلرجت من عبد شمس ، حتى أدخل فى حلف الفضول .

[العرب فى جاهليتهم]

وكانت لقريش أحلام عظام ، كانوا منها فى جاهليتهم على مثل السلطان الضابط ، عناية من الله بهم ومنا منه سبحانه عليهم ، هم سكان الحرم ، وأهل الله وحجاب بيته ، وأهل السقاية والزقادة والرياسة والقواء والندوة ومكارم مكة ، وكانوا على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ، من قرصى الضيف ويرفد الحاج وتعظيم الحرم ومُنْعِهِ من التهنى فيه والإلحاد ، ومُنْعُ الظالم ومنع المظلم .

إلا أنه دخلت على أرايتهم أحداث غيّرت أصول الحنيفية عديم وطال الزمان حتى أنضى ذلك بهم إلى جهالات بشرائع الدين وضلالات عن سنن التوحيد ، فندارك الله ذلك كله بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهذى من الضلالة وعلم من الجهالة .

[عمرو بن لُحى]

فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَوَّرَ الْحَنَفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ وَنَصَّبَ الْأَوْثَانَ حَوْلَ
السَّكْبَةِ وَدَعَا إِلَى عِبَادَتِهَا : عَمْرُو بْنُ لُحَى بْنِ قَمْعَةَ بْنِ أَلْيَاسِ بْنِ مَضَرَ .

رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَأَكْتُمَنَّ بَنُ الْجَوْنِ
الْغُرَازَى : « يَا أَكْتُمَنَّ ، رَأَيْتَ عَمْرُو بْنَ لُحَى بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفٍ يَجْرُ قُصْبَهُ
فِي النَّارِ ، فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مَعَكَ بِهِ وَلَا بِكَ مِنْهُ » .

فَقَالَ أَكْتُمَنَّ : عَمَى أَنْ يَضُرَّنِي بِشَبْهِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ^(١) ، قَالَ : « لَا ، لِأَنَّكَ ^(٢)
مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ ، إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَوَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ ، فَتَصَبَّ الْأَوْثَانَ وَبَجَرَ
الْبَحِيرَةَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ وَتَعَمَّى الْحَايَى » .

فَالْبَحِيرَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ الدَّقَاقَةُ تُشَقُّ أُذُنُهَا وَلَا يُرَكَبُ ظَهْرُهَا وَلَا يُجْزَى وَبَرَّهَا
وَلَا يُشْرَبُ لِبَنَاتِهَا إِلَّا ضَيْفٌ ، أَوْ يُتَصَدَّقُ بِهِ ، وَتُهْمَلُ لِأَهْلَتِهَا .

وَالسَّائِبَةُ : الَّتِي يَنْذُرُ الرَّجُلُ إِنْ بَرَى مِنْ مَرَضِهِ أَوْ أَصَابَ أَمْرًا يَطْلُبُهُ أَنْ
يُسَيِّبَهَا تَرْحَمِي لَا يَنْتَقِعَ بِهَا .

وَالْوَصِيلَةُ : الَّتِي تَلِدُ أُمَّهَا اثْنَيْنِ فِي كُلِّ بَطْنٍ ، فَيَهْمَلُ صَاحِبُهَا لِأَهْلِهِ الْإِنَاثَ
مِنْهَا وَلِنَفْسِهِ الذَّكَورَ ، فَتَقْتُلُهَا أُمُّهَا وَمَعَهَا ذَكَرٌ فِي بَطْنٍ فَيَقُولُونَ : وَصَّاتْ أَخْذَاهَا ،
فَيُسَيِّبُ أَخُوهَا مَعَهَا فَلَا يَنْتَقِعُ بِهِ .

وَالْحَايَى : الْفَحْلُ إِذَا لَتَجَّ لَهُ عَشْرُ إِنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ تَعَمَّى

(١) ابْنُ هِشَامٍ : شَبَّهَ بِرَسُولِ اللَّهِ

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : إِنَّكَ .

ظَهَرَهُ ، فلم يُركب ولم يَمْزْ وَبَرَهُ وَخُلِّيَ في إِبَالِهِ يَضْرِبُ فِيهَا ، لا يَنْتَفِعُ مِنْهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه : « ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلِكُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »^(١) .

وذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم سَأَبَ من أرض التُّلَقَاءِ وبها يومئذ المالحق وهم من ولدِ خِلَاقٍ ، ويقال خَلِيقُ بنِ لَأَوْدَ بنِ سَامِ بنِ نُوحٍ ، رَأَى يَمْعِدُونَ الْأَصْنَامَ ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها وَنَسْتَعْمِدُهَا فَتُعْمِدُنَا وَنُسْتَعْمِدُهَا فَتُعْمِدُنَا .

فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسيرَ به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟^(٢)

فأعطوه صنما يقال له « هُبَلٌ » فقدم به مكة ، ففَصَّه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

[بداية الوثنية]

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنه كان لا يَطْفَأُ من مكة ظلمان منهم حين ضاقت عليهم والناسو القسيح^(٣) في البلاد ، إلا حل منه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحجرا نزلوا وضموه وطافوا به كطافوا بهم بالكعبة .

(١) سورة المائدة ١٠٣ .

(٢) الأصل : فيعبدوه .

(٣) ابن هشام : القسيح .

حتى نسلخ ذلك بهم^(١) إلى أن كانوا يعمدون ما استحسوه من الحجارة ،
[وأجيبهم]^(٢) حتى خلقت الخُوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين
إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم
من الضلالات .

وفهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت
والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهذى الأُذن والإهلال
بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك
لك ، لا شريك هو لك تملكه وما ملك » .

فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويعملون ملكها بيدها

يقول الله تبارك وتعالى للبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمن أكثرهم
بالله إلا وهم مُشركون »^(٣) ، أى ما يوحدونى بمعرفة^(٤) حتى إلا جعلوا مئ
شريكا من خلقي .

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قص الله تبارك وتعالى خبرها
على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وقالوا : لا تَدْرُنَّ أَلَمْ نَكُم لآلِهَتِكُمْ هَـ وَلَا تَدْرُنَّ وُدَّآ
وَلَا سَوَآءِآ ، وَلَا يَفُوتُ وَيُغَوِّقُ وَتَسْرَأُ ، وقد أضلوا كثيرا »^(٥) .

(١) أى أدى بهم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة يوسف .

(٤) ابن هشام : لمعرفة ، وما هنا أوضح .

(٥) سورة نوح ٢٣ : ٢٤ .

وذكر الواقدي بإسناده عن أبي هريرة أن أول ما أُعيدت الأصنام في زمن نوح عليه السلام ، وأن وَدًّا وسُوعًا وَيَفُوثَ وَيَمُوقَ ونَسْرًا كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح ، أهل عبادة وفضل ، فأتوا فوجدَ عليهم أهلهم وتوحَّش^(١) الناس لفقدهم ، فقال لهم رجل : ألا أصوِّرم لكم صوراً من خشب فتظفرون إليهم وتَسْكُنُون إلى رؤيتهم ؟ قالوا : بلى إن قدرت ، قال : أنا أقدر هلى تصوِّبرهم ، ولا أقدر أن أنفخ الروح فيهم .

فجاء بالصُّور كهيئةهم أحياء ، فأخذ أهل كل بيت صورة صاحبهم فوضعوها في منازلهم ينظرون إليها ، فأذهب ذلك بعض حزنهم .

فسكانوا على ذلك ما شاء الله ، حتى هلك ذلك القرن ، ثم خَلَفَ قرن آخر ثم ثالث بعده ، فسكانوا على ما كان عليه القرن الأول حتى هلكوا .

ثم خَلَفَ القرن الرابع ، فقالوا : لو أنَّ عَهْدَنَا هَؤُلاءِ لَقَرَّبُونَا إلى الله وشفعوا لنا عنده ، ولا يزيدوننا إلا خيراً إنما نريد ما يقربنا منه ، فعبدوها حتى هلكوا ، وعبدوها من بعدهم .

فلما غرقت الأرض زمن نوح عليه السلام غرقت تلك الأصنام ، فسكنت ما شاء الله أن تسكن ، ثم استخرجها عمرو بن كَلْبٍ ففَرَّقَهَا في القبائل .
فأَنَّه تعالى أعلم .

وقد خرَّج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس موقوفاً عليه في التفسير نحو ما ذكره الواقدي مختصراً ، أن وَدًّا وسُوعًا وَيَفُوثَ وَيَمُوقَ ونَسْرًا أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشياطينُ

إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصاباً وسعوا بأسمائهم ،
ففعّلوا ، فلم تُعبدْ ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت .

• • •

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد
الرجل منهم سفراً تَمَسَّحَ به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين
يتوجه إلى سفر ، وإذا قَدِمَ من سفره تَمَسَّحَ به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن
يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش : « أَجْعَلِ
الآلَةَ إلهاً واحداً إن هذا لَشَيْءٌ عَجَابٌ » .^(١)

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تظلمها كد ، غلب
الكعبة ، لها سَدَنَةٌ وحُجَابٌ ، وتَهْدَى إليها^(٢) كما تَهْدَى للكعبة ، وتطوف
بها كطوافها ، وتدحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها قد عرفت
أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده .

وسُمِرَ في تضاعيف هذا الكتاب بعض أخبار هذه الطواغيت وكيف جدل
الله هابئة أمرها خُسراً ، فأزهق الحق باطنها وفي الإسلام آثارها ،
وأكل الله تعالى دينه ، وتَمَّ نوره ونعمته ، ونعم دين الهدى والحق ، فأظهره
على الدين كله .

(١) سورة م . ٥ .

(٢) ابن هشام : لها .

[اليهودية في بلاد العرب]

ومع إصفاق^(١) العرب مَضَرَهَا وَيَمْنَهَا على هذا الضلال ، فقد كان وقع إلى بعضهم^(٢) باليمن دينُ اليهودية فدانوا به ، ووقع أيضاً دينُ النصرانية بفَجْران من أرض العرب على ما نذكره .

فأما موقع اليهودية باليمن فنن جبهة تُبَعِّع الآخر ، وهو تِهَان أسد أبوسرْب ابن كُنْكَس^(٣) كرب بن زيد ، وهو تُبَعِّع الأول بن الأول بن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ذى المنار^(٤) .

وتِهَان أسد هو الذى قدِم المدينة وساق الحَبَرَيْنِ من يهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه .

وكان قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة ، وكان قد مرَّ بها في بذلته فلم يَسْجِ أَهْلُهَا وخَلَفَ بين أظهرهم ابناً له فقتلَ فِوَلَةً ، فقَدِمَا وهو يُجْمَع لإخراهما واستئصال أهلها وقطع نخلها .

فجِئ له هذا الحى من الأنصار ، ورثيَسهم عمرو بن طَلَّة^(٥) أخو بنى النجار . وقد كان رجل من بنى عَدِي بن النجار يقال له أحر^(٦) ، عَدَا على رجل من أصحاب تُبَعِّع ، حين نزل بهم ، فقتله . وذلك أنه وجده في حَذَق له يَجْدُهُ^(٧) ، فضر به بِمَنْجَلِهِ فقتله ، وقال : إِنَّا التمر لمن أبرّه^(٨) . فزاد ذلك تُبَعِّعاً حَقَقاً عليهم .

(١) اسفلقوا على أسر واحد أطلقوا عليه .

(٢) ت : لبعضهم .

(٣) ابن هشام : كفى كرب .

(٤) تذكر المراجع عللاً لبعض هذه الأسماء والألقاب لم أر قائمة في إتماماتها فيها من

تصل وبعد . انظر الاشتقاق لابن حريـد . وشرح السيرة لأبي ذر .

(٥) ككنا في ابن هشام . وروى الأصل : طلة بالناء للحجة المضمومة .

(٦) و ط : أحد .

(٧) المذلة : النخلة . وجمده : يقتله .

(٨) أبره : لفجه .

فانتصروا ، فَنَزَعُهم الْأَنْصَارُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقَاتِلُونَهُ بِالنَّهَارِ وَيَقْرُونَهُ بِاللَّيْلِ ! ففِيهِجِبِهِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُ : وَاللَّهِ إِنْ قَوَّيْنَا كَرَامًا .

فَمِثْلًا تُبْعِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حَرِيْبِهِمْ^(١) إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانِ مِنْ أَهْبَارِ يَهُودٍ مِنْ بَنِي قَرْيَظَةَ حَالِمَانِ رَاسِخَانِ ، حِينَ سَمِعَا بِمَا يَرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا ، فَقَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَ إِلَّا مَا تَرِيدُ سِوَالِ بَيْتِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلَمْ تَأْمَنْ عَلَيْكَ حَاجِلَ الْمُقَوَّبَةِ . فَقَالَ لَهَا : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَا : هِيَ مُهَاجَرَةٌ نَبِيٌّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قَرْيَشٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، تَكُونُ دَارُهُ وَقَرَارُهُ .

فَتَنَاقَى وَرَأَى أَنَّ لَهَا عِلْمًا ، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهَا ، فَانصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا .

وهذا الحى من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حَقَّقُ تَبْعٍ عَلَى هَذَا الْحَى مِنْ يَهُودٍ ، الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ الظُّهْرِمْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ هَلَّا كَهِمْ فَنَدَمُوا مِنْهُ ، ثُمَّ انصَرَفَ^(٢) هُنَّهِمْ ، وَذَلِكَ قَالَ فِي شِعْرِهِ :

حَقَّقًا عَلَى سِنِّطَيْنِ حَلًّا يَنْتَرِبَا
أَوَّلَى لَهِمْ بِعَقَابِ يَوْمٍ مُنْقَسِدٍ

وَذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ أَنَّ الشَّعْرَ الَّذِي فِيهِ هَذَا الْبَيْتُ مَصْنُوعٌ .

* * *

وَكَانَ يُبْعِ وَقَوْمَهُ أَصْحَابَ أَوْتَانٍ يَمْبُدُونَهَا ، فَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ وَهِيَ طَرِيقُهُ إِلَى الْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ^(٣) وَأَنْجَرٍ أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْ هَذِيلَ بْنِ مُدْرِكَةَ فَقَالُوا

(١) ابْنُ هِشَامٍ : مِنْ قَتْلِهِمْ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : حَقَّقُ انصَرَفَ .

(٣) عُسْفَانُ : مَهَلٌ مِنْ سَامِلِ الطَّرِيقِ إِلَى لَحْفَةِ مَكَّةَ . وَأَنْجَرُ : بَلَدٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَدِينَةِ .

له : أيها الملك : ألا ندلك على بيت مالٍ دائرٍ أغفلته الملك قبلك ، فيه الأولاد والزرّ يجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيتٌ بمكة يمهد أهله ويصلون عنده .

وإنما أراد المذنبون هلاكه بذلك ، ليأعرفوا من هلاك من أراد من الملوك وبقي عنده .

فلما أجمع ليأ قالوا أرسل إلى الخبرين ، فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد اليوم إلا هلاكك وهلاك جنك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذ في الأرض لنفسه غيره ، وإن فعلت ما دَعَوُك إليه تهلكن وتهلكن من معك^(١) جميعاً .

قال : فإذا تأمراني أن أصنع إذا قدمتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتمنّقه وتكرمه ، وتماق رأسك عنده ، وتذلّ^(٢) له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمسكنا أمتنا من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لاسمنا أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نجسٌ أهلٌ شرك . أو كما قالوا له .

فعرف نصبهما وصدق حديثهما ، فقرّب الثّمر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم .

ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ، فيها يذكرون ، ينحربها للناس ويعطم أهلها ويسقيهم الدمل .

(١) كذلك ابن هشام ورواية الأصل : تهلكن وتهلكن جميعاً .

(٢) ابن هشام : وتذلّ .

وأرى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخَصَف^(١) ، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الماعز^(٢) ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الللاء والوسائل^(٣) .

فكان تبع فيها يزعمون أول من كسا البيت .
وأوصى به ولاته من جُرم ، وأمرهم بقطعيه ، وأن لا يُقربوه دماً ولا ميتة ولا مثلاً ، وهي الحائض ، وجعل له باباً ومفتاحاً .

ثم خرج موجهاً إلى اليمين بمن معه من جنوده والحيرين ، حتى إذا دخل اليمين دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمين .

ويقال : إنه لما دنا من اليمين ليدخلها حالت حير بينه وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارت دِيننا .

فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم .

قالوا : لما كنّا إلى النار . قال : نعم .

وكانت باليمين فيما يزعم أهل اليمين ، نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم .

فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم ، وخرج الحيران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدتيها ، حتى قعدوا للنار عند تخرجها الذي تخرج منه ، فخرجت النار عليهم ،

(١) الخَصَف : جمع خَصْفَة وهي شئ يسلح من الخوس والليف ، وهو أيضاً ثياب غلاظ .

(٢) الماعز : ثياب تنسج إلى قبيلة من اليمين .

(٣) الللاء : جمع ملأة وهي اللخفة ، والوسائل ثياب موصلة من ثياب اليمين وأحدثها وسيلة .

فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهاجوا ، فذمهم^(١) من حضرهم من الناس وأمرهم بالصبر لها . فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوتان وما قرَّبوا معها ، ومن حل ذلك من رجال خير .

وخرج الخبران بمصاحفها تَمَرَّقَ جباههما لم تضرها .
فأصفت عند ذلك خير على دينه .
فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن اسحق : وقد حدثني محدث أن الخبرين ومن خرج من خير إنما اتهموا النار ليردوها وقالوا من ردّها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال خير بأوثانهم ليردوها ، فذنت منهم لتأكلهم ، وسادوا عنها ولم يستطعوا ردّها ، ودنا منها الخبران بعد ذلك ، وجملا يتلوان التوراة ففكّس^(٢) [عنهما] حتى ردّها إلى خيرها الذي خرجت منه .

فأصفت عند ذلك خير على دينهما . فأنه أعلم أى ذلك كان .
وكان رثام بيتا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويصكلمون^(٣) منه إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران لتبّع : إنما هو شيطان يفتنهم تغلّ يبئنا وبئيه . قال : فسانسكما به . فاستخرّجا منه ، فبأى زعم أهل اليمن ، كلبا أسود ، فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت .

قال ابن إسحاق : فبقايا اليوم ، كما ذكر لي ، بها آثار الدماء التي كانت تهاق عليه .

(١) ذمهم : حضهم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) ابن هشام : ويكلمون .

[من أخبار مُتَيْع]

وَمُتَيْعٌ هَذَا هُوَ أَحَدُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مَلِكُوا الْبِلَادَ وَدَوَّخُوا الْأَرْضَ وَدَانَتْ لَهُمُ الْمَمَالِكُ .

وَيُقَالُ : إِنَّهُ الْمُسَيَّى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ مُتَيْعٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَهْلُ كِتَابٍ » ^(١) .

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا آمَنَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ وَوَحَّدَ ، خَالَفَتْهُ خَيْرُ فَنَفَرُوا عَنْهُ ، فَاتَّبَعَتْهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ .

وَحَكَى الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ التَّمِيمِيُّ أَنَّهُ أَوَّلُ مَلِكٍ بَشَّرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّنَ بِهِ ، وَهُوَ رَبُّ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مِنْ قَوْمِهِ فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْمَجْمُوعِ وَمَدَائِنِهَا وَأَمْصَارِهَا ، وَكَانَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ وَلِكُلِّ حَيٍّ مِنَ الْمَجْمُوعِ مَلِكٌ مِنْ قَوْمِهِ ، لِمَا خَيْرِيٌّ وَلِمَا كَهْلَانِيٌّ يُسَمَّعُ لَهُ وَيُطَاعُ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ جَمَعَ الْمُلُوكَ وَأَبْنَاءَ الْمُلُوكِ وَالْأَقَاوِلَ وَأَبْنَاءَ الْأَقَاوِلِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ هَرَفَقَدَ أَكْثَرَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَقَلُّهُ ، وَإِنْ الْكَثِيرُ إِذَا قُلَّ إِلَى الْفَقْصَانِ أَجْرَى مِنْهُ إِلَى الزَّيَادَةِ سَارِعُوا ^(٢) إِلَى الْمُسْكَارِمِ ، فَإِنَّهَا تَقْرُبُكُمْ إِلَى الْفَلَاحِ ، وَاعْمَلُوا ^(٣) ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ سَلِمَ مِنْ يَوْمِهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ غَدِهِ ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الْغَدِ لَا يَسْلَمْ مِمَّا بَعْدَهُ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَتَوَّابُونَ مَأْتَبَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَتَصِيرُونَ إِلَى

(١) سورة الدخان ٣٧ .

(٢) ت : فاسرعوا .

(٣) ت : واعملوا .

ما صاروا إليه ، والموتُ كلُّ يوم أقرب إلى المزم من حياته فيه ، ولكلُّ زمان أهلٌ ، ولكلُّ دائرة سببٌ ، وسببُ حُطْلان^(١) هذه الفترة التي من هنَّ فيها بَرٌّ من هودوته ، ظهورُ نبيٍّ يُعزُّ الله به دينه ويخصه بالكتاب المبين ، على يأس من المرسلين ، رحمة المؤمنين وحبّة على الكافرين ، فليست ذاك عندكم وعند أبنائكم بعدكم وأبناء أبنائكم قرّنا فقرنا وجيلاً فجيلاً ، ليتوقّعوا ظهوره وليؤمنوا به وليجتهدوا في نصره على كافة الأحياء ، حتى في الناس له إلى أمر الله .

وأنشد له :

شهدتُ على أحمدٍ أنه
رسولٌ من الله يارى النسم
فلو مُدَّ دهرى إلى دهره
لكنتُ وزيراً له وابنَ عمِّ
وأومتُ طاعته كلَّ من
على الأرض من عربٍ أو عجم
ولكنَّ قولى له دائماً^(٢)
سلامٌ على أحمدٍ في الأسم

في آيات ذكرها ، وأشمار غير هذا أثبت في « إكليله » كثيراً منها .

قال : وذكروا أن الملوك وأبناء الملوك من خير وكهّلان لم تزل تتوقع ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وتبشّر به ، وتوصى بالطاعة له والإيمان به والجهاد معه

(١) ت : الآن وهو خطأ .

(٢) ط : دائماً .

والتيّام بنصره ، منذ ذلك المصير إلى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكّانوا بذلك حين بُعث من أحرص الناس على نصره وطاعته .

فمنهم من سمع له وأطاع وآمن به قبل أن يراه ، ومنهم من وصل إليه كتابه فسمع وأطاع وآمن وصدق ، ومنهم من آواه ونصره وأيدّه وجاهد في سبيل الله دونه .

نطق بذلك الكتاب المذير في قوله : « والذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (١) .

وقوله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَدْلَقَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أُعْزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٢) .

قال الترمذاني : عن أبي الحسن الخزازي يقال : إمامهم تَمدَّان .

ثم أشار إلى ذكر سيف بن ذِي يَزَنَ للنبي صلى الله عليه وسلم وما ألقاه من أمره إلى جده عهد المطلب عند وفاته عليه .

قال : وذكروا أنه لم يكن لسيف بن ذِي يَزَنَ ذلك العلمُ في قصة النبي صلى الله عليه وسلم إلا من جهة تَبَتُّعٍ ، وما تناهى إليه مما كان ألقاه إليهم وهم فهم به من خير النبي صلى الله عليه وسلم .

وسلذكر خبر سيف هذا في موضعه إن شاء الله .

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

[الصحرائية في بلاد العرب]

وأما موقع الصحرائية في أرض^(١) العرب ، فقد كان يتجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر ، وكان موقع أصل ذلك الدين بتجران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان ، وأهلها وسائر العرب كلها أهل أوثان يفتقدونها أن رجلا من بقايا أهل ذلك الدين يقال له « قَيْمِيُون » وقع بين أظهرهم غلامهم عليه فدانوا به .

لقد وثق وهب بن منبج^(٢) : أن قَيْمِيُون كان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا بحسب الدعوة ، وكان سائحا ينزل [بين]^(٣) القرى ، لا يعرف في قرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان بقاءه يعمل الطين ، وكان يطمم الأحدا ، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئا ، وخرج إلى فلاة من الأرض ، فصلّى فيها حتى يمسي .

قال : وكان في قرية من [قرى]^(٤) الشام يعمل عمله ذلك مستخفيا ، فذهبن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح ، فأحبه صالح حبّا لم يحب شيئا كان قبله مثله ، فبُكان يتبعه حيث ذهب ولا يقطن له قَيْمِيُون ، حتى خرج مرة في يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع ، وقد اتبعه صالح ، وفيهمون لا يدري ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفيا منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فيهمون يصلي ، فبينما هو يصلي إذ أقبل نحوه الثقلين ، الحية ذات الرموس السبعة ، فلما

(١) ط : أرض .

(٢) من ابن هشام .

رآها فيميون دعا عليها فانت ، ورآها صالح ولم يذر ما أصابها تخافها^(١) عليه
[فيميل عونه]^(٢) فصرخ : يا فيميون التين قد أقبل نحوك .

فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها .

وأنتسى فأنصرف وعرف أنه قد عرف ، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه ،
فقال له : يا فيميون تعلم والله أني ما أحببت شيئاً قط حبك ، وقد أردتُ صحبتك
والكيفية مملكت حينما كنت .

قال : ما شئت ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فديم .

فلزمه صالح ، وقد كاد أهل القرية يفلتون لشأنه ، وكان إذا ما جاءه^(٣) العبدُ
به الصر دعا له فشفي ، وإذا دُعي إلى أحد به ضر لم يأت .

وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير ، فسأل عن شأن فيميون ، فقيل له
إنه لا يأتي أحداً دعه ، ولكنه رجل يملئ للناس البنيان بالأجر ، فصد الرجل
إلى ابنه ذلك فوضعه في حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال : يا فيميون ، إني
قد أردت أن أحمل في بيتي عملاً ، فأنطلق معي حتى تنظر إليه فأشار ملك عليه .

فأنطلق معه حتى دخل حجرته ، ثم قال له : ما تريد أن تعمل في يديك هذا ؟
قال : كذا وكذا . ثم انشط الثوب^(٤) من الصبي وقال : يا فيميون : عبدُ بن
عباد لله أصابه ما ترى فادعُ الله له .

(١) ط : تخاف .

(٢) من ابن هشام ومثناها : غلب على صبره .

(٣) ابن هشام : « فجاء » وما هنا أصح .

(٤) انشط : نزع به ريعه وى ت : انشط الرجل .

فدعا له فيميون فقام الصبي ليس به بأس .

وعرف فيميون أنه قد عُرف ، فخرج من القرية ، واتبه صالح ، فبينما هو يمشى في بعض الشام إذ سرَّ بشجرة عظيمة فناده منها رجل فقال : يا فيميون ما زلت أنتظرِكَ وأقول : متى هو جاك ، حتى سمعتُ صوتك فمرفت أنك هو ، لا أتُهرح حتى تقوم على ، فإني ميت الآن . .

قال : فأت . وقام عليه حتى واره .

ثم انصرف ومعه صالح ، حتى وطئا بعض أرض العرب ، فاخطفتهما سيطرة من بعض العرب ، فخرجوا بهما حتى باعوهما بدجبران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد حلقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلَّ النساء ، ثم خرجوا إليها فمكفوا عليها يوما .

فابتاع فيميون رجلاً من أشرفهم ، وابتاع صالحاً آخر ، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلي في بيت أسكنه إياه سيده ، استسرج له البيت نوراً حتى يصبح ، من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه ، فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال له فيميون : إنما أنتم في باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوتُ عليها إلى الذي أعبد أهلُ سكها ، وهو الله وحده لا شريك له ، فقال له سيده : فافعل ، فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه .

فقام فيميون فظهر وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عليها ، فأرسل الله ريحاً فجعلتها^(١) من أصلها فالتفتها .

فاتبه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فخلصهم على الشريعة من دين هيسى

ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران ، فها ذكر وهب بن منبه في حديثه هذا .

[عهد الله بن الثامر وأصحاب الأخدود]

وأما محمد بن كعب القرظي ، وبعض أهل نجران ، فذكروا أن أهل نجران كانوا أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قرأها ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فقيميون - ولم يسته محمد بن كعب ولا شركاؤه في الحديث ، قالوا : رجل نزلنا - ابتغى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ، فبعث الثامر ابنه عهد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أجهبه ما يرى من صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوجد الله وعبيده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فسكته إياه ، فقال : يا ابن أخي لن إنك تحمله أخدق [علمك] ^(١) ضمكت عنه .

والثامر أبو عهد الله بن الثامر ، لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الفلاندان .

فلما رأى عهد الله أن صاحبه قد ضن به عنه وتخوف ضيقه فيه ، عمد إلى قِدَاح لجميسها ، ثم لم يُبَيِّقْ لله اسما يعلمه إلا كعبه في قِدَاح ^(٢) ، لسكل اسم

(١) من ابن هشام .

(٢) القِدَاح : السهم .

فَدَحْ ، حقى إذا أحصاها أوقد لها ناراً ، ثم جعل يقذفها فيها فِدَحًا فِدَحًا ، حتى إذا مرَّ بذلك الاسم الأعظم قذف فيها بقِدَحِه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً ، فأخذته ثم أتى صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الذى كفه ، فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع ، قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وأعلن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الناصر إذا دخل نجران لم يَلْقَ أحداً به ضَرْاً إلا قال له : يا عبد الله ، أتوحّد الله وتدخل فى دينى فأدعو^(١) الله فيمافيك بما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحّد الله ويُسَلِّم ، ويدهوله فيُشْفَى .

حتى لم يَبْقَ بنجران أحد به ضَرْاً إلا أتاه فاتبمه على أمره ودعا له فعوفى .

حتى رفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدت على أهل قرى وخالفت دينى ودين آبائى ، لأمتن بك .

قال : لا تقدر على ذلك .

فجعل يرسل به إلى الجبل العلويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياهِ بنجران بحورٍ لا يقع أحد فيها إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس .

فلما غلبه قال له عبد الله بن الناصر : إنك والله لا تقدر على قَتْلِى حتى توحّد الله فتؤمن بما آمنتُ به ، فإنك إن فعلت سلطك الله على^(٢) ، فقتلتى^(٣) .

(١) ابن همام : وأدعو .

(٢) ابن همام : سلطت على .

(٣) ت : فقتلتى .

فَوَحَّدَ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَلِكَ وَشَهِدَ شَهَادَةً عِيدَ اللَّهِ بْنِ النَّاسِرِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِمِصْرَافٍ فِي يَدِهِ
فَنَشَبَهُ شَجَةً غَيْرَ كَبِيرَةٍ فَقَتَلَهُ ، وَهَذَلِكَ ^(١) الْمَلِكُ مَكَانَهُ .

وَاسْتَجْمَعَ أَهْلُ بُنْجَرَانَ عَلَى دِينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّاسِرِ ، وَهَلَّى مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى بْنُ
مَرْيَمَ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَحُكْمِهِ ، ثُمَّ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أَهْلَ دِينِهِمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ .

فَإِنَّ هَذَا كَانَ أَصْلَ النُّصْرَانِيَّةِ بِبُنْجَرَانَ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَهَذَا حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَبَعْضِ أَهْلِ بُنْجَرَانَ
عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّاسِرِ ، فَأَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ أَيْ ذَلِكَ كَانَ .

• • •

وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّاسِرِ هَذَا قَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرَفٍ ثَابِتَةٍ ، خَرَّجَهُ مُسْلِمُ بْنُ الْحَاجَّاجِ مِنْ حَدِيثِ صُهَيْبٍ ، وَبِيَدِهِ
وَبَيْنَ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ اخْتِلَافٌ ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ زَوَائِدُ نَحْنُ لَأَجْلُهَا
إِعَادَةُ الْحَدِيثِ .

فَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَهْلَى ، عَنْ صُهَيْبٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ : « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي
قَدْ كَبُرْتُ ، فَأَبَيْتُ إِلَيَّ غُلَامًا أَهْلَهُ السَّحَرُ .

فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يَعْلَمُهُ ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ
وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَى

(١) ابْنُ عَسَامٍ : ثُمَّ هَلَكَ .

الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل :
حبسنى أهل ، وإذا خشيتَ أهلكَ فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم
أهلمُ الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضلُ .

فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر
فأقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس .

فرماها فقتلها ، ومضى الناس .

فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضل منى ،
قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستُقتل ، فإن اقبلت فلا تدلَّ على .

وكان الغلام يبرى الأكمة والأبرص ويداوى الناس سائر الأدوية ، فسمع [به]
جليس للملك ، وكان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هاهنا لك أجمعُ إن
أنت شفيتنى .

قال : إني لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك .
فآمن بالله ، فشفاه الله .

فأتى الملك جلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردَّ عليك بعرك ؟
قال : ربى ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام ، فقال له الملك : أى بنى ، قد
بلغ من سحرك ما يبرى الأكمة والأبرص وتقبل وتقبل . فقال : إني لا أشفى
أحداً ، إنما يشفى الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاً .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاً .

ثم جىء بالفلان فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به ، وصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا .

وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقر^١ فحلقوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقتلوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة ففرقوا وجاء يمشى إلى الملك .

فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله .

إنك لست بقاتل حتى تفعل ما أمرك به .

قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الفلام ، ثم ارمني ، فإني إذا فعلت ذلك قتلني .

لجميع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهمًا من كفتائه ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فأت .

فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام .

فأنى الملك فقيل له : رأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرُك ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخذت وأُحرِم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه ، يعنى فأقصوه فيها . أو قيل له : اتقهم .

ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتعاهست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه ، اصبرى فلأنك على الحق ١١ .

فهذا حديث مسلم عن عبد الله بن التامر وأهل نجران ، وإن وقعت الأسماء فيه مُبْهَمَةٌ ، فقد فسرهما العلماء بما ورد من ذلك ميثاقًا في حديث ابن إسحاق وغيره ، وجعلوا ذلك كله حديثًا واحدًا .



وذكر ابن إسحاق أنه لما كان من اجتماع أهل نجران على دين عبد الله ابن التامر ما تقدم الحديث به ، سار إليهم ذو نواس بمجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخبرهم بينها وبين القتل ، فاخترأوا القتل ، فخذلهم الأخدود ، فحرق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا .

ففى ذى نواس وجده ذلك أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ، الْغَارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » ^(١) إلى آخر الآيات .

والأخذود هنا هو الحُفَرُ المستطيل في الأرض ، كاستندق والجداول ، ويقال أيضاً لأثر السيف والسيوط والسكين ونحوه في الجِلْد : أخذود .

قال ابن إسحاق : ويقال : كان فيمن قَتَلَ ذُو نُوَاسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ رَأْسُهُمْ وَإِمَامُهُمْ .

وحدث عن عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران حفر حُزْبَةً من خَرْبِ نَجْرَانَ في زمن عمر بن الخطاب ، فوجدوا عبدَ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ تحت دَفْنٍ منها قاعداً واضعاً يده على حُزْبَةٍ في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فلذا أَخْبَرَتْ يده عنها تَثَبُّتٌ ^(٢) دماً ، وإذا أرسلت يده رَدَّهَا عليها فأَسَلَتْ دَمَهَا ، في يده خاتم مكتوب فيه : رَبِّيَ اللَّهُ . فكَتَبَ فِيهِ إِلَى عُمَرَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَنْ أَقْرِؤَهُ عَلَى حَالِهِ وَرَدُّوا عَلَيْهِ الدَّفْنَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ . ففعلوا ^(٣) .

[ربيعة بن نصر والكهان]

وذو نُوَاسَ هذا هو زُرْعَةُ بْنُ تَيْبَانَ أَسَدُ أَبِي كَرْبٍ ، وَهُوَ تَبِعَ الْأَخْخَرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُهُ ، وَابْنُهُ زُرْعَةُ ذُو نُوَاسَ هَذَا كَانَ مِنْ صَفَارِ بَلْخِ ، وَصَارَ إِلَيْهِ مُلْكُ الْيَمَنِ ، وَأَمَرَ خَيْرَ بَعْدَ أَبِيهِ بِزَمَانَ .

(١) سورة البروج .

(٢) تثبت : تثبَّت .

(٣) القصة خرافية لا تصح .

وذلك أنه ملكَ اليمينَ بينَ أضعافِ ملوكِ القبايلة ، ربيعةُ بنَ نهر بن أبي حارثة ابن عمرو بن عامر ، وكان من سادات اليمين وأهل الشرف منهم . وهو صاحب الرؤيا التي يعرف من تأويلها استيلاء الحبشة على اليمين ، والبشارة بظهور النبي صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنه رأى رؤيا هالكة وقطيع بها^(١) ، فلم يدعْ كاهنًا ولا ساحرًا ولا حائماً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالكة وقطعتُ بها ، فأخبروني بها وتأويلها . قالوا : اقتصمها علينا فنخبرك بتأويلها . قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليهبث إلى سَطِيج وشِقْ ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فهبث إليهما ، فقدم عليه سَطِيج قبل شِقْ ، فقال : إني قد رأيت رؤيا هالكة وقطعتُ بها ، فأخبرني بها ، فإني إن أصبتها أصبت تأويلها .

فقال : أفعل . رأيت حَمَمَةً^(٢) خرجت من غُلْمَةٍ فوقت بأرضِ نَهْمَةٍ^(٣) فأكلت منها كلَّ ذات بُحْمَةٍ .

فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سَطِيج ، فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرِّ تَيْنَ من حَشَشٍ ، ليهبطنَّ أرضَكم الحبش ، فأولمـكن^(٤) ما بين أَيْنَ إلى جُرَشِ^(٥) .

(١) قطع بها ، كعلم ، أفرغته واشتعلت عليه .

(٢) أي حنة مشتملة .

(٣) النهمة : الأرض المنصوبة في البحر كالتيهم ، كأنهما مصدران من تهمة .

(٤) أي بين وجرش : غلغلان من غلاليب اليمين

فقال الملك : وأبيك يا سطيع ، إن هذا لنا لفائظ مَوْجِع ، ففَى هو كائن ؟
أفَى زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بعين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضون من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقاتلون^(١) ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم^(٢) بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدَن فلا يترك منهم
أحداً باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : نبيٌّ زكىٌّ ، يأتيه الوحي من قِبَلِ التَّيْلِ .

قال : وعن هذا النبي ؟

قال : رجل من وفد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه
إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يومٌ يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يُسعد فيه المحضون ويشقى
فيه السيئون .

قال : أحقُّ ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشَّفَقُ والفسق ، والقمر^(٣) إذا اتَّسَقَ ، إنَّ ما أنبأتك لحَقٌّ .

(١) ث : يقتتلون و١ : يقتلون وهى رواية ابن هشام .

(٢) (ب) : والفلق . (٣) المعروف فيه : سيف بن ذى يزن ، ولكنه عدل إلى إرم ،
لتشبيهه بإد إرم فى القوم .

ثم قدم عليه شق ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتبه ما قال سَطِيح ، ليغار
أيققان أم يختلفان .

قال : نعم رأيت مُحَمَّة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت
منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك عرف أن^(١) قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سَطِيحاً قال :
« بأرض نَهْمَة ، فأكلت منها كل ذات جعبة » ، وقال شق : « وقعت بين
روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة » .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شق ، فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحاف بما بين الحرَّين من إنسان ، كيهبطن أرضكم السودان ، فليتيان
على كل طفلة^(٢) البقان ، وليملكن ما بين أبين إلى تيجران .

فقال له الملك : وأهلك يا شق إن هذا لنا لغائط موجب ، فحق هو كائن ؟
أفي زمانى أم بعده ؟

فقال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستفقدكم منهم عظيم ذوشان ، ويذيقهم
أشدَّ الهوان .

قال : من هذا العظيم الشأن ؟

قال : غلام ليس هدى ولا مدن^(٣) يخرج من بيت ذى يزن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

(١) ابن هشام : أنهما .

(٢) الطفلة : الناعمة لرخصة .

(٣) للذن : العصر في الأمور . ورواية النهاية : وزن . أى منهم .

قال : بل ينقطع برسولٍ مرسلٍ يأتي بالحق والمدل ، بين أهل الدين والفضل ،
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم يجزى فيه الولاء ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء
والأموات ، ويجمع فيه الناس للبعثات ، يكون فيه لمن اتقى القوز والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟

قال : إى ورب السماء والأرض وما بينهما من رَفَعٍ وخَفَضٍ ، إن ما أنباتك
لحق ما فيه أمضى^(١) .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قال ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما
يصلحهم ، وكعب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور [بن خرزاد^(٢)]
فأسكنهم الحيرة .

فمن بقية ولد ربيعة بن نصر فيما يزعمون ، النعمان بن المنذر ، فهو في نسب
اليمين وعلمهم : النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن هدي بن ربيعة بن
نصر ، ذلك الملك .

وقد تقدم قول من قال من العلماء أن النعمان من ولد قنص بن معد . وقد قيل
أيضاً إن النعمان من ولد الساطرون صاحب الحضر ، وهو حصن عظيم كالمدينة
كان على شاطئ الفرات ، وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قوله :

(١) قال ابن هشام : أمضى بمعنى شكاً ، هذا بلفظ حير ، وقال أبو عمرو : أمضى : أى باطل .

(٢) من ابن هشام .

وأخو الحضر إذ تباكه وإذ دجلة تُنجي إليه والغابور
شاده مرّ مرّاً وجلّله ركّلاً فلطّير في ذراه وكور
لم يهته ريب اللّون فبادّ للثكّ عده فبابه مهجور.

[شِقٌّ وسَطِيح]

وأما شِقٌّ وسَطِيح ، فإن شِقّاً هو ابن صعب بن يشكر من بني أنمار بن زيار
أبى بجيلة وسخّتم .

وكان شِقٌّ إنساناً فيا زهموا ، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وهين واحدة ،
ولذلك سُمّي بشِقٍّ .

وسَطِيح هو ربيع بن ربيعة بن ذئب بن عدي^(١) بن مازن بن غسان ، وكانت
الرب تسميه الذبيّ ، وإياه عَنّ ميمون بن قيس الأعشى بقوله :

ما نظرتُ ذاتُ أشغارٍ كفتّظريها
حقّاً كما نطق الذبيّ إذ سجّعا

وإنما قيل له سَطِيح ، لأنه كان جسداً ملقى له رأس وليس له جوارح ، فبما
ذكروا . وكان لا يقدر على الجلوس ، فإذا غضب انتفخ .

وذكر أنه قيل له : أنّى لك هذا العلم ؟

فقال لي صاحب من الجن استمع أخبار السماء من طور سيناء ، حين كلم
الله منه موسى عليه السلام فهو يؤدّي إلى من ذلك ما يؤديه .

(١) ت ط : من بني ذبيان .

وعاشَ سَـطِـيـحَ بَـدَ هَـذَا الحَدِيثِ زَمَنًا طَوِيلًا ، حَتَّى أَهْرَكَ مَوَدَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَذَكَرَ الخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ هَانِيُ بْنُ هَانِيٍّ الْخَزَوِيُّ ، وَأَمَّتْ عَلَيْهِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً ، أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي رَفَعَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْجَاسَ إِيْوَانِ كَسْرَى فَسَقَطَ مِنْهُ أَرْبَعُ عَشْرَ شُرْفَةٍ ، وَغَاضَتْ بِحِمْرَةٍ سَاوَةً ، وَغَاضَ وَادِي السَّامَاةِ ، وَخَدَّتْ نَارَ فَارَسٍ وَلَمْ تَحْمَدْ قَبْلَ ذَلِكَ أَلْفَ عَامٍ . وَأَرَى لِلْوَيْدَانِ إِبْلَاءَ صِمَاهَا بِتَقْوَدِ خَيْلًا حِرَابًا^(١) ، قَدْ قَطَعَتْ دِجْلَةَ وَانْقَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا .

فَلَمَّا أَصْبَحَ كَسْرَى أَفْرَحَهُ ذَلِكَ فَصَبَرَ عَلَيْهِ تَشَجُّعًا ، حَتَّى إِذَا هِيَ لَصِيبُهُ رَأَى إِلَّا يَدَّخِرُ ذَلِكَ عَنْ قَوْمِهِ وَمِرَازِبَتِهِ ، فَلَبِسَ تَاجَهُ وَقَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ ، ثُمَّ يَهْتَهِمُ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا عِنْدَهُ قَالَ :

أَتَدْرُونَ فِيْمَ بَعَثْتُ فِيكُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، إِلَّا أَنْ يُخْبِرَنَا لِلْمَلِكِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ بِحْمُودِ النَّارِ ، فَازْدَادَ غَمًّا إِلَى غَمِّهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى وَمَا هَالَهُ مِنْ ذَلِكَ . فَقَالَ لِلْوَيْدَانِ : وَأَنَا أَصْلَحُ اللَّهُ الْمَلِكُ قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ رُؤْيَا . ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَاهُ فِي الْإِبْلِ . فَقَالَ : أَيْ شَيْءٍ يَكُونُ هَذَا يَا مَوْيِدَانُ ؟ قَالَ : حَدَّثْتُ يَكُونُ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَرَبِ . وَكَانَ أَعْلَمُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ .

فَسَكَبَ عِنْدَ ذَلِكَ كَسْرَى إِلَى الْغَمِّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَالِمٍ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْهُ . فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِمُعِدِّ الْمَسِيحِ بْنِ حَمْرٍ وَبْنِ حَيَّانَ بْنِ مُبَقَّهَةَ الْفَسَّانِي .

فَاقْدَمَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَهَلْ عِلْمٌ بِمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلُكَ عَنْهُ ؟ قَالَ لِيُخْبِرَنِي الْمَلِكُ حَمَّا أَحَبُّ ، فَإِنْ كَانَ عِنْدِي مِنْهُ عِلْمٌ وَإِلَّا أَخْبَرْتَهُ بِمَنْ يُقْلِمُهُ .

(١) الخيل المرباة : خلاف البراذين .

فأخبره الذي وجه إليه فيه . فقال له : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام ، يقال له سَطِيع . قال : فأتته فسلته عما سألتك عنه ، ثم أثنى بفضيله .

فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سَطِيع وقد أثنى على اللوت ، فسلم عليه وكتبه ، فلم يرد عليه سَطِيع جواباً ، فأنشأ عبد للمسيح يقول :

أَسْمُ أُم يَسْمَعُ فِطْرِيْفُ الْيَمْنِ
أُم قَادَ فَازَلَمَ بِهِ شَأْوُ التَّسْنِ^(١)
لَا فَاصلَ انْطَلَقَ أَغْيَتْ مَنْ وَمَنْ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذِيْشِرِ بْنِ حَبَنْ
أَبِيضَ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ وَالْهَدَنْ
رَسُولُ قَبِيلِ الْمُجَمِّمِ يُنْقِى لُؤْسَ
لَا يَزْهَبُ الْوَعْدَ وَلَا رَيْبَ الزَّمَنِ
تَجُوبُ فِي الْأَرْضِ عَلَيْدَاةٌ شَرَنْ
تَرْفَعُ وَجْناً وَتَهْوِي فِي وَجَنْ^(٢)

(١) فاد : مات . قال :

وهي خروجات الملك عفيرن حسنة وعفيرن حتى فاد والشيب شامل
وازلم : ذهب مسرعاً . والأسل فيه الزلام لخذنت الحسنة تخفيفاً ، وقيل : أسلها ازلام ،
كاشتهاب ، لخذنت الألف تخفيفاً أيضاً . وشأو المنى : اعتراض اللوت على الخلق وقيل :
ارلم : قبض والمنى : اللوت ، أى مرض له اللوت لقبضه وقد تصعفت الرواية في النهاية . أن فار .
انظر النهاية ١٣٩/٢ .

(٢) المتلددة : القوية من النوق . والفزن : التي تسمى من نشاطها على جانب ، هزن
فلان إذا نشط ، وقيل : الفزن المسمى من الحفاة .
والوجن بفتح فسكون ، ويضحيان : الأرض النليظة الصلبة وروى بالقم ، جم وجين .

حقى أتى عارى الجأحي والقطن
تلقه في الریح بؤغاه الدمن^(١).

فلما سمع سَطِيعُ شِعْره رفع رأسه يقول : عهدٌ للمسيح ، أتى إلى سَطِيعٍ : على
جمل مُشِيحٍ ، وقد أوفى على الصريح ، بعثك ملكُ بني ساسان ، لارتجاس الإيوان
وخودِ الديران ، ورؤيا اللويذَان ، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عِراباً قد قطعت
دجلةً وانتشرت في بلادها .

عهدُ المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب المِرَاة ، وفاض وادى
السَّهْوَة ، وفاضت بحيرة ساوة ، وسعدت نار فارس ، فليست الشام لسَطِيعٍ شاما ،
يملك منهم ملوكٌ وماسكاتٌ على عدد الشرفات ، وكل ماهوآتٍ آت .

ثم قضى سَطِيعٌ مكانه .

فلما قدم عهدُ المسيح على كسرى أخبره بمقالة سَطِيعٍ . فقال : إلى أن يَكُ
منا أربعة عشر مليكاً قد كانت أمور .

فلك منهم عشرة إلى أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه .

[عمرو يقتل حستان]

فلما هلك ربيعةُ بن نصر رجع ملكُ اليمن كُلُّهُ إلى حستان بن زَبَّانِ أسعد
أبي كُرب ، فسار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرضَ العربِ وأرضَ الأعاجمِ .

(١) الجأحي : جمع جوجو ، وهو عظام الصدر والقطن يفتح الطاء أسفل الطهر . وقيل :
الصواب : القطن بكسر الطاء جمع قطنة ، وهي ما بين التخذين .
والبؤغاء . التراب الناعم . والدمن ما تدمن منه أى تجعم وتلبد . ويشهد له الرواية الأخرى :
تلقه الریح ببؤغاء الدمن . النهاية .
وقد وردت هذه القصة في البداية والنهاية ٢/٢١٩ ، ولسان العرب ٣/٣١٢ باختلاف
وربادة ونقص . قال الأزهري : وهو حديث حسن غريب .

حتى إذا كان بأرض العراق كرهت خيبر وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فسلموا أخاك له يقال له عمرو وكان معه في جيشه فقالوا له : اقتل أخاك حسنًا ونملكك علينا ونرجع بنا إلى بلادنا . فأجابهم .

فاجتمعوا على ذلك إلا ذارعتين الحميرى ، فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه .
فقال ذورعتين الحميرى :

ألا مَنْ يَشْقَى سَهْرًا بِدُومٍ رَا
سَمِيحًا مَنْ يَلِيْمَتِ قَوِيْرَ عَيْنِ
فَلَمَّا جَعِدْتُ غَدَرْتُ وَخَالَتُ^(١)
فَمُتْذِرَةً الْإِلَهَ لَذَى رُحَيْنِ

ثم كتبها في رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمراً فقال له : ضَعْ لِي هَذَا السِّكَاظَ هَذَكَ . ففعل .

ثم قتل عمرو أخاه حسنًا ورجع بمن معه إلى اليمن .

فلما نزل اليمن مُنِعَ منه الدوم وسلَّط عليه السَّهْرُ ، فلما جَهَّزَهُ ذَلِكَ سَأَلَ الْأَطْبَاءَ وَالْحَزَاةَ^(٢) مِنَ السَّكَّانِ وَالْعَرَاةِ مَا بِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ قَاتِلُ مَنْهُمْ : لَئِنْ وَاللَّهِ مَا قَتَلَ رَجُلٌ أَخَاهُ أَوْ ذَا رَحِمِهِ بِنَفْيٍ عَلَى مِثْلِ مَا قَتَلْتَ أَخَاكَ عَلَيْهِ إِلَّا ذَهَبَ نَوَاهُ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ السَّهْرُ .

فلما قيل له ذلك جعل يقتل كلَّ مَنْ أَمَرَهُ بِقَتْلِ أَخِيهِ حَسَّانَ مِنْ أَشْرَافِ الْيَمَنِ حَتَّى خَلَّصَ إِلَى ذَى رُحَيْنِ .

(١) رواية البيت في الاستعانة ٥٧٠ : فَإِنْ نَكَحْتَ خَيْرَ غَدَرْتَ وَخَالَتَ .

(٢) العزاة : جمع حاز ، وهو الذي ينظر في النجوم ويصل بها .

فقال له ذو رُعَيْن : إن لي عندك براءة . قال : وما هي ؟ قال : السكتابُ
الذي دفعتُ إليك .

فأخرجَه فإذا فيه البيهتان ، فترَكهُ ورأى أَنَّهُ قد نَمَحَهُ

[لَخْنِيمَةُ ذُو شَنَاتِر]

وهلك عمرو فَمَرَجَ^(١) أمرُ حَير عند ذلك وتفرقوا ، فوثب عليهم رجل من
حَير لم يكن من بيوت المملِكة ، يقال له لَخْنِيمَةُ يَنُوف ذُو شَنَاتِر^(٢) ، فقتل
خيارهم وهبث بيهوت أهل المملِكة منهم ، فقال قاتل من حَير :

تَقْتُلُ أَبْدَها وتَنفِي سَرَاتها وتَنبِي بِأَيْديها لها الدِّلَ حَيرُ
تَدْمِرُ دِنهاها بِعَلِيشِ حُومِها وما ضَمِيت من دِينِها فهو أَكْثَرُ
كَذاك القرون قبل ذاك بظلمها وإسرافها تَأْنِي الشُرورَ فَتَضَعُ

وكان لَخْنِيمَةُ اسرها طاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الخلام
من أبناء الملوك فيقع عليه في مَشْرُبَةٍ^(٣) له قد صنعها لذلك لثلاثِ لَيْلٍ بَدَ ذلك ،
ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرمه وجنده قد أخذ مِسْوا كما فجعله في فيه علامة
للفراغ من خبيث فعله .

حتى يمث إلى زُرْعَةِ ذِي نُؤاس ، بنِ تَبَّانِ أسعد ، أخى حسان ، وكان صبيها
صغيراً حين قُتل حسان ، ثم شبَّ غلاماً جهيلاً وسياً ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه
رسولُه عرف ما يريد به ، فأخذ سكيناً حديدأً لطيفاً فغَباَه بين قدمه وندله ،

(١) مرج : اضطرب واخطط .

(٢) المروء فيه : الخبة بـحـير نون ، كما قال ابن دريد ، وهو مأخوذ من النخم ، وهو
استرخاء اللحم . والشَنَاتِر : الأصابع بلغة حَير .

(٣) المشرية : الرفقة المرتفعة .

ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه ، فوائبه ذُو نُوَاس فوجأه حتى قتله ، ثم حَزَّ رأسه فوضعه في السكوة التي كان يشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس ، فسألوه فأشار لهم إلى الرأس فنظروا فإذا رأس تلخيمة متطوِّعٌ ، فخرجوا في إثر ذِي نُوَاس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحمنا من هذا التلخيث .

فلَمَكُوهُ ، واجتمعت عليه حَمِيرٌ وقبائل اليمين ، فكان آخرَ ملوك حمير ، ويسمى يوسف ، فأقام في مُلْكِهِ سنين .

قال ابن قُتَيْبَةَ : ثماليها وستين سنة .

إلى أن كان منه في أهل نجران ما تقدم ذكره ، فكان ذلك سبباً لاستئصال ملكه واستيلاء الحبشة على اليمين .

ذكر دخول الحبشة أرض اليمن

واستيلائهم على مُلْكها ، وذكر السبب في ذلك
مع ما يتصل به من أمر الفيل

ولما انتهى زُرْعَةُ ذُو نُؤَاسٍ إلى ما انتهى إليه بأهل نجران من التحريق
والقتل ، أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوْسٌ ذو قَتْلَينِ على فرس له ،
فسلك الرملَ فَأَجْزَمَ ، ففزع على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ صاحبَ الروم ،
فاستنصره على ذِي نُؤَاسٍ وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له : بُدِدَتْ
بلادك منا ، ولكنني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ،
وهو أقرب إلى بلادك .

فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بشاره .

فقدِمَ دَوْسٌ على النجاشي بكتفاب قوصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ،
وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أَرْطَاط ، ومعه في جنده أَيْرَهة الأشرم ، فركب
أَرْطَاطُ الْبَحْرَ حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوْسٌ ، فسار إليه ذُو نُؤَاسٍ في حَيْرٍ ،
ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذُو نُؤَاسٍ وأصحابه ، فلما رأى
ذُو نُؤَاسٍ ما نزل به ويقومه وجه فرسه إلى ^(١) البحر ، ثم ضر به فدخل به ،
نفاض به ضَحَضَاحَ ^(٢) البحر حتى أنفضى به إلى حَيْرِهِ فأدخله فيه ، فكان
آخِرَ العهد به .

(١) ابن هشام : في .

(٢) الضحاح من الماء : الذي يظهر منه القمر ، وكان أسله من الضح وهو بحر القيس
كأن الشمس تدخله لفته فقلت فيه إحدى الماءين شاداً كما قالوا في ثرة : ثرارة وفي ثمل : ثمل .

ودخل أرياطُ المين ، فلكها .

[بين أرياط وأبرهة]

فأقام بها سدين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي ، حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فأنماز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إليه الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فأبرز لي وأبرز لك ، فأبدا أصاب صاحبه انصرف إليه جندُه . فأرسل إليه أرياط : أنصفت .

فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً نحياً^(١) ، وكان ذا دين في العصرية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً عظيماً طويلاً ، وفي يده حربٌ له ، وخلف أبرهة غلام له يقال له عتودة^(٢) يمنع ظهره ، فوقع أرياط الحربة فضرب أبرهة ، يزيد يافوخه ، فوقعت الحربة على جهة أبرهة ، فشرمت حاجبه وأنفه وهوبه وشفته ، فهلك سمي أبرهة الأهمرم .

وجعل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله .

فانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وودى^(٣) أبرهة أرياط ،

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضباً شديداً وقال : عدّا على أميري فقتله بغير أمرى ! ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطيأ بلاده ويمز ناصيته .

فلقى أبرهة رأسه وملاً جراباً من تراب اليمن ثم بث به إلى النجاشي ،

(١) أي سمياً .

(٢) قال السهيلي : العتودة : القعدة في الحرب .

(٣) وهما : أدى دية .

وكتب إليه : أيها الملك إنما كان أرباط عبيدك ، وأنا عبيدك ، اختلعتنا في أمرك ، وكل طاعته لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأخبط لها وأستوس منه وقد حلفت رأسي كله حين بلغت قسم الملك ، وبشت إليه بحراب من تراب أرضي لوضعه تحت قدميه ، فبهر قسمه في .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضى عنه ، وكتب إليه : أن ابنت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى .
فأقام بها .

ثم إن أبرهة بنى القلبيس بصدعاء ، فبنى كنيسة لم ير مثلاً في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُفَنَّ مثلاً للملك كان قبلك ، ولست بمقتد حتى أصرف إليها حجاج العرب .

فلما تحدثت العرب بكقاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النساء^(١) أحد بنى فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ففرج حتى أتى القلبيس فأحدث فيها ، ثم لحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : رجل [من العرب]^(٢) من أهل هذا البيت الذى تعج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك « أصرف إليها حجاج العرب » [غضب فجاء فقمعد فيها]^(٣) أى أنها ليست للكل بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

(١) سبق الحديث من النساء ٨٠

(٢) من ابن هشام .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم ساروا^(١) وخرج معه بالقبول .

وسمعت بذلك العرب فأعظوه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو أنقر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وإخراجه .

فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو أنقر وأصحابه ، وأخذ له ذو أنقر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو أنقر : أيها الملك لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي .

وكان أبرهة رجلاً حليماً ، فتركه من القتل وجنسه عنده في وثاق .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب النخشمي في قبيلتي خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به ، فلما تم بقتله قال نفيل : أيها الملك لا تقتلني فإني ذليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ، شهران وناهس ، بالسمع والطاعة .

فخلى سبيله وخرج به معه يده .

حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك التميمي في رجل قتييف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن هبئك سامعون لك مطيعون ليس

(١) ابن هشام : سار .

عندنا لك خلاف ، وليس يبقنا هذا البيت الذى تريد . يمتنون اللات ،
إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث ملك من يدلك عليه .

فتجاوز عنهم . واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ،
فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة .

تفرج أبرهة ومعه أبو رغال ، حتى أنزله بالمقمس^(١) ، فلما أنزله به
مات أبو رغال هنالك ، فرجعت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم
الناس بالمقمس .

فلما نزل أبرهة بالمقمس بعث رجلا من الحيشة يقال له الأسود بن مقصود
على خيول له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش
وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لمهد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير
قريش وسيدّها .

فهيئت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه
لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حنظلة الحنظري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا
البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ،
إنما جئت لمأثم هذا البيت ، فإن لم تقرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم .
فإن هو لم يرض حربي فأنتفى به .

فلما دخل حنظلة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له :
هبد المطلب بن هاشم .

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثي فرسخ من مكة . ويضبط بفتح الميم الثانية وكسرهما .
انظر الروس الألف ١ / ٤٣ .

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حرباً وما لنا بذلك معه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم . أو كما قال : فإن يمدحهُ مِنْهُ فهو بيته وحُرْمَتُهُ ، وإن يُخِلَّ بيته وبيته ، فوالله ما عهدنا دَفْعَ عَهْدِهِ .

فقال حُطَاة : فانطلقْ إلیه ، فإنه قد أمرنی أن آتیته بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيهِ ، حتى أتى للمسكِرَ فسأل عن ذی نفر ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه في تحبسه فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بدا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير في يد ملك ^(١) يَنْظُرُ أن يقتله خُدُوءاً أو عَشِيماً ؟ ما عندی ^(٢) غناء في نفسی مما نزل بك ، إلا أن أتيسا سائس الفول صديق لي فسأرسِل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك هل الملك فكلّمهُ بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخبر إن قدر على ذلك . قال : حسبي .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب حير مكة يطعم الناس بالسَّهْل والوحوش في ردوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي مبر ، فاستأذن له عليه وانضمه عنده بما استطعت . قال : أقبل .

فكلم أنيس أبرهة قال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، فأذن له فكلّمك في حاجته .

ووصفه له بما وصفه ذو نفر لأنيس .

(١) ابن هشام : يبدى ملك .

(٢) ابن هشام : ما عندنا ، وما هنا أول .

فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجمله وأعظمه ^(١) ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجامسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بدير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أحببني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فوك حين كلمتني ! أتكلمني في مائتي بدير أصبتكها لك ، وتترك بيتك هو دينك وبين أهلك قد جئت لمدمة لا تكلمني فيه ! ! .

قال عبد المطلب : [إني] أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيدهم . قال : ما كان ليعتق مني . قال : أنت وذاك .

ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يفتقر بن كفانة بن عدي بن الذئب بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بني بكر ، وخويلد بن واثلة المخزومي ، وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . فآله أهل ، أكان ذلك أم لا .

فردّ أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له ، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّض في شتم الجبال والشمام ، تخوفاً عليهم من مَعْرَةِ الجيش .

(١) ذكر سيده هذا الكلام حكياً عن العرب ، ووجهه عندهم أنه محمول على المني ، فكأنك قلت : أحسن رجل وأجمله فأفرد الاسم المضر التفتاً إلى هذا المني ، ويصح حمله على الجلس ، كأنه حين ذكر الناس قال : هو أجل هذا المجلس من الخلق .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة [وجنده]^(١) .

فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِلَّا الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْعَ حِلَالِكَ^(٢)
لَا يَنْتَلِيْنَ صَلَاحُهُمْ وَيَحَالُمُ غَدَاً حِمَالِكَ^(٣)

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شتف الجبال فتحركوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تنها لدخول مكة وهيئاً فيه وعي جيشه . وكان اسم الفيل محمودا ، وأبرهة يُجمع لمذم البيت والانصراف^(٤) إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة قام نعيم بن حبيب إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال له : ابرك وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل يشهد حتى أحمق في الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا تحاجن لهم في مراحه فبرزوه^(٥) بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك .

(١) من ابن هشام .

(٢) الحلال جمع حلة بكسر الحاء ، وهي جماعة البيوت وتطلق على القوم المحضين .

(٣) الحال : القوة ، وغدوا : غدا ، استعمل تاماً ولا يستعمل كذلك إلا في الشعر .

(٤) ابن هشام : ثم الانصراف .

(٥) الطبرزين : آلة من حديد كالنأس ، والحاجن جمع محجن : وهي عصا موهجة ، والمرق : مارق من البطن ولان ، وبرزوه : أخرجوه .

فأرسل الله عليهم طيرا من البصر أمثال الخطاطيف والبلتسان^(١) مع كل طائر
منها ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحتمس والحتمس
لا تصيب أحدا منهم إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفييل بن
صبيب ليهلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفييل حين رأى ما أنزل الله بهم
من نعمته :

أين المَفَرُّ والإله الطالِبُ
والأُفْرَمُ المُنَالِبُ ليس النالِبُ !
وقال نفييل أيضا :

ألا حَيِّيتِ عَسا يارُدَيْنَا
تَعِمْنَاكُم مع الإصباح عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لو رَأَيْتِ وَلَا تَرَيْنِي
لدى جَنْبِ الحَصْبِ ما رَأَيْنا
إذا لَمَذَرْتِنِي وحدثِ أَمْرِي
ولم تَأْتِنِي على ما فَاتَ بَيْنَنَا^(٢)
حدثُ الله إذ أَبْصَرْتُ طَيْرًا
وختُ حَجَارَةً تُلَاقِي عَلِينَا
وكلُّ القومِ يَسْأَلُ عن نَفِيلِ
كَأَنَّهُ على لَحْشَتَانِ دَيْنَا

(١) الخطاطيف جم خطاف وهي طيور سوداء ، والبلسان كما نقل ابن الأثير : يظن
أنها الزرازير .

(٢) بينا : نصب نصب المصدر المؤكد لما قبله إذ كان في مناه ولم يكن على لفظه .

نخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون [بكل مَهْلِكٍ^(١)] على كل مَهْلِكٍ ،
وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة
منها أثبتتها مدة تمت^(٢) فيها ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ،
فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

ويقال إنه أول ما رُئيت الحَصْبَةُ والجُدْرَى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه
أول ما رُئي بها مرأرُ الشجر الحرمل والحظفل والمُشَرَّ ذلك العام .



فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يمدُّ الله على قريش . فنهقه
عليهم وفضله ، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أسرمهم ومدتهم ، فقال تبارك
وتعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَتَلْنَا بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَيْدُهُمْ
فِي تَضَلُّلٍ ، وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلْنَاهُمْ
كَصَفٍ مَا كُولِ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه بمكة أحمين
مُتَمَدِّينِ يَسْطَعْمَانِ .



قال ابن إسحاق : فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من
الدَّعْمَةِ ، أعظمَت العربُ قريشا ، وقالوا : هم أهل البيت ، قاتل الله عنهم وكفاهم
مؤنة عدوهم ، فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما ردَّ
عن قريش من كيدهم ، فقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ السَّهْمِيُّ :

تَسْكُنُوا عَنْ بطن مكة لَهَا
 كانت قديمًا لا يُزَام حريمها
 لم تُخْلَقِ الشَّعْرَى لِيَالٍ حُرِّمَتْ
 إذ لا هَزَرَ من الأنام يَوْمُهَا
 سَائِلَ أَمِيرِ الْحَبَشِ^(١) عنها ما رَأَى
 ولَسَوْفَ يُنْبِئِي الجَاهِلِينَ عَليْمُهَا
 ستون ألفًا لم يُوْوِبوْا أَرْضَهُمْ
 بل لم يَمِيشْ بِعَدِ الإِلَابِ سَقِيمُهَا
 كات^(٢) بِهَا مَادَّةٌ وَجُرْمٌ قَبْلَهُمْ
 واللهُ من فوق العِبَادِ يَقِيمُهَا

وقال أبو قيس بن الأَسَلَتِ الأنصاري ثم انْخَطَمَ ، من قصيدة سيأتي
 ذكرها بجملة ما :

فَقُومُوا فَعَسَاؤُا رَيْكُمُ وَتَمَسَّحُوا
 بأركان هذا البيت بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
 فَعَسَاؤُكُمْ مَعَهُ بِأَلَا مَعَاذُكَ
 غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومَ هَادِي السَّكَائِبِ
 كَعِيبَتُهُ بِالسَّهْلِ تَمَشِي وَرَجُلُهُ
 عَلَى اللَّفَافَاتِ فِي رَعُوسِ الْمَنَاقِبِ

(١) ابن حنبل : أمير الحبش .

(٢) ابن حنبل : كات .

فلما أتاكم نصرُ ذى العرشِ ردِّم
جنودُ المللكِ بينَ سافرٍ وحاصِبٍ^(١)
قولوا سرايا هارِبينَ ولم يُؤبِ
إلى قومه ملْحُش غيْرُ حِصَابِ

وقالت سُبَيْمَةُ بنتُ الأَحَبِّ بنِ زُبَيْمَةَ من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن
ابن منصور ، لأنها خارجة بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ،
تمظم عليه حرمة مكة وتناه عن الهنى فيها وتذكر تيمنا وتذللها ، والفيول
وهلاك جيشه عندها :

أُبَيَّ لا تظلم بمكة لا الصغيرَ ولا الكبيرَ
واحفظ عمارها بُيَّ ولا يغرك الفُرورُ
أُبَيَّ من يظلم بمكة يَنافي أطرافَ الشُرورِ
أُبَيَّ يضربُ وجهه وَيَكْحُجْ بِزُدَيْهِ السعيرُ
أُبَيَّ قد جَرَّبَتْها فوجدتُ ظلمها يُهْوزُ
اللهُ آمَنَها وما بدتُ بهِ رخصتها قصورُ
واللهُ آمَنَ طيرها والمُضَمُّ^(٢) تَأْمَنُ في مُبِيرِ
ولقد غزاها تُمِجُّ فكسا بِنَتَيْهَا الحَبِيرُ
وأذلَّ ربي مُلْكُه فيها فأوقى بالذُورِ
يمشى إليها حافياً بفنائها ألفا هميرُ
ويظلُّ يُطْعِمُ أهلها لَحْمَ المَهَارَى^(٣) والجَزُورِ

(١) الساقى الذى يرى بالتراب ، والحاصب : الذى يرى بالحصاب .

(٢) الضم : الوعل ، وفيه جبل بمكة .

(٣) المهارى : جمع مهريه ، إبل منسوبة إلى مهرة بن حبان .

يسقيهم السِّلَ المصنَّى والرحيضَ من الشعير
والفيلَ أَهْلَكَ جَيْشَهُ يُرْمَوْنَ فِيهَا بِالْعِصَورِ
وَاللَّكُ فِي أَقْصَى اللَّيْلِ دُوفَى الْأَحَاجِمِ وَالْجَزِيرِ^(١)
فاسمع إذا حَدَّثَتْ وَأَفْسَهُمْ كَيْفَ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

ولم يزل شعراء أهل الجاهلية يذكرون ذلك في أشعارهم معتدِّين بصنع الله
فيه ، وقد جرى على ذلك شعراء الإسلام ، فقال الفرزدق بن غالب التميمي ،
يمدح سليمان بن عبد الملك بن مروان ويَمْرِضُ^(٢) للحجاج بن يوسف ، ويذكر
الفيلَ وجيشه :

فلما طَمَعَى الْحَجَّاجُ حِينَ طَمَعَى بِهِ
غِيَّيَ قَالَ إِنِّي مُرْتَقِي فِي السَّلَامِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ نُوحٍ سَأَرْتَنِي
إِلَى جِبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَاءِ حَاصِمِ
رَمَى اللَّهُ فِي جُفَاهِهِ مِثْلَ مَارِي
عَنِ الْقَبْضَةِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْحَارِمِ
جُنُودًا تَسُوقُ الْفِيلَ حَتَّى أَعَادِمِ
هَبَاءَ وَكَانُوا مُطَرِّخِي الطَّرَائِمِ^(٣)
نُعِيرَتَ كَنَعَصِرِ الْبَيْتِ إِذْ سَاقَ فَيْلَهُ
إِلَيْهِ عَظِيمُ الشَّرْكَانِ الْأَحَاجِمِ

(١) الجزيرة: يحتمل أن تكون جم جزيرة بلاد العرب. وتروى: والجزير. أمة من العجم .

(٢) ابن همام : ويهجو الحجاج .

(٣) الطرائم: المتلذذات كبرا وغضا وجهه الطرائم.

قال ابن إسحاق : فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة ، وبه كان يُكْتَفَى ، فلما هلك يكسوم ملك الحبشة ابنه مسروق بن أبرهة .

[سيف بن ذى يزن]

فلما طال البلاء على أهل اليمن ، خرج سيف بن ذى يزن الحنيزى حتى قدم على قاهر ملك الروم ، فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، ويلبهم هو ، ويبحث إليهم من شاء من الروم . فلم يشكّه .

فخرج حتى أتى النعمان بن النضر ، وهو حامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان : إن لى على كسرى وفادة في كل عام ، فأقيم حتى يكون ذلك . ففعل .

ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل^(١) العظيم ، فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت والزمرد والألؤلؤ بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب فى رأس طاقه فى مجلسه ذلك ، وكانت حنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه ، فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبه له .

فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك . وقيل إنه لما دخل عليه طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا لأحق أن يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطأ رأسه .

(١) القنقل : للكيال .

فَقِيلَ ذَلِكَ لِسَيْفٍ ، فَقَالَ : إِنَّمَا قُلْتُ هَذَا لِهَيْبٍ ، لِأَنَّهُ يَضِيقُ هُنَا كُلُّ شَيْءٍ .
 ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، غَلَبْنَا عَلَى بِلَادِنَا الْأَغْرِبَةَ .
 فَقَالَ كَسْرَى : أَيُّ الْأَغْرِبَةِ ؟ الْحَبِشَةُ أَمْ السُّنْدُ ؟
 قَالَ : بَلِ الْحَبِشَةُ ، فَخُذْتُكَ لِنَصْرَتِي وَيَكُونُ مُلْكُ بِلَادِي لَكَ .
 قَالَ : بَعَدْتُ بِلَادَكَ مَعَ قَلَّةٍ خَيْرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَوْرَظٍ جَيْشًا مِنْ قَارِسٍ بِأَرْضِ
 الْعَرَبِ ، لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ .
 ثُمَّ أَجَازَهُ بِمَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَافِيٍّ ، وَكَسَاهُ كِسْوَةً حَسَنَةً .
 فَلَمَّا قَبِضَ ذَلِكَ سَيْفٌ خَرَجَ لِيَجْعَلَ يَنْتَقِرُ تِلْكَ الْوَرِقَ لِلنَّاسِ .
 فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَلِكُ فَقَالَ : إِنْ لِهَذَا لَشَأْنًا .
 ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : عَمِدْتُ إِلَى حِيَاءِ الْمَلِكِ تَدْنِيهِ لِلنَّاسِ !
 فَقَالَ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِذَا ؟ مَا جِبَالُ أَرْضِي الَّتِي جِئْتُ مِنْهَا إِلَّا ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ .
 يَرْغُبُ فِيهَا .
 فَجَمَعَ كَسْرَى مَرَاذِبَهُ ^(١) فَقَالَ : مَاذَا تَرَوْنَ فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ وَمَا جَاءَ لَهُ ؟
 فَقَالَ قَائِلٌ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ فِي سَجُونِكَ رَجُلًا حَبَسْتَهُمْ لِلْقَتْلِ ، فَلَوْ أَنَّكَ بَعَثْتَهُمْ
 مَعَهُ ، فَإِنْ يَهْلِكُوا كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أُرِدْتَ ، وَإِنْ ظَفَرُوا كَانَ مُلْكًا اِزْدَدْتَهُ .
 فَبَعَثَ مَعَهُ كَسْرَى مَنْ كَانَ فِي سَجُونِهِ ، وَكَانُوا ثَمَانِيَةَ رَجُلٍ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ
 [رَجُلًا مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ ^(٢)] وَهَرِزُ وَكَانَ ذَاكِنْ فِيهِمْ وَأَفْضَلَهُمْ حَسَبًا وَبَيْعًا ، فَنَجَرُوا
 فِي ثِمَانٍ سَفَانٍ فَفَرَقَتْ سَفِينَتَانِ وَوَصَلَتْ إِلَى سَاحِلِ عَدَنٍ سِتُّ سَفَانٍ .

(١) مَرَاذِبُهُ : وَزَارَاهُ .

(٢) مِنْ ابْنِ هِشَامٍ .

فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له : رجل مع رجلك حتى
تموت جميعاً أو ننظر جميعاً . قال له وهرز : أنصفت .

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جلوده ، فأرسل إليهم
وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهرز ، فزاده ذلك حنفاً عليهم .

فلما توافقت الناس على مصالحتهم قال وهرز : أروني ملبسكم . قالوا له : أنرى
رجلاً على الفيل حاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

قال : نعم . قالوا : ذلك ملبسكم . قال : أتركوه .
فوقفوا طويلاً ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على الفرس . قال :
أتركوه .

فوقفوا طويلاً . ثم قال : علام هو ؟ قالوا : على البقرة . قال وهرز : بنت
الجار ! ذلّ ! ذلّ ! ملبسه ، إلى سارميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاقبضوا حتى
أؤذنكم ، فإنني قد أخطأت الرجل ، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولا تبوا به^(١)
فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم أوتر قوسه ، وكانت فيما يزعمون لا يُوترها غيره من شدتها ، وأمر
بما جابهه فمضوا له ، ثم رمى فصك الياقوتة التي بين عينيه فتناثرت النشاب في
رأسه حتى خرجت من قفاه ؟ ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولانت به ،
وحملت عليهم الفرس وانهمزموا فقتلوا وهربوا في كل وجه .

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايقي منكسة
أبداً ، اهدموا الباب . فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايقه .

(١) أى التوا حوله .

وقال في ذلك أبو الصلت بن أبي ربيعة النقي ، وتروى لابنه أمية بن
أبي الصلت :

يَطْلُبُ الْوَيْزَ أَمْثَالُ ابْنِ ذِي يَزَنٍ
رِيمٌ فِي الْبَحْرِ^(١) لِلْأَعْدَاءِ أَحْوَالُ
يَسَمُّ قَيْصَرَ لِمَا حَازَ^(٢) رَحْلَتَهُ
فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ بَعْضَ الَّذِي سَالَ
حَقِّي أَتَى بَنِي الْأَحْرَارِ يَحْمِلُهُمْ
إِنَّكَ تَحْمِي لَقَدْ أَسْرَعْتَ فَلَقَلَا^(٣)
لَهُ دَرَاهِمُ مِنْ عُصْبَةِ خَرَجُوا
مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْثَالَا
بَيْضًا مِرَازِبَةً غُلْبًا أَسَاوِرَةً
أَشَدَّ تَرْجَبُ فِي الْفَيْضَاتِ أَشْبَالَا
أَرْسَلْتُ أَشَدًّا عَلَى سُودِ الْكِلَابِ فَقَدْ
أَضْحَى شَرِيدُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَقَلَا^(٤)

(١) كُفَى فِي ابْنِ هِشَامٍ وَأَكْثَرُ النُّسخ : رِيمٌ فِي الْبَحْرِ . وقد شرحها السَّهْلِيُّ بقوله :
رِيمٌ فِي الْبَحْرِ أَيْ أَفَامَ فِيهِ وَذَكَرَ اسْتِغْلَالَهُ فَقَالَ : « وَرِيمٌ لَيْسَ مِنْ رَامٍ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الرِّيمِ وَهُوَ
النَّدَجُ ، أَوْ مِنَ الرِّيمِ الَّذِي هُوَ الزِّيَادَةُ وَالْفَضْلُ ، أَوْ مِنْ رَامٍ يَرِيمُ إِذَا بَرِحَ ، كَأَنَّهُ يَرِيدُ : غَابَ
زِمَانًا وَأَحْوَالًا ثُمَّ رَجَعَ لِلْأَعْدَاءِ أَوْ ارْتَمَى فِي دَرَجَاتِ الْمَجْدِ أَحْوَالًا ، إِنْ كَانَ مِنَ الرِّيمِ الَّذِي هُوَ
الْفَرَجُ . وَوَجِدْتُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ : خِيمٌ » .

وَلَوْ ط : مَذْ أَمْ فِي الْبَحْرِ . وَلَوْلَ مَا يَسَاعِدُ عَلَيْهَا قَوْلُهُ بِمَذ : يَمُّ قَيْصَرَ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : لِمَا حَازَ .

(٣) الْفَقَالَ : شِدَّةَ الْحَرَكَةِ .

(٤) فَلَقَلَا : مُنْهَزِمِينَ .

فاشرب هديتاً عليك العاجُ مرتفعاً^(١)
 في رأس عُمدان^(٢) داراً منك غلغلاً
 واشرب هديتاً فقد شالت نعامتهم
 وأشبل اليوم في بُردك إسبالاً
 تلك السكارم لا قعمان من لبن
 شيبا بماء فعادة بعد أبو الـ^(٣)

وأقام وهرز والفرس باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء^(٤)
 الذين باليمن اليوم .

وكان ملك الحبشة باليمن منذ دخلها أرباط إلى أن أخرجتهم الفرس
 عنها اثنين وسبعين سنة ، وفق ما ذكره سطيح وشق في تأويل رؤيا ربيعة
 ابن نعر .

ثم مات وهرز ، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان
 فأمر كسرى ابنه التقيمجان^(٥) بن المرزبان ، ثم مات فأمر كسرى ابن التقيمجان ،
 ثم عزله وولى باذان ، فلم يزل عليها حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ مئتمته^(٦) كسرى كتب إلى باذان : إنه بلنفي^(٧) أن رجلاً من قریش
 خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه فاستقبه ، فإن تاب وإلا قابع إلى برأسه .

(١) ابن هشام : مرتفعاً .

(٢) عُمدان : قصر كان باليمن بناء يفرح بن يعصب .

(٣) نسب ابن هشام هذا البيت للقائمة الحمدي ولفاه عن أبي الصلت .

(٤) قالو النهاية : ويقال لأولاد فرس الأبناء ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن .

(٥) في الطبري طيم أوريا : البتجان .

(٦) في السير أن الرسول صلوات الله عليه أرسل إلى كسرى كتاباً ، وخبره مشهور .

(٧) ط : بلنثه .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد وعدني أن يُقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا .

فلما أتى باذان الكتابُ توقّف ينظر وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال .
فقتل الله كسرى على يد ابنه شيرويه في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت الرسل من القُرُوس : إلى مَنْ نَحْنُ يا رسول الله . قال : أنتم منا وإلهنا أهل البيت .

قال الزهري : فَمِنْ ثَمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلَمَانُ مِنَّا أهل البيت .



وكل هذه الأخبار وإن قطعت بعض ما كنا بسبيله من أمر بنى قُصَيٍّ فلها أيضا من الإفادة بقو ما قصدناه وحسن الإمتاع^(١) بالشأن المناسب لمسا اعتدناه ما يُحَسِّنُ اعتراضها وَيُنْظِمُ في سلك واحدٍ مع ما مرَّ من ذلك أو يأتي ، أغراضها .

وعليها بمونة الله في تجويد الترتيب لذلك كله تطبيق المنفصل وردُّ هذه

(١) ت : الإتياع .

الأحاديث المتفرقة في حكم الحديث المتصل ، ففطيل ولا نُملِّ ، ونُقصر فلا نخيل
كل ذلك ببركة المختار الذي يَمُنَّا تخليدًا أولييه ، وتيسُّفاً بخدمة آثاره وسيرته ،
صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأكرمين وصحابته

[عَوْدٌ إِلَى أَبْنَاءِ قُصَى]

وكنا اتهمنا من شأن بنى قُصَى بعده ، إلى ما تراضوا به بينهم من الصلح هل
أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، وتكون حِجَابَةُ البيت والواو
والغدوة لبنى عبد الدار ، على نحو ما جملة قصى إلى أبيهم .

فولى السقاية والرفادة هاشمُ بن عبد مناف .

وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سَفَّاراً قلماً يقيم بمكة ، وكان مُقَلّاً ذا ولد
كثير ، وكان هاشم موسراً ، وكان فيما يزعمون ، إذا حضر الحج قام صبيحة
هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيمض قومه على
رفادة الحاج التي سنها لهم قصى* ، ويقول لهم في خطبته :

يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ،
وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب للعرب أرحاماً .

يا معشر^(١) قريش ، إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته وخصمكم
بجواره دون بنى إسماعيل ، حَفِظْ منكم أحسن ما حفظ جازٍ من جاره ،
ولمَّه يأتيتكم في هذا الموسم زُؤَارُ الله ، يعظّمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ،
وأحق المضيف بالكرامة ضيفه ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُغْمًا

(١) لم يذكر ابن هشام ما سبق من أول الخطبة إلى هنا . وهنا زيادة مما ذكره
ابن هشام .

عُذْرًا مِنْ كُلِّ بَلَدٍ عَلَى صَوَامِرٍ كَالْقِدَاحِ^(١) ، وَقَدْ أَزْحَفُوا وَأَزْمَلُوا^(٢) فَاقْرُؤْهُمْ وَأَعِيذِهِمْ ، فَوَرَبُّ هَذِهِ التَّيَّةِ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكُنْتُ يَسْكُوهُ ، وَأَنَا مُخْرِجٌ مِنْ طَيْبٍ مَالِي وَسَلَّاهُ ، مَا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظُلْمٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ فَوَاضَعُهُ ، فَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلَهُ . وَأَسْأَلُكُمْ بِحِمَاةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرِجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ لِكِرَامَةِ زَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِمْ إِلَّا طَائِفًا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ غَصْبًا .

فَكَانَتْ هَذِهِ كَسْبُ بَنِ لُؤَى وَسَائِرِ قُرَيْشٍ يَحْتَدُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَرَاذِلُونَ عَلَيْهِ ، وَيُخْرِجُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ هَاشِمُ بْنُ هَاشِمٍ مِنْ عِبْدِ مَنْفٍ فِيضَمُّهُ فِي دَارِهِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ لِيُرْسِلُوا بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ عَلَى قَدَرِهِمْ . وَكَانَ هَاشِمُ يُخْرِجُ فِي كُلِّ سَفَةِ مَالًا كَثِيرًا . وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهْلُ يَسَارٍ ، رُبَّمَا أُرْسِلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِمِائَةِ مِثْقَالٍ هِرْقَلِيَّةٍ .

وَكَانَ هَاشِمٌ يَأْتُرُ بِمِخْيَاضٍ مِنْ أَدَمٍ ، فَتُجْعَلُ فِي مَوْضِعٍ زَمَزَمٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحْفَرُ ، ثُمَّ يُسْتَقْقَى فِيهَا مِنَ الْبِيَارِ الَّتِي بِمَكَّةَ ، فَيَشْرَبُ الْحَاجُّ .

وَكَانَ يَطْعَمُهُمْ أَوَّلَ مَا يَطْعَمُهُمْ بِمَكَّةَ قَبْلَ النَّزْوَةِ يَوْمَ ، ثُمَّ بِمَقَى ، وَبِجَمْعٍ وَهَرَفَةٍ ، يُتْرَدُّ لَهُمُ الْخُبْزُ وَاللَّحْمُ ، وَالْخُبْزُ وَالسَّمْنُ ، وَالسَّوِيقَ وَالْعَمْرَ ، وَيَحْمِلُ لَهُمُ الْمَاءَ ، فَيُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ حَتَّى يَصُدُّوا .

وَكَانَ اسْمُ هَاشِمٍ عَمْرًا ، وَيُقَالُ لَهُ عَمْرُو الْعَمَلَاءِ . وَإِنَّمَا سَمِيَ هَاشِمًا فَهَشِيمَةً الْخُبْزَ بِمَكَّةَ لِقَوْمِهِ ، وَهُوَ فَيَا يَذْكُرُونَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ ، رِسْلَةَ الشَّقَاءِ وَالْعَتِيفِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ شُعَرَاءِهِمْ :

(١) القِدَاحُ : جَمْعُ قَدَحٍ ، وَهُوَ السَّهْمُ .
(٢) أَزْحَفُوا : أَعْيَا . وَأَزْمَلُوا : تَقَدَّزَادَمَ .

عَمُرُو النَّاسَ^(١) هَاشِمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
 قَوْمٍ بِمَكَّةَ^(٢) مُسْنِفِينَ عِجَافٍ
 سُدَّتْ إِلَيْهِ الرُّحُلَتَانِ كِلَاهُمَا
 سَفَرُ الشَّعَاءِ وَرَحْلَةُ الْإِصْبَافِ

وذلك أن قُرَيْشًا كانوا قوماً تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تمتدو مكة ،
 إنما يَقدِّم الأَعاجِمُ بالسَّلَعِ فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ، ويبيعون
 ممن حولهم من العرب .

فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشمٌ إلى الشام ، فكان يذبح كلَّ يوم شاةً ،
 فيصنع جفنةً ثريد ، ويدعو من حوله فيما كلون .

وكان هاشمٌ من أحسن الناس وأجملهم ، إلى شرف نفسه وكرمه فعليه .
 فذُكرَ لقيصر فدعا به فلما رآه وكلَّمه أُعجبَ به وأدناه منه .

فلما رأى هاشمٌ مكانه منه ، طلب منه أماناً لقومه ليقدِّموا بلاده ب تجارتهم .
 فأجاباه إلى ذلك . وكتب لهم قيصر كتابَ أمانٍ لمن أتى منهم .

فأقبل هاشمٌ بذلك الكتاب ، فسكناً مرَّ بجيٍّ من أسباط العرب أخذ من
 أشرفهم إبلاً لقومه يأمنون به عندهم وفي أرضهم من غير حائل ، إنما هو
 أمانُ الطريق .

واستوفى أخذَ ذلك من بين مكة والشام ، فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به
 قط بركةً ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم ليوفيهم بإلآفهم

(١) ابن هشام : عمرو النسي .

(٢) وروى : ورجال مكة مسنون عجاف . والسنون : الهديون .

الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يزل يوفيههم إياه ، ويجمع بينهم وبين العرب حتى قدم بهم الشام .

فهلك هاشم في سفره ذلك بنزوة من أرض الشام .
وكان أول بني عيد مناف هلكاً .

وخرج المطلب بن عيد مناف ، وهو يسمى الفيض لسمائه وفضله ، إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم أماناً لمن تجرّ من قومه إلى بلادهم ، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف ممن كان على طريقه من العرب ، كما فعل أخوه هاشم ، حتى أتى مكة ، ثم رجع إلى اليمن . فمات برّدمان .

وخرج عيد شمس بن عيد مناف إلى ملك الحبشة ، فأخذ منه أماناً كذلك لمن تجرّ من قريش إلى بلاده ، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطريق إليها حتى بلغ مكة . وتوفى بها فقبره بالحجون .

وخرج نوفل بن عيد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه إلى العراق ، فأخذ هدياً من كسرى لتجارتهم قريش ، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مرّ به من العرب حتى قدم مكة . ثم رجع إلى العراق فمات بسلمان من ناحية العراق .

فجرّ الله قريشاً بهؤلاء الفقراء الأربعة من بني عيد مناف ، فمست أموالهم ، وأنست تجارتهم ، فكان بدو عيد مناف يسمّون لأجل ذلك المُجترين^(١) ، والعرب تسميهم أقذاح النصار ، لطيب أحسابهم وكرم فعلهم .

وقال مطرود بن كعب الخزاعي يُبكيهم جميعاً حين أتاه نقي نوفل منهم ، وكان آخرهم هلكاً :

يا لَيْلَةَ هَيْجَتِ لَيْلَانِي إِحْدَى لَيْلَى الْقَسِيَّاتِ
وما أَقَامَ منْ مَهِمٍ وما مَالَتْ منْ رُزْءِ اللَّيَّاتِ
إِذَا تَذَكَّرْتُ أَخَى نَوَافِلَ ذِكْرَنِي بِالْأَوَّلِيَّاتِ
ذَكَّرَنِي بِالْأَزْرِ الْخَفِيرِ وَالْأَزْدِيَّةِ الْكُفْرِ الْقَشِيَّاتِ
أَرْبَعَةُ كُلِّهُمْ سِدٌّ أَبْدَانُهُ سَادَاتُ لِسَادَاتِ
مَمَاتٍ بِرَدْمَانٍ وَمَمَاتٍ بِسَلْمَانٍ وَمَمَاتٍ بِفَزَاتِ^(١)
وَمَمَاتٍ أَشْكِنَ لَحْدًا لَدَى السَّحْبُونِ^(٢) شَرْقَ الْهَيْئَاتِ
أَخْلَقْتَهُمْ عِبْدُ مَنْفَى قَهْمٍ مِنْ لَوْمٍ مَنْ لَامَ بِمَنْجَاةِ
إِنْ الْمَنْفَرَاتِ وَأَبْنَاهَا مِنْ خَيْرِ أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ
وَإِنَّمَا سَمَّاهُمُ لِلْمَنْفَرَاتِ لِأَنَّ عِبْدَ مَنْفَى أَهْلَهُمْ كَانَ اسْمُهُ الْمَنْفَرَةُ .

فَقِيلَ لِمَطْرُودٍ - فَيَا يَرْمَهُونَ - : لَقَدْ قُلْتَ فَاحْسَنَتْ ، وَلَوْ كَانَ أَفْخَلٌ مِمَّا هُوَ
كَانَ أَحْسَنَ .

قَالَ : أَنْظِرُونِي لَيْلَى . فَكَتَّ أَيْمَانًا ثُمَّ قَالَ :
يَا عَيْنُ جُودِي وَأَذْرِي السَّمْعَ وَانْتَهَرِي
وَابْكِي عَلَى السَّرِّ مِنْ كَغَبِّ لِلْمَنْفَرَاتِ
يَا عَيْنُ وَاسْتَنْفِرِي^(٣) بِالْهَمِّ وَاحْتَفِلِي
وَابْكِي خَيْبَةً نَفْسِي فِي الْكَلِمَاتِ
وَابْكِي عَلَى كُلِّ فَيَاضٍ أَخَى قَفَاةِ
شَخْمِ الدَّسِيمَةِ^(٤) وَهَابِ الْجَزِيلَاتِ

(١) ابن هشام : عند فزات .

(٢) ابن هشام : لدى المحبوب .

(٣) استنفرى : استكثرى .

(٤) شخم الدسيمية : جزيل المطاء .

تَحْضِرُ الصَّرِيْبَةَ عَلَى الْمَمِّ غُتْلِي
 جَلْدَ الْمَنَاصِيَةِ^(١) نَاهٍ بِالْمَطْلُجَاتِ
 صَعْبَ الْبَدِيْهِ لَا يَكْسِ^(٢) وَلَا وَكَلِي
 مَاضِي الْمَنْزِيْمَةِ مِثْلَافِ الْكَرِيْمَاتِ
 صَقِرَ تَوَسُّطَ مَنْ كَمَبَ إِذَا نَسَبُوا
 بِمُجْوَحَةِ الْمَجْدِ وَالشَّمِّ الرِّفْعَاتِ
 ثُمَّ انْدَبَى الْفَيْضَ وَالْفَيْضَ مُطْلَبًا
 وَاسْتَخْرَطِي بَعْدَ فَهَاضٍ بِجَمَّاتِ^(٣)
 أَمْسَى بِرَدْمَانٍ هَذَا الْيَوْمَ مَفْتَرِيًا
 يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ بَيْنَ أَمْوَاتِ
 وَابْكِي، لَكَ الْوَيْلُ، إِنَّمَا كُنْتُ بِأَكِيَّةٍ
 لَمَبْدِ شَمْسٍ بِشَرْقِ الْبَنِيَّاتِ
 وَهَاشِمٍ فِي ضَرْحٍ وَسَطَ بَلْقَعَةٍ
 تَسْفِي الرِّيحُ عَلَيْهِ بَيْنَ غَزَاتِ
 وَنُوفَلٍ كَانَ دُونَ الْقَوْمِ خَالِصِي
 أَمْسَى بِسَلْمَانَ فِي رَمْسٍ بِمُومَاتِ^(٤)
 لَمْ أَلْقَ مِثْلَهُمْ عَجْمًا وَلَا عَرَبًا
 إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ أَذْمُ الْمَطْلُجَاتِ^(٥)

(١) الصَّرِيْبَةُ : النَجْرَةُ : الطَّبِيْعَةُ . وَغَاءٌ مُتَحَمِّلٌ .

(٢) الْكَسْ : الْجَبَانُ الدَّنِيءُ .

(٣) اسْتَخْرَطَ لِي الْبُكَاءُ : لَجَّ وَاسْتَدَّ . وَالْمَطْلُجَاتُ : الْمَاءُ الْمَجْتَمِعُ وَبَرِيدُ بَنِي هِشَامٍ :

بَعْدَ فَيْضَاتٍ بِجَمَّاتٍ .

(٤) مُومَاتٌ : قُفَرٌ .

(٥) الْأَذْمُ : الْإِبِلُ الصَّرِيْبَةُ سَوْدَاءُ أَوْ بَيَاضًا ، أَوْ هِيَ الْبَيْضَاءُ الْوَاضِعَةُ الْبَيَاضَ .

أَمْسَتْ دِيَارُهُمْ مِنْهُمْ مَطْلَقَةً
 وَقَدْ يَكُونُونَ زَيْنًا فِي السَّرِيَّاتِ
 أَفْدَامُ الْمَعْرُ أَمْ كَلَّتْ سِيوفُهُمْ
 أَمْ كُلُّ مَنْ عَاشَ أَزْوَادُ الْمَنِيَّاتِ
 أَصْبَحَتْ أَرْضُهُ مِنْ الْأَقْوَامِ بِسَدْمٍ
 بَسَطَ الرَّجُومُ وَالْقِوَامُ التَّحِيَّاتِ
 يَا عَيْنَ وَابِكِي أَمَا الشَّعْثُ الشَّجِيَّاتِ
 يَكُونُهُ حُزْنًا مِثْلَ الْبَلِيَّاتِ^(١)
 يَكُونُ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
 يُؤَوِّلُهُ بِلَمْعٍ بَعْدَ عَوَاتِ
 يَكُونُ شَخْصًا طَوِيلَ الْبَاعِ ذَا قَبْرِ^(٢)
 آبِي الْمَضِيَّةِ فَرَّاحِ الْجَلِيلَاتِ
 يَكُونُ حَمْرًا أَلَا إِذَا حَانَ مَصْرُهُ
 تَمَحَّجَ السَّحَابُ بِسَامِ الْمَشِيَّاتِ
 يَكُونُهُ مُسْتَكِينًا عَلَى حَزَنِ
 يَا طَوْلَ ذَلِكَ مِنْ حُزْنٍ وَعَوَّلَاتِ
 يَكُونُ لَمَّا جَلَّاهُ الزَّمَانُ لَهُ
 خُضَرَ الْخُلُودِ كَأَمْثَالِ الْحَيَّاتِ^(٣)

(١) البليّات : جم بليّة وهي الناقة التي كانت تظل عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت
 جوعاً ومطشاً . وكانوا يظنون أنه يحمد عليها .
 (٢) النّير : المطاء .
 (٣) الحيات : الإبل التي تمنع من الماء .

تَحْتَمِزَاتٍ عَلَى أَسَاطِينِ لِيَا
 جَرَّ الزَّمَانِ مِنْ أَحْدَاثِ الصِّبَا
 أَيْتُ لَيْلِي أَرَايَ النُّجُومَ مِنَ الْمِ
 أَبْكِي وَتَهْكِي مَعِي شَجْوَى بُنْيَانِي
 مَا فِي الْقُرُومِ لَهُمْ عِذْلٌ وَلَا خَطَرٌ
 وَلَا لَنْ تَرْكُوا شَرَّوَى بُنْيَانِي^(١)
 أَبْنَاؤُهُمْ خُـ أَيْدَاهُ وَأَنْفُسُهُمْ
 خَيْرُ الْفُوسِ لَدَى جَهْدِ الْإِلْيَانِ
 كَمْ وَهَبُوا مِنْ طَيْرَةٍ سَابِحٍ أَرِنِ
 وَمِنْ طَيْرَةٍ تَهْبِ فِي طَيْرَاتِ^(٢)
 وَمِنْ سَهْوَةٍ مِنَ الْمَهْدَى مُخْلَصَةٍ
 وَمِنْ رِيَّاحٍ كَأَشْطَانِ الرَّكِيَّاتِ^(٣)
 وَمِنْ تَوَابِعٍ مِمَّا يُفْقِضُونَ بِهَا
 عِدَدَ الْمَسَائِلِ مِنْ هَذَا الْمَطْيَانِ
 فَلَوْ حَسِبْتُ وَأَحْصَى الْحَاسِبُونَ مَعِي
 لَمْ أَحْصِ^(٤) أَفْعَالَهُمْ تِلْكَ الْمُنْيَانِ
 هُمْ الْمُدْلُونُ إِمَّا مَعَشَرٌ نَفَرُوا
 عَدَدَ الْفَضَائِلِ بِأَنْسَابِ نَقِيَّاتِ

(١) القُرُومُ : السَّادَاتُ . وَالصَّلَى : اللَّثْلُ . وَالْمَرْوَى أَيْضًا : اللَّثْلُ .

(٢) الطَّيْرُ : الْفَرَسُ الْخَفِيفُ ، وَالْأَرْنُ : النَّشِيطُ .

(٣) الْأَشْطَانُ : الْحَيَالُ ، وَالرَّكِيَّانُ : الْآبَارُ .

(٤) ابْنُ مَعَامَرٍ : لَمْ أَفْضِ .

زَيْنُ الْبُيُوتِ الْبَتَّى خَلَا مَسَاكِنَهَا
فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ وَخْشًا خَلِيَاتِ
أَقُولُ وَالْعَيْنُ لَا تَرَقَا مَدَامُهَا
لَا يُنْعَدُ اللَّهُ أَصْحَابَ الرِّزَايَاتِ

وكان هاشم بن عبد مناف قد قدم للديفة فتزوج بها سلمى بنت عمرو أحد بنى
عدى بن النجار ، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح فيها ذكر ابن اسحق .
قال : وكانت لا تدسح الرجال لشرفها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إن
كرهت رجلا فارتفعه .

فولدت لهاشم عهد المطلب فسنته شيبه ، فتركه هاشم عندها حتى كان
وصيفا^(١) أو فوق ذلك .
ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلمى :
لست بمرسلة معك .

فقال لها المطلب : إني غير منصرف حتى أخرج به مئى ، إن ابن أخى قد بلغ
وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا نلى كثيرا من أمرهم ،
ورحطه وعشيرته وبلده خير له من الإقامة فى غورهم . أو كما قال .

وقال شيبه لعمة المطلب ، فيما يزعمون ، لست بمفارقة إلا أن تأذن لى .
فأذنت له ودفعته إليه ، فاحتمله فدخل به مكة مُرَدِّفَةً على بصره ، فقالت
قريش : عهد المطلب ابعاده .

(١) الوصف : الذى بلغ حد الحنمة .

فبها سُمِّيَ شَيْبَةُ عَهْدِ الْمَطْلَبِ .

فَقَالَ الْمَطْلَبُ : وَيَحْكُمُ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ .

وَذَكَرَ الزَّبِيرُ أَنَّ شَيْبَةَ إِنَّمَا سُمِّيَ عَهْدَ الْمَطْلَبِ ، لِأَنَّ عَهْدَ الْمَطْلَبِ لَمَّا قَدِمَ بِهِ مِنْ يَثْرِبَ وَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ ضَخْوَةً مُرْدِفَةً خَلْفَهُ وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ ، قَامُوا يَرْحَبُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ : مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : عَهْدٌ لِي ابْتِغَاءً يِثْرِبَ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيَّةَ أَلْبَسَهُ حُلَّةً ابْتِاعَهَا لَهُ ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِ بَنِي عَهْدٍ مَدَافٍ وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ ، فَجَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي تِلْكَ الْحُلَّةِ فَيَطُوفُ فِي سَكَاكَ مَكَّةَ ، وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ ، فَيَقُولُونَ : هَذَا عَهْدُ الْمَطْلَبِ . لِقَوْلِ الْمَطْلَبِ فِيهِ ذَلِكَ ، فَلَجَّ اسْمُهُ عَهْدَ الْمَطْلَبِ ، وَتُرِكَ شَيْبَةُ .

وَكَانَ يُقَالُ لِمُعِدِّ الْمَطْلَبِ شَيْبَةُ الْحَدِّ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ شَيْبَةَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذَوَابِهِ

شَعْرَةٌ بِيضَاءُ .

ثُمَّ وَلَّى عَهْدُ الْمَطْلَبِ بَنَ هَاشِمِ السَّقَايَةَ وَالرَّغَاذَةَ بَعْدَ عَهْدِ الْمَطْلَبِ ، فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يَقِيمُونَ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ قَبْلَهُ ، وَتَشَرَّفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَهْلُفْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ ، وَأَحْبَبَهُ قَوْمُهُ وَعَظَّمُوا خَطَرَهُ فِيهِمْ .

وَيُقَالُ : كَانَ يَعْرِفُ فِي عَهْدِ الْمَطْلَبِ نَوْرَ الْفُتُوَّةِ وَهَيْبَةَ الْمَلِكِ .

قَالَ الزَّبِيرُ : وَمَكَارِمُ عَهْدِ الْمَطْلَبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أَحِيطَ بِهَا ، كَانَ سَيِّدَ قُرَيْشٍ غَيْرَ مَدَافِعَ نَفْسًا وَأَبَا وَبَيْتًا وَجَالًا وَبَهَاءً وَفَضْلًا وَكَلَالًا .

فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى الْمُتَخَبِّخِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، الْخُصُوصَ بِأَوَّلِيَةِ الْفَخْرِ وَآخِرِيَّتِهِ ، وَهَلَّى آلَهُ الْأَكْرَمِينَ وَعَقَرَتْهُ وَسَلَّمَتْ سَلِيمًا .

ذكر حفر عبد المطلب زمزم

وما يتوصل بذلك من حديث

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد تقدم الخبر عن زمزم أنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام التي سقاها الله
حين ظمياً وهو صغير .

وكانت جُرم دفنتها حين ظلموا من مكة بين صئح قريش إساف
ونائلة عند متحَر قريش ، فبقى أسرها كذلك إلى أن أمر عبد المطلب بن
هاشم بحفرها .

فذكر ابن إسحق وغيره من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :
قال عبد المطلب : إني لنأثم في الحِجر إذ أتاني آتٍ فقال : احفر طيبة . قلت :
وما طيبة ؟ ثم ذهب هني .

[فلما كان الند رجعت إلى مضجعي فتمتُ فيه ، فجاءني فقال اسفر برّة .
فقلت : وما برّة ؟ ثم ذهب هني ^(١) .

فلما كان الند رجعت إلى مضجعي فتمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر المَضْنونة .
قلت : وما المَضْنونة ؟ ثم ذهب هني .

فلما كان الند رجعت إلى مضجعي فتمتُ فيه فجاءني فقال : احفر زمزم .
قلت : وما زمزم ؟

قال : لا تُتَزَفْ أبداً ولا تُتَدَمَّ^(١) ، تَسْتَقِي الحَجِيجَ الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند تَفَرَّةِ الغراب الأعصم عند قرية النمل^(٢) .

فلما بَيَّنَّ له شأنها ودُلَّ على موضعها وعرف أنه قد صُدِّق ، غَدَاَ بِمِقْوَلِهِ ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذٍ ولدٌ غيره .
فلما بَدَأَ لعبد المطلب الطُّيَّ كَظِير .

فمررت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا لعبد المطلب ، إنها بئرا يديما لإسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر خُصِمْتُ به دونكم وأُعْطِيْتَهُ من بينكم .

قالوا له : فأنصفنا ، فإننا غير تاركيك حق نخاصمك فيها .

قال : اجعلوا بينى وبينكم مَنْ شِئْتُمْ نحاكمكم إليه .

قالوا : كاهنُ بنى سعد بن هُذَيْم^(٣) ، قال : نعم . وكانت بأشراف الشام .

فركب عبد المطلب ومن نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ . قال : والأرضُ إذ ذاك مَفَاوِزُ .

قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنِي مَاءَ عبد المطلب وأصحابه ، فظلموا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَنْ معهم من قهاتل قريش فأَبَوْا عليهم ، وقالوا : إِنَّا بِمِفَارَةٍ ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

(١) لا تُتَزَفْ : لا يفرغ ماؤها ، ولا تدم لا يقل ماؤها .

(٢) ذكر السهيلي في الروض الأتف تعليلاً لهذه الأوصاف ومناسبتها لزمزم وأوصافها .

(٣) في الطبري : سعد هذيم .

فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال :
ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تتبعَ رأيك ، فمَرْنَا بما شئت .

قال : فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ،
فكلما مات رجل دفنه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً
واحداً ، فضيعةُ رجل واحد أسيرُ من ضيعة ركبٍ جميعاً .

قالوا : نعم ما أمرتَ به ، فقام كل رجل منهم غفر حفرته ، ثم قعدوا
يلتظرون الموت عطشاً .

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا الموت
لا نضرب في الأرض ولا نبتنى لأنفسنا لتعجز ، فمضى الله أن يرزقنا ماءً بيمض
البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا ، حتى إذا فرغوا ، ومَن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم
فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انعمت به انفجرت من
تحت حُفَّتِهَا عَيْنٌ من ماءٍ حَذْبٍ ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل
فشرب وشرب أصحابه واستقَوْا حتى ملأوا أسقيتهم .

ثم دعا القبائل من قريش ، فقال : هَلُمُّوا إلَيَّ المساء فقد سقانا الله فاشربوا
واستقوا .

فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب ،
والله لا نحمي جِيبُكَ في زمزم أبداً ، إن الذي سقاك المساء بهذه الغلاة لَهُوَ الذي سقاك
زمزم ، فارجع إلى سقايك راشداً .

فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلقوا بينه وبينها .

وفي غير حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، أن عبد المطلب قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثُمَّ ادْعُ بِالسَّاءِ الرَّوِّى غَيْرَ السَّكْدِ
يَسْقَى حَبِيبَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
لَيْسَ يُخَافُ مِنْهُ شَيْءٌ مَا تَحَرَّزُ

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تَمَلُّوا أَنَّى قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أُحْفَرَ لَكُمْ زَمْزَمٌ ، قَالُوا : فَهَلْ يُبَيِّنُ لَكَ أَيْنَ هِيَ ؟ قَالَ لَا . قَالُوا : فَارْجِعْ إِلَى مَضْجَعِكَ الَّذِي رَأَيْتَ فِيهِ مَا رَأَيْتَ فَإِنَّ يَمَّكَ حَقًّا مِنْ اللَّهِ يَبَيِّنُ لَكَ ، وَإِنْ يَكُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلَنْ يَمُودَ إِلَيْكَ .

فارجع عبد المطلب إلى مضجعه فقام فيه فَأَتَى فَقِيلَ لَهُ : احْفَرَ زَمْزَمٌ ، إِنَّكَ إِنْ خَفَرْتَهَا لَمْ تَنْدَمَ ، وَهِيَ تَرَاثُ مِنْ أَبِيكَ الْأَعْظَمِ لَا تَنْزِفُ أَبَدًا وَلَا تُدَمُّ ، نَسَقِيَ الْحَبِيبَ الْأَعْظَمَ ، مِثْلَ نَعَامِ حَافِلٍ^(١) لَمْ يُقْسَمَ ، يَنْذِرُ فِيهَا نَازِلًا لِلنَّعِيمِ ، يَكُونُ مِيرَاثًا وَعَقْدًا مُحْكَمًا ، لَيْسَتْ كِبَعُضٌ مَا قَدْ تَنَلَّمُ ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرثِ وَالْهَمِ .

فَرَضُوا أَنَّهُ حِينَ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ قَالَ : وَأَيْنَ هِيَ ؟ قِيلَ : عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ حَيْثُ يَنْقَرُ الْغَرَابُ غَدًا .

فَعِنْدَا عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ وَلَيْسَ لَهُ يَوْمُئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ ، فَوَجَدَ قَرْيَةَ النَّمْلِ وَوَجَدَ الْغَرَابَ يَنْقَرُ عِنْدَهَا ، بَيْنَ الْوُثْنَيْنِ إِسَافٌ وَنَائِلَةُ الَّذِينَ كَانَتْ قَرْيَشٌ تَنْسَحِرُ عِنْدَهَا ذِبَائِلَهُمْ .

(١) حافل كثير .

فجاء بالمثول وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جده ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثقتنا هذين اللذين ندر عندهما . فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذب عني فوالله لأمضين ليا أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطي ، فكبر وعرف أنه قد صدق ، فلما تماذى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب ، وما التزالان الاذان دفت جرم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافاً قديمة^(١) وأدراعا .

فقات له قريش : يا عبد المطلب لنا ملك في هذا شرك وحق ، قال : لا ، ولكن هلموا إلى أمر نعرف بيني وبينكم ، نضرب عليها بالقداح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء فهو له^(٢) ومن تخلف قدحاه فلا شيء له ، قالوا : أنعمت .

لجمل قدحين أخضرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش .

ثم أعطوا القداح [صاحب القداح الذي]^(٣) يضرب بها عند هبل ، وهبل صنم في جوف السكبة ، وهو أعظم أصنامهم ، وهو الذي عني^(٤) أبو سفيان بن حرب لما نادى^(٥) يوم أحد : اعل هبل ، أى ظهر دينك^(٦) .

(١) نسبة إلى القاعة ، بلد بالهند .

(٢) ابن هشام : كان له . (٣) من ابن هشام

(٤) ابن هشام : يسي ، قال ، أظهر .

وقام عهد المطلب يدعو الله ، وضرب صاحب القداح ، تفرج الأصفران على الفزاليين ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعهد المطلب ، وتختلف قدحا قريش .

فضرب عهد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب في الباب الفزاليين من ذهب ، فكان أول ذهب حُلِيَّتْهُ الكعبة ، فيما يزعمون .

وذكر الزبير أن عهد المطلب لما أنبسط الماء في زمزم حفرها في القرار ثم بخرها حتى لا تنزف ، ثم بنى عليها حوضا فطفق هو وابنه ينزعان عليها فيملآن ذلك الحوض ، فيشرب منه الحاج .

وكان قوم حسنة من قريش لا يزالون يكسرون حوضه ذلك بالليل ويفتسلون فيه ، فيصلحه عهد المطلب حين يصبح .

فلما أكثروا فساد دعا عهد المطلب ربّه ، فقيل له في المنام : قل : اللهم إني لأحلبها لفتنل ، وهى لشارب حلّ وبيل .

فقام عهد المطلب في المسجد فنادى باللى أرى ، ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش أو يفتنل فيه إلا رأى في جسده بداء ، حتى تركوا حوضه ذلك وسقايته فرقا .

وذكر الزبير أيضا أن عهد المطلب لما حفر زمزم وأدرك منها ما أدرك وجدت قريش في أنفسها مما أعطى ، فلقبه خويلد بن أسد بن عهد العزى ، فقال : يا بن سلمى لقد سقيت ماء رعداً ونقلت عادية حُمداً^(١) ، قال : يا بن أسد ، أما إنك

(١) ثلثت: حفرت. والماذية : القديمة كأنها منسوبة إلى عاد ، والمعد : التى لايجف ماؤها

نُشْرِكُ فِي فَضْلِهَا ، وَاللَّهُ لَا يَسَاعَفُنِي أَحَدٌ عَلَيْهَا بِرٍّ وَلَا يَقُومُ مَعِيَ بَازِرٌ إِلَّا بِذَلِكَ
لَهُ خَيْرٌ لِمَصِيرٍ .

فَقَالَ خُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدٍ :

أَقُولُ وَمَا قَوْلِي عَلَيْهِمْ بِسُنَّةٍ
إِلَيْكَ ابْنَ سُلَيْمٍ أَنْتَ حَافِرُ زَمْزَمٍ .
حَقِيرَةُ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ ابْنِ آجَرٍ
وَرَكْضَةُ جَبْرِيلَ عَلَى هَمْدِ آدَمَ .

فَقَالَ عَهْدُ الْمَطْلَبِ : مَا وَجَدْتُ أَحَدًا وَرِثَ الْعِلْمَ الْأَقْدَمَ غَيْرَ خُوَيْلِدَ بْنِ أَسَدٍ .

ثُمَّ إِنَّ عَهْدَ الْمَطْلَبِ أَقَامَ سَقَايَةَ زَمْزَمٍ لِلْحَجَّاجِ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَبْلَ حَفْرِ زَمْزَمٍ
قَدْ احْتَفَرَتْ بِئِشَارًا بِمَكَّةَ ، وَكَانَتْ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ أَهَارُ حَفَارٍ قَدِيمَةٍ مِنْ عَهْدِ مَرْثَةَ بْنِ
كَعْبٍ وَكَلَابِ بْنِ مَرْثَةَ وَكِبْرَاءِ قُرَيْشِ الْأَوَّلِ ، مِنْهَا بِشَرِبُونَ ، فَتَعَثَّ زَمْزَمُ عَلَى
تِلْكَ الْبِئِشَارِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهَا يُسْقَى عَلَيْهَا الْحَلِجُ .

وَانْصَرَفَ النَّاسُ إِلَيْهَا مُسْكَبِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَلَفَضَلَهَا عَلَى مَا سِوَاهَا مِنَ
الْمِيَاهِ ، وَلِأَنَّهَا بَنَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَانْفَضَّعَتْ بِهَا بَنُو عَهْدِ مَنَافٍ
عَلَى قُرَيْشٍ كُلِّهَا وَعَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ .

[نَزَلَ عَهْدُ الْمَطْلَبِ]

وَكَانَ عَهْدُ الْمَطْلَبِ فِيهَا يَزْهَوْنَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، قَدْ نَذَرَ حِينَ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ مَا لَقِيَ
عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمٍ : لَأَنْ وَلَيْدٌ لَهُ عَشْرَةٌ نَفَرْتُمْ بَلَنَّا مَعَهُ حَقٌّ يَمْسُوهُ ، لِيَنْحَرَّ أَحَدُهُمْ
فَلَهُ هَزْ وَجَلٌ عِنْدَ السَّكْمَةِ .

. فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جميعهم ثم أخبرهم بذره ودعاهم إلى الوفاء به ، فأطاعوه وقالوا : وكيف نصنع ؟
قال : ليأخذ كل رجل منكم قِدْحاً ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتموني ففعلوا ، ثم أتوه فدخل بهم على هيكَل في جوف السكبة ، وكان على بئر في جوف السكبة ، فيها يُجمع ما يهدى للسكبة ، وكان عند هُبُل قِدَاحٍ سبعة بها يضرِبون على ما يريدون ، إلى ما تَخْرُج به القِدَاحُ ينتهون في أمورهم .

فقال عبد المطلب لمصاحب القِدَاح : اضرب على بَنِي هَؤُلاء بقِدَاحهم هذه .
وأخبره بذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قِدْحه الذي فيه اسمه . وكان عبد الله بن عبد المطلب أحبَّ بَنِي أبيه إليه ، فبما يزعمون ، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أَسْوَى^(١) .

فلما أخذ صاحبُ القِدَاحِ القِدَاحَ ليضرب بها ، قام عبد المطلب عند هُبُل يدهو الله ، ثم ضرب صاحبُ القِدَاحِ ، ففُرج القِدْحُ على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليهذبهما ، فقامتا إليه فريش من أنديتها وقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحهما . فقالت له فريش وبنوه : والله لا تذبجه أبداً حتى تُعَذِّرَ فيه ، لأن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبجه فما بقاء الناس على هذا ؟ !

وقال له للمخيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان عبد الله ابن أخت القوم أمه وأم أخويه الزبير وأبى طالب فاطمة بنت عمرو بن هانئ بن عبد بن همران ابن مخزوم : والله لا تذبجه أبداً حتى تُعَذِّرَ فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

(١) أسْوَى بشين معجمة : يقال : رمى فأسْوَى إذا لم يصب المقتل . وقال الخفي : يقال أسْوَيْت في الطمام إذا أبقيت منه .

وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع ، فتسألها
ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه
فرَج قبله .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها فيها يزعمون ، بجهر ، فركبوا حتى
جاءوها فسألوها ، وقصّ عليها عبدُ المطلب خبره وشرايته وما أراد به ونذره فيه
فقالت له : ارجعوا في اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبدالمطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها
فقالت لهم :

قد جاءني الخبر ، كم الهدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل ، وكانت كذلك
قالت : فارجموا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشرة من الإبل ،
ثم اضربوا عليها وعليها بالقدّاح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل
حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم
ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عبد المطلب
يدعو الله ، ثم قرّبوا عبدَ الله وعشرة من الإبل ، وعبدُ المطلب عند حُبل
يدعو الله ، ثم ضربوا تفرج القِدْحُ على عبد الله ، فزادوا عشرة من الإبل ،
فهلفت الإبل عشريّن ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا تفرج القِدْحُ
على عبد الله ، فزادوا عشرة من الإبل ، وما زالوا كذلك يزيدون عشرة فمشرأ
من الإبل ويضربون عليها ، كل ذلك يخرج القِدْحُ على عبد الله ، حتى بانّت
الإبل مائة من الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا تفرج القِدْحُ على
الإبل ، فقالت قريش : قد انتهى ، رضى ربك يا عبد المطلب .

فزعوا أن عهد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ،
فضربوا على عهد الله وعلى الإبل ، وقام عهد المطلب يدهو الله ، ففرج القدحُ
على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة وعهد المطلب قائم يدهو الله ، ففرج القدحُ
في كليهما على الإبل .

فُحِرت ، ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يُمنع .

ثم انصرف عهد المطلب آخذاً بيد عهد الله ، فمر به ، فيما يزعمون ، على
امراة من بني أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد ، وهى
عند السكبة .

قال الزبير : وكان عهد الله أحسن رجل رُئى في قریش قط ، فقالت له
حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عهد الله . قال : مع أبى . قالت : لك مثل
الإبل التى نُحِرت عندك وقَع على الآن ، قال : أنا مع أبى ولا أستطيع
خلافه ولا فراقه .

فخرج به عهد المطلب حتى أتى به وهب بن عهد مداف بن زهرة بن كلاب
ابن مرة ، وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً ، فزوج به ابنته آمنة بنت وهب
وهى يومئذ أفضل امرأة في قریش نسباً وموضناً .

فزعوا أنه دخل عليها حين أنلِكَها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عَرَضَتْ عليه ما عرضت ،
فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، قالت له : فارقك
النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ، وقد كانت

تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان تنصّر وتبيع الكتب ، أنه كائن في هذه الأمة نبي^(١) .

ويقال إن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة ابنة وهب ، وقد حمل في طين له وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسها ، فأبطأت عليه لمّا رأت به من آثار الطين ، فخرج من عندها ، فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك ، ثم خرج حائداً إلى آمنة ، فمرّ بتلك المرأة فدفعته إلى نفسها فأبى عليها ، ومهد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بامراته تلك فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مرتّ بي وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيت ، ودخلت على آمنة فذهبت بها .

فزعوا أن امرأته كانت تحدث : أنه مرّ بها وبين عينيه مثل غرة الفرس ، فدعوته رجاء أن تكون تلك بي ، فأبى على ودخل على آمنة فأصابها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا ، من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم .

ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله أعلم ، أن أمه كانت تحدث أنها أنبت حين حملت به ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى :

(١) هذه الرواية لا تؤيد الهدف الذي قصده واضعها ، والمعروف أن آباء النبي لم يكن فيهم من يرضى بالربا أو يتوق إليه كما دلت عليه أحاديث صحيحة ، والمعروف أن النبوة لم تكن لربا من عبد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم .

أحمد بن محمد بالواحد من شر كل حاسد

ثم تميمه محمداً .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأمه حامل به .

هذا قول ابن إسحق . وخالفه كثير من العلماء ، فقالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان في المهد حين توفي أبوه . ذكره الدولابي وغيره . وذكر ابن أبي خيثمة أنه كان ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك . والله أعلم .

[ولادة النبي]

وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل قيل : بعد الفيل بخمسين يوماً^(١).

وحكى الواقدي عن سليمان بن سُهَيْم قال : كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، فلما كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يا معشر قريش قد ولد نبى هذه الأمة فى بحر تسمك هذه اليوم . وجعل يطوف فى أنديةهم فلا يجد خيراً ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل فقيل له : ولد لابن عبد المطلب غلام . فقال : هو نبى والنوراة .

وقال : حسان بن ثابت : والله إني لأغلام يفة ابن سبع سنين أو ثمان أخيل كل ما أسمع إذ سمعت يهودياً يصرخ على أطلمة ييثرب : يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا قالوا له : ويحك مالك ! قال : طلع الليلة نجم أحد الذى ولد به .

وذكر ابن السككن من حديث عثمان بن أبى العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله ، أنها شهدت ولادة آمنه بنت وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً .

قالت : فإني أنظر إليه من البيت إلا نوراً ، وإني لأنظر إلى العجوم تدنو حتى إني لأكول لتفتن على .

وذكر ابن خلد فى تفسيره أن إبليس رن أربع رنات ، رنة حين لين ،

(١) وذلك سنة ٥٧٠ م قال الطبرى : وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد كسرى أو شروان عام قدم أبرهة الأشمر . . . وذلك لخصى الثلثين وأربعين سنة من ملك كسرى أو شروان ، وفى هذا العام كان يوم جيلة وهو يوم من أيام العرب المذكور. الطبرى ٩٩٩ طبع أوروبا .

ورثة حين أهبط ، ورثة حين وفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورثة حين أنزلت
فاتحة الكتاب !

قال ابن إسحق : فلما وضعت أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك
غلام ، فأتته فانظر إليه . فأتاه ونظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت به ،
وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه .

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به السكبة فقام يدعو الله ويشكر له
ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها .

ويرى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها .

زعموا أنه أرى في مقامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في
السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها
شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يقطعون بها .

فقصها فميرت له بمولود يكون من صلبه يقيمه أهل المشرق والمغرب ويحمده
أهل السماء والأرض . فلذلك سماه محمداً ، مع ما حدثته أمه .

[من سُمي محمداً قبله]

ولا يعرف في العرب أحد نسى بهذا الاسم قبله ، سوى نفر سُموا به من أجله
منهم محمد بن سفيان بن مجاشع النخعي ، ومحمد بن أبيصة بن الجلاح ، وآخر
من ربيعة .

وكان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ممن كان عنده علم بالكتاب الأول ،
فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقارب زمانه ، وباسمه ، وكان كل واحد
منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسبحه بمحمداً .

ففعّلوا ذلك زجاء أن يكونه .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد وقع في مواضع أخرى أن هؤلاء النفر كانوا أربعة ، ولم يذكر فيهم محمد بن أحبة ، وحديثهم مخالف لما ذكرناه خلافاً يسيراً .

روينا من حديث عهد الملك بن أبي سوية عن أبيه عن جده قال : سألت محمد بن عبد الله بن ربيعة : كيف سمك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه ، فقال : خرجت رابع أربع من بني تميم أنا فيهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم وأسماء ابن مالك بن خندف ويزيد بن ربيعة ، نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفتنا الشام نزلنا إلى غدير عليه شعيرات وقربه شخص ناه ، فتحدثنا فاستمع كلامنا وأشرف علينا فقال : إن هذه لغة با هي لغة أهل هذه البلاد . فقلنا : نحن قوم من مغر قال : من أي المغر ؟ قلنا : من خندف . قال : أما إنه يُبعث فيكم وشوكا نهى ؟ خاتم النبيين فاسرعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا .

فقلت له : ما اسمه ؟ قال : محمد فرجعنا من ابن جفنة فولد لكل رجل منا ابن سماه محمداً .

[الرضاة]

والنّس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضاة ، فاسترضع له من امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب .

وكانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر تلتبس الرضاة . قالت : وفي سنة شهباء لم تبق لنا شيئا .

قالت : نفرجتُ على أتان لي قَمَرَاءَ معنا شارف^(١) لنا ، والله ما تبيض^(٢) بقعارة ولا نعام^(٣) ليلتنا أجمعَ مِن صبيها الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في تَدْيِي ما يغييه وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الذيث والفرج .
نفرجتُ على أتانِي تلك ، فلقد أذمتُ بالركب^(٤) حتى شقّ ذلك عليهم ، ضمعاً ومجعفاً .

حتى قدّمنا مكةً نلتمس الرضماء ، فامنا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقأها إذا قيل لها إنه يقيم ، وذلك أنّا إنما كننا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يقيم ما عسى أن تصنع أمه وجدّه ! ! فكنا نكرهه لذلك .

فما بقيت امرأة قدّمت معي إلا أخذت رضيعها غيري .
فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصواحي : والله إنّي لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذه .
قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .
قالت : فذهبتُ إليه فأخذه ، وما حماني على أخذه إلا أنّي لم أجده غيره .

فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرّب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى . ثمّ ناما وما كننا نعام معه^(٥) قبل ذلك . وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لعمّاف ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى اتھيقا ريثاً وشهما .

(١) القمراء : التي يجبل لونها إلى الحفرة . والعارف : الثالثة المسنة .

(٢) ما تبيض : ما ترشح .

(٣) ابن همام : وما .

(٤) أي تأخرت بهم .

(٥) تريد أنها الرض الذي نحدث عند قبل .

فبتنا بمنزلة ، يقول صاحبي حين أصبحنا : تملأ والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة ! قلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملته عليها مى ، فوالله لقطعت بالركب ، ما يقدر على شيء من حيرى ، حتى إن صواحبي ليقطن : يا بنت أبى ذؤيب وبمكة ! اربعى علينا ! أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ! فأقول لمن : بلى والله إنها لمى . فهقلن : والله إن لها أشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فسكانت غنى تروح على حين قدمنا به معها شهاها ألبنا ، فتنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يحمدها فى ضريح ، حتى كان الحاضر^(١) من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . ففرح أغفامهم جعاعاً ما تبسُّ قطرة لبن وتروح غنى شهاها ألبنا .

فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلته .

وكان يشب شهاها لا يشبه الفلنان ، فلم يبلغ سنه حتى كان غلاماً جفراً^(٢) .

فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكته فيها ، لئلا كنا نرى من بركته .

فسكنا أمه وقلت لها : لو تركت بنى عدى حتى ينلظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة .

(١) ابن هشام : الحاضر .

(٢) الجفر الغليظ العديد .

فلم نزل بها حتى ردتته معنا ، فرجعنا به .

[شق الصدر]

فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لى بهم^(١) لنا خاف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشقذ ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذ رجلا عليهما ثياب بيض فأضجماه فشقا بطنه فهما بسوطانه^(٢) .

قالت : نخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممقما وجهه .

قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنى ؟

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجماى فشقا بطنى فالتسما فهما شيئا لا أدرى ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا وقال لى أبوه : يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا غائر^(٣) ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

قلت : قد بلغ الله بابى ، رقصيت الذى حل ، ونحوفت الأحداث عليه ، فأديته عليك كما تحبين .

قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقنى خبرك .

(١) البهم : الصغار من النعم

(٢) بسوطانه : عظامانه .

(٣) غائر : الحاصنه للرصة

قالت : فلم تدفعني حتى أخبرتني .

قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم .

قالت : كلاً والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن رِئِيقاً لَشَأْنَا ، أَمَلَا أَخْبِرَكَ خبره قلت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج من نور أضاء لي قصور بُصْرِي من أرض الشام .

ثم حملتُ به ، فوالله ما رأيت من تحلٍ قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء .
دعوه عنك وانطلق راشدة .

وبروي أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :
يا رسول الله : أَخْبِرْنَا عن نفسك .

قال : « نعم : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بن مريم ، ووراث أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واستقرضت في بني سعد بن بكر .

بينما أنا مع أخ لي خلف يهودنا نرعى بهنًا لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطشت من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأخذاني^(١) فشقا بعنق ثم استخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه حلقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبعنق بذلك الثلج حتى أزيهه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بمشرة من أمقه^(٢) فوزنهم . ثم قال زنه بمائة من

(١) ابن هشام : ثم أخذاني .

(٢) ابن هشام : فوزني بهم .

أمته . فوزنني بهم فوزتهم . ثم قيل : زنه بألف من أمته . فوزتهم . فقال :
دفعه عنك ، فلو^(١) وزنه بألفه فوزنها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من نبي إلا وقد رعى النعم . قيل :
وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وكان يقول لأصحابه : أنا أغربكم ، أنا قُرشي واسترضيت في بني سعد
ابن بكر .

وزعم الناس فيما يتحدثون ، والله أعلم ، أن أمه السعدية لما قدمت به مكة
أضناها في الناس وهي مقبلة به نحو أهلها ، فالتسعة فلم تجده ، فأنت عهد المطلب
فقات له : إني قدمت بحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضاني ، فوالله
ما أدرى أين هو .

فقام عهد المطلب عند السكبة يدعو الله أن يرده ، فيزعمون أنه وجده ورثة
بن نوفل ورجل آخر من قریش فأتيا به عهد المطلب فقالا : هذا ابنك وجدناه
بأعلى مكة . فأخذه عهد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالسكبة يموّذه
ويدعوه . ثم أرسل به إلى أمّة .

وذكر بعض أهل العلم أن مما حاج أمّ السعدية على رده ، ما ذكرت لأمه
ما أخبرتها به ، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد
قطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه ، وقلّبوه ، ثم قالوا لها :
لناخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى مِلْسْكنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له
شأن نحن نعرف أمره . فلم تسكّد تنقلت به منهم .

وذكر الواقدي أن أمه حليلة السعدية بعد أن رجعت به من عند أمه حضرت

(١) ابن هشام : فوالله لو .

به سوق ذى الحجاز ، وبها يومئذ عرف من هوازن يؤتى إليه بالعبيان ينظر إليهم ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الحجر في عهده وإلى خاتم النبوة ، صاح : يا معشر العرب قاتلوا هذا الصبي . وانسلت به حليلة . فجعل الناس يقولون : أى صبي هو ؟ فيقول : هذا الصبي . فلا يرون شيئاً ، قد انطلقت به أمه ، فيقال له : ما هو ؟ فيقول : رأيت غلاماً ، وآلته ، ليهتلبن أهل دينكم وليكسرن أضداعكم وليظهرن أمره عليكم . فطلب بمكاظ فلم يوجد .

ودرجت به حليلة إلى منزلها ، فكانت بعد هذا لا تعرض لأحد من الناس .

ولقد نزل بهم عراف ، فأخرج إليه صبيان أهل الحاضر ، وأبت حليلة أن تخرجه إليه ، إلى أن غفلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج من المظلة فرآه العراف فدعاه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الخيمة ، فجهد بهم العراف أن يخرج إليه فأبت . فقال : هذا نبي .

وقد عرضه عنه أبو طالب على عاتق من لئب ، كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قریش بملابسهم ينظر إليهم ويمتاف لهم ، فاتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، قال : فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شفه عنه شيء فقال : الغلام على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيظه ، فجعل يقول : ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آتياً ، فوالله ليكون له شأن .

وانطلق به أبو طالب .

وكانت حليلة بعد رجوعها به من مكة لا تدعه أن يذهب مكاناً بعيداً . فغفلت عنه يوماً في الظهيرة ، فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخيه . فقالت : في هذا

المر ؟ فقالت أخته : يا أمه ، ما وجد أخى حرّاً ، رأيت غمامة تظل عليه . إذا
وقف وقفت وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

تقول أمها : أحقاً يا بنية ؟ قالت : إى والله . قال : تقول حلومة : أهوذ بالله
من شر ما يُحذّر على ابني .

فكان ابن عباس يقول : رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين .

وكان غيره يقول : رجع إليها وهو ابن أربع سنين .

هذا كله عن الواقدي .

[وفاة أمه وكفالة جده]

قال ابن إسحق : فكان الذي صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة وجده عبدالمطلب
في كلاءة الله وحفظه ، يُنبّهه الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين
مكة والمدينة .

وكانت قد قدمت به إلى أخواله من بنى هدى بن النجار تزيره إمام ، فماتت
وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبدالمطلب .

وكان يوضع له عبدالمطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول
فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلاله له . فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفّر حتى يجلس عليه ، فيأخذه
أمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني فوالله
إن له لشأناً .

ثم يُخلّسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يضعف.

قالوا : وكانت أمّ أيمن تحدّث تقول : كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت عنه يوما فلم أذر إلا بعبد الطلب قائما على رأسى يقول : يا بركة ، قلت : لبيك ، قال : أتدريين أين وجدت ابنى ؟ قلت : لا أدري . قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، لا تغفل عن ابنى ، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نهى هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم .

وكان لا يأكل طعاما إلا قال : على بابى . فوئى به إليه .

وحديث كعب بن مالك عن شيوخ من قومه أنهم يخرجوا محاربا ، وهبدا للطلب يومئذ حتى بمكة ، ومعهم رجل من يهود نبياء ، صجهم للتجارة يريد مكة أو اليمن ، فنظر إلى عبد الطلب ، فقال : إنا نجد فى كتابنا الذى لم يبدل أنه يخرج من ضيفى^(١) هذا نهى يقتلنا وقومه قتل حاد .

وجلس عبدُ الطلب يوما فى الحِجر وعنده أسقف نجران ، وكان صديقا له ، وهو يحاذيه وهو يقول : إنا نجد صفة نهى بقى من ولد إسماعيل ، هذه مولده ، من صفته كذا وكذا .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الحديث ، فنظر إليه الأسقف وإلى عهنيه وإلى ظهره وإلى قدميه ، فقال : هو هذا . فقال : الأسقف : ما هذا منك ؟ قال : ابنى . قال الأسقف : لا ، ما نجد أباه حيا . قال عبد الطلب : هو ابن ابنى مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت . قال عبد الطلب : تحفظوا بابن أخيك ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟

(١) الضيفى : الأصل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يلعب مع الغلمان حتى بلغ الرّدم ،
فراه قوم من بني مُذَلْج فدَعَوْهُ ، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره ، ثم خرجوا
في طلبه حتى صادفوا عبدَ المطلب قد لقيه فاعتنقه ، فقالوا لعبد المطلب : ما هذا
ملك ؟ قال : ابني . قالوا : فاحفظ به ، فإننا لم نَرَ قدما قط أشبه بالقدم الذي
في المقام من قدمه .

قال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء . فكان أبو طالب
يصغف به .

وقد روى أبو داود السُّجِسْتَانِي من حديث ابن عباس ، قال : أتى
نفر من قريش امرأة كاهنة ، فقالوا : أخبرينا بأقربنا شَبْهاً بصاحب
هذا المقام .

قالت : إن جرّزتم على السَّهْلَةِ عبادة ومشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم
شَبْهاً به .

فجرّزوا عليها عبادة ، ثم مشوا عليها ، فرأت أثرَ قدم محمد صلى الله عليه وسلم ،
فقالت : هذا والله أقربكم شَبْهاً به .

قال ابن عباس : فسكنوا بعدُ عشرين سنة ، ثم بمث محمد صلى الله
عليه وسلم .

[بشارة سيف بن ذى يَزَنَ بالنهي]

ولما ظهر سيفُ بن ذى يَزَنَ على الحبشة ، وذلك بعد مولد النبي صلى الله
عليه وسلم أمته وفودُ العرب وأشرافها وشعراؤها يهنئونه ويمدحونه ويذكرون
من حسن بلائه وطلبه بثأر قومه .

فأتاه وفد قريش وفيهم عهد المطلب بن هاشم في أناس من وجود قريش ،
فقدّموا عليه صنعا فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه دنا عهد المطلب منه
فاسعأذنه في الكلام ، فقال : إن كنت ممن يسكن بين يدي الملوكة فقد
أذن لك .

فقال عهد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك تحلاً رفيعا صنعا مقيما ،
شامعا باذخا ، وأنبئتك منبتا طابت أرومته وعزت برؤومته ، وتبئت أصله ،
وبستى قرعته ، في أكرم موطن ، وأطيب متعدين .

وأنت أيها الملك رأس العرب الذي به تقاد ، وحمودها الذي عليه العماد ،
ومثقلها الذي يلجأ إليه العباد ، سلفك لك خير سلف ، وأنت لنا فيه خير
خلف ، فلم ينجل من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، نحن أيها الملك
أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف السكر الذي
قدحنا ، ففسن وقد التهنئة لا وفد المرزقة .

فقال له سيف : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عهد المطلب بن هاشم .
قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : أذنه ، فأدناه .

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال لهم : مرحبا وأهلا ، قد سمع الملك مقالكم
وعرف قرايتكم وقيل وسيلتكم ، وأنتم أهل الليل والنهار ، فلكم الكرامة
ما أقمتم والحياه إذا عظمت .

ثم أنهضوا إلى دار الضيافة والوفود ، فأقاموا شهرا لا يصحبون إليه ولا يأذن
لهم بالانصراف .

ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عهد المطلب ، فقال له : إني مؤوض إليك

من سَقَى على أمرًا لو يكون غورك لم أُبْحَ له به ، ولكفى رأيك مَمْدَنَه
فأطلمك عليه ، فليكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله
بالغ أمره .

إني أجد في الكهات المكنون والعلم الخزون الذي اختزنناه لأنفسنا واجتنبناه
دون غيرنا خيرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرفُ الحياة وفضيلة الوفاة ، للناس عامة
ولرهلك كافة ، ولك خاصة .

فقال له عهد المطلب : مثلك أيها الملك سرّ وبرّ ، فما هو ؟ فذاك أهلُ الوبر
زُمرًا بعد زُمر .

فقال : إذا ولدَ إتيامةُ غلام بين كنفه شامة ، كانت له الإمامة ولسم به
الزمامة إلى يوم القيامة .

فقال له عهد المطلب : لقد أُنْتُ بخير ما آتَى بمثلِه وافد ، ولولا هيبة الملك
وإجلاله وإعظامه لسألته مِن سارِه إلى ما أزداد به سرورا .

فقال له ابن ذِي يَزَن : هذا حِيتُه الذي يولد فيه ، أوقد ولد ، اسمه محمد ،
يموت أبوه وأمه ويكفله جده وحمه ، قد ولدناه مرارا^(١) والله باعقه جهارا
وجاعل له منا أنصارا يعزُّ بهم أوليائه ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس
عن عُرض ، ويستبيح بهم كراثِم الأرض ، ويكسر الصلوان ويخمد النيران
ويمهد الرحمن ويدنر الشيطان ، قوله قُصِّلَ وحكمه عُدِّلَ ، يأمر بالمعروف
ويمنعه ، وينهى عن المنكر ويبطله .

(١) يريد أن العرب حيا ولدوا رسول الله ، أي أن له فيهم قرابة سلهم .

فقال له عبد المطلب : عَزَّ جَدُّكَ وعَلا كَعْمُكَ ودام مُلكُكَ وطال عَمْرُكَ ،
فهَلِ الْمَلِكُ سَارِي بِإِفْصَاحٍ ، فَقَدْ أَوْضَحَ لِي بِمَعْنَى الْإِيضَاحِ .

فقال له ابن ذى يَزَن : وَالْبَيْتُ وَالْحُجُبُ ، وَالْعَلَامَاتُ وَالنُّصُبُ ، إِنَّكَ يَا عَبْدَ
المطلب جَدُّهُ غَيْرُ الْكَذِبِ .

نَفَرَ عَبْدُ الْمطلب سَاجِدًا ، فَقَالَ لَهُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ تَمْلُجَ صَدْرُكَ وَعَلا أَمْرُكَ ،
هَلْ أَحْسَسْتَ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُ لَكَ ؟

فقال عبد المطلب : كَانَ لِي ابْنٌ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ رَفِيقًا ، فَزَوَّجْتُهُ كَرِيمَةً مِنْ
كَرَائِمِ قَوْمِهِ ، فَجَاءَ بِسَلَامٍ فَسَمِيتُهُ مُحَمَّدًا ، فَاتَتْ أَبُوهَ وَأُمُّهُ ، وَكَفَلَتْهُ أَنَا .

فقال له ابن ذى يَزَن : إِنْ الَّتِي قُلْتُ لَكَ كَمَا قُلْتَ ، فَاحْفَظْ بِهَا بَنِكَ واحْذَرِ
عَلَيْهِ الْيَهُودَ ، فَإِنَّهُمْ أَهْدَاؤُهُ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا ، وَأَطُورُ مَا ذَكَرْتُ لَكَ
دُونَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ مَعَكَ ، فَإِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْقِمَاسَةُ مِنْ أَنْ تَسْكُونُ
اسْمَ الرِّيَاسَةِ ، فَيُطْلَبُونَ لَهُ النِّوَالُ وَيَنْصَبُونَ لَهُ الْحَبَائِلُ ، وَهُمْ فَاغِلُونَ وَأَبْنَاؤُهُمْ ،
وَلَوْلَا أَنِّي أَهْلُ أَنْ أَمْلَأُ الْمَوْتَ مُخْتَرِي قَبْلَ مَبْهَمَتِهِ لَسِيرْتُ بِخَيْلِي وَرَجَلِي حَتَّى أَصِيرَ
بِهِ ثَرْبَ دَارِ مُلْكِهِ ، فَإِنِّي أَجِدُ فِي الْكِتَابِ الْفَاطِقِ وَالْإِلِمِ السَّابِقِ أَنَّ بِيْثَرِبَ
اسْتَحْكَامُ أَمْرِهِ وَأَهْلُ النِّصْرَةِ لَهُ ، وَهُوَ مَوْضِعُ قَبْرِهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ الْأَفَاتِ
وَأُحْذِرُ عَلَيْهِ الْعَاهَاتِ لَأَعْلَنْتُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِهِ بِذِكْرِهِ ، وَلَكِنِّي صَارَفْتُ ذَلِكَ
إِلَيْكَ ، مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ بَيْنَ مَعْلَكِ .

ثُمَّ أَمَرَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ بِعَشْرَةِ أَغْبَدٍ وَعَشْرِ إِمَاءٍ ، وَجَائِسٍ مِنَ الْيَهُودِ ،
وَمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَخَمْسَةَ أَرْطَالٍ ذَهَبٍ ، وَعَشْرَةَ أَوْطَالٍ فِضَّةٍ ، وَكَرِشٍ^(١)
مَمْلُوءَةٍ عَصِيْرًا .

(١) الْكَرِشُ : قَدَى الْخِفِّ وَالْخَلْفِ كَالْمِئَةِ لِلْإِنْسَانِ .

وأمر لعبد المطلب بمشرة أضفاف ذلك كله ، وقال له : إذا حال الحَوْلُ فأتفق .

فأت ابنُ ذِي يَزَنَ قبل أن يَحُولَ الحَوْلُ ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا ينبطني أحدكم بمزِيلِ عطاءِ لَللَّيْلِ وإن كَثُرَ ، فإنه إلى نِقاد ، ولكن لَتَنُبطِنِي بما يَبْقَى لي ولعقبِي من بعدِي ذِكْرُهُ ، وغُرُهُ وشرفه .

فإذا قيل له : فما ذاك ؟ قال : ستمعلون نِباءً ولو بعد حين .

وحديثُ سيفِ بن ذِي يَزَنَ هذا عن غير ابنِ إسحق^(١) وهو عندنا بالإسناد ، وقد تقدم ما ألقاه تَبَّعُ الآخر إلى ملوك حِمْيَر وأبدانهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هِمَّ سيفٍ بذلك إنما كان من تلك الجهات . والله أعلم .

[وفاة جده]

ثم إن عبد المطلب بن هاشم هلك عن سنِّ عالية مُخْتَلَفٍ في حقيقتها .

أدناها فيها انتهى إلى^٢ ووقفت عليه ، خمسٌ وتسعون سنة . ذكره الزبير .

وأعلاها فيها ذكر الزبير أيضاً عن نوفل بن عمار قال : كان هبیدُ بن الأبرص تزوّجَ عبد المطلب ، وبلغ مائةً وعشرين سنة ، وبقي هبیدُ المطلب بعده عشرين سنة .

وقال محمد بن سعيد بن المسيّب : لما حضرت الوفاة هبیدُ المطلب وعرف أنه

(١) وهو في دلائل النبوة لأبي نعيم ٥٦ ، وفي تاريخ ابن عساکر ٣٦١/١ .

ميت جمع بناته وكن سينا، صفية، وبرّة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة وأزوى، فقال لمن: ابكين على حتى أسمع ما تقولن قبل أن أموت.

فقال كل واحدة منهن شعرا ترويه به وأنشدته إياه، فأشار برأسه، وقد أصمت: أن هكذا فابكينى.

وذكر ابن إسحق تلك الأشعار.

وقال ابن هشام: إنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها.

قال ابن إسحق: قال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب يهوى عهداً المطلب بن هاشم، ويذكر فضله، وفضل قصي على قريش وفضل ولده من بعده عليهم:

أَعَفَى جُودًا بِالْمَسْجُوعِ عَلَى الصَّدْرِ
(١) وَلَا تَنَاوَا، أَشَقِيئًا سَبَلَ الْقَطْرِ (٢)

وَجُودًا بِدَمْعٍ وَاشْفَعَا كُلَّ شَارِقٍ
بَكَاءَ امْرِئٍ لَمْ يَشَوْه (٣) نَائِبُ الْعَهْرِ

وَسَعَا وَجَعًا وَاسْجَمًا مَا يَهَيِّئَا (٤)
عَلَى ذِي حَبَاكٍ مِنْ قَرِيشٍ وَذَى سِفْرِ

عَلَى رَجُلٍ جَلَدٍ الْقَوَى ذَى حَفِيظَةٍ
جِيلٍ لِلْحَيَا غَيْرِ يَكْمِي (٥) وَلَا هَذَرٍ

(١) السبل حركة: للطر.

(٢) لم يشوه: لم يخطئه.

(٣) سحا: سبا. وجبا: أجمأ. واسجما: أسبلا. (٤) التمس: الجلبان.

على المساجد البهلول ذى الهأس والندى
 ربيع لوى فى القحوط وفى الثمر^(١)
 على خير حافر من ممدّ وناعل
 كريم المسامى طوبى العظيم والنجر^(٢)
 على شبيه الحمد الذى كان وجهه
 يضى سواد الليل كالقمر البدر
 وساق الحجيج ، ثم للخير هاشم
 وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
 طوى زمزماً عدد المقام فأصبحت
 سقايتُهُ فخرًا على كل ذى فخر
 لبيك عليه كل عاب بكربة
 وآل قصى من قبل وذى وفرة
 بنوه سراً كنههم وشبابهم
 تغلق عنهم بيضة الطائر الصغير
 فوى الذى حادى كدابة كلها
 وراى بيت الله فى الثمر واليسر
 فإن تلك غالته للفايا وصرفها
 فقد عاش ميمون النقيصة والأمر

(١) من ابن هشام .

(٢) الخيم : السجية . والنجر : الأصل .

وَأَبْقَى رَجَالًا سَادَةً غَدَرَهُ زُلْزُلُ
 مَصَالِهِتِ أَمْثَالِ الرُّدَيْدِيَّةِ الشُّمْرِ^(١)
 أَبُو عَتَبَةَ الْمَلِيَّ إِلَى حَبَاهُ
 أَغْرَهُ هَيْبَانُ اللَّوْنِ مِنْ كَفْرِ غُرِّ^(٢)
 وَحِزَّةٌ مِثْلُ الْبَذْرِ يَهْنَأُ لِلنَّدَى
 نَقِيُّ الثَّوَابِ وَالذَّمَامِ مِنَ الْفَتْرِ
 وَهَبْدُ مَنْفَعٍ مَاجِدٌ ذُو حَفِظَةٍ
 وَصَوْلٌ لَدَى الْقُرْبَى رَحِيمٌ بَذَى الصَّغْرِ
 كَهَوْلُهُمْ خَدَرُ الْكَمُولِ وَنَسْلُهُمْ
 كَنْسَلُ الْمُلُوكِ لَا تَهْوُرُ وَلَا تَحْرَى^(٣)
 مَقَى مَا تَلَقَى مِنْهُمْ الدَّهْرُ نَاشِئًا
 تَجْدِيهِ بِإِجْرِيَا أَوَائِلُهُ يَجْرَى^(٤)
 هُمْ مَلَأُوا الْبَطْحَاءَ تَجْدًا وَهَزَّةً
 إِذَا اسْتَبَقَ الْخَيْرَاتُ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ
 وَهُمْ حَضَرُوا وَالنَّاسُ بِأَدْرِ فَرِيقِهِمْ
 وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا شِوْنُخٌ بَنَى هَمْرُو
 بَقَوْهَا دِيَارًا جَمَّةً وَطَوَّزَا بِهَا
 بِثَارًا نَسَحُ الْمَاءِ مِنْ قُبْحِهِ بَحْرُ

(١) الرديفة : الرمح .

(٢) الهجان : الأزهر .

(٣) لا تحرى : لا تنفس .

(٤) الإجريا : الوجه الذى تأخذ فيه وتجرى عليه .

لِكُنْ يَشْرَبُ الْحَبَّاجُ مِنْهَا وَغَيْرُهُمْ
 إِذَا ابْتَدَوْهَا صُنِيعَ تَابَةِ النَّصْرِ
 ثَلَاثَةُ أُمَمٍ تَقْلُ رُكَابَهُمْ
 مُحْبَسَةً بَيْنَ الْأَخَاشِبِ وَالْحَجَرِ
 وَقَدْ مَا خَفِينَا قَبْلَ ذَلِكَ حِفْهَةً
 وَلَا نَسْتَقِي إِلَّا بَحْمًا أَوْ الْحَفْرِ^(١)
 م^(٢) يَنْفِرُونَ الْقَذَبَ يُنْقَمُ دُونَهُ
 وَيَنْفُونَ عَنْ قَوْلِ السَّفَاعَةِ وَالْمُجَرِّ
 أَخَارِجَ^(٣) إِمَّا أَهْلِكُنَّ فَلَا تَزَلْ
 لِهَمَّ شَاكِرًا حَتَّى تُفَجِّبَ فِي الْقَفْرِ
 وَلَا تَنْسَ مَا أَسْدَى ابْنُ لُبَيْ فُلَانَهُ
 قَدْ أَسْدَى يَدًا مَحْفُوقَةً مِنْكَ بِالشُّكْرِ
 وَأَنْتَ ابْنُ لُبَيْ مِنْ قَعَى إِذَا انْقَمَوْا
 بِمِثِّهِمْ أَتَى قَصْدُ الْفَوَادِ مِنَ الصَّدْرِ
 وَأَمَّاكَ سِيرٌ مِنْ خِزَاةِ جَبَّوَهَرٍ
 إِذَا حَصَلَ الْأَنْسَابُ يَوْمًا ذُو الْخَفْرِ
 إِلَى سَيْلِ الْأَبْطَالِ تُنْمَى وَتَنْقَى
 وَأَسْكُرِمَ بِهَا مَنْسُوبَةً فِي ذُرَى الدَّهْرِ^(٤)

(١) خم والمفر : بئران من كبار مكة .

(٢) ابن هشام : وهم .

(٣) ابن هشام : طارح .

(٤) ابن هشام : في ذرى الزمر .

ابن لُبَيْ هُوَ ^(١) أَبُو لُبَيْ عَبْدِ الْمُزَيِّ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَهُوَ أَبُو عُتْبَةَ الَّذِي ذَكَرَهُ قَبْلَ فِي هَذَا الشَّعْرِ .

وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ خَزَاعَةَ اسْمُهَا لُبَيْ بِنْتُ هَاجِرَ . وَلَقَدْ قَالَ :
« وَأُمُّكَ سِرٌّ مِنْ خَزَاعَةَ » .

وَنَمَّا هَا إِلَى سَبَأِ الْأَهْطَالِ بِنَاءٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ اتِّمَاءِ خَزَاعَةَ إِلَى حَمْرٍاءَ بْنِ حَامِرٍ ، مِنْ قَسَائِنَ وَاتِّفَافِهِمْ مِنَ الْغُصْنِيَّةِ .

وَالِهَيْدُ الَّذِي ذَكَرَ هَذَا الشَّاعِرُ أَنَّهَا تَرَبَّتْ عَلَيْهِ لِأَبِي لُبَيْ : ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ كَانَ أَخَذَ بِقُرْمٍ أَرْبَعَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ بِمَكَّةَ ، فَوَقَفَ بِهَا ، فَرَّ بِهِ أَبُو لُبَيْ فَأَخْشَكَ .

وَنَسَبَ الزُّبَيْرُ هَذَا الشَّعْرَ لِحُذَافَةَ بْنِ غَاثِمٍ ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ فِيهِ :

« أَخَارِجَ إِمَّا أَهْلَسَكَ الْبَيْتَ . . »

فَإِنْ خَارِجَةٌ هُوَ ابْنُ حُذَافَةَ .

وَحُذَيْفَةُ الَّذِي نَسَبَ ابْنُ إِسْحَاقَ إِلَيْهِ الشَّعْرَ هُوَ أَخُو حُذَافَةَ ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُ ابْنٌ يُسَمَّى خَارِجَةً ، وَإِنَّمَا هُوَ وَالِدُ أَبِي جَهْمٍ بْنِ حُذَيْفَةَ ، وَاسْمُ أَبِي جَهْمٍ عُبَيْدٌ ، وَهُوَ الَّذِي بَشَّرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّبِيِّصَّةِ ذَاتِ الْأَعْلَامِ الَّتِي أَلْهَتَهُ عَنْ صَلَاتِهِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِالنَّبِيِّصَّةِ ^(٢) .

(١) ت ط : هُنَا .

(٢) الْأَنْبِجَانِيَّةُ : كَسَاءٌ . مِنَ الصَّوْفِ لَهُ خَمْلٌ وَلَا عِلْمَ فِيهِ ، يَنْسَبُ إِلَى مَنْبِجٍ عَلَى خَيْرِ قِيَاسٍ

[المباس يلي زمزم]

ولما هلك عبدُ المطلب ، وليَ زمزم والسقاية عليها ابنُ المباس وهو يومئذ
 مِن أحدث إخوته سناً ، فلم تَزَلْ إليه حتى قام الإسلام وهي بيده ، فأقرها
 رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما مضى من ولايته ، وكان رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يحمله إجلال الوالد .

يقول كزيب [مولى ابن عباس ^(١)] : وما ينبغي لرسول الله صلى الله
 عليه وسلم أن يحمل إلا والدها وحدها ، فضيلةٌ خص الله بها المباس دون
 من سواه .

وقال صلى الله عليه وسلم : احفظوني في عى المباس ، فإن همَّ الرجل
 صِنُوا بيته .

وطلع يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا المباس أجودُ
 قریش كَفْناً وأَوْصلها .

ولم يزل المباس سيداً في الجاهلية والإسلام ، يمنع الجارَ ويهذل المالَ ويمعلى
 في النواثب .

قال الزبير : وكان يقال : كان للمباس بن عبد المطلب ثوبٌ لمارى بنى
 هاشم ، ومِثْقَلُ لجائهم ، ومِثْقَلَةُ لجاهلهم . والمِثْقَلَةُ : خشبة ذات سائلة
 يُحمِس فيها الناس .

وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هرمة :

وكانت لمعباس ثلاث نكحها
إذا ما جَنَابُ الحَيِّ أصبحَ أَشْهَباً^(١)
فلسلةُ تنهى الظُّلُمَ وجَفَنَةُ
لمعاري خَيْرِيكَ^(٢) ثوبه قدتهذباً

وقال ابن شهاب : لقد جاء الله بالإسلام وإن جَفَنَةُ المعباس لتدور على فقراء
بنى هاشم ، وإن قَيْدَهُ وَسَوَطُهُ لَمَعَدُ لِسْفَهائِهِمْ .

قال : فكان ابن عمر يقول : هذا والله الشرفُ ، يطعم الجائعَ
ويؤدب السفهاءَ .

وكان أبو بكر وعمر في ولايتهما لا يَلْقَى المعباسَ واحدٌ منهما وهو راكبٌ
إلا نزل عن دابته وقادها ومشى مع المعباس حتى يبلغ منزله أو مجلسه
فيفارقه .

[كفاية همه أبي طالب]

وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَهْلِكِ جده عبد المطلب مع همه
أبي طالب .

وكان عبد المطلب يوصيه به فيما يزعمون .

وذلك أن عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب أخوان لأب
وأم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ،
فكان إليه ومعه .

وذكر الواقدي أن أبا طالب كان مُقِلًّا من المال ، وكانت له قطعة من الإبل بمرثة^(١) ، فيهدو إليها فيكون فيها ، ويؤتى بلبنها إذ كان حاضرا بمكة .

فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا وفرّادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا .

فكان أبو طالب إذا أراد أن يمشيهم أو ينفديهم يقول : كما أنتم حتى يأتى ابني .

فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيُفَضِّلون من طعامهم ؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ، ثم يناول العيال القعب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم يشرب قعبا !

فيقول أبو طالب : إنك لم تبارك ! .

وكان الصبيان يصبحون شعثا رُمَصًا ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهيئا كحيلًا .

وقالت أم أيمن ، وكانت تحضنه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا جوعا قط . ولا عطشا ، وكان يندو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم ثربة ، فرجما حرصنا عليه الفداء فيقول : لا أريده أنا شهبان .

[رحلته إلى الشام]

قال ابن إسحق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام ، فلما

(١). عرلة : واد بمقاه مرفات .

تنبأ للرحيل صَبَّ^(١) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيا يزعمون ، فرق^٢ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به مئى ولا يفارقنى ولا أفاقره أبدا .
أو كما قال .

نفرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُعِثَ في أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَهِيرَى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذفط راهبُ^٣ إليه يصير عليهم عن كتاب منها ، فيا يزعمون ، يتوارثونه كأكبرا عن أكابر .

فلما نزلوا ذلك العام بهبهرى وكانوا كثير ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يَمْرُضُ لهم ، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيا يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه ، فذفر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهمصت أغصانُ الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بهيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاما يا مشرك فريش وأحب أن تحضروا كلكم صغركم وكبيركم وهدركم وحركم .

فقال رجل منهم : والله يا بهيرى إن لك اليوم لشأنا !
ما كنت تصنع هذا بفا ، وقد كما نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟
قال له بهيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ولستكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

(١) صب به : تلاق وتروى : شئت . أى لزمه .

فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدائثة سنة في رجال القوم، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التى يعرف ويحدّ عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلّفن أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبنى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنًا ، فتخلّف في رحالمهم . قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام محكم . فقال رجل من قريش : واللّات والزمزى إن كان لّوئماً^(١) بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جميل يلحفه لحفاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يحدّها عنده في صفته .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والزمزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسألنى باللّات والزمزى شيئاً ، فوالله ما أبهضتُ شيئاً قطّ بنصفهما . فقال له بحيرى : فبالحقّ إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه قال له : سألنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

(١) ابن حمام : لؤم

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال : ما هذا السلام منك ؟ قال :
ابن أخى . قال : فاقبل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبلى به .

قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلدك ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن
رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيُؤَيِّنَنَّه شرّاً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ،
فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سريماً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته
بالشام .

فزهوا أن نفرأ من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله
عليه وسلم مثلاً ما رأى بحيرى في ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبي طالب ،
فأرادوه فردّهم عنه بحيرى ، وذكرهم الله وما يمدون في الكتاب من ذكره
وصفاته ، وأنهم إن أجمعوا لِمَا أرادوا لم يَخْلُصُوا إِلَيْهِ ، حتى عرفوا ما قال لهم
وصدّقوا بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه .

[حَفِظَ اللَّهُ لَهُ]

فَشَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَيَكْلُؤُهُ اللَّهُ وَيَحْفَظُهُ ، وَيَحْمُوطُهُ مِنْ
أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَا يَرِيدُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ .

حتى بَلَغَ أَنْ كَانَ رَجُلًا أَفْضَلَ قَوْمِهِ مَرْوَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، وَأَكْرَمَهُمْ
حَسَبًا ، وَأَحْسَنَهُمْ جَوَارِكًا ، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا ، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا ، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً ،
وَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الْفَحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تَدْنُسُ الرِّجَالَ ، تَنْزُهَا وَتَكْرُمُهَا .

حتى ما اسْمُهُ فِي قَوْمِهِ إِلَّا الْأَمِينُ ، لِمَا جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الصَّالِحَةِ .
(١٣ — الْاِكْتَفَا)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عما كان الله يحفظه به في صِتره
وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيته في غلمان قريش لنقل حجارة لبعض
ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تمرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه
الحجارة ، فإني لأقبلُ معهم كذلك وأديرُ إذ لسكتي لاكم ما أراه لكلمة
وجيعة ، ثم قال : شدّ عليك إزارك .

قال : فأخذته فشدّته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزارى
على من بين أصحابي .

وذكر البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما هممتُ بسوء من أمر
الجاهلية إلا مرتين .

وروى غيره أن إحدى المرتين كان في غَمٍّ يرماها هو وغلام من قريش ،
فقال لصاحبه : اكفني أمر الغم حتى آتي مكة ، وكان بها عرسٌ فيه لهو ،
فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقي عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس ،
عصمةً من الله له !

والمرة الأخرى مثل الأولى سواء .

وذكر الواقدي عن أم أيمن قالت : كانت بوانة صنًا تحضره قريش وتعظمه
وتنسك له وتخلق عنده وتمكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة ، فكان
أبو طالب يحضره مع قومه ويكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك
العيد معهم فيأبى ذلك .

قالت : حق رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عمّاته غضين يومئذ أشدّ الغضب ،

وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتذاب آلهتنا . ويقان : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكثر لهم جمعا ١٩

فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً ، فقلن له : ما دهالك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لم^(١) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثّل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نهي صلوات الله عليه وعلى آله .

[زواجه بخديجة]

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، فيما ذكره غير واحد من أهل العلم .

وذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت منية أخت ليلى بن منية ، وقد رويناه أيضاً من طريق أبي علي بن السكن ، وحديث أحدهما داخل في حديث الآخر مع تقارب اللفظ ، وربما زاد أحدهما الشيء اليسير ، وكلاهما يتنمى إلى نفيسة .

قالت : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين ، لما تكاملت فيه من خصال الخير ، قال أبو طالب :

(١) الطبوعة لي وهو خطأ .

يا بن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان عليّ وألحّت علينا سئون منكورة ،
وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ،
وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في غيرها فيقتبسون لها في مالها
ويصيبون منافع .

فلوجئتها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعتَ إليك وفضلتك على غيرك ، لمّا
بلغها عدك من طهارتك ، وإن كنتَ لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك
من يهود ، ولكن لا تجد من ذلك بُدًا .

وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة
تبعث بها إلى الشام ، فيكون غيرها كعامة غير قريش ، وكانت تستأجر الرجال
وتدفع لهم للال مضاربة .

وكانت قريش قومًا تجارًا ، ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس
عندهم شيء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاعلمها ترسل إليّ في ذلك .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولى غيرك ، فقطلب أمرًا مُذبرًا .

فاfterقا ، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمّه له ، وقَبِل ذلك ما قد بلغها من
صدق حديثه ، وعظّم أمّته وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمت أنه يريد هذا .

ثم أرسلت إليه فقالت : إنه دعاني إلى البَيْتَةِ إليك ما بانفي من صدق حديثك
وعظّم أمّاتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضِمْف ما أعطى رجلا من قومك .

فَقَبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافق أبا طالب وذكر له ذلك ، فقال :
إن هذا لِرِزْق ساقه الله إليك .

تخرج مع غلامها مَيْسِرَةَ حتى قَدِمَ الشام ، وجعل همومته يوصون به أهلَ
البيد ، حتى قَدِمَ الشامَ فنزلا في سوق بُعْثَرَى في ظل شجرة قريبة من صومعة
راهب يقال له نسطورا .

فاطلع الراهب إلى مَيْسِرَةَ وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذي نزل
تحت هذه الشجرة ؟

فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي^(١) .

ثم قال له : في عينه حمرة ؟

قال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، وبأليت أفي أدركه حين يؤمر
بالخروج . فوعى ذلك ميسرة .

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بُعْثَرَى ، فباع سلمته التي خرج
بها واشترى سلمة ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلمة ، فقال الرجل :
احلف بالللات والقُرْزَى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط .
فقال الرجل : القولُ قولك .

ثم قال لميسرة ، وخلا به : يا ميسرة ، هذا نبي^(٢) ، والذي نفسي بيده إنه لهو ، تجده
أخبارنا مفعوتاً في كتبهم .

فوعى ذلك ميسرة .

ثم انصرف أهل البيد جميعاً .

(١) يريد : ما نزل الآن ولا ظم يحل أن يجلس تحتها كثير من الناس غير الأنبياء .

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت المهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يُظِلَّانَه من الشمس وهو على بعيره .

قال : وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبة من ميسرة ، فسكان كأنه عيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رجعوا وكانوا بمر الظهران تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في حُلَّة^(١) لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره ، وهما كان يُظِلَّان عليه ، فأرته نساءها ، فمحين لذلك .

ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فغيرها بما رجعوا ، فسمعت بذلك . فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام . وأخبرها بقول الزاهد نسطورا ، وقول الآخر الذي خالفه في البع .

قالوا : وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجاراتها ، فربحت ضيف ما كانت تريح ، وأضدت له ما سمّت له .

فلما استقر عندنا هذا ، وكانت امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لوقدر عليه ، عرضت عليه نفسها .

فقال له فيما يزعمون : يا بن عمى ، إني قد رغبتُ فيك اقترابك

وَصِيَّتِكَ^(١) فِي قَوْمِكَ ، وَأَمَانَتِكَ ، وَحَسَنَ خَلْقِكَ ، وَصِدْقَ حَدِيثِكَ .
فَلَمَّا قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَحْمَامِهِ ، فَخَرَجَ مَعَهُ عُمَةُ حِزَّةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ،
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ ، نَخَطِبُهَا إِلَيْهِ فَنَزَّوَجَهَا .
هَكَذَا ذَكَرَ^(٢) ابْنُ إِسْحَاقَ ، وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ نَفِيسَةَ ، أَنَّ
خَدِيمَةَ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ دَسِيسًا ، فَدَعَا إِلَى نَزْوِجِهَا .

فَلَمَّا أَجَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَتْ إِلَى عُمِّهَا حَمْرُو بْنُ أَسَدٍ
غَضْرًا ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَمُومَةٍ فَزَوَّجَهُ أَحَدُكُمْ .
وَقَالَ حَمْرُو : هَذَا الْقَعْلُ لَا يُقَدَّحُ أَنْفَهُ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَأَصْدَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرِينَ بَكْرَةً .
وَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ نَزَّوَجَهَا ، وَلَمْ يَنْزَوِجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا حَتَّى مَاتَتْ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَوُلِدَتْ خَدِيمَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَدَهُ كُلَّهُمْ ،
إِلَّا إِبْرَاهِيمَ : الْقَاسِمَ ، وَبِهِ كَانَ يُكْنَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالطَّاهِرَ ، وَالطَّيِّبَ ،
وَزَيْنَبَ ، وَرَقِيَّةَ ، وَأُمَّ كَلثُومَ ، وَفَاطِمَةَ .

فَأَمَّا الْقَاسِمَ وَالطَّاهِرَ وَالطَّيِّبَ فَهَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ .
وَأَمَّا بَنَاتُهُ فَكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الْإِسْلَامَ ، فَأَسْلَمْنَ وَهَاجَرْنَ مَعَهُ .
هَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي ذِكْرِ الْبَنِينَ ، أَنَّهُمْ هَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ ، وَهُوَ مِنْ أُمَّةِ هَذَا الشَّأْنِ : وَلِدَتْ لَهُ الْقَاسِمَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ
وَهُوَ الطَّاهِرُ وَالطَّيِّبُ ، وَلَدَ بِعَدِ النَّبُوَّةِ وَمَاتَ صَغِيرًا .

(١) ط : وَسُيَّتِكَ .

(٢) الطَّبِيعَةُ : قَالَ .

وفي مسند الفريزاني ، ما يدل على أنه مات قبل أن تتم رضاعته وبعد النبوة^(١).

وذلك أن خديجة دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت القاسم وهي تبكي عليه فقالت : يا رسول الله ، لو كان هاش حتى تستكمل رضاعته لهوّن على^٢ . فقال : إن له مريضاً في الجنة تستكمل رضاعته . فقالت خديجة : لو أعلم ذلك لهوّن على^٣ . فقال رسول الله : إن شئت أسمعتك صوته في الجنة . فقالت خديجة : بل أصدق الله ورسوله .

قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية سُريّة النبي صلى الله عليه وسلم التي أهداها إليه المقوقس من حَفَنٍ من كُورَةِ أَنْصِفَاء^(٢) .

وهي قبطية من قبط مصر ، وهذا هو الصهر الذي ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « الله الله في أهل اللمة ، أهل للدرة السوداء الشحم الجعاد ، فإن لهم نسباً وصهرًا » .

قال مولى غفرة : نسبهم أن أمّ إسماعيل النبي منهم ، وصنهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرّر فيهم .

وفي حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحت مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمةً ورحاً » .

(١) أي القاسم

(٢) هي مدينة بنواحي الصعيد على شرق النيل .

قال ابن إسحق : وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ابن المزي ، وكان ابن عمها^(١) وكان نصرانيا قد تنبَّع الكتب وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان للملكان يُظْلانهُ .

فقال ورقة : لأن كان هذا حقاً يا خديجة إن عمداً لبي هذه الأمة ، قد عرفتُ إنه كان لهذه الأمة نبى يُنْتَظَر ، هذا زمانه . أو كما قال .

فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول : حتى متى ؟ ! وقال فى ذلك :

كَبَجْتُ وَكُنْتُ فى الذِّكْرِ لَجُوجًا .
لَهُمْ طَالَمَا بَثَّ النَّشِيجَا
ووصف من خديجة بعدَ وَصْفِ
قد طال الانتظارى يا خديجا
يَبْطُنُ الْمَكِينُ^(٢) عَلَى رَجَائِي
حَدِيثَكَ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجًا
بِمَا خُفِّرْنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّ
مِنَ الرُّهْبَانِ أَسْكَرُهُ أَنْ يَمُوجَا
بأن عمداً سَيُودُ يَوْمًا
وَيَنْقُصُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَبِيبَا

(١) المطبوعة : عمه وهو خطأ .

(٢) يريد بالكعين : جانباً بكه ، أو طاحها وطوامرها .

وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نَوْرٍ
يَقِيمُ بِهِ الْبَرِيَّةُ أَنْ تَمُوجَا
فَيَلْقَى مِنْ يَمَارِبِهِ خَآرَا
وَيَلْقَى مِنْ يُسَالِهِ فُلُوجَا^(١)
فِيَالِيَّتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ
شَهِدْتُ فَكُنْتُ أَوَّلُهُمْ وَلُوجَا
وَلُوجَا فِي الْإِذَى كَرِهَتْ قُرَيْشُ
وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكْنَهَا ضَجِيجَا
أَرْجَى بِالْإِذَى كَرِهُوا جَمِيعَا
إِلَى ذِي الْمَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَاهَةِ^(٢) غَيْرُ كُفْرٍ
بِمَنْ يَخْتَارُ^(٣) ، مَنْ تَمَكَّ الْبُرُوجَا
فَلَنْ يَنْتَهَقُوا وَأَبْقَى تَكُنْ أُمُورُ
يَغْنِجُ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكَ فَكُلُّهُ فَقَى سَيْلَقَى
مَنْ الْأَذْدَارِ مَخْلَقَةُ حَرُوجَا^(٤)

(١) أي طهوراً ونجاشاً .

(٢) ابن هشام : السفالة .

(٣) اللطوعة : مختار .

(٤) أي مهلكة واسمة التصرف .

وقال ورقة بن نوفل أيضاً ذلك وهو ما رواه يونس بن بكير عن
ابن إسحاق :

أَتُبَكِّرُ أَمْ أَنْتَ الْقَشِيشَةُ رَاحُ
وَفِي الصَّدْرَيْنِ إِشْمَارُكَ الْحَزْنَ قَادِحُ
لِفَرْقَةٍ قَوْمٍ لَا أَحَبُّ فِرَاقِهِمْ
كَأَنَّكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نَازِحُ
وَأَخْبَارِ صِدْقٍ خَبَرْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ
يُحْذِرُهَا عَفْوَ إِذَا غَاب نَاصِحُ
فَتَاكَ الَّذِي وَجَّهْتَ يَا خَيْرْتَ حُرُوفُ
يَنْذِرُ وَاللَّجْدَيْنِ حَيْثُ الصَّحَابُ (١)
إِلَى سَوْقٍ بُعِثْتُ فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَتِ
وَهُنَّ مِنَ الْإِعْمَالِ قُصَصُ دَوَالِحِ (٢)
نَفِيرًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ
وَالْحَقُّ أَبْوَابُ لَهْنٍ مَقَامُ
بِأَنَّ ابْنَ عَهْدٍ اللَّهُ أَحَدَ مُرْسَلٍ
إِلَى كُلِّ مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبْطَالُ
وَعُظَى بِهِ أَنْ سَوْفَ يُنْبِئُ صَادِقًا
كَمَا أُرْسِلَ التَّبْدَانِ هُوْدُ وَصَالُ

(١) الصحاح : الأرس الستوية .

(٢) أى تغيّلات خلو منقبضات .

وَمُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ حَقِّ يُرَىٰ لَهُ
 بِهَا وَمَنْشُورٌ مِنَ الذِّكْرِ وَاضِحٌ
 وَيَقْبُهُ حَيًّا لَوْمِيٌّ بِنِ غَالِبِ
 شَهَابُهُمُ وَالْأَشْيَبُونَ الْجَحَاجِجُ
 فَإِنْ أَبَقَ حَقِّ يَدْرِكُ النَّاسَ دَهْرُهُ
 فَإِنِّي بِهِ مُسْتَبْشِرُ الْوُدِّ فَارِحُ
 وَإِلَّا فَإِنِّي بِأَخْذِيهِ فَاعْلَى
 عَنْ أَرْضِكَ فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ سَامِعُ

ذكر بنيان قريش السكبة

مع ذكر ما أحدثوه في الفلاسك

ولما بَلَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين^(١) سنة ، اجتمعت قريش لبنيان السكبة .

قال موسى بن عُقبة : وإنما حَلَّ قريشًا على ذلك^(٢) أن السَّيْلَ كانَ أُنًى من فوق الرِّدَمِ الذي صنعوا فَأَخْرَبَهُ ، تخافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجلٌ يقال له مُلْكَيْج سرق طيب السكبة .

فأرادوا أن يشيّدوا بنيانها ، وأن يرفعوا بابها ، حتى لا يدخلها إلا مَنْ شاموا وأعدوا لذلك نفقة ، وعمالاً ، ثم عمدوا إليها ليهدموها على شَفَقٍ وحَذَرٍ من أن يمنعهم الله الذي أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانوا يهشون بذلك [لِيُسَقِّفَهَا]^(٣) ويهايون هَذَمَ^١ ، وإنما كانت رَضْمًا^(٤) فوق التامة ، فأرادوا رَفْعَهَا وتسقيفها ، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز السكبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف السكبة .

قال : وكان الذي وُجِدَ عنده الكنزُ دُوَيْكُ مولى لبني مُلْكَيْج بن عمرو ، من خزاعة [قال ابن هشام :] فقطعت قريش يده .

(١) للبلوعة : خمسًا وعشرين ، وهو خطأ .

(٢) للبلوعة : على بنيانها .

(٣) من أين همام

(٤) أى حجارة تصد بعضها على بعض من خير ملاط

وتزعم قريش أن الدين ررقوه وضموه عند ذؤيك .

قال : وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جذّة لرجل من تجار الروم فتحطمت
فأخذوا خشبها فأعدّوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطي نجّار ، فتبنا لهم
في أنفسهم بعض ما يصلحها .

وكانت حية تخرج من بئر السكمة التي كان يُطرح فيها ما يُهدى لها ،
فتشرّق^(١) على جدار السكمة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها
أحدٌ إلا احتزأت^(٢) وكشّت وفصت فهاها ، فكافوا يهابونها . فبينما هي يوماً
تتشرّق على جدار السكمة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاخذهاها ،
فذهب بها .

فقال قريش : إنا لندرجو أن يكون الله قد رضى بما أردنا ، عندنا هامل رفيع
وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هذمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن هانئ
ابن حمران بن مخزوم ، فتناول من السكمة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى
موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبها ،
لا تدخلوا فيها مهر^(٣) بئى ولا بيع ربّا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

والناس يفعلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر
ابن مخزوم .

(١) تشرّق : تبرز للشمس .

(٢) احتزأت : رفست رأسها . وكشّت : صوتت من جلدها لا من فيها .

(٣) في ط : مهر ، وفي هامتها : في السيرة : مهر .

ثم إن قريشاً تجزأت^(١) السكبة ، فكان شقُّ الباب لبني عبد مناف
وذُهره ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من
قريش انضبتوا إليهم ، وكان ظَهْرُ السكبة لبني جُمَح وبني سُهْم ، وكان شقُّ
الحِجَر لبني عبد الدار بن قُصَي ، ولبنی أسد بن عبد المُزَي^(٢) بن قُصَي ، ولبنی
عدي بن كعب رَهْوُ الحِطيم^(٣) .

ثم إن الناس هابوا هَدَمَها وفَرَّقُوا منه ، فقال الوليد بن النخيلة : أنا أبدؤكم
في هَدَمِها ، فأخذ المول ، ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تُزَعْ^(٤) . ويقال :
لم تُزَعْ . اللهم إنا لا نريد إلا الخير .

ثم هَدَمَ من ناحية الركبتين ، فتربَّص الناسُ تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ،
فإن أُصِيبَ لم نَهْدِم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصِبْهُ شيء ، فقد
رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناسُ معه ، حتى إذا
انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة
خُضِر ، كالأسنة^(٥) أخذٍ بعضها بعضاً .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض من يروى الحديث : أن رجلاً من قريش من
كان يهدمها ، أدخل عَمَلَةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر
تفتقت مكَّةُ بأسرها ، فاتتهوا عن ذلك الأساس .

(١) ابن هشام : جزأت .

(٢) ابن هشام : ابن المزي .

(٣) الرهو : ما اطمان من الأرض وارتفع ما حوله .

(٤) أي لم تزعج السكبة .

(٥) ط : كالأسنة

قال : وَحُدِّثْتُ أَنَّ قَرِيشًا وَجَدُوا فِي الرُّكْنِ كِتَابًا بِالسَّرِيفَانِيَّةِ ، فَلَمْ يَذَرُوا مَا هُوَ حَتَّى قَرَأَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ ، فَإِذَا هُوَ : أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ ، خَلَقْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَصَوَّرْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَخَفَّفْتُهَا بِسَهْمَةِ أَمَلَاكٍ حُفَّتَاءَ ، لَا تَزُولُ حَتَّى يَزُولَ أُخْشَبَاهَا^(١) ، مَبَارَكٌ لِأَهْلِهَا فِي الْمَاءِ وَاللَّيْلِ .

وَحُدِّثْتُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي الْمَقَامِ كِتَابًا فِيهِ : مَكَّةَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ ثَلَاثِ سُبُلَ ، لَا يُحِلُّهَا أَوْلَى مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَزَعِمَ لُثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ أَنَّهُمْ وَجَدُوا حَجَرًا فِي السَّكْمَةِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، إِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ حَقًّا ، مَكْتُوبًا فِيهِ : مَنْ يَزْرِعْ خَبْرًا بِمَحْصَدٍ غَيْطَةٍ ، وَمَنْ يَزْرِعْ شَرْبًا بِمَحْصَدٍ نَدَامَةٍ ، تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ ۖ ۖ ۖ أَجَلٌ كَمَا [لَا] يُجْتَنَى مِنَ الشُّوْكِ الْمِغْبُ .

[وَضَعُ الْحَجَرِ]

قال ابن إسحاق : ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ ، جَمَعَتِ الْحِجَابَةَ لِبَنَاتِهَا ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ ، ثُمَّ يَلْوُهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْبَنَاتُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ ، فَاتَّخِصَمُوا فِيهِ ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْآخَرِ ، حَتَّى تَجَاوِزُوا وَتَحَافُوا ، وَأَعْدُوا لِلْفِعَالِ ، فَقَرَّبَتْ بَدُو عَيْدِ الدَّارِ جَفَنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا ، ثُمَّ تَمَاقَدُوا هُمْ وَبَدُو عَدِيٍّ عَلَى الْمَوْتِ ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الدَّمِ فِي تِلْكَ الْجَفَنَةِ ، فَشَبُّوا لَعَنَةَ الدَّمِ .

فَكَشَفَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لِيَالٍ أَوْ خَمْسًا ، ثُمَّ لِنَهُمْ اجْتِمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ ، فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا ، فَزَعِمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ ، أَنَّ أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُثَنَّى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

(٢) أَيْ أَنَّ أَهْلَهَا هُمُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ بِأَحْلَامِهَا .

(١) أُخْشَبَاهَا : جَبَلَاهَا .

ابن عمر بن مخزوم ، وكان عاملاً أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أولَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضَى بَيْنَكُمْ . ففعلوا .

فَسَكَانُ أَوَّلَ دَاخِلِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَوْهُ ، قَالُوا : هَذَا الْأَمِينُ ، رَضِينَا ، هَذَا عَمْدٌ .

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُوا انْخَبَرَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلُمُّوا إِلَيَّ ثَوْبًا . فَأَتَى بِهِ ، فَأَخَذَ الرِّكَنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لِنَتَّخِذُ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِذَاتِهَا مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا . ففعلوا ، حتى إِذَا بَلَّغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ .

[كِسْوَةُ السَّكْبَةِ]

وَكَانَتِ السَّكْبَةُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، كَانَتْ تُسَكَّتُ الْقَبَائِلُ^(١) ، ثُمَّ كُسِيَتْ الْهُرُودُ .

وَأَوَّلُ مَنْ كَسَاهَا الدِّيْبَاجَ ، الْحَبَّاجُ بْنُ يَوْسَفَ . هَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ .

وَقَالَ الزُّبَيْرُ : بَلْ أَوَّلُ مَنْ كَسَاهَا الدِّيْبَاجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ .

وَذَكَرَ جَاهِدٌ سِوَاهُمَا الدَّارِ قُطْنِي : أَنَّ ثُبَيْلَةَ بِنْتَ جَدَابَ ، أُمُّ الْعِمَاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلُوبِ ، كَانَتْ قَدْ أَضَلَّتْ الْعِمَاسَ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ صَغِيرٌ ، فَتَذَرَتْ إِنْ هِيَ وَجَدَتْهُ أَنْ تَكْسُوَ السَّكْبَةَ الدِّيْبَاجَ ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ حِينَ وَجَدَتْهُ .

وَفَذَكَرَ الزُّبَيْرُ أَنَّ الَّذِي أَضَلَّتْهُ ثُبَيْلَةُ بِنْتُ جَدَابَ إِنَّمَا هُوَ ابْنُهَا ضَرَارُ بْنُ

(١) ثِيَابٌ يَبِشُ كَانَتْ تَحْتَمِلُ بِمِصْرَ .

عهد للطلب [شقيق العباس^(١)] ، ونذرت أن تكسو البيت إن وجدته ،
فكسّته حين وجدته ثياباً بيضاً ، قاله تعالى أحل .

[أمرُ الخمس]

قال ابن إسحاق : وكانت قريش ، لا أدري أقبلَ الفيل أم بعده ، ابتدعت
أمرَ الخمس ، رأيا راوه وأداروه .

فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت ، وقاطنُ مكة وساكنها ،
فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل
ما تعرف لنا ، فلا تعظّموا شيئاً من الحلِّ كما تعظّمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم
ذلك استخفّت العربُ بحرمّكم ، وقالوا : قد عظّموا من الحلِّ مثل ما عظّموا
من الحرم .

فتركوا الوقوفَ على حرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويعرفون أنها من
للشأهر والحجّ ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ،
وأن يقبضوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغي لنا أن
نخرج من الحرم ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها ، نحن الخمس ، وأهل الحرم .

ثم جعلوا لمن ولّوا من العرب من ساكن الحلِّ والحرم مثل الذي لهم
بولايتهم لإمام ، يحلّ لهم ما يحلّ لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم .

وكانت كنانة وخزاعة قد دخلا معهم في ذلك .

ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغي لأحد من

(١) من الطبعة .

يَأْتِقُطُوا الْأَقِطَ^(١) ، وَلَا يَسْأَلُوا السَّمْنَ وَمِ حُرْمٌ ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ شَعْرٍ ، وَلَا يَسْتَظِلُّوا إِنْ اسْتَظَلُّوا إِلَّا فِي بَيْوتِ الْأَدَمِ مَا كَانُوا حُرْمًا .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لَا يَنْهَى لِأَهْلِ الْحِلِّ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِ جَاءُوا بِهِ مَعَهُمْ مِنَ الْحِلِّ إِلَى الْحَرَمِ إِذَا جَاءُوا حُجَّاجًا وَعُمَرَاءَ ، وَلَا يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ إِذَا قَدَمُوا أَوَّلَ طَوَافِهِمْ إِلَّا فِي ثِيَابِ الْحَمْسِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْهَا شَيْئًا طَافُوا بِالْبَيْتِ حُرَّةً ، فَإِنْ تَكَثَّرَ مِنْهُمْ مَكْرَهٌ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ ، وَلَمْ يَجِدْ ثِيَابَ أَحْمَسَ فَعُطَافٌ فِي ثِيَابِهِ لَتَقِيَّ جَاءَ بِهَا مِنَ الْحِلِّ ، أَنْقَاهَا إِذَا فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا ، وَلَمْ يَسْمُهَا هُوَ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ أَبَدًا . فَكَانَتِ الْعَرَبُ تَسْمِي تِلْكَ الثِّيَابِ اللَّتَى^(٢) .

لَحَلُّوا عَلَى ذَلِكَ الْعَرَبِ فَدَانَتْ بِهِ ، فَوَقَفُوا عَلَى عِرْفَاتٍ وَأَقْضَوْا مِنْهَا ، وَطَافُوا بِالْبَيْتِ حُرَّةً ، أَمَّا الرِّجَالُ فَيَطُوفُونَ حُرَّةً ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَتَضَعُ إِحْدَاهُنَّ ثِيَابَهَا كُلَّهَا إِلَّا نَوْبًا^(٣) مَقْرَجًا عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَطُوفُ فِيهِ .

فَكَانُوا كَذَلِكَ حَقٌّ بِمِثْلِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِينَ أَخْلَمَ لَهُ دِينُهُ وَشَرَعَ لَهُ سُنَنَ حَجَّهِ : « نَمِ افْيِضُوا مِنْ جِوْثِ أَفْاضِ النَّاسِ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »^(٤) ، يَعْنِي قَرِيشًا ، وَالنَّاسُ الْعَرَبُ . فَرَفَعَهُمْ فِي سُنَّةِ الْحَجِّ إِلَى عِرْفَاتٍ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا وَالْإِفَاضَةِ مِنْهَا .

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيهَا كَانُوا حُرْمًا عَلَى النَّاسِ مِنْ طَعَامِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ،

(١) الْأَقِطُ : شَيْءٌ مَخْتَصٌ مِنَ الْخَيْشِ النَّعْمِيِّ .

(٢) اللَّتَى : الْعَمَى الْمَلَقَى .

(٣) ابْنُ مَسَامٍ : حُرْمًا .

(٤) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ١٩٩ .

حين طافوا عند البيت حُرّاً وحرّموا ما جاءوا به من الحِلِّ من الطعام :
 « لَا يَنْفِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ هَذَا كُلُّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
 إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
 مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ
 تُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » ^(١) .

فوضع الله أمرَ الحُصْنِ ، وما كانت قريش ايجدهت منه على الناس ، بالإسلام
 حين بعث الله رسوله .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقِ قومه على تغيير مشاعر الحج
 والدول عن مواقف الناس .

قال جُبَيْر بن مُطْعِم : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبلَ أن ينزل
 عليه الوحي ، وإنه لواقفٌ على بعيره يمرّات مع الناس مِنْ بَيْنِ قومه حتى يدفع
 معهم ، توفيقاً من الله له .

وقد تقدّم ما أحدثوه من النسيء ، وما أبطلَ الله من حُكْمِهِ بقوله سبحانه :
 « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ حَامًا وَيُحَرِّمُونَ
 حَامًا لِيُؤْثِرُوا عَذَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فُجِعُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سِوَهُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » ^(٢) .

فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ .



(١) سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة التوبة ٣٧ .

ذكر ما حفظ عن الأحيار والرهبان

والسكّان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ ،
سوى ما تقدم من ذلك ، مع ذكر شيء مما سَمِعَ
من ذلك عند الأصنام أو هَتَفَتْ به المواتف^(١)

قال ابن إسحاق : وكانت الأحيار من يهود ، والرهبان من النصارى ،
والسكّان من العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ
ليسا تقارب من زمانه .

أما الأحيار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فعنّا وجدوا في كتبهم من
صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

وأما السكّان من العرب فأتتْهم به الشياطين فيما تَسْتَرِقُ من السمع ، إذ
كانت لا تُحْجَبُ^(٢) عن ذلك ، وكان الكاهن والكاهنة ، لا يزال يقع منهما
ذكرُ بعض أموره لا يُبْلِغُ العربُ لذلك فيه بالآ ، حتى بعثه الله ووقفت تلك
الأمور التي كانوا يذكرون فعرّفوها .

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثُهُ ، حُجِبَتْ الشياطين
عن السمع ، وحمل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها لاستراقه^(٣) ، فرُءوا
بالفجوم ، فعرفت الجنُّ أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد .

(١) يعترض على الاستدلال بقول السكّان في إثبات النبوة بأن الإسلام قد أبطل السكّانة .
قال الماوردي : « فنه جوابان : أحدهما : أنه تأويل رؤيا تحققت خرج بها عن حكم الكهانة
الثاني أنه عليها ينزل الجن : كقول الجن : « .

وعلى كل ، فما أغنى الإسلام عن هتاف الجان وقول السكّان : !

(٢) ابن هشام : وهي لا تُحْجَبُ . (٣) ابن هشام : لاستراق السمع فيها .

سافر فنزل بعلان واد من الأرض لمبيت فيه قال : إني أعود بمزير هذا الوادي من الجن^١ اللبنة من شر ما فيه .

وذكر أن أول العرب فزع للرعي بالنجوم ، حين رعى بها ، تقوى ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ، أحد بني حلاج ، وكان أدق العرب وأنكرها^(١) رأياً فقالوا له : يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، ليأصلح الناس في معاشهم ، هي التي يُرمى بها فهو والله على الدنيا ، وهلاك هذا الخلق الذي فيها .

وإن كانت نجوماً غيرها ، وهي ثابتة على حالها ، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق . فما هو ؟ !

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه لغير من الأنصار : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يُرمى به ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يُرمى بها : مات ملك ، مُلك ملك ، وولد مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك تعالى كان إذا قضي في خلقه أمراً سمعه حلة العرش فسبحوا ، فسبح من تحتهم

(١) أنكرها : من النكر بفتح النون ، وهو السماء .

لتسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فسبحوا . ثم يقول بعضهم لبعض : ممّ سبحتم ؟ فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم . فيقولون : ألا تسألون من فوقكم ممّ سبحوا ؟ فيقولون : مثل ذلك ، حتى ياتوها إلى حلة العرش ، فيقال لهم : ممّ سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا . للأمر الذي كان . فيهبط به الخبير من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع هل توهموا واختلاف ، ثم يأتون به السكّهان من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون ، فتحدث به السكّهان فيخطئون بعضاً ، ويصيبون بعضاً .

ثم إن الله حجب هذه الشياطين بهذه النجوم التي يُقذفون بها ، فانهطت السكّهانة اليوم ، فلا كهانة .

وذكر أبو جعفر الثقفي بإسناده ، إلى كهّيب بن مالك اللّهي^(١) . قال : حضرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده السكّهانة ، فقلت : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ! نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنّا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خَطَر بن مالك ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كهّاننا ، فقلنا : يا خطر ، هل عندك علم بهذه النجوم التي يرمى بها ؟ فإنّا قد فرغنا لها وخفنا سوء عاقبتها .

فقال : انظروني بسحر ، أخبركم الخبر ، أخيراً ضرر ، أو أمن أو حذر .

قال : فانصرفنا عنه يومئذ ، فلما كان من غدير في وجه السحر أتيناه ، فإذا هو

(١) بنو لمب : قوم من الأزد

قَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ شَاخِصٌ فِي السَّمَاءِ بِمِيزَانِهِ ، فَهَادِيْدَاهُ : يَا خَطَرَ يَا خَطَرَ . فَأَوْمَا إِلَيْنَا أَنْ أَمْسِكُوا . فَأَمْسَكْنَا .

فَانْقَضَ نَجْمٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَصَرَخَ السَّكَّاهُن رَافِعًا صَوْتَهُ : أَصَابَهُ أَصَابَةٌ ، خَاسِرَةٌ عِقَابُهُ ، حَاجِلُهُ عَذَابُهُ ، أُخْرِقَتْ شِبَاهُهُ ، زَاتِلُهُ جَوَابُهُ ، يَا وَيْحَهُ (١) مَا حَالُهُ ، بَلْبَلُهُ بَلْبَالُهُ ، عَارِزُهُ خَبَالُهُ ، تَقَطَّعَتْ حَبَالُهُ ، وَغَوَّيْتُ أَحْوَالَهُ .

ثُمَّ أَمْسَكَ طَوِيلًا وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي تَحْطَانِ ، أَخْبِرْكُمْ بِالْحَقِّ وَالْبَيِّنِ ، أَقْسَمْتُ بِالسَّكْمَةِ وَالْأَرْكَانِ ، وَالْبَلَدِ الْمُؤْتَمِنِ السَّدَّانِ ، لَقَدْ مَنَعَ السَّمْعَ هَتَاةُ الْجَانِ ، بِثَاقِبٍ بِأَمْرِ ذِي سُلْطَانِ ، مِنْ أَجْلِ مَبِيعُوثٍ عَظِيمِ الشَّانِ ، يُبْعَثُ بِالْفَزِيلِ وَالْقِرَآنِ ، وَبِالْهَدَى وَطَاعِلِ الْفِرْقَانِ ، تَهْطُلُ بِهِ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ .

قَالَ : فَقُلْتُ : يَا خَطَرَ ، إِنَّكَ لَتَذْكُرُ أَمْرًا عَظِيمًا فَإِذَا تَرَى لِقَوْمِكَ ؟
قَالَ :

أُرَى لِقَوْمِي مَا أُرَى لِنَفْسِي
أَنْ يَتَّبِعُوا خَيْرَ بَنِي الْإِنْسِ
بِرَهَانِهِ مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ
يُبْعَثُ فِي مَكَّةَ دَارِ الْخُمْسِ
يُخَصِّمُ الْقَزَائِلَ غَيْرِ الْبَلْسِ

فَقُلْنَا لَهُ : يَا خَطَرَ ، وَمَنْ هُوَ ؟

فَقَالَ : وَالْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ ، إِنَّهُ لَمَنْ قَرِيشَ ، لَيْسَ فِي حِلْمِهِ (٢) طَيْشٌ وَلَا فِي خُلُقِهِ

(١) للطبعة : يَا وَيْحَهُ .

(٢) الطبعة : فِي حِكْمِهِ .

هيش^(١) يكون في جيش وأى جيش ١ من آل قحطان وآل أيش . فقلنا له :
بَيْنَ لَنَا مِنْ أَى قَرِيشٍ هُوَ ؟

فقال : والبيت ذى المذاتم ، إنه لمن نَجَلِ هاشم ، من مَنَشِيرِ أَسْكَارِم ، يبعث
بالملاحم ، وَقَوْلِ كُلِّ ظَالِم .

ثم قال : هذا هو البهيان ، أخبرنى به رئيس الجنان .

ثم قال : الله أكبر جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الظهْرُ .

ثم سكنت وأغشى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ، لقد نطق عن وِثْلِ نبوة ،
وإنه ليهبث يوم القيامة أمةٌ وحده .

قال ابن إسحق : وحدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سَتهِم يقال لها
القَظِطَلَة ، كانت كاهنة في الجاهلية ، جادها صاحبها ليلة من الليالي فانقضت تحتها ،
ثم قال : بِدَرُ ما بدر^(٢) ، يومُ هَمَرٍ ونحر .

فقال قريش حين بلغها ذلك : ما تريد ؟

بِم جادها ليلة أخرى فانقضت تحتها ، ثم قال : شُؤْبُ ما شُؤْب^(٣)
تُصَرِّع فيه كَتَبُ الجُؤُوب .

(١) الهيش : الإنساد

(٢) ابن هشام : أدر ما أدر . وما هنا أوضح .

(٣) شُؤْبُ هنا بضم الشين وكأنه جمع شُؤْب ، وقول ابن إسحق يدل على هذا حين
قال : فلم بدر ما قالت حتى قتل من قتل بيدر وأحد بالشعب .

فلما بلغ ذلك قريشا ، قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمرٌ هو كائنٌ
فانظروا ما هو .

فما عرفوه حتى كانت وقعةٌ بذروا أحد بالشَّعب ، فمرفوا أنه الذي كان
جاء به إلى صاحبه .

قال : وحدثنى علي بن نافع الجُرَشي أن جَدَّنا بَطْنًا من البَين ، كان لهم
كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر
في العرب قالت له جَدُّب : انظر لنا في أمر هذا الرجل . واجتمعوا له
في أسفل جَبَلِه .

فَنَزَلَ عَلَيْهِمْ حين طلعت الشمس فوقف لهم قائما متكئا على قوس له ، فرفع
رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرمَ
محمدًا واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومُكِّنْهُ فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد
في جبهه راجعا من حيث جاء^(١) .

قال : وحدثنى مَنْ لَا أَنَّهُمْ ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو جالس
في الناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل رجل من العرب يريد
عمر ، فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لَتَمَلَى شِرْكُهُ ما فارقه بعدُ ، أولَ قد كان
كاهنا في الجاهلية .

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ الرجل ، ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير
المؤمنين ، قال : فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟ فقال له الرجل : سبحان الله

(١) ط : ثم أَسَدَ وى جبهه راجعا من حيث شاء .

يا أمير المؤمنين ! لقد خِلْتُ فيَّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلبه لأحدمن رعيك
مدد وليت .

فقال عمر : اللهم غَفْرًا ، قد كنا في الجاهلية على شرٍّ من هذا ، نعبد الأصنام
ونعتقد الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام .

قال : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنتُ كاهنًا في الجاهلية .
قال : فأخبرني بما جادك به صاحبك .

قال : جادني قهيل الإسلام بشعر أوشَيْعِمِه^(١) ، فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاَسها
وإلاسها من دينها ، ولحوقها بالقِلَاص وأحلاسها !

قال ابن هشام : هذا الكلام سَجِعَ وليس بشعر وأنشدني بعض أهل
العلم بالشعر :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَإِبْلَاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْمُدَى مَا مُؤْمِنُ الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا

فقال عمر رضي الله عنه عند ذلك ، يحدث الناس : والله إني لاعد وثني من
أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب مجلا ، فنحن
ننظر قسمة ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت قط أنفَذَ
منه ، وذلك قهيل الإسلام بشعر أوشَيْعِمِه يقول : يا ذَرِيحُ أمرٌ نجيح ، رجل
يصيح يقول لا إله إلا الله .

قال ابن هشام : ويقال : رجل يصيح بلسان فصيح يقول لا إله إلا الله .

وهذا الرجل الذي ظن به عمر رضى الله عنه ما ظن ، هو سواد بن قارب
الدؤسى ، وكان يتكهن في الجاهلية .

وقد ذكر خبره غيره ابن إسحق ، فساقه سيافة أحسن من هذه وأنتم ، وذكر
فيه أنه كان قائما على جبال من جبال السراة ليلة من الليالي ، فأتاه آت ،
فضر به برجله وقال :

قُم يا سواد بن قارب ، أذاك رسول من لؤي بن غالب .
قال : فرفعت رأسي وجلست فأذبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطْلَابِهَا
وَشَدِّهَا الْعَيْسِ بِأَقْبَابِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْمَدَى
مَا صَادِقُ الْجَنِّ كَكَذَابِهَا
فَارْجُلُ إِلَى الْعَفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدَامَهَا كَأَذْنَابِهَا

وأتاه في الليلة الثانية ، فضر به برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب ، أذاك
رسول من لؤي بن غالب . قال : فرفعت رأسي وجلست ، فأذبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَأَخْبَارِهَا
وَرَحْلِهَا الْعَيْسِ بِأَسْوَارِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْمَدَى
مَا مُؤَمِّسُهَا مِثْلُ كَفَّارِهَا

فَارْحَلْ إِلَى الْمَصْفُوعَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدْ آمَاها كَادِبَارها

وَأَتَاهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ مَا نَامَ ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ : قُمْ يَا سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ أَتَاكَ رَسُولُ مَنْ لَوْىَ بْنُ غَالِبٍ قَالَ : فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَجَلَسْتُ ، فَأَدْبَرَ وَهُوَ يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَإِبْلَاسِها
وَرَحَلَهَا الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِها
نَهَوَى إِلَى مَكَّةَ تَبَيَّنَى الْهَدَى
مَا مَثُمَلُها مَثَلُ أَرْجَاسِها
فَارْحَلْ إِلَى الْمَصْفُوعَةِ مِنْ هَاشِمٍ
وَارْمِ بِمِثْلِكَ إِلَى رَأْسِها

قَالَ : فَلَمَّا أَصْبَحَتْ اقْتَعَمْتُ بِمَعْرِى فَأَتَيْتُ مَكَّةَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ظَهَرَ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالْخَبَرِ وَبِأَيْمَتِهِ .

وَفِي بَعْضِ طَرُقِ حَدِيثِهِ أَنَّهُ أَنْشَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِدْرًا ٤١٠
فِي مَعْنَى مَا جَاءَ بِهِ رِثِيهِ :

أَتَانِي رِثِيٌّ بَعْدَ هَذِهِ وَزَقْدَةٍ (١)
وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَدْ بَلَّوْتُ بِكَاذِبٍ

ثلاث ليلٍ قالٍ قوله كل ليلة
 أنك رسول^(١) من لؤي بن غالب
 فرقت أذلال الإزار وشمسرت
 بئ العريس الرجاء وشط السكاسب^(٢)
 فأشهد أن الله لا رب غيره
 وأنت مأمون على كل غائب
 فمرنا بما يأتك من وحي ربنا
 وإن كان فيما حثت شيب الدوائب
 وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة^(٣)
 بمقن قتيلا عن سواد بن قارب

وسواد بن قارب هذا مقام حميد في قومه دؤس ، حين بلغهم وفاة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يثبتهم في الدين ويحضهم على التمسك بالإسلام ،
 فقد ذكره إن شاء الله مع نظائره بعد استيفاء الخبر عن وفاة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم .



وذكر الواقدي بإسناد له قال : كان أبو هريرة يحدث أن قوماً من شُئم
 كانوا عند صنم لهم جلوساً ، وكانوا يتصاحون إلى أصنامهم ، فيقال لأبي هريرة :
 هل كنت أنت تفعل ذلك ؟ فيقول : قد فعلتُ فأكثر ، فالحمد لله الذي
 أنقذني^(٤) بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(١) المطبوعة : بئ .

(٢) العريس : الناقة الصلبة . وتروى : القملب . والسكاسب : جمع سبسب وهي النلاة

(٣) ط : خو قرابة . (٤) ط : تغذني .

قال أبو هريرة : فَبَيَّنَّا الْغُلَامِيَّ عِنْدَ صَدَقِهِمْ إِذْ سَمِعُوا هَاتِفًا يَهْتَفُ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ذُوقُوا الْعَذَابَ
وَمَسَدُوا الْحُكْمَ إِلَى الْأَعْيُنِ
أَكْثُكُمْ أَوْزَرُهُ كَالْكَهْمِ^(١)
أَلَا تَرَوْنَ مَا أَرَى أَمَامِي
مِنْ سَاطِعٍ يَخْلُو دُجَى الظُّلَامِ
ذَاكَ نَهْيٌ سَيِّدُ الْأَنَامِ
مَنْ هَانَتْ فِي ذُرْوَةِ الشَّامِ
مَسْعِلٌ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ
جَاءَ بِهِمْ^(٢) الْكُفْرُ بِالْإِسْلَامِ^(٣)
أَكْرَمَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ إِيَّامِ

قال أبو هريرة : فَأَمْسَكُوا سَاعَةَ حَتَّى حَفَلُوا ذَلِكَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا ، فَلَمْ تَمْضِ بِهِمْ
ثَلَاثَةُ حَتَّى جَاءَ خَبَرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ بِهَكَذَا .
قال : فَمَا أَسْلَمَ الْغُلَامِيَّ حَتَّى اسْتَأْخَرَ إِسْلَامَهُمْ وَرَأَوْا هَيْبًا عِنْدَ صَدَقِهِمْ .

وذكر الواقدي أيضاً أن رجلاً من الأنصار حدث عمر بن الخطاب رضي
الله عنه قال : انطلقت أنا وصاحبان لي نريد الشام ، حتى إذا كنا بمقرة من
الأرض نزلنا بها ، فبينما نحن كذلك إذ لحقنا راكب ، فسكنا أربعة وقد أصابنا
صَقَبٌ شديد ، والتفتُ فإذا أنا بطليبة عَضْبَاءَ ترتع قريباً مني فوثبتُ إليها .

(١) الأوزة : الأحمق .

(٢) جاء بهم : الكفر بالاسلام .

فقال الرجل الذى هنا : خلّ سبيلها ، لا أبالك ، والله لقد رأيتهما ونحن نملك هذا الطريق ونحن عشرة أو أكثر فيُخْتَلَفُ بعضنا ، فما هو إلا أن كانت هذه العظيمة فأيها جُ بها أحد .

فأبَيْتُ وقلت : لا لتمر الله لا أخليها .

فارتحلنا وقد شدتها معى ، حتى إذا ذهب سدّف من الليل إذا هائف يهتف بنا ويقول :

يا أيها الركبُ السَّراعُ الأريسة
 خلوا سبيل النافر^(١) للفرجة
 خلوا عن المضياء في الوادى سيرة
 لا تذبْحَنَّ الظهيرة المروعة
 فيها لأيسام صفار مقلعة

قال : تغليت سبيلها ، ثم انطلقنا حتى أتينا الشام ، فقضينا حوائجنا ، ثم أقبلنا حتى إذا كنا بالمسكان الذى كنا فيه هتف بنا هائف من خلفنا :

إياك لا تمجّل وخذها من ثقبه
 فإن شرَّ السَّيرِ سَيْرُ الحَقِيقَةِ^(٢)
 قد لاح نجمهم فأضاء مشرقه
 يُخْرِجُ مِنْ ظُلُمَا عَسُوفٍ مُؤَبِّقَةٍ

(١) ط : النافذ .

(٢) الحقيقه : أرفع السير وأتمبه للظهور أو الجراح لى السير .

ذاك رسولٌ مُقْلَعٌ مَن صَدَّقَهُ اللهُ أَهْلُ أَمْرِهِ وَحَقَّقَهُ
قال الرجل : فأتيت مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو
إلى الإسلام .

فقال عمر : الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ورويانا عن أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي بإسناد متصل إليه ، قال : لقد
لقيتُ شيوخنا من شيوخ طيءَ المقدمين ، فسألتهُم عن قصة مازن ،
يعني مازن بن النضوبة الطائي ، وسبب إسلامه ووفوده على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وإقطاعه أرضَ عُثْمَانَ ، وذلك بمنَّ الله وفضله .

وكان مازن بأرض عُثْمَانَ بقرية تدعى سَنَابِل . قال مازن : فَعَتَرْتُ ذات
يومَ عَقيرة ، وهي الذبيحة ، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : يا مازن أَقْبِلْ أَقْبِلْ ،
فاسمع ما لا يُجِبُّكَ ، هذا نبيُّ مُرْسَل ، جاء بحق مُنْزَل ، فأَينَ به كي تُنْزَلَ ،
عن حر نار تُشْمَل ، وقودها بالجفدَل .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لسَجْب ، ثم عَتَرْتُ بعد أيام عَقيرة أخرى ،
فسمعت صوتاً بَيْنَ من الأول ، وهو يقول : يا مازن اسمع تُسَرِّ ، ظهر خيرٌ و بطن
شر ، بُثَّ نبي من مُنْصَر ، بدين الله الأكبر^(١) ، فدَعُ نَحِيْقاً من حَجَر ، تَسْلُم
من حر سَقَر .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لسَجْب وإنه لخير يراد بي ، وقَدِمَ علينا رجل
من أهل الحجاز فقلنا : ما الخبر وراءك ؟ قال : خرج بتهامة رجل يقول لمن
أُتاه : أجيئوا داعيَ الله ، يقال له أحد .

(١) هذه رواية الطبرقة . وفي ط : بدين لله الكبير . وفي أ : بدين الله الكبير

فقلت : هذا والله نبؤ ما سمعت .

فثَّرتُ إلى الصنم فسكسرتُه جُذًا إذا وشَدَدْتُ راحِطِي ورحلتُ ، حتَّى
أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فشرح لي الإسلامَ فأُسلتُ ،
وأنشدتُ ^(١) أقول :

كسَّرتُ يا جُرَّ أجذاذا وكان لنا
رَبًّا نُطِيفُ بِهِ ضَلًّا بِضَلالِ ^(٢)
يا لها شَيْءٌ هَدانا مِنْ ضَلالَتِنَا
وَلَمْ يَكُنْ دِينُهُ مِثْلًا عَلَيَّ بِالْوِ
يَا رَاكِبًا يَهْلِكُنْ تَحْمُرًا وَإِخْوَتَهَا
أَنْيُّ لِمَنْ قَالَ رَبِّي يَا جُرَّ قَالِي

وقلت : يا رسول الله إني امرؤ مُولَعٌ بالطرب وبشرب الخمر وبالهوِك إلى
النساء ، وألحَّت عليَّ ^(٣) السَّوْنُ ، فأذهَبْنِ الأموالَ وأهزَلْنِ الدَّارَ والرجالَ ،
وإيس لي ولد ، فادع الله أن يُذهب عني ما أُجد ويأتيني بالحياة ، وبهَبَ
لي ولدا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أبْذِلْهُ بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرام
الحلالَ ، واثقه بالحياة ، وهَبْ له ولدا .

قال مازن : فأذهب الله عني كلَّ ما أُجد ، وأخصَّبتُ حُحمانَ ، وتزوجتُ

(١) ط : ما نأت .

(٢) المطبوعة : ضلّا لئضلال .

(٣) ط : على .

أربع حرائر، وذهب الله لي حيان^(١) بن مازن ، وأنشأت أقول :

إليك رسول الله سُقْتُ مَطِيْقِي
تجوبُ الفَيَّاهِ من مُحَنِّ إلى العَرَجِ^(٢)
لَتَشْفَعَنِي لِي بِأَخِيهِ مَنْ وَطِئَ النَّدَى
فَهَيَّئْ لِي رَبِّي فَأَرْجِعْ بِالْقَلْعِ^(٣)
إِلَى مَشْرِ خَالَتُ فِي اللَّهِ دِينَهُم
فَلَا رَأْيَ لَهُمْ رَأْيِي وَلَا شَرْجَهُمْ شَرْجِي^(٤)
وَكُنْتُ أَمْرًا بِاللَّهِ وَالْغَمْرَ مُؤَلَّمًا
شَبَابِي حَتَّى أَذُنَ الْجَسَمِ بِالنَّهْجِ
فَأَصْبَحْتُ مَمَّى فِي جَهْدٍ وَلِيْقِي
فَلَهُ مَا صَوْنِي وَلِلَّهِ مَا سَجِيءٌ

• • •

وعما يلحق بهذا الباب من حِسان أخبار السكهمان وإن كان بعد المبعث بزمان
ولكنه يجمع مع الأحاديث السابقة في الدلالة على صدق الرسول ، والإعلام
بالغيب المجهول ، والإرشاد إلى سواء السبيل ، ما ذكره أبو حنيفة إسماعيل بن القاسم
في أماليه^(٥) بإسناد له إلى ابن السكهمي عن أبيه قال :

-
- (١) للطبوعة : حبة .
(٢) العرج : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) القلع يفتح الفاء الظفر والاسم منه القلع بالضم .
(٤) العرج : الثل والنروح
(٥) هذه رواية الطبوعة ، وفي ط : بالزعب وهو الجاعل وفي القلب .
(٦) الأمالي ١ / ١٣٢ - ١٣٤

كان خُنافر بن القوام الخفيري كاهنا ، وكان قد أوفى بسطةً في الجسم وسعة في المال ، وكان عاتيكاً ، فلما وفدت وفود البين على النبي صلى الله عليه وسلم [وعظمير الإسلام] أغار على إبل لمراد فاكتسبها ، وخرج بأهله وماله ولحق بالشجر لخالف جودان بن يحيى ^(١) [القرظي ^(٢)] ، وكان سيّداً مقيماً ^(٣) ، ونزل بوادٍ من أودية الشجر مخصب كثير الشجر من الأيك والعرين .

قال خُنافر : وكان رأيي في الجاهلية لا يغيّب عني ^(٤) ، فلما شاع ^(٥) الإسلام فقدته مدة طويلة وساءني ذلك ، فبينما أنا ليلة بذلك الوادي أنما إذ هوّى العُقاب ، فقال خُنافر : قتلت شعاباً ؟ فقال : اسمع أقل . قلت : قلْ اسمع . فقال : عِ تغنم ، لكل مدة نهاية وكل ذي أمد إلى غاية . قلت : أجل . فقال : كل دولة إلى أجل ثم يحتاج لها حول ، انتسخت الدحل ورجعت إلى حقائقها الملل ، إنك ستجبر موصول ^(٦) والصبح لك مهذول ، إني آتست بأرض الشام نفرا من أهل العُزام ^(٧) حكاما على الحسكام يذهبون ^(٨) ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف . ولا بالسجع المتكلف ، فأنصتُ فزُجرت ، فعادتُ فظلمت ^(٩) ، فقلت : بيم تهيمون وإلام تعزون ؟ فقالوا خطاب كبار جاء من عاد الملك الجبار ، فاسمع يا شعاب عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار تنجُ من أوار الفار .

(١) ط : بن يحيى . وضبطها بضم التاء وفتح الحاء بالقلم .

(٢) من الأمل .

(٣) ط : ميقا .

(٤) الأمل : لا يكاد يغيّب عني .

(٥) ا : شرع .

(٦) السحير : الصديق .

(٧) العزام : قليلة من النيس .

(٨) ال : ذبرت الكتاب إذا قرأته وزبرته إذا كتبه ، وقالوا : زبرته وذبرته بمعنى واحد إذا كتبه . وقط : يذكرون .

(٩) ظلمت : منمت .

فقلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقانُ بين الكفر والإيمان ، رسول من مُضَرٍّ ، من أهل اللدِّ ، ابتعث فظهر ، فجاء يقول ينهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه مواضع لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر .

فقلت : ومن هذا للبعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشَّبر^(١) ، وإن خالفت أضللت سقر .

فأمنتُ يا خُفَّار ، وأقبلت إليك أبادر ، بجانب كل نجس كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق لا هن تلاقٍ^(٢) .

قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟

قال : من ذات الإحمرين^(٣) والنَّفَرِ التَّيْمَانِينَ أهل المساء والعائين .

قلت : أوضح . قال : الحقُّ بهثرَبَ ذات الغفل ، والحرة ذات النمل^(٤) ، فهناك أهل العلول والفضل وللواصة والبذل .

ثم أملتُ عنى فبثُ مذهباً أراهم الصباح ، فلما برق لي النور امتطعت راحلتى وآذنت^(٥) أعْبُدِي واحتملت بأهل ، حتى وردت الجوف فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقائها^(٦) ، وأقبلت أريد صنماء ، فأصَبْتُ بها

(١) الشبر : يسكون الياء الخيرة ، وحرك اللام ، كما قال السجّاج :

الحمد لله الذي أعطى الشَّبرَ موالى الخير إن المولى شَكَرَ

(٢) في غير المطبوعة : عن لا .

(٣) قال الأصبى جمع الحرة : حرار وحررون وأحرون .

(٤) النمل : السكان النليط من الحرة .

(٥) آذنت : أعلمت .

(٦) الحول : جمع حائل ، وهى الأنثى في أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقب ،

وهو الذكر .

معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الإسلام ، وعنه
من القرآن ، فن الله على بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقالت
في ذلك :

أَلَمْ تَرَأِ اللَّهَ عَادَ بِفَضْلِهِ
فَأَقْبَذَ مِنْ كَفْعِ الزُّخَيْخِ خُفَافاً^(١)
وَكَشَفَ لِي عَنْ حَبَبَتَيَّ عَنَامَهَا
وَأَوْصَحَ لِي تَهْجِي وَقَدْ كَانَتْ دَائِراً^(٢)
دَعَانِي شِعْراً لَقِيَ لَوْ رَفَضَتْهَا
لَأُصْلِيَتْ جُجْرًا مِنْ لَقَى الْهَوْبِ وَاهِراً^(٣)
فَأَصْبَحْتُ وَالْإِسْلَامُ حُشْوُ جَوَانِحِي
وَجَانِبْتُ مَنْ أُنْسَى عَنِ الْحَقِّ نَائِراً^(٤)
وَكَانَ مُضِلٌّ مَنِ هَدَيْتُ بِرُشْدِهِ
فَلَهُ مُنَوِّعٌ عَادَ بِالرُّشْدِ آمِراً
نَجْمُوتُ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ قَضْمَةٍ
تَوَرَّثَ هُلْكَاً يَوْمَ شَايَعْتُ شَاعِراً^(٥)

(١) الزخبيخ : باقة أهل اليمن النار .
(٢) الحبيبات : البنات باقة أهل اليمن . قال شاعرهم ، وأكل أمه الدُّب :

فَمَا حَبَبَتَا بَيْكِي عَلَى أُمِّ وَاهِبٍ
أَكِيلَةَ قُلُوبٍ بِبَعْضِ الْخَذَائِبِ

(٣) الهوب : النار ، بلعهم والواهر : الساكن مع شدة الحر .

(٤) النَّارُ : النار .

(٥) القضم : الشدة .

فقد أمتعتني بمد ذاك يجابر
 بما كنت أغشى المُندياتِ يجابرا
 فمن مُبلغٍ فهمانَ قوى الوكةِ
 بأئى من أفعالٍ من كان كافرا^(١)
 عليكم سواء القصد لأقل حدكم
 فقد أصبح الإسلامُ للشركِ قاهرا

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم حدثه ، أنه كان لمرَداس أبي العباس بن
 مرَداس السلى وثق يمهده ، وهو حَجَرٌ يقال له ضِمَارٌ ، فلما حضر مرَداسُ
 الموت^(٢) قال للعباس : أئى هَبْني اهدْ ضِمَارٌ ، فإنه ينفكك ويضرك . فبهنا العباس
 يوما عند ضِمَار ، إذ سمع في جوف ضِمَار مناديا يقول :

قُلْ للقبائل من سُلِّمَ كُلُّها
 أودى ضِمَارٍ وهاشِ أهلُ المسجدِ
 إن القدى ورث الدهـوَّة والمُدَى
 بمد ابن مريمَ من قريشٍ مهـدَى
 أودى ضِمَارٍ وكان يُعبد مرّة
 قبل الكتاب إلى النهى عمـدِ
 فخرق العباس ضِمَارٍ ، وتلقى بالنهى صلى الله عليه وسلم فأسلم .

(١) الألوكة : الرسالة ، والأفتال : الأعداء .

(٢) غير المطبوعة : فلما حضر مرَداس .

والأخبار في هذا الباب مما يُقَال من ذلك عن السَّكَّانِ ، أو سَمِع عند الأصنام ، أو هتفت به هوائفُ الجانِّ كثيرة جداً ، وقد أثبتنا منها ما استحسناه بما ذكره ابن إسحاق ، أو ذكره سواه .

[إنذار يهود بالنبي]

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصمُ بن حر بن قتادة ، عن رجال من قومه قالوا: إن ما دهانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهُداه ، لَمَّا كُنَّا نسمع من أخبار يهود .

كُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ أصحابُ أوثان ، وكانوا أَهْلَ كِتَابٍ عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال يبنُّوا وبينهم شرورٌ ، فإذا نَلَّنا منهم بعضٌ ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقاربَ زمانُ نبيٍّ يبعثُ الآن ، نقتلكم معه فقتلَ عادٍ وإرمَ .

فكُنَّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دهانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمنَّا به وكفروا به .

ففيها وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَمِنَ ذَلِكَ عَلَى السَّكَافِرِينَ » (١) .

قال : وحدثني صالح بن إبراهيم ، عن محمود بن لبيد ، عن سلمة بن سلامة بن وقش وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جاري من يهود في بني عبد الأشهل ، ففرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث

والحساب والميزان والجنة والنار ، فقال ذلك لقومٍ أهلِ شِرْكٍ وأصحابِ أوثان ، لا يرون أن يَهْتَفُوا كَأَنَّهُ بِمَدِّ الْمَوْتِ .

فقالوا له : ويحك يا فلان أترى هذا كائناً ، أن الناس يُبْتَلَوْنَ بِمَدِّ مَوْتِهِمْ إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ ، يُجَزَّوْنَ فيها بأعمالهم .

قال : نعم والذي يُخَالَفُ بِهِ : وَلَوْ أَنَّ لَهُ بِحِطَّةٍ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَكْثَمَ تَدْوِيرٍ فِي الدَّارِ يُحْمِلُونَهُ ثُمَّ يَدْخُلُونَهُ إِياه فَيُعْطِيُونَهُ عَلَيْهِ ، بَأَن يَنْجُو مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، وما آية ذلك ؟

قال : نبيٌّ مبعوثٌ من نحو هذه البلاد ، وأشار به—داه إلى مكة والمين .

قالوا : ومتى نَرَاهُ ؟

قال : فنظر إلى ، وأنا أُحَدِّثُهُمْ سُبْحًا ، فقال : إن يستنفذ هذا الظلام حُرْمَهُ يُدْرِكُهُ .

قال سَلَمَةُ : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى يَمُتَ اللهُ رَسُوهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حيٌّ ! بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَأَمَّا بِيْهِ وَكَفَرُ بِهِ هَيْمًا وَحَسَدًا .

فقلنا له : ويحك يا فلان ! أنست بالله قلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ ؟ !

قال : بلى ولكن ليس به !

قال : وحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ . قال : قال لي : هل تدري هَمٌّ كَانَ إِسْلَامَ ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ هَبِيدٍ ، نَفَرٍ مِنْ هَذَلِكَ إِخْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانُوا مِنْهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، ثُمَّ كَانُوا سَادَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ؟ قال : قلت : لا .

قال : فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيثبان ، قدم علينا قبل الإسلام بسنين ، فخل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصل إلينا أفضل منه .

فأقام عندنا ، فكنا إذا قمنا على الطريق قلنا له : أخرج يا ابن الهيثبان فاستسقى لنا . فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدي تخرجكم صدقة . فيقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ومُدّين من شعير .

فخرج بها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّةٍنا فيستسقى لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى تمر السحاب ونسقى .

قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ، ثم حضرته الوفاة عندنا . فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترون أنه ^(١) أخرجني من أرض الظنم وأظهر إلى أرض المؤمن والجوع ؟ قلنا : أنت أعلم .

قال : فإنما قدمت هذه الهدية أتوكت ^(٢) خروجي نبي قد أغل زمانه ، وهذه الهدية مُهَاجَرَه ، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه ، وقد أغل زمانه ، فلا أُنشِئَن إليّ يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء وسفَى الدارِى والنساء من خالفه ، فلا يمدحكم ذلك منه .

فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الْفِتْيَةُ ، وكانوا شباباً أحياناً : يا بني قريظة والله إنه لابي الذي عهد إليكم

(١) المطبوعة : ما ترونه .

(٢) أتوكت : انتظر .

فيه ابن الميثبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه لم يصفته .
فنزّلوا وأسعدوا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم .

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود^(١) .

[حديث سلمان الفارسي]

قال : وحدثني عاصم بن عمود^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قال : حدثني
سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ مِنْ فِيهِ ، قال :

كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جَبْئُ ،
وكان أبي دِهْقَانُ^(٣) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حُبّه
إِبَائِي حَقَّ حُبِّ حَبْسَى فِي بَيْتِهِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ ، واجتهدت في الميوسية حتى
كنت قَطَنَ^(٤) النار الذي يُوقدها ، لا يتركها نخبو ساعة .

وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لي : لا بُدَّ لِي
قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاعملها . وأمرني فيها
ببعض ما يريد ، ثم قال لي : لا تحبس حق ، فإني إن احتبست حقى كنت
أمر إلى من ضيعتي وشغلتي عن كل شيء من أمري .

فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها فمرت بكليسة من كنائس النصارى ،
فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون ، وكنت لا أدري ما أمرُ الناس ،
فكُنِسْتُ إِبَائِي فِي بَيْتِهِ .

(١) المطبوعة : من أخبار يهود .

(٢) المطبوعة : عاصم بن عمود ، وهو خطأ .

(٣) الدهقان : زعيم فلاحى السجم أو رئيس الإقليم .

(٤) أى خامها .

فلما سمعت أصواتهم ، دخلتُ عليهم^(١) أنظرُ ما يصنعون ، فلما رأيتهُم
أعجبني صلاتهم ، ورغبتُ في أمرهم قلتُ : هذا والله خيرٌ من الذي نحن عليه .
فوالله ما برحتم حتى غربت الشمس ، وتركْتُ ضيعة أبي فلم آتِها ، ثم قلتُ
لهم : أين أصلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

فرجعتُ إلى أبي وقد بهت في طلي ، وشغلته عن عمله كلُّه ، فلما جئتهُ
قال : أي بُني أين كنت ؟ ألم أكن عهدتُ إليك بما عهدتُ ؟ قلتُ :
يا أبت مررتُ بأناص يصالون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت في دينهم ، فوالله
ما زلتُ هندم حتى غربت الشمس .

قال : أي بُني ليس في ذلك الدين خيرٌ ، دينك ودين آبائك
خيرٌ منه

فقلتُ له : كلاً والله ، إله الخير من ديننا .

قال : نظافى ، فجعل في رجلٍ قيداً ثم حبسني في بيته .

وبعثُ إلى النصارى ، فقلتُ لهم : إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام
فأخبروني بهم ، فقدم عليهم [ركب من الشام]^(٢) تجار من النصارى ،
فأخبروني . فقلتُ لهم : إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ،
فأذِنوني بهم .

قال : فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم ، فألقيت الحديدَ من رجلٍ ، ثم
خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام .

(١) المطبوعة : إليهم .

(٢) من ابن مشام .

فلما قدمتها قلتُ مَنْ أَفْضَلُ أَهْلُ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا ؟ قالوا : الْأَشْفَقُ
فِي الْكَيْسِ . فَنَجْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ ، وَأَحْبَبْتُ
أَنْ أَكُونَ مَعَكَ وَأَخْدَمَكَ فِي كَنِيسَتِكَ ، وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ ، وَأَصْلِيَ مَعَكَ .
قال : ادْخُلْ .

فدَخَلْتُ مَعَهُ ، فَكَانَ رَجُلٌ سَوَاءٌ يَأْمُرُهُمُ بِالصَّدَقَةِ وَيَرْغِبُهُمْ فِيهَا ، فَإِذَا
جَمَعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ لِلسَّائِكِينَ ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ
ذَهَبٍ وَوَرَقٍ .

فَأَبْنَضَتْهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ .

ثُمَّ مَاتَ . وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى لِيُدْفِنُوهُ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلًا
سَوَاءً ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيَرْغِبُكُمْ^(١) فِيهَا ، فَإِذَا جَمَعْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ
وَلَمْ يُعْطِ لِلسَّائِكِينَ مِنْهَا شَيْئًا .

فَقَالُوا لِي : وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ ؟ قُلْتُ : أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ فَأُرِيْتُهُمْ
مَوْضِعَهُ فَاسْتَفْرَجُوا سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرَقًا ، فَلَمَّا رَأَوْهَا ، قَالُوا : وَاللَّهِ
لَا نَدْفَعُهُ أَبَدًا .

فَصَلَبُوهُ وَرَجَعُوهُ بِالْحِجَارَةِ .

وَجَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ مَمْلُوءٍ مَكَانَهُ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يَعْلَى الْخَمْسَ ، أَرَى
أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ ، أَزْهَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا أَرْغَبَ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا أَذْأَبَ
لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ ، فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أَحْبَبْهُ شَيْئًا قَبْلَهُ ، فَأَقَامْتُ مَعَهُ زَمَانًا ، ثُمَّ حَضَرْتُهُ

(١) الملبوسة : يَأْمُرُهُمْ وَيَرْغِبُهُمْ .

الوفاة ، فقلتُ له : يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضر بك من أمر الله ما ترى ، فإلى من تُوصي بي ، وبِمَ تأمرني .

فقال : أي بُنيّ والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه [فالحق به]^(١) .

فلما مات وغُيِبَ لحقتُ بصاحب الموصل فقلتُ له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره . فقال : أقيمُ ههنا .

فأقمتُ ههنا ووجدتهُ خيرَ رجلٍ على أمر صاحبه .

فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلتُ له : يا فلان إن فلاناً أوصى بي^(٢) إليك ، وأمرني بالاحق بك ، وقد حضر بك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟ وبِمَ تأمرني ؟ قال : يا بُنيّ والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنتُ عليه إلا رجلاً بنصيبين^(٣) ، وهو فلان فالحق به .

فلما مات وغُيِبَ لحقتُ بصاحب نصيبين ، فأخبرتهُ خبري ، وما أمرني به صاحبي فقال : أقيمُ ههنا .

فأقمتُ ههنا ، فوجدته على أمر صاحبه ، فأقمتُ مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حُفِرَ قُلتُ له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي : وبِمَ تأمرني .

(١) من ابن هشام

(٢) للطبوعة : أوصاني إليك . وهو تحريف .

(٣) مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل إلى الموصل إلى القام .

قال : يا بنىّ والله ما أعلمه بقى أحدٌ على أمرنا أمرك أن تأتبه ، إلا رجلاً بمُؤرّة من أرض الرّوم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأُتِر .
فلما مات وعُيِّب ، لحقتُ بصاحبِ مُؤرّة ، فأخبرته خبرى ، فقال :
أقمْ عندى .

فأُتيتُ عند خير رجل على هذى أصحابه وأمرهم ، واكتسبت حقى كانت لى بقرات وغنّيمة ، ثم نزل به أمر الله ، فلما حُصِر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بى لى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبهم تأمرنى ؟

قال : أى بنىّ والله ما أعلمه أصبح على مثل ما كنّا عليه أحدٌ من الناس أمرك أن تأتبه ، ولكنه قد أغلّ زمانٌ لى مبعوثٌ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخْل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كفه خاتم النبوة ، فإن استطدت أن تاسق ب تلك البلاد ، فافعل .

ثم مات وعُيِّب .

فكشفت بمؤرّة ، ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بى نفرٌ من كُتّابِ قِجَار .
فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطاكم بقراتى هذه وغنّيتى هذه .
قالوا : نعم . فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلّونى ، فباعونى من رجل يهودى هبداً ، فكنت عنده فرأيتُ النخل ، فرجوتُ أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبه ، ولم يحقّ لى نفسى .

فتبيننا أنا عنده إذ قدّم عليه ابنُ عمّ له من بنى قريظة من المدينة ،

فابتاعني منه ، فاحتلني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها بصِفةٍ
صاحبي فأقت بها .

وَبِمَثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ ،
مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُئْلِ الرَّقَى .

ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَوَاللهُ إِنِّي لِنِي رَأْسَ عَذَقٍ لَسَيِّدِي أَهْلُهُ فِيهِ بِمَعْضِ
الْعَمَلِ ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتِي ، إِذَا قَبِلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَقٌّ وَقَفَ عَلَيْهِ . فَقَالَ :
يَا فُلَانُ قَاتِلِ اللَّهَ بَنِي قَتِيلَةٍ^(١) ، وَاللَّهِ إِنْهُمْ الْآنَ لِيَجْتَمِعُونَ بِقَبَاءِ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ
عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْهَوْنَ أَنَّهُ نَهْيٌ .

فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الدُّرُوءُ^(٢) حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي سَاسِقَةٌ عَلَى سَيِّدِي ، فَزَلْتُ
عَنِ النَّخْلَةِ لَجَمْتُ أَنُوقُلُ لِابْنِ لَابِنٍ مَعَهُ ذَلِكَ : مَاذَا تَقُولُ ؟ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَسَكَنِي
لِسْكَةً شَدِيدَةً ، ثُمَّ قَالَ : مَالِكٌ وَلِهَذَا أَقْبَلُ عَلَى مَالِكٍ . فَقُلْتُ : لَا شَيْءَ إِلَّا مَا
أُردْتُ أَن أَسْتَنْبِطَهُ مِمَّا قَالَ .

وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ لَا جَمْعَ لَهُ ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِقَبَاءِ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ هَلَفَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ
صَالِحٌ ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غِرَابَاءُ ذُووُ حَاجَةٍ ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ ،
فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، فَقَرَّبْتُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِأَصْحَابِهِ : كُلُوا . وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ .

(١) قِيْلَةُ بِنْتُ كَاهِلَ بْنِ هَنْدَةَ بْنِ سَمْدَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ لَيْثِ بْنِ سُوْدٍ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ الْحَافِ بْنِ قِنَاعَةَ
أُمِّ الْأَوْسِ وَالْمُزَرَّجِ .

(٢) الدُّرُوءُ : الرَّمْعَةُ مِنَ الرَّدِّ وَالْإِنْفَاسِ ، فَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ عَرَقٌ فِيهِ الرِّجْسَاءُ .
(١٦ — الْاِكْتِفَا)

فقلت في نفسي : هذه واحدة .

ثم انصرفتُ عنه ، فجمعتُ شيئاً ، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمك بها . فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه .

فقلت في نفسي هاتان ثقتان .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقيم الفرق^(١) فأتيت جفازة من أصحابه ، عليّ ثملتان لي وهو جالس في أصحابه ، فسلمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم أعديرُ به ، عرف أني استنبتُ في شيء وصف لي ، فأتاني الرداء من ظهره ، ففطرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكبتُ عليه أقبله وأبكي . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول . فتحولتُ فجلستُ بين يديه ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس .

فأنحسب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمان الرِّق ، حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذر واحد .

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتب يا سلمان . فـكـاتـبـتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحياها له بالفقر^(٢) وأربعين أوقية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعيذوا أخاكم . فأعانوني بالتخل ، الرجل

(١) الفرق : مقبرة أهل المدينة .

(٢) أي بالفقر والغرس .

بثلاثين ودية^(١) ، والرجل بمشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة والرجل بمشعر ، يمين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت إلى ثلاثمائة ودية ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب يا سلمان فققر لها فإذا فرغت فأتني ، أسكن أنا أضعها بيدي .

ففقرت وأعاني أصحابي حتى إذا فرغت جنته فأخبرته ، ففرج معي إليها ، فجعلنا نقرّب إليه الودي ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى فرغت . فوالذي نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها ودية واحدة .

فأدبت النخل وبقي على المال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة المراجعة من ذهب من بعض المادن ، فقال : ما فعل الفارسي المكاتب فدعيت له فقال : خذ هذه فأدّها بما عليك يا سلمان . قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله بما على ؟ قال : خذها فإن الله سيؤدّي بها عليك . فأخذتها فوزنت لهم منها ، والذي نفس سلمان بيده ، أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها ، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلدق حرّاً . ثم لم يفتني معه تشهد .

وعن سلمان أيضاً أنه قال : لما قلت وأين تقع هذه من الذي على ؟ يا رسول الله ؟ أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلّبها على لسانه . ثم قال : خذها فأوفهم منها . فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كلّ أربعين أوقية .

وعنه أيضاً أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره خبره : إن صاحب ثمورية قال له : أيت كذا وكذا في أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غيظتين ، يخرج في كل سنة من هذه النبيعة إلى هذه النبيعة مستعجلاً ، يعارضه ذوو الأسماء

(١) الودية : واحدة الودي وهو فراخ النخل الصغير .

فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفِي ، فسئل عن هذا الدين الذى تبغى ، فهو
يغيبك عنه .

قال سلمان : فخرجت حتى جئتُ حوثُ ومُصَفًى ، فوجدتُ الناس قد
اجتمعوا بمرضام هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى النيهضتين
إلى الأخرى ، ففشيته الناس بمرضام ، لا يدعو لمرض إلا شُفِي ، وغلبوني
عليه ، فلم أخلُصُ إليه حتى دخل النيهضة التي يريد أن يدخل ، إلا مَدِكْبُهُ
فدأولتُهُ فقال : من هذا ؟ والفتت إلى قلتُ : يرحمك الله أخبرني عن الحنفية دين
إبراهيم . قال : إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أغلقت
زمان نبيٍّ يَهْتَمُّ بهذا الدين من أهل الحرم ، فأنه فهو بحمك عليه . ثم دخل .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقتني يا سلمان ، لقد لقيتُ
عيسى بن مريم ^(١) .

[حديث أمية بن أبى الصلت وأبى سفيان]

ومن حديث غير ابن إسحاق ، عن أبى سفيان بن حرب قال : خرجتُ
أنا وأمّية بن أبى الصلت ، وآخر سقط اسمه في كتابي ، تجاراً إلى الشام .
قال أبو سفيان : فسكّما نزلنا منزلاً أخرج أمّية سيفراً يقرأ علينا ، فسكنا كذلك
حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى ، قال : فرأوه وهرفوه وأهدوا له فذهب
مهمهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار ، فطرح ثوبه ، واستخرج ثوبين
أسودين ، فلبسهما ثم قال : يا أبا سفيان هل لك في عالم من علماء النصارى إليه
اتهم علمُ السكّيب تسأله عما بدا لك ؟ . قال : قلت لا أربّ لي فيه ، والله اني
حدثني ما أحبّ لا أُنقِ به ، ولئن حدثني ما أكره لأؤجّان منه .

قال : وذهب يخالفه شيخ من النصارى ، فدخل علينا فقال - يعنى له

(١) هذا الخبر ضعيف جداً كما قال ابن كثير . وفيه مناللة تاريخية .

والآخر الذى كان معه : ما منكما أن تذهبا إلى هذا الشيخ ؟ قلنا : لئلا نساء على دينه . قال : وإن ، فإنسكا تشمان مجباً وترباينه . قال : قلنا : لا أرب لنا فى ذلك . قال افتقيان أننا ؟ قلنا : لا ولكن من قريش . قال : فما منكما من الشيخ ، فوالله إنه ليهيئكم ويوصى بكم .

وخرج من عدنا ، ومكث أمية عنا حتى جادنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ، فوالله ما قام ولا نام حتى أصبح . قال : فأصبح كثيباً حزيناً ، ساقطاً غبوقه على صهوة ما يكلمنا ، ثم قال : ألا ترحلان ؟ قلنا . وهل بك من رحيل ؟ قال : نعم فارحلا .

فرحلنا فسيرنا بذلك ليلتين فى حمة وبئة . ثم قال ليلة : ألا تبهذث يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث الفوالة ما رأيت مثل الذى رجعت به من عدد صاحبك . قال : أما إن ذلك شيء لست فيه إنما ذلك شيء رجعت به من منقلبى . قلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إى والله لأموتن ولأحاسنن قلت : فهل أنت قابل أمانى ؟ قال : وعلى ماذا ؟ قلت : على أنك لا تهت ولا تحاسب . فضحك ثم قال : بلى والله يا أبا سفيان لنهتن ولأحاسنن ، ولهدخلن فريق فى الجنة وفريق فى النار قلت : فى أيتهما أنت أخبرك صاحبك . قال : لا علم لصاحبى فى ذلك فى ولا فى نفسه .

فسكرنا فى ذلك ليلتنا ، يمحجب منا ونضحك منه ، حتى قدمنا غوطة ديشق وإياتها كذا نريد ، فبعنا متاهنا وأقدنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بئلك القرية من قرى النصارى ، فلما رأوه جادوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيوتهم ، حتى جادنا مع نصف النهار ، فلبس ثوبيه الأسودين ، فذهب ولم يدعنا إليه كما دعانا أول مرة ، حتى جادنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ،

ثم رمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام ، فأصبح مبهوثاً حزيباً ، لا يكلمنا ولا نكلمه ثم قال لى : ألا ترحلان ؟ قلت : بلى إن شئت . قال : فارحلا .

فرحلنا فميرنا كذلك من بيته وحزناه ليلالى . ثم قال لى ليلة : يا أبا سفيان هل لك فى المسير ؟ وتخلّف هذا الغلام يستأنس بأصحابنا ويستأنسون به ؟ قلت له : ما شئت . قال : مير . فميرنا حتى برزنا . قال : هى يا صغىرا . قلت : مالا ؟ . قال : هى هنّ عتقة بن ربيعة أبجنت الحارم والمظالم ؟ قلت : إى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : نعم ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قال : وكريم الطرفين ، واسط فى المشيرة ؟ قلت : كريم الطرفين واسط فى المشيرة . قال : فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت : لا ما أعلم . قال ومخوج هو ؟ قلت : لا بلى ذومال . قال : فكم أتى له ؟ قلت : هو ابن سميع نظر إليها قد قاربها ، هولما ، هو ابنها . قال : السن والشرف أزرأ به قلت : ولما أزرأ به ؟ لا والله بلى ما زاداه خيراً . قال : هو ذاك هل لك فى المبيت ؟ قلت : هل لك فيه حاجة ؟ قال : فاضطجعنا . حتى مرّ الثقل فميرنا حتى نزلنا فكنتما فى المنزل وبقنا .

ثم رحلنا ، فلما كان الليل قال : يا أبا سفيان . قلت : لتبيك قال : هل لك فى البارحة ؟ قلت : هل لى . قال : فميرنا على ناقين ناجيتين ، حتى إذا برزنا قال : يا صغىرا إيه هن عتقة . قلت : إيه هه . قال : أبجنت الحارم والمظالم ؟ ويأمر بصلة الرحم ويصلها . قلت : ويقعل . قال : ومخوج ؟ قلت : ومخوج .

قال : هل تعلم قرشياً أسود منه ؟ قلت : والله ما أعلمه . قال : وكم أتى له ؟ قلت : سميون هولما هو ابنها قد واقمها . قال : فإن السن والشرف أزرأ به . قلت : لا والله ما أزرأ به ولكنهما زاداه ، وأنت قائل شيئاً فقله . قال :

والله لا تذكر حديثي حتى يأتي ما هوأت . قلت : والله لا أذكره . قال : الذي رأيت أصابني فإني جئتُ هذا العالم فسألتُه عن أشياء . قلت : أخبرني عن هذا الذي يُنتظر ؟ قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ فمن أيِّ العرب ؟ قال : هو من أهل بيت تحبُّه العرب . قلت : فينا بيتٌ تحبُّه العرب . قال : لا ، إخوانكم وجيرانكم من قريش . قال فأصابني والله شيء ما أصابني منه قط . وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وقد كنت أرجو أن أكون أنا هو .

قلت : فإذا كان ما كان فصنفه لى ؟ قال : هو شابٌ حين دخل في الكهولة بهذه أمره ، أنه يحبُّ المحارم والمظالم ، ويعمل الرحم ويأسر بعصبتها ، وهو مُحوج ليس يندفع شرفاً كريماً الطرفين ، متوسط في العشرة أكثر جنده من اللاتسكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجف بالشام منذ هلك عيسى بن مريم ثمانون رجفة كلها فيهم^(١) مصيبةٌ عامةٌ ، وبقيت رجفة عامةٌ فيها مصيبة يخرج على أثرها . قال أبو سفيان : قلت : وإن هذا هو الباطل ، لأن بعث الله رسولا ، لا يأخذه إلا شريقاً مسيقاً .

قال : والذي يُخلف به إن هذا لكذا يا أبا سفيان . هل لك في اللبث .

فبينما حتى مرَّ بنا الثقل ، فرحلنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان ، أدركنا الخيل من خلفنا : أصاب الشام بعدكم رجفةٌ دُمِّر أهلها وأصابهم فيها مصيبة عظيمة .

قال : كيف ترى يا أبا سفيان ؟ قلت : أرى والله ما أظن صاحبك إلا صادقا . وقد مدنا مكة ففضيت ما كان مى ، ثم انطلقت حتى جئت أرض الحبشة

(١) كذا ول الوفا وابن كثير : فيها .

تاجراً ، فسكرت بها خمسة أشهر ، ثم أقبلتُ حتى قدمت مكة فبينما أنا في منزلي ، جاءني الناس يسألون عليّ ، حتى جاءني في آخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعددي ههنا جالسة تلاعب صبية لها ، فسلم عليّ ورَّحَّب بي وسألني عن سفري ومقدمي ، ثم انطلق . فقلت : والله إن هذا لالقي لعجب ، ما جاءنا أحدٌ من قريش له معي بضاعة ، إلا سألني عنها وما بلغتُ والله إنَّ له معي لبضاعة ، ما هو بأغدام عنها ، ثم مأسألي فقلت : أو ما علمتُ بشأه ؟ قلتُ وفزعته : ما شأنه ؟ قالت : والله إنه ليزعم أنه رسول الله . قال : فوقدني ذلك وذكرني قول النصراني ، ووجعتُ حتى قالت لي : مالك ؟ فالتبَّهتُ وقلتُ : إن هذا والله لهُو الباطل ، لهُو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقوله ، ويؤتي عليه وإن له اصحابه^(١) معه على أمره . قلت : هو والله باطل .

فخرجتُ فبينما أنا أطوف إذ لقيته ، فقلت : إن بضاعتك قد بلغتُ وكان فيها خيرٌ ، فأرسل إليها فخذها ، ولست آخذُ فيها ما آخذُ من قومك . قال فإني غير آخذها حتى تأخذني ما تأخذ من قومي . قلت : ما أنا بفاعل . قال : فوالله إذا لا آخذها . قلتُ : فأرسل إليها . فأخذتُ منها ما كتبتُ آخذ ، وبمئتُ إليه ببضاعته .

ولم أنشب أن خرجتُ تاجراً إلى اليمن فقدستُ الطائف فنزلنا على أمية ، ففتنيتُ معه ثم قلتُ : يا أبا عثمان ، هل تذكر حديث النصراني ؟ قال : أذكره . قلتُ : فقد كان قال : ومن ؟ قلت : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . ثم قصصته عليه خبر ههنا . قال : والله يعلم أنه تصيب هرقاً ثم قال : يا أبا سفيان لعنه ، وإن حريقته كهيته ، ولئن ظهر وأنا حيٌّ لأبليَن الله في نصرته ههنا .

ومضيتُ إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هناك استهلاله ، وأقبلتُ حتى قدمتُ

(١) ط : لصاحبه .

الطائف فنزلنا على أمية بن أبي الصلت . قلت : قد كان من هذا الرجل ما قد
 بلغك وسمعت . قال : قد كان . قلت : فأين أنت ؟ قال : ما كنت لأومن
 برسول ليس من ثقيف . قال أبو سفيان : فأقبلتُ إلى مكة ووالله ما أنا منه
 بهمد حتى جئته فوجدته هو وأصحابه يُضربون ويُقتلون ، فجعلتُ أقول :
 فأين جئكم من الملائكة ؟ ! ودخلني ما دخل الناس من النفاسة .

ووقع في هذا الحديث من قول أبي سفيان : أن عتبة بن ربيعة ذومال ،
 ووقع بعد ذلك من قول أبي سفيان أيضاً أنه محوج ، ولا يصح أن يجتمع
 الأمران ، وأحدهما غلط من الناقل والله أعلم .
 والمشهور من حال عتبة أنه كان فقيراً وكان يقال : لم يسد من قريش مُملقٌ
 إلا عتبة وأبو طالب ، لإنهما ساداً بغير مال .

وأما أمية بن أبي الصلت فرجلٌ من ثقيف ، لم يرض دين أهل الجاهلية ،
 ولا وفقه الله للدخول في السمحة الخفيفة .

فكان كما روى عن عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
 عن أمية بن أبي الصلت فقال : أوتي حلاً فضيحه .

وكما روى عن الحسن وقتادة أنهما قالَا في قول الله تعالى : « واتلُ عليهم
 نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الفانين » ^(١) أنه
 أمية بن أبي الصلت .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، ويدعرون له ، ويستكفون عنده ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليسكنكم بعضكم على بعض .

قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وهشام بن الحويرث بن أسد بن عبد المزی ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم لإبراهيم ، ما حبرٌ تطيب به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرب ولا ينفع !!

يا قوم : اتمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخليفة دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها .

وذكر الزبير بن بكار بإسناد له إلى عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل . فقال : لقد رأيته في المنام عليه ثياب بيض ، فقد أعلن أنه لو كان من أهل النار ، لم أر عليه التبييض .

وكان يذكر الله في شعره في الجاهلية ، ويستحبه وهو الذي يقول :

لقد نصحت لأقوامٍ وقلتُ لهم
أنا النذير فلا يقرُّزكم أحدٌ

لا تعبدون إلهاً غيرَ خالقكم
فإن دَعَوْكم فقولوا بيننا حدٌ

سبحان ذی العرش سبحاناً يدوم له
ربُّ البرية فردٌ واحدٌ صمدٌ

سبحان ذى العرش سبحاناً نَعُودُ لَهُ
 وَقَبْلُ سَبِّحَهُ الْجُودَى وَالْجَمْدُ
 مُسْتَحَرُّ كُلِّ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ لَهُ
 لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَادَى مُلْكُهُ أَحَدُ
 لَا شَيْءَ بِمَا تَرَى تَبْقَى بِشَاشَتِهِ
 يَتَّبَعِي إِلَهُهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ
 لَمْ تُفْنِ عَنْ هُرْمَزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ
 وَأُخْلِدَتْ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَتَحَلَّدُوا
 وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجَرَّى الرِّيحُ بِهِ
 وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا بَيْنَهُمْ يُرْدُ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ الْقِيَامَتُ لِعَزَّتِهَا
 مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا وَافِدٌ يَفْدُ
 حَوْضٌ هُنَاكَ مَوْوَدٌ بِهَا كَذِبٌ
 لَا بُدَّ مِنْ وَرِيدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وفى هذا الشعر ألفاظ من غير الزبير ، والبيت الأخير كذلك ، وفيه أبيات
 تُروى لأمية بن أبي الصلت .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عميد الله بن جحش فإنه أقام على ما هو عليه من
 الاتباع حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة ، ومعه امرأته
 أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قدماها تنصّر وفارق الإسلام حتى هلك
 هناك نصرانياً ، وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة

وكان حينئذ يمرّ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : فقعدنا وصاحنا ثم . أى أبعرنا وأنتم تلتصسون البعير ولم تبهرروا بعد .

وأما عثمان بن الحويرث فقدّم على قيصر ملك الروم فقتلته وحسنت منزلته عنده .

وذكر الزبير : أن قيصر ملكه على أهل مكّة ، وكتب له إليهم . فأبى قريش أن يدينوا لأحد ، وصاح فيه ابن عمه أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد والنفاس في الطواف : إن قريشاً لا تمكّ ولا تمكّك . فضت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان ما جاء يطلب ، فرجع إلى قيصر ومات بالشام مسموماً . يقال : سمّه عمرو بن جفنة النسيان الملك ، وكان يقال لثمان هذا البطريق ولا عقب له .

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وطارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والمليعة والهم ، والذبايح التي تُذبح على الأوثان ونهى عن قتل المؤدّة ، وقال أعبد رب إبراهيم ، وبأذى قومه يفتب ما هم عليه .

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها : لقد رأيتُ زيد بن عمرو ابن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى السكبية ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عهدتُك به ، وإن كنت لا أعلم . ثم يسجد على راحلته .

وسأل ابنه سعيد بن زيد وابن عمه مخر بن الخطّاب بن نفيل رضى الله عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فإنه يهت أمة وحده .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه :
أربأ واحداً أم ألف رب
أدين إذا تقسمت الأمور
عزالت السلات والمزى جميعاً
كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا المزى أدين ولا ابلقينا
ولا صنى بني عمرو أورد
ولا غنماً أدين وكان رباً
لنا في الغمر إذ حللى يسيراً
مجهت وفي الأمان مسميات
وفي الأيام يمرقها الصير
فإن الله قد أفنى رجالاً
كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين بر قوم
فأربل^(١) منهم الطفل الصغير
ويبقى المرد يفسر ثاب يوماً
كما يتروح النصف المطير
ولكن أعبد الرحمن ربى
ليغفر ذنبي الرب الغفور

(١) ربل القوم إذا نموا وكثروا .

فتقوى الله ربكم احفظوها
 متى ما تحفظوها لا تهوروا
 ترى الأبرار دارهم جنات
 ولكفار حامية ممدية
 وخزى في الحمة وإن يموتوا
 يلاقوا ما تضيئ به السدور
 وقال زيد بن عمرو بن نفيل ، وذكر ابن هشام أن أكثرها لأمية بن
 أبي الصلت ، في قصيدة له :

إلى الله أنهدى مذحق وثناها
 وقولاً رصينا لا يني الدهر باقيا
 إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه
 إله ولا رب يكون مُدائيا
 ألا أيها الإنسان إياك والردي
 فإنك لا تُخفى من الله خافيا
 فإياك لا تجتمع مع الله غيره
 فإن سبيل الرشد أصبح باديا
 حدائك إن الجن أنت رجائهم
 وأنت إلهي ربنا وزجائنا
 رضيت بك اللهم ربنا فلن أرى
 أدين إلهنا غيرك الله ثانيا

فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ
 بَعَثْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُنَادِيًا
 فَقُلْتَ لَهُ يَا أَذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوهُمَا
 إِلَى اللَّهِ فَرَحُونَ الَّذِي كَانَ طَافِيًا
 وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ
 بَلَا وَتَدْرِ حَقَّ اطْمَأْنَنْتَ كَاهِنًا
 وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ
 بَلَا تَحْمِلُ أَرْفِقْ إِذَا بِكَ بَاهِنًا
 وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسطَهَا
 مُدِيرًا إِذَا مَا جَعَلَهُ اللَّيْلُ هَادِيًا
 وَقُولَا لَهُ مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدُوَّةً
 فَيُصْبِحُ مَا تَسْتُ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيًا
 وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
 فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيًا
 وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رَوْسِهِ
 وَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاهِيًا
 وَأَنْتَ بِفَضْلِكَ مَعَكَ تَجَمَّيْتَ يُؤَلِّسًا
 وَقَدْ هَاتَ فِي أَضَافِرِ حُوتٍ لِيَالِيًا
 وَإِنِّي وَإِنْ سَبَّحْتَ بِاسْمِكَ رَبَّنَا
 لَا تُكْذِرْ إِلَّا مَا غَفَرْتَ خَطَايَا
 فَرَبِّ الْعِبَادِ الَّذِي سَيِّبَا وَرَحْمَةً
 عَلَّ وَبَارِكْ فِي بَيْتِي وَمَالِيَا

وقال زيد بن عمرو أيضاً :

أَسَلْتُ وَجِي لِمَنْ أَسَلْتُ
 لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا مَقَالًا
 دَحَاها فَلَمَّا رَأَتْهَا اسْتَوَتْ
 عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالُ (١)
 وَأَسَلْتُ وَجِي لِمَنْ أَسَلْتُ
 لَهُ الْكُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
 إِذَا هِيَ سَيَقَتْ إِلَى بَلَدٍ
 أَطَاعَتْ فَعَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

ويروى أن زيدا كان إذا استقبل السكبة داخل المسجد قال : لبيك حقاً
 حقاً ثم يقرأ ، عُدْتُ بما عاذ به إبراهيم مستقبل السكبة وهو قائم ، إذ قال
 أنى لك عان راغم ، مهما نجشني فإني جاشم ، البرُّ أبني لا الخلال ، ليس
 مهجر كن قال :

ويقال : البرُّ أبني لا الخلال .

وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة .

(١) رواية البيت في البداية والنهاية .

دَحَاها فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا
 سَوَاءً وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالُ

(٢) الخال : الحياء والكبر ، وللهجر : من سمر في الهجرة ، ومن قال : أى من نام
 في الغائمة .

وكان الخطّابُ عمّه وأخاه لأمه ، وكلّ به شباباً من شباب قریش وسفهاءهم ، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .

فكان لا يدخلها إلا سراً منهم ، فإذا علموا بذلك آذَنُوا به الخطّاب فأخرجوه وآذروه ، غففة أن يُفسد عليهم دينهم وأن يقابله أحد منهم على فراقه .

وكان زيدٌ قد أجمع الخروجَ من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفيّة دين إبراهيم ، فكانت أسرته صغية بنت الحضرى كلها رأته قد تهاها فخرج أو أرادها ، آذنت به الخطّاب بن نفيل ، وكان الخطّاب وكلها به وقال : إذا رأيته همّ بأمر فأذني به .

ثم خرج يطلب دين إبراهيم ويسأل الرهبان والأخبار ، حتى بلغ اللوثرى والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كلها ، حتى انتهى إلى راهب بميمّة^(١) من أرض التّلقاء ، كان ينهى إليه علمُ النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجب من يملك حايه اليوم ، ولكن قد أغلّك زمانٌ نهي يخرج في بلادك التي خرجت منها يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، فآلحق به فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان زيدٌ شام اليهودية والنصرانية فلم يرضَ منهما شيئاً ، فخرج سرياً حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا توسّط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه . فقال ورقة بن نوفل يُبكيه :

(١) لليلة : الأرض المرتفعة .

رَشِدَتْ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا
تَجَبَّيْتُمْ تَنْوَرًا مِنَ النَّارِ حَامِيًا
بَذَيْنِكَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّكَ كَمَثَلِهِ
وَتَرَكْتَ أَوثَانَ الْعُطَاغَى كَمَا هِيَ
وَأِدْرَاكَكَ الدِّينِ الَّذِي قَدْ طَلَبْتَهُ
وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ سَاهِيًا^(١)
فَأَصْبَحْتَ فِي دَارٍ مَكْرِيمٍ مُقَامَهَا
تُمَلَّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَا يَهَا
تُؤَلِّقُ خَلِيلَ اللَّهِ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ
مِنَ النَّاسِ جِبَارًا إِلَى النَّارِ هَاوِيًا
وَقَدْ تُذَرِّكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةً رَبِّهِ
وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيًا^(٢)



قال ابن إسحاق : وكان فيا بلنقى حما كان وَضَعَ عيسى بن مريم فيا جاده
من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
مَنْ أَمْنَعْنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الرَّبُّ ، ولولا أنى صنعت بمحضرتهم صنائع لم يصنعها
أحدٌ قبلى ما كانت لهم خطيئةٌ ، ولكن من الآن تطيروا ، وغلدوا أنهم
يَعِزُّونَنِي وَأَيْضًا لِلرَّبِّ ، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التى فى الداموس ،

(١) من ابن همام .

(٢) نصب سبعين على الحال من لفظ مقدر مثل : يد تحت الأرض .

أنهم أفضوني مجاناً ، أى باطلا ، فلولا قد جاء المُنعمُنا هذا الذى يرسله الله إلينا من عند الرب ، روح القِسْط هو الذى من عند الرب خَرَجَ فهو شهيدٌ على ، وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي ، هذا قلت لكم لكيلا تشكروا .

فالمُنعمُنا بالسريانية هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بالرومية البرقْلَيْطُس .

قال ابن هشام : وبلغنى أن رؤساء بَجْران كانوا يقوارثون كتباً بينهم ، فكلما مات رئيس فأفضت الرئاسة إلى غيره خَتَمَ على ذلك الكتاب خاتماً مع الخواتم التى قبلها ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد الذى صلى الله عليه وسلم يمشى فمتر ، فقال ابنة : تمس الأبعد . يريد الذى صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبوه : لا تفعل فإنه نبي واسمه فى الوضائع . يعنى الكتب . فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شدَّ فكسر الخواتم ، فوجد ذكر الذى صلى الله عليه وسلم ، فأسلمَ فحسُنَ إسلامه وحجَّ .

وهو الذى يقول :

إِلَيْكَ تَمْدُو قَلْبًا وَضِيئًا^(١)
مَعْرِضًا فِي بَطْنِهَا جَبِيئًا
خَالِفًا دِينَ الْقَصَارَى دِينُهَا

(١) الرضين : بطن عراس منسوخ من حلة أو شعر . والقلبي : غير المحكم . والمضى أن الإبل حزيلة .

[صفة النبي في التوراة]

وقد جاءت أحاديث حسن بما وقع من صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، لم يذكر ابن إسحق منها^(١) شيئاً .

فمن ذلك ما ذكره الواقدي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبيد الله بن عمرو بن العاص فقالت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة .

فقال : أجل ، والله ، إنه لموصوف في التوراة بصفته في الفرقان :

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحزناً للأميين ، أنت مهدي ورسول ، سميتك للتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدّفع السيئة بالسيسة ، ولكن يعضو ويغفر ، وإن يقضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أيماناً حمياً وأذاناً مسمياً وقلوباً خُلِقاً .

قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحمار فسألته فما اختلفا في حرف !

وذكر الواقدي أيضاً عن الدعي السبتي قال : وكان من أحبار اليهود باليمن ، فلما سمع بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه فسأله عن أشياء ، ثم قال : إن أبي كان يختم على سفر يقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بهثر ، فإذا سمعت به فافتحه .

(١) المطبوعة منهم . وهو خطأ .

فقال نعمان : فلما سمعت بك فتحتُ السُّفْرَ ، فإذا فيه صِقَاقٌ كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما نُحِلُّ وما نَحَرَّم ، وإذا فيه أُنْكَ خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمْتِكَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَاسْمُكَ أَحَدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمْتُكَ الْحَمَادُونَ ، قُرْبَانُهُمْ دِمَائِهِمْ وَأَنْجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، لَا يَحْفَظُونَ قِتَالًا إِلَّا وَجِبْرِيلُ مَعَهُمْ ، يَقْتَتِنُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ^(١) كَتَمْتُنِ الطَّيْرَ عَلَى أَفْرَاحِهِ .

ثم قال : إذا سمعتَ به فاخرج إليه وآمِن به وصدق به .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يُسمع أصحابه حديثه ، فأتاه يوما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا نعمان حدثنا .

فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرُوي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبسم ، ثم قال : أشهد أني رسول الله .

ويقال إن النعمان هذا هو الذي قتله الأسود العنسي وقطعه عضواً عضواً وهو يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنت كذاب مُنْتَقِرٍ على الله عز وجل . ثم حرقه بالنار .

ذكر المبعث

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافة للناس .

وكان الله تعالى قد أخذ له الميثاق على كل نبي بعثته قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق .

فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَقُولُنَّ بِهِ وَلَتَعْلَمُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي » أى ثقل ما حملكم من عهدى « قَالُوا : أَأَقْرَضُكَ . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (١) .

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له والنصر وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين .

وعن عائشة رضى الله عنها أن أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة المهاد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .

وَحُبَّ اللَّهِ إِلَيْهِ الْخَلْقُ ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ .

وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ وَابْتِدَائِهِ بِالْبُيُوتِ ، كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَقِّ تَحَمُّرٍ عَنْهُ الْبُيُوتُ وَيُقَضَى إِلَى شِمَابِ مَكَّةَ وَيَطْلُونَ أَوْدِيَّتَهَا ، فَلَا يَمُرُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِمَجْرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ .

فَكَثَّ كَذَلِكَ يَرَى وَيَسْمَعُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُنَّ .

ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَهُوَ بِحِرَاءَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَعَنْ هُبَيْدِ بْنِ مُعْمِرٍ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ ، يَحَدِّثُ كَيْفَ كَانَ بِذِهِ مَا ابْتَدَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبُيُوتِ حِينَ جَاءَهُ جَبْرِيلُ قَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخَافُ فِي حِرَاءَ مِنْ كُلِّ سَنَةِ ثَمَرًا ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّنُ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالتَّحَنُّنُ : التَّهَنُّنُ .

فَكَانَ يَخَافُ ذَلِكَ الشَّهْرَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ، يُطْعَمُ مِنْ جِوَارِهِ مِنَ الْمَسَاكِينِ ، فَإِذَا قَضَى جِوَارَهُ مِنْ شَمَرِهِ ذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَهْدَأُ بِهِ إِذَا انْصَرَفَ [مِنْ جِوَارِهِ] ^(١) قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ الْكَعْبَةَ ، فَيَطْلُوفُ سِمْمَا أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ .

حَقٌّ إِذَا كَانَ الشَّهْرَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ بِهِ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ ، وَذَلِكَ لِلشَّهْرِ رَمَضَانَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حِرَاءَ كَمَا كَانَ يَخْرُجُ لْجِوَارِهِ وَمَعَهُ أَهْلُهُ ، حَقٌّ إِذَا كَانَتْ الْإِلَهَةُ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ فِيهَا بَرَاسَاتِهِ وَرَحِمَ الْعِبَادَ بِهَا جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِأَمْرِ اللَّهِ

(١) مِنَ الطَّبْعَةِ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم^(١) بَنَسَطَ من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فَتَعَنَى^(٢) به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ؟ فَتَعَنَى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟

ما أقول ذلك إلا افتراء منه أن يعود لي بمثل ما صنع .

فقل : « اقرأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي ، فسكنا كما كُتِبَتْ في قلبي كتابا .

فخرجتُ حتى إذا كنت في وسطٍ من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قديمه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أُصْرِف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك .

فأزلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورأني ، حتى بعثت خديجة رُسُلَهَا

(١) الذي في الروايات الأخرى أن جبريل جاءه في الغار وهو يظلم ، فلعل جبريل جاءه مرة في اليوم ومرة في الليلة ، كما ذكر ابن كثير وشراح السيرة .

(٢) غشي : حبس نفسى . ورواية الواهب اللدنية : فظنى .

في طلبي ، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت عنه راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى نخلها مضيئا إليها^(١) .

فقلت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسل في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى^(٢) .

ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت : أبشريا بن عبي واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنى لأرجو^(٣) أن تكون نبي هذه الأمة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها ، وكان قد تلمذ قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قد دوس^(٤) قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لأن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لفي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صبح كما كان يصنع ، بدأ بالكهنة فطاف بها ، فلقبه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكهنة ، فقال له : يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت .

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لابي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ،

وَلَتُسَكِّدَنَّ^(١) وَلَتُؤْذِنَهُ وَلَتُخْرِجَهُ وَلَتَقَاتِلَنَّهُ ، وَلَئِنْ أَنَا أَدْرَكَتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ
لَأُؤْمِرَنَّ اللَّهَ لِعَمْرٍأَ يَفْعَلَهُ .

ثم أذنت رأته منه فقبل يا فوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى منزله .

ويروي عن خديجة أمها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي ابن عم ،
أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت :
فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة
هذا جبريل قد جاءني . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على نفذي اليسرى .
فقام فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال نعم . قالت : فتحوّل فاقعد على نفذي
اليمنى . فتحوّل فقام على نفذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت :
فتحوّل فاجلس في حجري . فتحوّل فجلس في حجرها . ثم قالت له : هل
تراه ؟ قال : نعم . فتحسّرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
في حجرها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا .

قالت : يا بن عم أثبت وأبشر ، فوالله إنه الملك وما هذا بشيطان .

ويروي أن خديجة أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها
فذهب عند ذلك جبريل .

(١) الماء ما السكت .

[بدء نزول القرآن]

وابتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنزول في رمضان .

يقول الله عز وجل : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس
وبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » ^(١) .

وقال : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ^(٢) إلى خاتمة السورة .

وقال : « حم والسكيات المهيئ ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا
مُنذِرِينَ فيها يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إنا كُنَّا مُرْسِلِينَ » ^(٣) .

وقال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْاِتِّفَاقِ
الْجَمْعَانِ » ^(٤) ، يعنى مُلتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمُشركين بهدر ،
وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء
النزول في شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي صورة هذا الاستشهاد نظر .

(١) سورة البقرة : ١٨٦

(٢) سورة القدر

(٣) سورة النخاع : ١ — ٤

(٤) سورة الأنفال : ٤٢

فإن ظاهر قوله سبحانه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » عموم نزول القرآن بجملة فيه . وكذلك قوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » . و « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » .

ولم يقع الأمر في إنزاله على رسوله صلى الله عليه وسلم هكذا ، بل أنزله الله عليه في رمضان وفي غيره مفترقا ، آيات وسوراً ، بحسب سؤال السائلين ، أو أحداث المحدثين ، أو ما شاء الله من هداية العالمين .

وقد قيل في قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » أي الذي أنزل في شأنه القرآن ، أي نزل الأمر من الله عز وجل بصياحه كتاباً يتلى وقرأت لا يدرُس ولا يُتلى .

كما يقال : « نزل القرآن بالصلاة » أي نزل جزء منه بفرضها و « نزل القرآن في عائشة » وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك .

ومثل هذا الإطلاق موجود في الأحاديث والآثار كثيراً .

وليُسَلَّم أن معنى قوله : « أنزل فيه القرآن » أي ابتدئ فيه إنزاله ، فقد قيل ذلك وليس بهيئد في القوم ولا بما تضيق عنه سعة الكلام ، ثم يُجَرى ذلك المجرى الآيتين ^(١) الآخرين وها : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » ، و « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وإن يَمَدَّ ذلك فيهما لما ورد من الآثار المصححة لحكم عمومهما حسبنا نذكره يَمَدُّ ، فإبال الآية الأخرى التي هي : « وما أنزلنا على عبدينا يوم الفرقان يوم النقي الجمعان » تنظّم في هذا النظام ، وقد أعتبها مُتَسَرِّراً بأن المعنى بذلك يوم بدر ، وهو الحق ١٩ .

وعل كان يوم بدر إلا في السنة الثانية من الهجرة ، و بعد اثنتي عشرة سنة

(١) المطبوعة : تجرى ذلك المجرى في الآيتين .

من البعث ونزول الوحي ، أو بعد خمس عشرة سنة ، على ما ورد من الخلاف في مدة مُكثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة ، وما زال القرآنُ المكِّي والمدني ينزل فيما مضى تلك السنين .

فإن كان ابن إسحاق عني ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بيَّنا وجهَ رَدِّهِ واستوفينا التنبيه عليه ، وإن كان عني غيرَ ذلك فقصر عنه تحريرُ عبارته أو سقط على الغافل من كلامه ما كان ينبغي لو بقى لفهامه ، فالحمد تعالى أعلم .

والرجلُ أوَّلُ ما بأن يُصيب ويسلم ، إلا أنه لا يُنكر أن ينلُط هذا البشر .

ولمؤذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداء على ذي علم أو النعم من ذي حق ، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهذاننا المتقدمون ، بأنوارهم نَسرى فليصبر ونستصبر ، وإلى غايتهم نجرى فطَوَّراً نَصِلْ وأطواراً نقصِّر ، فلمهم دوننا قَصَبُ السَّبْقِ ، ولهم علينا في كل الأحوال أعظمُ الحق ، إذا أصابوا أَعْمَدَتَنَا ، وإذا أخطأوا اسْتَفْذَنَّا ، وإذا أفادوا اسْتَفْذَنَّا ، فجزاهم الله عفاً أفضل الجزاء ، ووفّقنا للوفية حقوق الأئمة والعلماء .

وبعدُ : فمن أحسن ما يتعلق بتلك^(١) الآيات الثلاث التي صدرَ بها كلامه ، مما يحفظ حكم عمومها ويطباق ظاهر مفهومها ، ما رواه سعيد بن جبّير عن ابن عباس رضي الله عنه أن القرآنُ أنزلَ جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجُمِلَ في بيت العزة ، ثم أنزلَ على النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فشينا إلى حين وفاته .

وقيل لأشتمني : شهر رمضان الذي أنزلَ فيه القرآن ، أما كان ينزل

في صائر السنة ؟

(١) ط : ما يتعلق بتلك الآيات . وما أُنْبِئ به رواية للعلامة .

قال : بلى ، ولكن جبريل كان يمرض محمداً صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ما أنزل في ماضى السنة فيمحو الله ما يشاء ويُثبت .

قال ابن إسحاق : ثم تَنَامَ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق لما جاءه منه ، قد قَبِلَهُ بقبوله وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم .

وللهبوة أُنْفَالٌ ومَوَانةٌ لا يَحْمِلُهَا ، ولا يستطيع بها إلا أهلُ القوة والعزم من الرسل يعون الله وتوفيقه ، لِيَأْتِ الْقَوْمَ مِنَ النَّاسِ وما يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بما جَاءُوا بِهِ .
عن الله عز وجل .

ففى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله على ما يَأْتِى من قومه من الخلاف والأذى .

[إسلام خديجة]

وَأَمِنَتْ بِهِ خَدِيجَةُ ابنة خويلد ، وصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَأَزْرَتْهُ على أمره .

فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ .

تَخَفَّتْ اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِهِ ، لَا يَسْمَعُ شَيْئًا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدِّ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبِ لَهُ فَيَحْزَنُهُ ذَلِكَ إِلَّا افْرَجَ اللَّهُ عَنْهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا ، تَثَبُّتَهُ وَتَخَفَّتْ عَلَيْهِ وَتَصَدَّقَهُ وَتَهَوَّنَ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ .

يرحمها الله .

[فقرة الوحى]

ثم فُتِرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى حتى شق عليه وأحزنه .
لجاء جبريل بسورة « والضحى » ، يُقسم له ربه جل وتعالى ، وهو الذى
أكرمه بما أكرمه به ، ما ودَّعه وما قلَّاه .

فقال : « وَالضُّحَى وَالْأَيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّكَ رَبُّكَ وَمَا أَلَى » ،
يقول : ما حرمتك فتركك ، وما أفضلك منذ أحبك .

« وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » أى لما هدى من مرجبك إلى
خير لك مما جعلت لك من السَّكرامة فى الدنيا .

« وَاسْأَلْ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » من الفلج^(١) فى الدنيا والثواب
فى الآخرة .

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ
عَالِيًّا فَاخْتَى » .

يُمرِّفه ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومنَّه عليه فى يُعْمه وعمله
وضلاله ، واستدعاذه من ذلك كله برحمته .

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » أى لا تكن جباراً
ولا متكبراً ولا فحاشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله .
« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » اذكرها وادعُ إليها .

(١) الفلج : الفلاح والنصر .

فَجعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سيرة إلى من يعطى من إلهه من أهله .

[فَرَضَ الصَّلَاةَ]

وافترضت عليه الصلاة ، فعلى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته .

قالت عائشة رضى الله عنها : افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله آتاه في الحضر أربعا وأقرها في السفر على قرئتها الأول ركعتين .

وعن بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء جبريل وهو بأهل مكة فميز له بقية في ناحية الوادي فاتفقت مدته عين ، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، ليريه كيف الظهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ ، ثم قام به جبريل فعلى به وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ، ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها ليريه كيف الظهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصارت بصلاته .

وعن نافع بن جبير بن مطعم ، وكان كثير الرواية عن ابن عباس ، قال : لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء جبريل فعلى به الظاهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان غلظه مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر .

ثم صلى به الظهر حين كان غلله مثله ، ثم صلى به العصر - حين كان غلله مثابه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مُسْتَفِرّاً غير مُشْرِق .
ثم قال : يا محمد ، الصلاةُ فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .

[إسلام على بن أبي طالب]

قال ابن إسحق : ثم كان أول ذَكْرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تبارك وتعالى على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وهو ابن عشر سنين يومئذ .

وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام .

وذلك أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف [عنه ^(١)] من عياله ، آخذ من بنوه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فمكفّلهما عنه . قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى يكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عَقِيلاً فاصنما ما شئتما ، ويقال : عَقِيلاً وطالبا .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّاً فضمّه إليه ، وأخذ العباس

(١) من ابن عمهم

جاءوا فوضعه إليه ، فلم يزل على^{*} مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيا
فأنبئه على وآمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت
الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبي طالب مُستَغفيا عن
أبي طالب ومن جميع أعماله وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أُمِّسَا
رجعا . فكثرتا كذلك ما شاء الله أن يمكنتا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله : يا بن أخي ما هذا
الدين الذي أراك تدين به ؟

قال : أي هم ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسوله ودين أبينا إبراهيم .
أو كما قال صلى الله عليه وسلم . يعني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي هم
أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه وأعانني
عليه . أو كما قال .

فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي
وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقوت .
وذكروا أنه قال لعل : أي بنى ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟

فقال : يا أبتِ آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به واصلت معه
الله واتبعته .

فزعوا أنه قال له : أما إنه لم يذُكْ إلا إلى خير فالزمه .

[إسلام زيد بن حارثة]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبي مؤلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فكان أولَ ذَكَرٍ أسلم وصلى بعد على بن أبي طالب .

ومن غير ابن إسحق أن زيدا أصابه في الجاهلية سيباء^(١) فاشتراه حكيم
ابن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقول بل وقمه لها ، فوهبته خديجة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، وكان
أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا وبكى عليه حين فقده ، فقال :

بكموتُ هل زيدٍ ولم أذِرِ ما قُتلُ
أحى^(٢) فَيُزَجَى أم أتى دونه الأجلُ

فوالله ما أدري وإنى أسألتُ
أغالكَ بَعْدِي السُّؤلُ أمْ غَالَكَ الجَلَلُ

وياليت شعري هل لك الدهرَ أوبةً
فَتَحْنِي من الدنيا رجوعك لي بِجَل^(٣)

تَذَكَّرْنِيهِ الشمسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَمَرِّضُ ذِكْرَهُ إِذَا قُرْصُهَا أَقْلُ^(٤)

وإن هَبَّتِ الأرواحُ^(٥) هَيَّجْنَ ذِكْرَهُ
فِي سَا طُولِ مَا حَزَنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلْ

سَأَعْمَلُ نَصْرَ الْعِيسَى^(٦) فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا
وَلَا أَسْأَلُ التَّطَوُّفَ أَوْ نَسَامَ الْإِثْلِ

(١) السبأ : الأسر .

(٢) بجَل : حس .

(٣) بل وابن هشام : « إذا ضربها أكل » وما أليمن للطبوعة .

(٤) الأرواح : جمع روح .

(٥) نص العيس : أولم سيرها .

حِثَّائِيَّ أَوْ تَأْتِي عَلَى مَنِّي

فَكُلُّ امْرِئٍ فَانٍ وَإِنْ غَرَّهُ الْأَجَلُ

ثم إن أناساً من كُلب حجَّوا فرأوا زيدا فعرَفهم وعرفوه ، فأَعَلَّوْا أباه ووصفوا له موضعه وعقدَ من هو .

فخرج أبوه حارثةً وعِمه كعب ابنا شراحيل لِفدائه .

وقدما مكة فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا عليه فقالا : يا بن هبِّ الطَّلَب بنِ هاشم يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حَرَمِ الله وجِبرائِله تَفْكَوْنُ العاقِبَ وتُطْعَمون الأسير ، جئناك في ابْنِنا هَبْدِكَ ، فامْنُنْ علينا وأَحْسِنْ إلينا في فِدائِهِ .

قال : من هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمَهْلًا خَيْرَ ذَلِكَ ؟ قالوا : ما هو ؟

قال : أَدْعُوهُ فَأَخِيرُهُ ، فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ ، وَإِنْ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي أَحَدًا . قالوا : قَدْ زِدْتَنَا عَلَى النِّصْفِ وَأَحْسَنْتَ .

فَدَعَاهُ فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : أَبِي وَهَذَا عَمِّي . قَالَ : فَأَنَا مَنْ قَدْ هَلَمْتَ وَرَأَيْتَ مَحَبَّتِي لَكَ فَأَخِيرَنِي أَوْ اخْتَرْتَنِي .

قال زيد : مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَيْكَ أَحَدًا ، أَنْتَ مَنَى مَكَانَ الْأَبِ وَالْعَمِّ !

فَقَالَا : وَيَمُحُّ بِإِزِيدٍ ! انْخُتَارَ الْعَبودية عَلَى الْحَرِيَةِ ، وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ !

قال : نعم ، قد رأيتُ مِنْ هَذَا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحِجْر فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني يَرِثُنِي وأرثه . فلما سمع ذلك أبوه ومعه طائفتان نفوسهما ، فأنصرفا .

ودُعي : زَيْدُ بْنُ عَمْرٍ ، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت : « ادعهم لأبنائهم هو أَوْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ »^(١) فدعى من يومئذ زيد بن حارثة .

[إسلام أبي بكر]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم أبو بكر بن أبي قُحافة رضى الله عنه ، واسمه عتيق ، وقيل : عبد الله ، وعتيق لقبٌ ، لحسن وجهه وعتقه ، فيما قال ابن هشام .

واسم أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة ابن كعب بن لؤي .

فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً مُؤَلِّفاً لقومه محبباً سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خَلْقٍ ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمراء ، لعلهم وتجارتهم وحسن مجالستهم .

(١) سورة الأحزاب .

فجعل يدعو إلى الله والإسلام مَنْ وَثَّقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ عَنِ يَنْشَاهُ
وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ .

فأسلم بدعائه ، فيما بَلَغَ ، عَثَانُ بْنُ عَفَانٍ بْنُ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ
ثَمَسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ ، وَالزَّيْبِرُ بْنُ الْأَعْوَمِ بْنِ شُوَيْبَةَ بْنِ أَسَدَ بْنِ عَبْدِ
الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بْنِ عَبْدِ عَوْفٍ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَارِثِ
ابْنِ زُهْرَةَ بْنِ كَلَابٍ ، وَسَدُّ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، مَالِكُ بْنُ أَهَوَبٍ ، بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ
ابْنِ زُهْرَةَ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ
ابْنِ مُرَّةٍ .

فجاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له
فأسلموا وصاروا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بَلَغَ : مَادَهُوتُ أَحَدًا إِلَى
الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ فِيهِ عَقْدَةٌ كَثْبَةٌ وَتَقَرُّدٌ وَتَرَدُّدٌ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ
أَبِي قَحَافَةَ ، مَا عَمَّ (١) عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ .

قال : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصاروا وصدة
رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله .



ثم أسلم أبو هبيرة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أُمَيَّةَ بْنِ صَبَّيَّةَ
ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ .

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم .

والأرقم بن أبي الأرقم بن أسد أبي جندب بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم .

وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي .

وأخوه قدامة وعبد الله ابنا مظعون .

وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قُريظ بن رباح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤي .

واسمائه فاطمة بنت حمه الخطاب بن نفيل أخت عمرو بن الخطاب .
وأسماء بنت أبي بكر الصديق .

وعائشة بنت أبي بكر الصديق وهي يومئذ صغيرة .

وخباب بن الأرت حليف بني زهرة .

ومخير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص .

وعبد الله بن مسعود المذلي حليف بني زهرة .

وجعانة سوي هؤلاء سمائم ابن إسحق .

قال : ثم دخل الناس في الإسلام أزجالاً من الرجال والنساء ، حتى نشأ في كرم الإسلام بمسكة ونحذت به .

[الجهر بالدعوة]

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وأن يبدأ الناس

بأمره وأن يذهبوا إليه ، وكان بين ما ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستقر به إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين ، فيها بلغنى ، من مبعثه .

ثم قال له الله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »^(١) .

ثم قال : « وأنذر مشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »^(٢) « وقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين »^(٣) .

قال : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشكاب واسعة يخفون بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في أقر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم ناس من المشركين وهم يصلون ، فذاكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بهر فشبهه .

فكان أول دم هريق في الإسلام .

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يؤمن منه قومه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه ونأكروه ، وأجسوا خلافه وعداوته ، إلا من همم الله منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون .

وحذّب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

(٢) سورة الشراء : ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) سورة الحجر : ٨٩ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهرًا له^(١) ، لا يردده عنه شيء .

[بين قریش وأبي طالب]

فلما رأت قریش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُنتَقِبُهُمْ من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعَيَّب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَذَب عليه وقام دونه فلم يُسلمه لهم ، مشى رجال من أشrafهم إلى أبي طالب ، عُمَيرة وشَيْبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البَخْتَرى بن هشام بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قُصَيٍّ ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وأبو جهل بن هشام بن المخيرة ، وقُتَيْبَة ومُندِبَة ابنا الحجاج ، والماص بن وائل ، أو من مشى منهم .

فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أعلامنا وضلَّل آبائنا ، فلما أن تكفه عنا ، وإما أن نخْلُ بيننا وبينه ، فإنك حل مثل ما نحن عليه من خلافه ، فسكنه يَك .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدهو إليه .

ثم قَرِئَ^(٢) الأمر بينه وبينهم ، حتى تواعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت

(١) ابن هشام : مظهرًا لأمره .

(٢) قرئ الأمر : اشتد .

قريش ذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها ، فنذاروا فيه وحشاً بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سيداً وشرفاً ومنزلةً فيما ، وإننا قد استقمهناك من ابن أخيك فلم تنمه عنا ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ونسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تسكنه هنا أو نؤاخذه وإلا لك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . أو كما قالوا .

ثم انصرفوا عنه ، فمظّم على أبي طالب فراق قوميه وعداوتهم ، ولم يعط نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بخذلانه .

وذكر أن أبا طالب حين قالت له قريش هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، لأذى قالوا له فأبقي على وعلى نفسك ولا تحملى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدأ لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومُسليه ، وأنه قد ضُغف عن نصرته والقيام معه ، فقال له : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته !

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى !

ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا بن أخى . فأقبل عليه ، فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لشيء أبداً .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، [وإجماعه إقراهم في ذلك وعداوتهم ^(١)] مشوا إليه بعمارة بن الوليد ابن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب هذا حمارة بن الوليد أنهد قتي في قريش وأجله ، نخذه فلك عقله ونصره وانخذه ولداً ، وأسلم اليها ابن أخيك هذا الذى خالف ديدك ودين آبائك وفرق جماعة قواك وسفه أسلامهم ففقتله ، فلئما هو رجل كرجل .

قال : والله لبئس ما تسومونى ! أتعطونى ابسكم أغذوه لكم وأعطيك ابى تقتلونه ! هذا والله ما يكون أبداً .

فقال المعلم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفتك قومك وجهدوا على التخلص مما تسكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال له أبو طالب : والله ما أنصفونى ، ولكذك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على^(٢) ، فاصنع ما بدا لك . أو كما قال .

فحجب^(٣) الأمر وجمعت الحرب وتفايذ القوم وبادى بعضهم بعضاً .

[لإيذاء النعمى والمسلمين]

قال : ثم إن قريشاً تذاشروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم وينتفونهم عن دينهم .

(١) من ابن هشام (٢) حجب : احتشد .

وَمَنْعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ مِنْهُمْ بَعَثَ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ قَامَ أَبُو طَالِبٍ - بَيْنَ رَأْيِ قَرِيْشَ يَعْنُونَ مَا يَعْنُونَ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ فَدَعَاهُمْ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقِيَامِ دُونَهُ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَامُوا مَعَهُ وَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي هُبَيْرٍ .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٍ مِنْ قَوْمِهِ مَا سَرَّهُ مِنْ جِدْمٍ ^(١) وَحَدَبِهِمْ عَلَيْهِ جَمَلٌ يَمْدَحُهُمْ وَيَذْكُرُ قَدِيمَهُمْ وَفَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ وَمَكَانَهُ مِنْهُمْ لِيَشِدَّ لَهُمْ رَأْيَهُمْ وَلِيَتَّخِذُوا مَعَهُ إِلَى أَمْرِهِ ، فَقَالَ :

إِذَا اجْتَمَعْتَ يَوْمًا قَرِيْشُ لِيَفْضَحِرَ
فَعَبْدُ مُنَافِرٍ سِرِّهَا وَسَمِيْعُهَا
فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ قَهْدٍ مُنَافِهَا
فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَلِنْ نَفَخَرَتْ يَوْمًا فَإِنْ مُحَمَّدًا
هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيْمُهَا
تَدَاعَتْ قَرِيْشًا غَنَمُهَا وَسَمِيْعُهَا
عَلَيْنَا فَلَمْ تَقْطُرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نُتَقِرُ ظِلَامَةَ
إِذَا مَا تَنَوَّاهَا صُعُرَ الْخُلُودُ نُقِيْمُهَا
وَنَحْمَى جَاهَا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيْمُهَا
وَنَضْرِبُ عَنْ أَجَارِهَا ^(٢) مِنْ يَوْمِهَا

(١) ابن مهزم : في جدمهم منه .

(٢) المطبوعة : أجارها .

بِذَا انْتَمَشَ الْعُودُ الْأَدْوِيُّ وَإِنَّمَا
بَاكِفَانَا تَنْدَى وَتَنْسِي أَرْوَمُهَا

[الوليد بن المغيرة]

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع عليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأتجسوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .
قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول فيه ^(١) .

قال : بل أنتم فقولوا أنتم . قالوا : نقول : كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا السكَّانَ فاهو بَرَمَزَمَةُ السكَّانِ ولا سَجَمَةٍ . قالوا : فنقول : مجنون . قال : وما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فاهو يَخْنَقُه ولا تَخْلُجُه ولا وَسْوَسَه . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزُه وهَزَجُه وقَرِيضُه ومَقْبُوضُه ومَبْسُوطُه فاهو بالشعر قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، قد رأينا الشُّعَارَ وسَحَرَمَ ، فاهو يَدْفَعُهُ ولا عَقْدَه ^(٢) .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن أقوله لخلاوة وإن أصله كَمَذَقٌ وإن فرعه لَجَنَاءةٌ ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا حرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لَأَنَّ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

(١) ابن هشام : به وهو خطأ .

(٢) ابن هشام : بنفسهم ولا عقدم .

ففرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يحلسون بسُبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

[قصيدة أبي طالب]

فلما خشي أبو طالب دهاء العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التي يموز^(١) فيها بحر مكة وبمكانه منها ، وتودّد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم ويفرّهم في ذلك من شعره أنه غير مُسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه . وأولها .

لَسَا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الشَّرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعِدَاوَةِ وَالْأَذَى
وَقَدْ طَاوَعُوا أَمَرَ الْعَدُوِّ الْمَزَائِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْهِمْ أُخِطَّةٌ
يَهْمُونَ غِيظًا خَلَقْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لِمَنْ نَفْسِي بِسِرَاهُ تَمَحَّجَةٌ
وَأَبْيَضَ خَضْبِهِ مِنْ تَرَاثِرِ الْقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ^(٢) عَهْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
وَأَمَكَسْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ

(١) الملبوعة : يموز (٢) الملبوعة : وأحضر . وهو خطأ .

قيامًا معًا مستقبلين رِثاجَهُ
 لدى حثْ بَقْضِ حَلْفِهِ كُلِّهِ نَافِلِ
 وحيث يُبْلِغُ الأَشْمَرُونَ رِثَايَهُمْ
 بِمُقْضَى السَّيُولِ مِنْ إِسَافِهِ وَنَائِلِ
 مَوْثِقَةِ الأَعْضَاءِ أَوْ قَصَرَاتِهَا
 غَيْبَةً بَيْنَ السَّدِيسِ وَبَازِلِ^(١)
 ترى الوَدْعَ فِيهَا وَالرَّخَامَ وَزِينَةَ
 بِأَعْدَائِهِا مَعْقُودَةً كَالْمُفَاكِلِ^(٢)
 أَعُوذُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ كُلِّ طَاعَنٍ
 عَلَيَّ بِسُوءٍ أَوْ مَلَحٍ بِهَاطِلٍ
 وَمِنْ كَاشِحٍ يَسِي لِي بِمَعِيَةٍ
 وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يُحَاوِلِ
 وَتَوَرٍّ وَمِنْ أَرَسَى تَهَوُّرًا مَكَانَهُ
 وَرَاقٍ لِيَزَيَّ فِي حِرَاهِ وَنَازِلِ
 وَبِالْبَيْتِ ، حَقُّ الْبَيْتِ ، مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ
 وَبِاللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَيْسَ بِضَافِلِ
 وَبِالْحَجَرِ الْمُنَوَّدِ^(٣) إِذْ يَمَسُّحُونَهُ
 إِذَا اكْتَفَنُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَسَاثِلِ

(١) موصلة : مملعة . والفصريات جمع الفرة وهي أصل النقي . والخبيسة المملعة . السديس من الإبل : الذي دخل في الثامنة ، والبازل : الذي خرج نابه وذلك لتسع سنين .
 (٢) الشاكل : الأغصان التي تلتصق عليها الثمار .
 (٣) الأصل : الأسود ، وما أتته من ابن هشام .

وَمَوْطِيءٌ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ وَطَاءٌ^(١)
 عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاحِلٍ
 وَأَشْوَاطُ بَيْنَ التَّرَوَاتِينِ إِلَى الْعَصَا
 وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَائِلٍ^(٢)
 وَمَنْ حَاجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ
 وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذِيرٍ وَمَنْ كُلِّ رَاكِبٍ
 وَبِالشَّمْرِ الْأَفْعَى إِذَا سَمِدُوا لَهُ
 إِلَّا إِلَى مُنْفَعَى الشَّرَاحِ الْقَوَائِلِ^(٣)
 وَتَوَقَّفَهُمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً
 يَقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرُّوَاهِلِ
 وَلَيْلَةً تَجْمَعُ وَلِلنَّازِلِ مِنْ مِثْقَلِ
 وَهْلٍ فَوْقَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَمَنَازِلِ
 وَتَجْمَعُ إِذَا مَا الْقُرَبَاتِ أُجْزَتْ
 سَرَاخًا كَمَا يُخْرِجْنَ مِنْ وَقْعٍ وَابِلِ
 وَبِالْجَمْرِ الْكَهْرِيِّ إِذَا سَمِدُوا لَهَا
 يَوْثُونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجَفَادِلِ
 وَكِذْبَةٍ إِذْ هُمْ بِالْحِصَابِ عَشِيَّةً
 تَجْمِيزُ بِهِمْ حِجَابُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ

(١) ابن هشام رضية .

(٢) من ابن هشام .

(٣) إلالة جبل بركة معروف . والشراح القوائيل مسايل الماء للقبيلة .

حليفان شداً عقدَ ما اختلفا له
 وردًا عليه عاطفاتِ الوسائلِ
 وحملهم ثمَّصرَ الصفايحَ ومترحه
 وشيرقه وَخَدَ القمامَ الجوافلِ^(١)
 فهل بَمَدِّ هذا من مَعَاذِ لعائذِ
 وهل من مُبَيِّذٍ يَتَّقِي اللهَ عادلِ^(٢)
 يطاع بنا العِدَى^(٣) وودوا لو أننا
 نَسُدُّ بِمَا أبوابُ تَرْكٍ وكاهلِ
 كعذبهم وبِيتِ الله نترك مكة
 ونظمن إلا أمركم في بلابلِ
 كعذبهم وبِيتِ الله يُبْزَى^(٤) عمدًا
 ولَمَّا نطالعين دونه ونُكَاخِرِلِ
 ونُسَلِّمُهُ حَتَّى نُعَبَّرِجَ حوله
 ونَذْهَلِ عَنْ أَهْثَانَا والحلالِ
 وتنهض قومٌ في الحديدِ إِلَيْكُمْ
 نهوضَ الروايا تحتِ ذَاتِ الصَّلَاحِلِ^(٥)

(١) الصفايح : جمع صفايح ، وهو عرض الجبل ، والسمر : شجر الطلح ، أصله بضم الميم
 نسكت لاضرورة ، والبرج نوع من الشجر ، والبرق : لبات ، والوخد : السير السريع .
 والنعام الجوافل : السرعة .

(٢) ابن هشام : عادل .

(٣) العدى : جمع عاد كقناز وقزى . (٤) إبرى : سلب . وفي الروض الأنب : لبذى . محزنة .

(٥) أ وايا : الإبل التي تحمل الماء . والصلال : المزايا التي تضاعف بالماء .

(١٩ — الاكفاء)

وحق نرى ذا الضنن يركب رذعه
 من العطن فقلّ الأنكبر للتعامل
 وإنّا لمرو الله إن جدّ ما أرى
 لتلقين أسافا بالأمائل
 بهكنى فقى مثل الشهاب تتبدع^(١)
 أخى فقه حامى الحقيقة باسل
 وما تركه قوم لا أبالك سيداً
 بموط القمار غير ذرب مواكل
 وأبـض يستحقّ الغنام بوجه
 ثمال الأيقام عصمة للأرامل
 يلوذ به الهلاك من آل هاشم
 فهم عنده فى رحمة وفواضل
 جزى الله عنا عهد شمس ونوفلاً
 حقوبة شرّ حاجلاً غير آجل
 بميزان قسط لا ينجس شعيرة
 له شاهد من نفسه غير مائل
 لقد سمعت أحلام قوم تهلكوا
 بنى خلف قمصاً بنس والنياطل^(٢)

(١) السبيح : السيد .

(٢) النياطل : بنو سهم لأن أمهم النيطلة . وفيضا : عوضا .

ونحنُ الصِّيمُ من ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
وَأَلْ قَعَىٰ فِي الْخَطَرِ الْأَوَّاهِلِ
وسهمٌ ومُحْزومٌ تَمَالَّوْا وَأَلْبَوْا
علينا الْعِدَىٰ من كلِّ طَمَلٍ وَخَامِلٍ ^(١)
فمَهْدَةٌ مَفَافٍ أَنْتُمْ خَيْرُ قَوْمٍ
فَلَا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ وَاعِلٍ ^(٢)
امرئى لَقَدْ وَهَنْتُمْ وَهَجَزْتُمْ
وَجِئْتُمْ بِأَمْرِ تُخْطِئُهُ لِلْفَقَاصِلِ
فَإِنْ أَلَكُ قَوْمًا نَنْتَهِزُ مَا صَدَقْتُمْ
وَنَعْمَلُوهَا لِنَفْسَةٍ غَيْرِ بَاهِلٍ ^(٣)
فَابْلُغْ قَصِيًّا أَنْ سَيُنْشَرُ أَمْرُنَا
وَبَشِّرْ قُصِيًّا بِمَدَنًا بِالتَّضَاذِلِ
وَلَوْ طَرَقَتْ لَيْلًا قَصِيًّا عَظِيمَةٌ
إِذَا مَا جَاءَنَا مِنْهُمْ فِي الْمَدَاخِلِ
وَلَوْ صَدَقُوا ضَرْبًا خِلَالِ يَوْمِهِمْ
لَكُنَّا أَسَىٰ ^(٤) عِدَّةِ النِّسَاءِ الْمَهْأُفَلِ

(١) المذل : الفاشس ، وهو الاس أيضاً .

(٢) الرافل : التطفل الدخيل .

(٣) نتثر : تتأثر ، واللقحة : الناقة ذات اللبن . والباهل : الناقة التي لا صرار

على أخلائها لهم مباحة الهلب .

(٤) الأسى : جمع أسوة .

فَإِنْ تَكَ كُتُبٌ مِنْ لَوْحَةٍ صُفِّيَّةٍ^(١)
 فَلَا بُدَّ يَوْمًا مَرَّةً مِنْ تَزَائُلِ
 كُلِّ صَدِيقٍ وَابْنِ أُخْتٍ تَعُدُّهُ
 لَعَمْرِي وَجَدْنَا غَيْبَهُ غَيْرَ طَائِلِ
 سَوَى أَنْ رَفَعْنَا مِنْ كِلَابِ ابْنِ مُرَّةٍ
 بَرَّالاً إِلَى مَا مِنْ مَعْقَةٍ خَائِلِ
 وَلَعَمْرُ ابْنِ أُخْتِ الْقَوْمِ غَيْرَ مَكْتَبِ
 زَهْدٍ حُسَامًا مُفْرَدًا مِنْ حَائِلِ
 أَشْمُ مِنْ الشَّمِّ الْبَهَائِلِ يَنْتَمِي
 إِلَيْ حَسَبٍ فِي حَوْمَةِ الْجَسَدِ فَاضِلِ
 لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجْدًا بِأَحَدٍ
 وَإِخْوَتَهُ^(٢) دَأْبَ الْهَبِّ لِلْوَاوِلِ
 فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَالًا لِأَهْلِهَا
 وَزَبَدًا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّهُ^(٣) الشَّائِلِ
 فَمَنْ مِثْلُهُ فِي الدَّاسِ أَيْ مُؤَمِّلِ
 إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عَدَدَ الْفَاضِلِ
 حَكِيمٍ^(٤) رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرَ طَائِلِ
 يُوَالِي إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بِخَائِلِ

(١) أي قُرْبِيَّة .

(٢) لم يكن للرسول إخوة مما بين صنعة هذا الشعر .

(٣) المطبوعة : ذب

(٤) المطبوعة : حكيم .

فأيّده ربّه المبادر بنعمه
وأظهر ديناً حقّه غير باطل^(١)
فوالله لولا أن أجيء بسببه
نَجِرْتُ على أشياخنا في القمائل
لَسَكُنَّا أئِمَّتَهُ على كل حال
من الدهر جِدّاً غير قول التهازل
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبَ
لَدَيْنَا وَلَا يُمَنَّى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ في أرومة
تُفَعَّرُ عنها سورة المطاول
حَدِيثُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتِهِ
وَدَافَعَتْ عَنْهُ بِالْأُرى وَالْكَلاَكِلِ^(٢)



وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثر هذه القصيدة^(٣).
قال : وحدثنى من أئمتنا به قال : أفضط أهل المدينة فأنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكلوا إليه ذلك ، فصعد المنبر فاستقى ، فمالث أن جاء من المطر ما أتاه
أهل الضواحي يشكون منه الفرق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اللهم حوالينا ولا علينا » .

(١) المطبوعة : خير فاسل .

(٢) السلاكل : عظام الصدر . وترتيب القصيدة هنا مخالف لترتيب ابن هشام .

(٣) ويظهر عليه أيضاً ركاكة الصنم .

فانجباب السحابُ عن المدينة ، فصار حوالها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أذرك أبو طالب هذا اليوم لدرّهُ » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

وَأَيُّضَ يُسْتَشَقَّى الْغَامُ بِوَجْهِهِ
يَمَالُ الْيَتَامَى حَصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

قال : أَجَلٌ .

[قصيدة أبي قيس بن الأسلت]

قال ابن إسحق : فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان ، ذُكر بالمدينة ، ولم يك حى* من العرب أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذُكر وقيل أن يُذكر من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم .

فلما وقع ذكره بالمدينة وتمدّحوا بما بين قريش فيه من الاختلاف ، قال أبو قيس بن الأسلت الأوسى ، وكان يحب قريشاً وكان يقيم فيهم السنين بامرأته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي ، قصيدة يعظم فيها الحُرّة وينهى قريشاً عن الحرب ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكرهم بلاء الله عنهم ودفعه الفيل عنهم فقال :

يَا رَاكِبَا إِمَّا عَرَضْتَ فِهْلَنْ
مُفْلَنْةٌ^(١) عَنِ لَوْحَىٰ بْنِ غَالِبٍ

(١) المفْلَنْة: الداخلة إلى أقصى ما يراد بلوغه منها.

رسول امرئ قد راعه ذاتُ يَدَيْكُم
 على النَّأْيِ تَحْزُونُ بِذَلِكَ نَاصِبٌ
 وقد كان عَسَدِي لِهَيَّومٍ مُتَرَسِّمٌ
 ولم أَقْضِ ^(١) مِنْهَا حَاجَتِي وَمَأْرَبِي
 أَهْيَذَكُمُ اللَّهُ مِنْ شَرِّ صُنْعِكُم
 وَشَرِّ تَهْلُفِكُم وَدَسِّ الْقَارِبِ
 وَأَعْلَافِ أَخْلَانِي وَتَجَوُّي حَقِيْقَةٍ
 كَوْنُزِ الْأَشَافِي وَقَمْعُ حَقِّ صَائِبِ ^(٢)
 فَذَكَّرَمُ اللَّهُ أَوَّلَ وَمُفَافِ
 وَإِحْلَالِ إِحْرَامِ الظُّمَاءِ الشَّوَابِ ^(٣)
 وَقُلْ لِمُ اللَّهِ يَحْكُمُ حُكْمُهُ
 دَرَّوْا الْحَرْبَ تَذْهَبْ عَنْكُمْ فِي الرَّاحِبِ
 مَقِي تَبَيَّنَتْهَا تَبَيَّنَتْهَا ذَمِيمَةٌ
 هِيَ الْفُؤُولُ لِلْأَقْصَانِ أَوَّلِ الْأَقَارِبِ
 تُقَطِّعُ أَرْحَامًا وَتَهْلِكُ أُمَّةٌ
 وَتَبْزِي السَّيْفِ مِنْ سَقَامِهِ وَغَارِبِ ^(٤)
 فَلْيَاكُمُ وَالْحَرْبُ لَا تَفْلَحَنَّكُمْ
 وَحَوْضًا وَنَحِيمَ الْمَاءِ مُرَّ الْمَشَارِبِ

(١) ابن هشام : فلم أفس .

(٢) الْأَشَافِي : هم إشبلي ، وهي الثقب والسراد يخرز به .

(٣) الشَّوَاب : الضامرة التي تأتي من بعد للأمن فيه ، فهي شاذبة أي ضامرة من بعد

السافة ، وال المطبوعة : الهدوء . (٤) السديف : لحم الظفر .

تَزِينُ لِلْأَقْوَامِ ثُمَّ بَرَزَتْهَا
 بِعَاقِبَةٍ إِذْ تَبَيَّنَتْ أُمُّ صَاحِبِ^(١)
 تَحْرَقَ لَا تَشْوَى^(٢) ضَمِيمًا وَتَنْصَفَى
 ذَرَى الْمَرْءِ مَدَّكُمْ بِالْحَتُوفِ الْعَوَائِبِ
 أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبٍ دَاحِسٍ
 فَفَقَعْتُمْ بِرَأْسِهِ أَوْ كَانَ فِي حَرْبٍ حَاطِبٍ؟^(٣)
 وَكَمْ قَدْ أَصَابَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسَوِّدٍ
 طَوِيلَ الْعِمَادِ ضَمِيمُهُ غَيْرُ خَائِبٍ
 وَمَا هُرَيْقٌ فِي الْغَضَلِ كَأَنَّمَا
 أَذَاعَتْ بِهِ رِيحُ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
 يَحْتَرِّقُ عَنْهَا أَمْرٌ حَقٌّ هَالِكٌ
 بِأَلَمِهَا وَلِلَّهِ عِلْمُ التَّجَارِبِ

(١) أم صاحب : أى عموماً كما صاحب لك .

(٢) لا تشوى : لا تخطئ .

(٣) داحس فارس كان لئيس بن زهير بن جذيمة بن عيسى بن بغيض أجراه مع فارس لحذيفة ابن بدر بن عمرو بن زيد بن ذبيان بن بغيض يقال لها النبراء ، قدس حذيفة لوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقاً ، فجاء داحس سابقاً فضربوا وجهه ، وجاءت النبراء ، فلما جاء فارس داحس أخيراً قيساً الحمر ، فوبأ أخوه مالك بن زهير فلعن وجه النبراء ، فقام جل بن بدر فلعن مالكاً . فلو قلت الحرب بين عيسى وفارس .

وأما حرب سائب ، فهو حاطب بن الحارث بن لئيس . بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس ، كان قتل يهودياً جاراً للفرزج ، فلو قلت الحرب بين الأوس والمزرج فاقبلوا قتلاً شديداً .

فهموا الحربَ يُلْحَاحِبِ واذكروا
 حسابكم واللهُ خيرٌ مُحَاسِبِ
 ولئِ امرئٍ فاختار^(١) ديناً فلا يكن
 عليكم رفيها غيرُ ربِّ الثوابِ
 أقيموا لنا ديناً حقيقاً فأنتم
 لنا غايةٌ ، قد يُهْتَدَى بالذوابِ
 وأنتم لهذا الناسِ أوْرُ وعصاةُ
 تُؤْمِنُونَ والأحلامُ غيرُ عواذبِ
 تصونون أجساداً كراماً حقيقةً
 مَهْدَبَةٌ الأنسابِ غيرُ أشائبِ^(٢)
 ترى طالهي الحاجاتِ تَحْوُ بيووتكم
 عصائبَ هَلَكى تَهْتَدَى بعصائبِ
 لقد علم الأقبامُ أَنَّ سَرَائِمَكم
 على كلِّ حالٍ خيرُ أهلِ الجَبَابِجِ^(٣)
 فقوموا فَصَلُّوا رَبَّكُمْ وَتَسَبَّحُوا
 بَارِكَا نَ هذا البيتِ بين الأخشابِ^(٤)
 فعندكم منه بلاءٌ وَمَعْنَدُكُمْ
 غَدَاةُ أَيْ يَكْسُومَ هَدَى الكُثَائِبِ

(١) إلذاه هنا زائدة (٢) غير مختلطة .

(٣) الجبابج : جبال م .

(٤) صلوا : دعوا .

كُذِّبُوا بِالسَّهْلِ تُمْسِي وَرَجُلُهُ
 عَلَى الْقَافِظَاتِ فِي رَدْمِ
 فَلَمَّا أَتَاكُمْ نَعْرُ ذِي الْعَرْشِ رَدْمٌ
 جَدُودٌ إِلَهُ بَيْنَ سَافِرٍ وَحَاصِبٍ
 فَوَلُّوا سِرَاحًا هَارِبِينَ وَلَمْ يَتَوَّابُوا
 إِلَى قَوْمِهِ يُلْعَبُونَ غَيْرُ عَصَائِبِ
 فَإِنْ تَهَاوَسُوا نَهَلَكُ وَتَهْلِكُ عَصَائِبُ^(١)
 يُعَاشُ بِهَا ، قَوْلُ امْرِئٍ غَيْرِ كَاذِبٍ

[من أذى قريش]

ثم إن قريشا اشتد أمرهم ، للشقاء الذي أصابهم ، في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم .

فَاغْرَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ سَفَاهًا فَكَذَّبُوهُ وَأَذَوْهُ وَرَدُّوهُ بِالْأَسْوَءِ وَالسَّحَرِ
 وَالسَّكَمَانَةِ وَالْجُنُونِ .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله لا يستخفى به ، مُبَادِرٌ لَهُمْ
 بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ غَيْبِ دِينِهِمْ وَاعْتِزَالِ أَوْلِيَائِهِمْ وَفِرَاقِهِ لِإِلَهِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ .

فَخَذَّتْ حِرْوَةُ بْنُ الزَّيْبِرِ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُرَيْرِ بْنِ الْعَاصِ : مَا أَكْثَرُ
 مَا رَأَيْتَ قَرِيشًا أَصَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا كَانُوا يَظْهَرُونَهُ
 مِنْ عِدَاوَتِهِ ؟

(١) كَذَا فِي وَدِيِّ ابْنِ هِشَامٍ : مُوَاسِمٌ .

قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صَبَرْنَا عليه من أمر هذا الرجل قط أسفه أحلامنا وشتم آباءنا وحاب ديننا وفزق جماعتنا وسبب آلمتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . أو كما قالوا .

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبَيْت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول .

قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمنثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمنثلها ، فوقف ثم قال : أنتم معون لا معشر فريش ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح^(١) . قال : فأخذت القوم كلهم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقف ، حتى أن أشدهم فيه وصاة^(٢) قبل ذلك ليرفؤه^(٣) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهمولا .

قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الند اجتمعوا في الحِجْر وألأ معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكركم ما باغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه !

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل

(١) أي بالهلاك والقتل إن عصيت وكذبتم .

(٢) الوصاة : الوصية ، وهي الطوعة : وسائلا .

(٣) يرفؤه : يسكنه .

واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لذى يقول^(۱) من
غيب آلتهم . فيقول رسول الله : نعم أنا الذي أقول ذلك .

فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي
ويقول : أتقولون رجلا أن يقول رأى الله !!
ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد ما رأيتُ قريشا نالوا منه قط .

(۱) ابن هشام : لما كان يقول .

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق : حدثني رجل من أسلم ، كان واعية ، أن أبا جهل مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه ونال^(١) منه بعض ما يكره من العيب لدينه والضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومولاه لمبد الله بن جُذعان في مسكن لما نسمع ذلك .

ثم انصرف عنه فمدد إلى نادى قريش عند السكبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل معوشاً سيفه راجعاً من قنص^(٢) له ، وكان صاحب قنص يرميه ويتفرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالسكبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعزَّ فتي في قريش وأشدَّه^(٣) شكيمة .

فلما مرَّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا نحرارة لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمد آخفاً من أبي الحكم بن هشام ! وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فاخذل حمزة الغضب ، لئلا أراد الله به من كرامته ، ففرج يسى لم يقف على

(١) المنبوذة : قال . وهو خطأ .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) ابن هشام : وأشد .

أحد ، معددا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع^(١) به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به بها فشجّه شجة منكورة ، ثم قال : أنشتمه وأنا^(٢) على دينه أقول كما يقول ، فرّد ذلك على^(٣) إن اسقطت .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا محارة ، فإنّي والله قد سبّيت ابن أخيه سبّا قبيحا .

ونتمّ حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ واستمع ، وأن حمزة سيملعه ، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

[عتبة بن ربيعة يفارض الرسول]

وعن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيديا ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لله يقبل بعضها فمطليه أيّها شاء ويكفّ هذا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرّون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلّمه .

(١) المطبوعة : أن يوقع .

(٢) المطبوعة : فأنا .

فقام عتبة حتى جالس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من السُّلْطَةِ^(١) في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أنهت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسقمت به أحلامهم ، وهبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تظن فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد اسمع .

قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا تقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملوكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريئيا لا تراه ولا نستطيع ردّه من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى نُبْرِئَكَ منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه . أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب بُرِّئَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا حَرِيًّا لقوم يَتَّقُونَ . وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ عَنْهُمْ لَا يُسْمِعُونَ . وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرْ ومن بيننا وبينك حجابٌ ، طاعل لنا عاملون »^(٢) .

(١) السُّلْطَةُ : العرف .

(٢) سورة فصلت ١ - ٤ .

ومضى ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتددا عليها يستمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذالك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بنور الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أبا سميت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجملوها بي ، سخّأوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت نبا ، فإن تعصبه العرب فقد كفرتموه بفريقكم ، وإن يظهر على العرب فثلكم ملككم وعزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحره والله يا أبا الوليد بإسائه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصدموا ما بدأكم .

[قريش تفاوض الرسول]

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل ينشؤ بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتقتل من استطاعت فيقتله من المسلمين .

(١) ابن عباس : ثم مضى .

ثم إن أشراف قريش^(١) من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند
ظهور السكبة ، ثم قال بعضهم لبعض : اهدئوا لحمد فسكأوه وخاصموه حتى
تفضروا فيه .

فهموا إليه فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريراً ، وهو يظن أن
قد بدا لهم فيها كلهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يجب رشدهم ويبره
عليه عنهم .

حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لسكائك ، وإنا والله ما ندلم
رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شمت الآباء
وحيت الدين وشمت الآلهة وسفقت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بق أمر
قبيح إلا قد جئته فيها بيننا وبينك ، أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا
حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فيما فنعن نسوذك
عليها ، وإن كنت تريد ملئكاً ملئكناك عليها ، وإن كان هذا الذي يأتيك
رئياً تراه قد غاب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ، فربما كان
ذلك ، بهذا أموالنا في طلب العطب لك حتى نُبرئك منه أو نُنذر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ، ما جئت
بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملئك عليكم ، ولكن الله
بمعتي إليكم رسولا وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ،
فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو عليكم

(١) ابن هشام : نسام .

في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه على "أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .
أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابلٍ شيئاً مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بِلداً ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسرَّ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، ولييسر لنا بلادنا وليخرج لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيهم يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه [كان] شيخ صدق ففسألهم ما تقول : أحقُّ هو أم باطل ، فإن صدقوك وصدقت ما سألتك صدقك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً إلينا كما تقول .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بُعثت إليكم ، إنما جئكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه على "أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فنحن أنفسك ، سل ربك أن يبعث معك مائة يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك حِجَاباً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يفتيك بها ما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتنافس الناس كما نلتسمه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . أو كما قال .

فلان تقبلوا ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ
أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فَأَسْقِطِ السَّجَّاءَ عَلَيْهَا كَيْتَفًا كما زعمت أنّ ربك إن شاء فَعَل ،
فإنّا لا نؤمن بك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يذهب
بكم فعل .

قالوا : يا محمد فما عَلمَ ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه
ونطلب منك ما نطلب ، فتهتدم إليك فَيُهْلِكُك ما تراجعنا به ويخزيك ما هو
صانع في ذلك بنا إذ لم تقبل منك ما جئنا به ؟

إنه قد بلغنا أنّك إنما يَمْلِكُ هذا رجلٌ بالجماعة يقال له الرحمن ، وإنّا والله
لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد احتذرنا إليك يا محمد ، وإنّا والله لا نتركك ،
وما بلغت مما حقّ نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعهد للملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : إن نؤمن لك
حقّ تأتي بالله وللملائكة قهلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عهد الله بن
أمية بن المغيرة بن عهد الله بن حمر بن غزوم ، وهو ابن حمّة عاتكة بنت عهد
المطلب ، فقال له : يا محمد عَرَضَ عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك
لأنفسهم أموراً لم يعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم
تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من
الله فلم تفعل . أو كما قال له . فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً

لَمْ تَزَقْ فِيهِ وَأَنَا أَنْظُرُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمْ ، ثُمَّ تَأْتِي مَعَكَ بِصَلَاةٍ (١) أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ ، وَأَمَّا اللَّهُ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا غَلَفْتَ أَنِّي أَصْدَقُكَ .

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمح به من قومه حين دعوته ، ولما رأى من مباحثتهم إياه .

فلما قام عنهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من هيب ديننا وشدة آباءنا وآشفه أحلامنا وشتم آلنا ، وإنى أجاهد الله لأجاسن له غدا بجحر ما أطيع سخطه . أو كما قال .

فلذا سجد في صلاته فَضَعَتْ به رأسه ، فَأَسْلَمُونِي عند ذلك أو امتعنوني ، فلم يصنع بعد ذلك بدو عهد مفاف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلطك لشيء أبداً فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وَخَدَا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل ، وكان بمكة وقبيلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركعتين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل السكينة بيده وبين الشام .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل ، وقد غدت قريش يجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل

(١) ابن هشام : ثم تأتي معك أربعة .

أبو جهل الحَجَرِ ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقما لونه . وهو يا
قد يبست يداه على حَجَرِهِ حتى كُذِفَ الحجر من يده .

وقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه
لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه خيل من الإبل
لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته^(١) ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم :
أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك
جبريل ، لودنا لأخذه .

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ بن عَلَقْمَةَ بن
عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، فقال : يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم
أمر ما أنتم له بمحيطة بهد^(٢) ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم
وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم
بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة آفئهم^(٣)
وعقدهم . وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا السكينة تخالجم^(٤)
وسمعا سجعهم . قلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمعا أصفاه
كلها هزجه ورجزه . وقتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجذون فما
هو بخدفة ولا وسوسة ولا تخليطه ، يا معشر قريش انظروا في شأنكم فإنه والله
لقد نزل بكم أمر عظيم .

(١) ابن هشام : ولا مثل قصرته ، والقصرة : أصل النقي .

(٢) ابن هشام : السحرة والفتهم .

(٣) ابن هشام : وتخالجم .

[وفد قريش إلى أحبار اليهود]

فلما قال لهم ذلك النَّضْرُ بن الحارث بعثوه وبشوا معه حَقِيقَةُ بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لها : سَلَامٌ عن محمد وصِفَا لهم صفته وأخبرهم بقوله ، فإِنَّهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبرهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا !

فقاتلت لها أحبار يهود : سَأَلُوهُ عن ثلاث فأمرهم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مُرْسَلٌ ، وإن لم يفعل فالرجل مَقْعُولٌ فَرَّوْا فيه رأيكم .

سَأَلُوهُ عن رِثِيَّةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب .

وسَأَلُوهُ عن رجل سَلَوَف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نهوه ؟

وسأله عن الروح ما هو ؟

فإذا أخبركم بذلك فأنهوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوْلٌ فاصدوا في أمره ما بهذا لكم .

فأقبل النَّضْرُ بن الحارث وحقِيقَةُ بن أبي مُعَيْط حتى قدما مكة ، فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بِفَصْلِ ما بينكم وبين محمد .

أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل مَقْعُولٌ ، فَرَّوْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن تلك الأشياء فقال لهم :
أخبركم بما سألتكم عليه غدا . ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمسة
عشرة ليلة لا يتحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أزعج
أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها
لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه . وحتى أحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث
الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معانيبه إياه على حزنه
عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية^(١) والرجل الطواف والروح .

فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقد
استحييتنى يا جبريل حتى سؤت غضا . فقال له جبريل : « وما تنزل إلا
بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيئا »^(٢) .

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه
فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه
عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فماتوا على الله وتركوا
أمره عيانا ولجأوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا نسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلكم تغفلون .

أى اجهلوه لنوا وباطلا واتخذوه هزوا لعلكم تغفلوه بذلك ، فإنكم إن
ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم .

(١) ابن هشام : من أمر الله الفتية ويبدو أن لفظ الجلالة مقسم هنا .

(٢) سورة مريم ٣١ .

فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يمدحونكم في النار ويمسسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أعظم^(١) الناس عددا وكثرة ، أفيمحز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فأنزل الله في ذلك من قوله : « وما جَعَلْنَا أصحاب النار إلا ملأنا » وما جَعَلْنَا دِينَهُمْ إلا فِتْنَةً للذين كفروا ، لِيَسْتَقْبِلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ويزداد الذين آمنوا إيماناً » إلى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض جملوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلي يفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يقوله من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يسمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم أصاح يستمع له^(٢) .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : إنما نزلت هذه الآية : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغى بين ذلك سبيلاً » من أجل أولئك [الفقر]^(٣) يقول : لا تجهر بصلاتك فيفارقوا حلقك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يجب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، امله يرمي إلى بعض ما يسمع فيلتفع به .

(١) ابن هشام : أكثر .

(٢) المطبوعة : أصاح له يستمع منه . (٣) من ابن هشام .

[أول من جهر بالقرآن]

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدُ الله ابن مسعود فيما حدث به عُرْوَةُ بن الزبير قال :

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قریشُ هذا القرآن يُجهرُ لها به قط ، فن رجلٌ يُسمِعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمدونه من القوم إن أرادوه . قال : دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَمِعَنِي .

قال : ففدا ابنُ مسعود رضى الله عنه حتى أتى المقام فى الضحى ، وقریش فى أُنْدَيْتِها ، حتى قام عند المقام ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته « الرحمن ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ » قال : ثم استقبلها يقرؤها ، وتأمّلوه فجعلوا يقولون : ما قال ابنُ أمّ هانئ ؟ ثم قالوا : إنه ليهتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بَلَغَ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله أَهْوَنَ علىّ منهم الآن ، ولئن شئتُمْ لأغادرَ بَنِيهم بمثلها [غدا]^(١) قالوا : لا ، سَخِيتُكَ ، قد أسمتهم ما يكرهون .

[قریش تستمع إلى قراءة النبی]

وذكر الزهري أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من

(١) من ابن هشام .

الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم العاريق ، ففلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيكم بعض منهناسكم لأوقفتم في نفسه شيئاً .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم العاريق فقال بعضهم لبعض : مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم العاريق ، فقال بعضهم لبعض : لا يبرح حتى تتعاهد لا تعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا سفيان عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا سفيان والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأحنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا جهل ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ اتنازعتنا نحن وبني عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وسملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا^(١) على الركب وكنا كفرى رهان قالوا : ولما نهي يأتيه الوحى من السماء !

(١) تجاذبنا : ألقينا قال السهيلي : وقع في الجهرة : الجاذي : المقي على نفسه .

فحق ندرك هذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق .
فقام عنه الأخنس وتركه .

قال ابن اسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يَهْزَأُونَ بِهِ : قلوبنا في أكنة لا نفقه ما تقول ، وفي آذاننا وقْر لا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاهل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً .

فأنزل الله عليه في ذلك من قولهم : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحدهم ولوا على أذانهم ففورا » (١) .

أى كيف فهموا توحيدك ربك ، إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا وبينك وبينهم حجاباً برصهم ؟ أى أنى لم أفعل .

« نحن أقم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تنبؤون إلا رجلاً مسحوراً » (٢) .

أى ذلك ما تواصوا به من ترك ما يشترك به إليهم .

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضأوا فلا يستطيحون سبيلاً » (٣) .

(١) سورة الإسراء ، ٤٦٤٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٤٨ و ٤٧ .

أى أخطأوا المثل الذى ضربوا لك ، فلا يصيبون به هدى ولا يعتدل لهم^(١) فيه قول .

« وقالوا : أنذا كنّا عظاماً ورُفَاتَا أَيْنَا لَمَبُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا »^(٢) .

أى قد جئتَ تخبرنا أنا سنُبعث بعد موتنا إذا كنّا عظاماً ورُفَاتَا وذلك ما لا يكون .

« قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَوْفَ لَوْنُ مِنْ يَمْدُنَا ؟ قُلْ : الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »^(٣) .

أى الذى خلقكم مما تعرفون ، فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك علمه .

وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن قول الله عز وجل : « أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » ما الذى أراد الله به ؟ فقال : لاوت^(٤) .

[هدوان قریش]

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يمهسونهم ويمذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبَرَمَضَاءِ مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يقتلونهم عن دينهم ، منهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يضأب لهم ويمصمه الله منهم .

(١) المطبوعة : بهم .

(٢) سورة الإسراء : ٤٩ و ٥٠ و ٥١

(٣) أى لو كنتم الموت الذى هو كبير فى صدوركم فلا يدلكم من الفناء . وهو تفسير غامض

فكان بلال بن رباح وهو ابن سخامة لبعض بني جُهم من مولىهم ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، فكان أمية بن خلف يخرجه إذا سمع الظهيرة فيطرعه على ظهره في يطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك الهلاء : أَحَدٌ أَحَدٌ .

وكان ورقة بن نوفل يرمي به وهو يمدب بذلك وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ . فيقول : أَحَدٌ أَحَدٌ والله يا بلال ! ثم يقبل على أمية ومن يصنع ذلك به من بني جُهم فيقول : أحلف بالله لكن قتلوه على هذا لآخذنه حنانا .

أى : لآخذن قبره منسكاً^(١) ومُسْتَرْحاً ، والحنان : الرحمة^(٢) .

حق مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصدمون ذلك به فقال لأمية : ألا تفتي الله في هذا للمسكين ؟

قال : أنت الذى أنسدتَه فأفقيه . فقال أبو بكر : أفملّ ، عدى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيك به . قال : قد قبلت . قال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر ذلك ، وأخذ بلالاً فأعاقبه .

وأعاقب معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستّ رقبات ، بلال سابعهم .

عامر بن فهيرة ، وأم عُبَيْس ، وزَيْنَبَة ، فأصيب بعصا حين أعتقها ، فقالت

(١) المطبوعة : سكتنا . وهذا التفسير عن غير ابن هشام .

فريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا وبیت الله ، ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان . فردَّ الله إليها بصرها .

وأعققت التهديدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد القدار ، فزوَّجها أبو بكر وقد بعثتهما سيدهما بعلين لما وهى تقول : والله لا أعفكما أبدا . فقال أبو بكر : حيلًا^(١) يا أم فلان . فقالت : حلَّ ألت أفسدتهما فأعفهما . قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما ، وما حرَّتان ، أرجما إليها طحينها . قالوا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : أو^(٢) ذلك إن شئنا .

ومرَّ بجارية بنى مؤمل^(٣) حى من بنى عدى ، وعمر بن الخطاب يعذبها لترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، فابغهاها أبو بكر فأعفها .

وقال له أبوه أبو عصفاء : يا بنى أراك تمق رقابًا ضمافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعفقت رجالاً جُلِّدوا يعمونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبت لى إنما أريد ما أريد .

فمُتَّحَدَّث : أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »^(٤) إلى آخر السورة .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بَعَمَّار بن عامر وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام ، إذا سمعت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيهر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما يلقى : صبراً آل ياسر تذكره الجنة .

(١) أى تخلى من بينك ، وى ابن حمام : حل بالضم ، وما هنا الأصح .

(٢) ابن حمام : وذلك ، وما هنا أصح .

(٣) ط : بنى نوفل . (٤) سورة البيل .

فأما أمه فقتلوا وهي تأتي إلا الإسلام !

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُفْرى بهم ، في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل له شرفٌ ومَنعةٌ قد أسلم ألبه وأخزاه فقال : تركت دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لئسفهنَ حديثك وَلُفَّيْلَن^(١) رأيك ولضمتنَ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لأكسدتنَ تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضميماً ضربه وأغرَى به .

وقال سعيد بن جبير لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يَبْلُغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المَذاب ما يُفْذَرُونَ به في تركِ دينهم ؟

قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحداً ويمجمونه ويمطشونه حتى ما يقدر أن يسوقى جالساً من شدة الضر الذي به حتى يطيهم ما سأله من النفقة حتى يقولوا له : اللاتُ والعرى إهلك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل لير بهم فيقولون له : أهذا الجمل إهلك من دون الله ؟ فيقول : نعم . أفقداء منهم مما يبلغون من جهده .

(١) أى لضمتنه ونسفته .

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحق : فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن رحمته أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يخلصهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملسكا لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لکم فرجا مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفقة وفرارا بدينهم إلى الله .

فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رُقَيْة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عُثْمَةَ بن ربيعة معه امرأته سَهْلَةُ بنت سَهْلٍ ، والزُّبَيْر بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومُهَنَّظ بن حُمَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأبو سلمة بن عبد الأسد الخزومي معه امرأته أم سلمة ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُحْج ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطباء بن نفيل معه امرأته اهل بنت أبي حذافة ، وسهل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، ويقال : بل أبو حاطب ابن عمرو . ويقال : هو كان أول من قدمها .

وكان هؤلاء المشرة أول من خرج من المسلمين ، ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين
خرجوا بهم صفاراً أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً ، إن كان حمار بن عامر
فيهم ، وهو يشك فيه .

[ما قيل من الشعر في الحبشة]

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة أن عهد الله بن الحارث بن قيس بن هدي
ابن سعيد بن سهم ، حين أمموا بأرض الحبشة وسجدوا جوار النجاشي ، وعهدوا
الله لا يخافون على ذلك أحداً قال :

يا راکها تَلَقَّنْ عَنِّي مُفْلَلَةً^(١)

من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرئ من عباد الله مضطهد

بطن مكة مقهور ومنهون

أنا وجدنا بلاد الله واسعة

تنجي من اللد والحزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخير

ي في اللات وفئيب غير مأمون

إنّا تبمنا رسول الله وأطرحوا

قول الله وعالموا^(٢) في اللوازين

(١) أي رسالة .

(٢) طاروا : مالوا .

فاجعل عذابك بالقوم الذين بقوا
وعائذاً بك أن يغلوا فيعطفوني
وقال عهد الله بن الحارث أيضاً يذكر نقي قريش إلام من بلادهم ويمانب
بعض قومه في ذلك :

أبت كيدي لا أكذيتك فقالهم
علّ وتابه علّ أنا مل
وكيف قال معشراً أدبركم
على الحق ألا تأشبهوه^(١) بهاطل
كفتمهم مهاد الجن من سرّ أرضهم
فأضعوا على أمر شديد التلابل
فإن تك كانت في عدي أمانة
عدي بن سعد عن نقي أو أوائل
فقد كنت أرجو أن ذلك فيكم
بمعد الذي لا يطهى بالجمائل^(٢)
وبدلت شبل شبل كل ضعيفة^(٣)
بذي فجر^(٤) تأوى الضماف الأرامل
وقال عهد الله بن الحارث أيضاً :
وتلك قريش تجعد الله حقه
كما جعلت عاد ومدين والحجر

(١) تأشبهوه : تخططوه .

(٢) يطى : يستمال . والجمائل جمع حمالة وهي الرشوة .

(٣) ابن هشام : كل خبيثة .

(٤) ذو فجر : ذو عطاء كثير . وفي المطبوعة : بذي نقر وهو خطأ .

فإن أنا لم أبرق فلا يستغنى
 من الأرض برّاً ذو فضاء ولا بحر
 بأرض بها عهدُ الإله عهدُ
 أبين ما في النفس إذ يبلغ النفس^(١)
 فسمي عهدُ الله المُبرقَ ببيته الذي قال .

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه في
 إسلامه ، وكان أمية شريف قومه^(٢) في زمانه ذلك :

أتيتُ بنَ عمرو للذي جاء بِفَضَّةٍ
 ومن دونه الشَّريمان والبركُ أكتع^(٣)
 أخرجني من بطن مكة أمناً
 وأسكنني في صرح بيضاء تُقدِّع^(٤)
 ريشُ رِبَالاً لا يُوانيك ريشها
 وتقرى رِبَالاً ريشها لك أجمع
 وحاربت أقواماً كراماً أمرة
 وأهلك أقواماً بهم كنت تفرع
 سقلم إن تاهتكَ يوماً مُلَّةٌ
 وأسلمت الأوباش ما كنت تصنع

(١) النفر : البحث . تفرقت من الخبر : بحث .

(٢) ابن هشام : شريفاً في قومه .

(٣) أي عجباً للذي جاء به ، والفرمان بالكسر ثلثية شرم وهو البحر لأنه أراد البحر
 للملح والبحر والمذاب والبرك : ما اطمأن من الأرض واتسع وأكتع : تأكيد .

(٤) تقدع : تكره . وبالحال : تدفع .

وَتَيْمٌ بَنُ عَمْرٍو الَّذِي يَدْعُوهُنَّ هُوَ جَمْعُ بَنِ عَمْرٍو ، كَانَ اسْمُهُ تَيْمًا^(١) .

[وقد قرئش إلى النجاشي]

قال ابن اسحق : فلما رأت قرئش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُمِنُوا واطْمَأَنَّنُوا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَارًا وَقَرَارًا ، انْتَهَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعُثُوا فِيهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلَدَيْنِ إِلَى النُّجَاشِيِّ فَيُرْذِمَ عَلَيْهِمْ ، لِيُهَيِّجُوا فِي دِينِهِمْ وَيُخْرِجُوهُمْ^(٢) مِنْ دَارِهِمُ الَّتِي اطمأنوا بها وَأَمِنُوا فِيهَا .

فَبَعُثُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رِييْمَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَجَمْعًا لَهَا هَدَايَا لِلنُّجَاشِيِّ وَلِيُطَارِقَتْهُ ثُمَّ يَبْعُثُوا إِلَيْهِ .

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ حِينَ رَأَى ذَلِكَ [مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَا بَعُثُوا فِيهِ^(٣)] أَيْبَاتًا يَهْضُ النُّجَاشِيَّ^(٤) عَلَى حَسَنِ جَوَارِهِمُ وَالِدَفْعِ عَنْهُمْ :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ فِي الثَّنَائِي جَعَفَرُ

وَعَمْرُو وَأَعْدَاءُ الْمُسَدُّوْ الْأَقَارِبُ

وَهَلْ نَالَتْ أَفْعَالُ النُّجَاشِيِّ جَعَفَرًا^(٥)

وَأَصْحَابُهُ أَوْ عَاقَ ذَلِكَ شَاغِبُ

تَعْلَمُ أَيْتَ اللَّعْنِ أَنْكَ مَا جَدُّ

كَرِيمٌ فَلَا يَشْقَى لَدَيْكَ الْجَانِبُ

(١) ابن هشام : الذي يدعوهنَّ هُتَانٌ ، جمع ، كان اسمه تيمًا . وفيها سقط .

(٢) المطبوعة : ويخرجهم .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : أَيْبَاتًا لِلنُّجَاشِيِّ بِصْنِهِ .

(٥) الأصل : وهل نال ، وفي المطبوعة : قال . وما ذكرته من ابن هشام .

تعلّم بأن الله زادك بسطة
 وأسباب خير كلها بك لازب
 وأنت فوض ذو سبيل غزيرة
 يقال الأحادي كفمها والأقارب

وذكر ابن إسحق من حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت :
 لما نزلنا أرض الحبشة [تعف مع زوجها الأول أبي سلمة]^(١) جاونا بها خير جار
 النجاشي ، أمنا على ديننا وعهدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً انكثروا بينهم أن يمشوا إلى النجاشي رجلين منهم
 جبلة بن وائل وأن يهدوا للنجاشي هداهما مما يستظرف من معاق مكة ، وكان من
 أحجب ما يأتونه منها الأدم^(٢) ، فجمعوا له أدما كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً
 إلا أهدوا له هدية ، ثم مشوا بذلك عهد الله بن أبي ربيعة وهب بن العاصي
 [وأمرهما بأمرهم]^(٣) وقالوا لها : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تسكتا
 النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداهما ثم أسألاه أن يسلمهم إليهما كما قبل
 أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بمنزلة دار عند خير جار ،
 فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمهما^(٤) وقال لكل
 بطريق : إنه قد سوي إلى بلد الملك مداهمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم
 يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بئسنا إلى الملك
 فيهم أشرف قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فأشهروا عليه بأن يسلمهم إلينا
 ولا يكلمهم ، فإن قومهم أغلى بهم حقاً وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لها : نعم .

(١) ليست في ابن هشام .
 (٢) الأدم : اسم جمع للأدم وهو الجلد أو أحره أو اللبوغ منه . (٣) من ابن هشام .
 (٤) ابن هشام : قبل أن يكلمها النجاشي .

ثم إنهما قريبا^(١) هداياهما إلى النجاشي فقبلها ، ثم قال له : أيها الملك إنه ضوى^(٢) إلى بهلك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بسطنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم وعشائهم لندعهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عهد الله بن أبي ربيعة وعزوبن العاص من أن يسمع كلماتهم النجاشي .

فقات بطارقة : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلتهم إليها فأوردتهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ، إذا لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جارروني ونزوا بلادى واخفاروني على من سوى ، حتى أدهوم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما وردتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهن منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علينا وما أمرنا به نبيتنا كائننا في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فأنشروا مصالحهم - ربه ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي فارقت فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أسد من هذه الملل ؟

(٢) ضوى : أوى ولبأ .

(١) ابن هشام : قريبا .

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الناس ،
كننا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثى الفواحش ،
ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، وبأكل القوى من الضعيف ، فكنا
على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ،
فقدانا إلى الله لودَّحْده وتمبَّده ، ونخاع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونا من الحجارة
والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار
والسكف عن الحرام والسماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم
وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة
والزكاة والصيام . قالت : فمدَّ عليه أمور الإسلام .

فمدَّ عنه آمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، وعبدنا الله وحده فلم نشرك به
شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا وأحلَّنا ما أحلَّ لنا ، فمدَّ علينا قوماً فمذبذبونا
وفقدونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نسهل ما كنا
نستعمل من المنكرات ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا
خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نُظلم
عندك أيها الناس .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر :
نعم . قال : فاقرأه على . فقرأ عليه صدراً من « كهيمس » .

فهكى والله النجاشي حتى أخضل لحيقه ، وبكت أساقفته حتى أخذوا
مصحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشي : إن هذا الذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ،
انطلقا فوالله لا أسئلهما إليكما أبداً ولا يُكادون .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأكتبنه عنهم غداً بما أستاذل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أبقي الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عهد .

ثم خدأ عليه ، فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فسلهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، ولم ينزل بها مثلاً قط .

فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا ، كأننا في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا ، يقول : هو عهد الله ورسوله وروحه وكلده ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فغضب الفجائي بيده إلى الأرض فأخذ منها حوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : ففناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شهوم بأرض آمنون ، من سبكم قريم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، فما أحب أن لي ذبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم . ويقال ذبراً ، وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام .

رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردَّ عليَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فاطمهم فيه .

قالت : نغرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جادا به ، وأقنا عنده بخير دار مع خير جار .



قالت : فوالله إنا لتلَى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة يغازه في مُلْكِهِ .
قالت : فوالله ما علمتُنا حَزِينًا حزنًا قط كان أشدَّ علينا من حزنِ حَزِينَاهُ
عد ذلك ، تخوفنا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما عرض الثَّهْل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقمة القوم ثم يأتينا بالخير ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سبًا .

ففَضُّوا له قِرْبَةً فجعلها في صدره ثم سَبَّحَ عليها حتى خرج إلى ناحية الثَّهْلِ
لاقى بها مُلْتَقَى القوم ، ثم انطلق حتى حضرم .

قالت : فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والنسكين له في بلاده .
قالت : فوالله إنا لتلَى ذلك متوقعون لِمَا هو كائن إذ طلع علينا الزبير وهو
يسمى ، ففُتِحَ بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه
[وسكن له في بلاده] ^(١) .

(١) من ابن مهزم .

قالت : فوالله ما علمتُنا فرحاً فرحة قط مثلها .

قالت : ورجع النجاشي ، وقد أهلك الله عـدوّه ومكـنّ له في بلاده واستوسق^(١) عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهو بمكة]^(٢) .

قال الزهري : حدثتُ حروةَ بن الزبير هذا الحديث ، فقال : هل تدرون ما قوله : « ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ » مُلـسـكـي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه ؟ قال : قلت لا .

قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قوم ، ولم يكن له ولد إلا النجاشي ، وكان للنجاشي عمٌ له من صُلَبه اثنا عشر رجلاً ، وكانوا أهل بيت مملـكـة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أننا قتلنا أبا النجاشي ومـلـكـنا أخاه ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صُلَبه اثني عشر رجلاً فتوارثوا ملكه من بعده بقتل الحبشة بعده دهرًا .

فمَدَّوْا على أبي النجاشي فقتلوه وملـكـوا أخاه ، فكثروا على ذلك حينئذٍ ونشأ النجاشي مع عمه ، وكان ليهبا حازماً من الرجال ، فغاب على أمره ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه قالت بينها : والله لقد غاب هذا النقي على أمره ، وإنا نتخوف أن يملكه هليفاً ، وإن ملـكـه علينا آيـمـقـتـلـنـا أجمعين ، لقد عرف أنّنا نحن قتلنا أباه .

(١) استوسق : اجتمع .

(٢) من أين مقام .

فشوا إلى محه ، فقالوا : إما أن تقتل هذا الفق وإما أن تخرجه من بين أظهرنا ، فإننا قد خفناه على أنفسنا .

قال : ويلكم ! قتلتُ أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجته من بلادكم .

قالت : تخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستائة درهم ، ففدوه في سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحاب الخريف فخرج محه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قال : ففزعته الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحَيِّق ليس في ولده خير ، فتبرج^(١) على الحبشة أمرم ، فلما ضاق عليهم مام فيه من ذلك قال بعضهم لبعض : تمعلوا والله أن تليسكم الذي لا يقيم أمركم غيره لأذى يمتُمُ فُدُونَهُ ، فإن كان لكم بأسر الحبشة حاجة فأدركوه . قالت : تخرجوا في طلبه وطالب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه معه ، ثم جاءوا به فمقدوا عليه التاج وأقدموه على سرير الملك فليسكوه ، فجاءم العاجر الذي كانوا باعوه منه ، فقال : إما أن تعطوني مالى وإما أن أكلمه في ذلك . قالوا : لا نهطيك شيئاً . قال : إذا والله أكلمه . قالوا : فدونك .

قالت : فجاءه مجلس بين يديه ، فقال : أيها الملك ابعتْ غلاماً من قوم بالسوق بستائة درهم ، فأسلوا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا مرثُ بنلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعوني دراهمى .

قالت : فقال لهم النجاشى : لَتَمُطَّنَّ دراهمى أو ليضنَّ غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء !

(١) اضطرب واختلط .

قالوا : بل نعطيه دراهمه .

فلذلك يقول : « ما أخذ الله مني رشوة حين رد عليّ ملكي فأخذت الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطع الناس فيه » .

فالت : وكان ذلك أول ما خُبر من صلاحه في دينه وعَدْلُه في حكمه .

وعن عائشة قالت : لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

وذكر ابن إسحق أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحبشة اجتمعت ، فقالوا للنجاشي : إنك قد فارقت ديننا . وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهُيئاً لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمتُ فامضوا حتى تلحقوا بجمعت شتم ، وإن غفرتُ فاقبضوا .

ثم صد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم .

ثم جعله في قبائه عند الكنكيب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة وصُفِّوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألسنُ أحقّ الناس بكم ؟ قالوا بلى . قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بالكم ؟ قالوا : قد فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبدي . قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله . فقال النجاشي ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يرد على هذا شيئاً . وإنما يعني ما كتب .

فرضوا وانصرفوا .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما مات النجاشي صلى الله عليه واستغفر له .

• • •

قال ابن إسحاق ، ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة على قریش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّهما النجاشي بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمحنة حتى هازوا^(١) قریشاً .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قریشاً حتى صلى عند الكعبة وصافىنا معه .

وقال ابن مسعود فى رواية الهكلى^(٢) عن غير ابن إسحاق : إن إسلام عمر كان فتناً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا وما^(٣) نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، وذكر مثل ما تقدم هنا إلى آخره .

(١) هازوا قریشاً : غلبوهم .

(٢) هو : أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل البكالى المامرى الكوفى يروى عن ابن إسحق المنازى ومن الأعمش وغيرهما روى عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وقال : كان صدوقاً ، وكان السلطان وابن المين يشفقانه توفى بالكوفة سنة ١٨٣ .

(٣) ابن هشام : كنا ما .

ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

حدث عبد الله بن عامر عن أمه ، أم عبد الله بنت أبي حنيفة قالت :

والله إنا لنرحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ،
إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على ، وهو على شراكه ، قالت : وكنا نناقى
منه الهلاء أذى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه لكان إطلاق يا أم عبد الله !

فقلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، آذيعونا وقهرتمونا ، حتى يعمل
الله لنا تخرجاً ! فقال : صبركم الله ! .

ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آتفا
ورقة عليه !

قال : أحطمت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : لا يُسلم الذي رأيت حتى
يُسلم حمار الخطاب ! !

قالت : يأساً منه ليسا كان يرى منه من غلفته وقسوته عن الإسلام .

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة^(١) .

(١) وذلك في السنة الخامسة للهجرة .

قال : وكان إسلامه فيما بلغني أن أخيه فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت ،
وأسلم زوجها سعيد بن زيد ، وهم مُسْتَضْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ عَمْرٍ ، وكان نعيم بن
عبد الله النعمان من بني عدي قد أسلم^(١) ، وكان يستغني بإسلامه قَرَنًا مِنْ قَوْمِهِ ،
وكان خَبَاب بن الأَرْتِ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقْرِئُهَا الْقُرْآنَ .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفقاً
من أصحابه ، قد ذُكِرَوا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، قريباً^(٢) من
أربعين بين رجال ونساء ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حمزة ،
وأبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، ورجال من المسلمين .

فقيه نعيم فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصائغ الذي
فرَّقني أمر فريش وسفَّه أحلامها وهاب^(٣) دينها وسب آلهتها فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرَّكَ نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بني عبد مناف
تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلتم محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيته
فنتقم أمرهم .

قال : أيُّ أهل بيتي ؟ قال : حَتَّكَ^(٤) وابن عمك سعيد بن زيد وأخوك
فاطمة ، فقد والله أسلموا وتابوا محمداً على دينه ، فمهلك بهما .

فرجع عمر عائداً إلى أخيه وشقيقه ، وهندما خَبَاب معه صحيفة فيها « مله »

(١) ابن هشام : وكان نعيم بن عبد الله النعمان زجل من قومه من بني عدي بن كعب
قد أسلم .

(٢) ابن هشام : وهم قريب من .

(٣) ط : وأما ب .

(٤) التي محرَّكة : الصبر وهو التزوج إليه بنته أو أخته .

يُقرؤها إلها ، فلما سمعوا حِسَّ مر تنيَّب خَبَاب في تَخْدَع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت نِغْذها ، وقد سمع مر قرادة خَبَاب ، فلما دخل قال : ما هذه المِئِنَّة ^(١) التي سمعت ؟ قال : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنسكا تابينا عمداً على دينه .

وَبَطَش بِمَدَنِهِ سَمِيد ، فقامت إليه أخته لتكفنه عن زوجها ، فضر بها فشجعها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته : نعم أسلمنا وأما بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك !

فلما رأى مر ما بأخته من الدم وارهوى ، وقال لها : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان مر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافي ، وحلف لها باللعنة ليردنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخی ، إنك نجس على شِرْكك ، وإنه لا يمشيها إلا الطاهر . فقام مر فاغتسل ، فأعطاه الصحيفة ، وفيها « طه » فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

فلما سمع ذلك خَبَاب خرج إليه فقال : يا مر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصلك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أَدَس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحسك بن هشام ، أو بمر بن الخطاب ، فإله الله يا مر .

فقال له عند ذلك : فدُلْنِي يا خَبَاب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خَبَاب : هو في بيتٍ عدد الصفاً معه نفر من أصحابه .

(١) المِئِنَّة : الصوت الخفى .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فغظ من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف فرجع وهو يفرح فقال : يا رسول الله ، هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له فأذن له الرجل .

ونهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمحضرته^(١) أو بمجتمع ردائه ثم حبّذه حبدة شديدة .

وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنعني حتى ينزل الله بك قارعة !

فقال عمر : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده^(٢) .

قال : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

فنفروا من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيستعان رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون به من عدوهم .

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر .

* * *

(١) ابن هشام : فأخذ حبره .

(٢) ابن هشام : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده .

وقد روى غيرهم أن إسلام عمر فيها تحدثوا به عنه أنه كان يقول : كنت للإسلام مُبْأعدا وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالعزْوَرة^(١) ، فخرجتُ ليلةً أريدُ جلدائي أولئك في مجلسهم ذلك فلم أجِد فيه منهم أحداً ، فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار لعل أجِد عنده خمرأ فأشرب منها ، فجئته فلم أجده .

فقلت : لو أني جئت الكعبة فطُفْتُ بها سَبْماً أو سَمِمين^(٢) ، فجئت أريد ذلك فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل بينه وبينها الكعبة ، فكان مُصَلِّاه بين الركبتين الركن الأسود والركن اليماني ، فقلت حين رأيته : والله لو أني استعمت لحمد الليلة حتى أستمع ما يقول .

فقلت : لئن دنوت منه لأروِّعه ، فجئت من قِبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشي ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قُت في قبلته مُسْتَقْبِلُهُ ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة .

فلما سمعت القرآن رَقَّ له قلبي فهكيتُ ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حُسَيْن ، وكانت طريقه حتى يخرج^(٣) لئَلْ يَسْمَعُ ثم يَسْلُك بين دار عباس بن عبد المطلب وبين دار ابن أُرْثَر .

فقبضته حتى إذا دخل بينهما أدركته ، فلما سمع حمي عرقى ، فظن أني إنما أتبعته لأوديه فنهني^(٤) ثم قال : ما جاء بك يابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت : جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله .

(١) الخزوة : كانت سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه .

(٢) سبين : يريد تكرر الطواف حول الكعبة ، وهو سبع مرات في كل مائة .

(٣) ابن همام . حتى يجزعه . (٤) نهية : زجره .

نحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : قد هداك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعاني بالثبات . ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

قال ابن إسحق : والله أعلم أى ذلك كان .

وذكر محمد بن عهده الله بن سنجار الحافظ فى إسلام عمر رضى الله عنه زيادة لم يذكرها ابن إسحق ، فروى بإسناد له إلى شريح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فعمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أنه يجيب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : « إنا لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليل ما نؤمنون » قال : فقلت : كاهن عليم ما فى نفسى فقرأ : « ولا بقول كاهن قليل ما نذكرون » إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

قال ابن إسحق : وحدثنى نافع عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر قال : أى قريش أنقل للحدث ؟ قيل له : جميل بن مئمر الجمحى . فنادا عليه وغدير أتبع أثره أنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه فقال له : أما علمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ ! .

فوالله ما راجعته حتى قام يجر رداءه ، وأتبعه عمر ، وأتبعته أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبا .

قال : يقول عمر من خلفه : كذبت ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم

وبقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم .

قال : وطَّلَحَ^(١) ففقد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأخلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقبض مؤثري حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبا أمر . قال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمرا فإذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم ! هكذا^(٢) عن الرجل . فوالله لكانما كانوا نوبا كُشط عنه .

فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت من الرجل الذي زجر القوم منك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ جزاه الله خيرا . قال : أي بني ، ذلك العاص بن وائل السهني ، لا جزاه الله خيرا .

وهذا الدعاء عليه وله مما زاده ابن هشام عن غير ابن إسحق .

ومن بعض آل عمر قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي الناس^(٣) أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آتبه فأخبره أني قد أسلمت ، قال : قلت أبو جهل . وكان عمر ليخنة بنت هشام ابن المغيرة ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، تفرج إلى فقال : مرحبا وأهلا يا بن أختي ، ما جاء بك ؟ قلت : جئتكم أخبركم أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقته بما جاء به .

فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ! .

(١) طَّلَحَ : تَبَّ .

(٢) ابن هشام : هكذا خلوا عن الرجل .

(٣) ابن هشام : : أي أهل مكة .

وفيا رواه يونس بن بكير عن ابن إسحق^(١) أن عمر رضى الله عنه قال حين أسلم :

الحمد لله ذى المنّ الذى وجبت له علينا أياذٍ كلها غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا
وقد ظلمت أبنه الخطاب ثم هدى
وقد ندمت على ما كان من زللي
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها
فقلت أشهد أن الله خالقنا
نبي صدق أنى بالحق من نقيه
له علينا أياذٍ كلها غير
صدق الحديث نبي الله الخبير
ربى عشيّة قالوا قد صبا عمر
بظلمها حين تكلّى عندها السور
والسمع من عتيها عجلان يبتدر
تسكاد تسبقى من عبدة دُر^(٢)
وأن أحمد فينا اليوم مشتمر
وافى الأمانة ما فى عوده سور^(٣)

[كُتَابَةُ الصَّحِيفَةِ]

قال ابن إسحق : فلما رأت قریش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفسو في القبائل ، اجتمعوا وادعوا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحهم ، ولا يبيعهم شيئاً ولا يتعاهوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

(١) لم يذكر ابن هشام هذه الرواية .

(٢) ط : من غيره وهو تحريف .

(٣) ط : ما فى عوده حور بفتح الحين وسكون الواو .

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بدو هاشم وبدو للطلب إلى أبي طالب
فدخلوا معه في شِبهه [واجتمعوا إليه ^(١)] وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى
قريش فظاهروهم ، ولقي هندا بنت عتبة بن ربيعة حين طارقت قوته وظهر عليهم
قريشاً ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والعزى وطارقت
من طارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

وقال أبو طالب فيما صدقت قريش من ذلك واجتمعوا عليه :

أَلَا أَتَيْنَا عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَا لَوْيَا وَخُصَا مِنْ لُؤَيٍّ بَنِي كَعْبٍ
أَلَمْ تَمْلُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَوَسَى خُطًّا فِي أَوَّلِ السَّكْتِ
وَأَنْ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ عَصَا وَلَا خَيْرَ ^(٢) مِنْ خَصِهِ اللَّهُ بِالْعُصْبِ
وَأَنْ الَّذِي نَعْتَمُّ مِنْ كِتَابِهِمْ لَكُمْ كَائِنْ مَحْصَا كَرَاهِيَةِ النَّعْبِ ^(٣)
أَفَقُوا أَفَقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرِ الثَّرَى وَيُصْنَحَ مِنْ لَمْ يَمِنْ ذُنُوبَا كَذَى الدَّائِبِ
وَلَا تَهْبَتُوا أَمْرَ الْوَشَاةِ وَتَقْطَعُوا أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْوُدَّةِ وَالْقُرْبِ
وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْبَ عَوَاكَا وَرَبْمَا أَمْرًا عَلَى مِنْ ضَاغَةِ حَلَبِ الْعَرَبِ ^(٤)
فَلَسْنَا وَرَبَّ الْبَيْتِ نُؤْتِمُّ أَحْمَدًا لِعَزَاءٍ مِنْ حَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ
وَلَمَّا تَبَيَّنَ مَعَا وَمَسْكُ سَوَالِفَ وَأَبْدَ أَرْزَتْ بِالْقَسَاسِيَةِ الشُّهْبِ ^(٥)

(١) من ابن همام .

(٢) العباس هنا أن يكون ما بعد لا ، وإنما حذف التنوين مراعاة لأسل الكلمة لأن خيرا
معناه . أخير على وزن أفضل وحلفت الميزة تخفيفاً وأفضل لا ينصرف . . انظر الروض الألف
٢٢١/١ .

(٣) قال السهيلي : يريد ولد الناقة التي عقرها قنار ، فرقا ولها ، فصاح لردته كل
شيء له صوت ، فهلكتم تمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلاً في كل مأسكة .

(٤) اللوان : التي يكرر فيها القتال ، وحلب الحرب : وبالحا . وفي ابن همام : على
من ذلله جلب الحرب .

(٥) القساسة : السيوف ، لسببها إلى معدن حديد لبني أسد اسمه قسار الروض ٢٢١/١ .

بِمُسْتَكْرِ صَنْكٍ تَرَى كِسْرَ الْقَصَا

به والنُّسُورُ الطُّغْمُ^(١) يَمَكُنُ كَالشَّرْبِ

كَأَنَّ عَجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَانِهِ وَمَعْمَةَ الْأَهْطَالِ مَعْرَكَةُ الْحَرْبِ
أَلَيْسَ أَبُو نَا هَاشِمٌ شَدِيدٌ أَرْزَهُ وَأَوْصَى بَلْنِيهِ بِالطَّعْمَانِ وَالضَّرْبِ
وَلَسْنَا نَمَلُّ الْحَرْبَ حَتَّى نَمَلُّهَا وَلَا نَتَشَكَّى مَا قَدْ يَفُوبُ مِنَ الْفَكْبِ
وَلَكِنَّا أَهْلُ الْخَفَائِظِ وَالْتِهَى إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ السَّكَاةِ مِنَ الرُّغْبِ
فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى جَاهِدُوا لَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ إِلَّا سِرًّا ،
مُسْتَضْفِيًّا بِهِ مَنْ أَرَادَ صَلَاتَهُمْ مِنْ قَرِيشٍ .

وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ ، فِيمَا يَذْكُرُونَ ، لَقِيَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ مَعَ غُلَامٍ يَحْمِلُ
قَبْحًا يَرِيدُ بِهِ حِمْلَهُ خَدِيجَةَ وَهِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشُّعْبِ
فَتَمَلَّقَ بِهِ وَقَالَ : أَنْتَ ذَهَبُ الطَّعْمَانِ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : طَعَامٌ
كَانَ لِعَمَّتِهِ عِنْدَهُ ، أَفْتَمَعَهُ إِنْ كَانَ^(٢) يَأْتِيهَا بِطَعَامِهَا ؟ خَلَّ سَبِيلَ الرَّجُلِ .

فَأَتَى أَبُو جَهْلٍ حَتَّى نَالَ أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ ، فَأَخَذَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لَحْيَ بَعِيرٍ
فَضْرَبَ بِهِ ، فَشَجَّهُ وَوَطَّئَهُ وَطَأً شَدِيدًا ، وَحَمَزَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَرِيبَ بَرَى ذَلِكَ
وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَيَشْتَمُوا بِهِمْ .
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسِرًّا
وَجَهْرًا ، مَبَادِيًا بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَتَّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ .

[إِذَاءَ قَرِيشٍ لِلرَّسُولِ]

فَجَمِلَتْ قَرِيشٌ حِينَ مَعَهُ ، اللَّهُ مِنْهَا وَقَامَ حُمُّهُ وَقَوْمُهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
وَبَنِي الْمُطَّلِبِ دُونَهُ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا أَرَادُوا مِنَ الْبَطْلِ بِهِ ، يَهْتَرُونَ

(١) اللُّسُورُ الطُّغْمُ : سُودُ الرُّمُوسِ . وَالْمَرْبُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ الْقَوْمِ يَمْرَبُونَ :

(٢) إِنْ هَمَّامٌ : أَفْتَمَعَهُ أَنْ يَأْتِيَهَا .

ويستمزنون به ويحاصرونه وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم ، فمنهم من سئى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار .

فكان من سئى لنا من قريش من نزل فيه القرآن عنه أبو لهب وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله عز وجل حمالة الحطب لأنها^(١) كانت فيما بلغنى تحمل الشوك فطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر .

وكان أبو لهب^(٢) يقول في بعض ما يقول : يمدنى محمدٌ أشياء لا أراها يزعم أنها كائفةٌ بمد اللوت ، فإذا وُضع في بدنى بعد ذلك اثم ينفخ في يديه ويقول : تبأ لسكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد !

فأنزل الله عز وجل فيهما : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » .

قال ابن إسحق : فذكر لي أن أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر^(٣) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله بهمسرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لغيرت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة [ثم قالت^(٤)] :

(١) الأصل : أنها .

(٢) ذكر ابن إسحق قول أبي لهب هذا عند ذكر امتناعه عن دخول الشعب مع بني هاشم ، ولكن للؤلؤ رأى موشه هنا ، وهو ترتيب حسن .

(٣) الفهر : الحجر الصغير قدر ما يملؤ الكف .

(٤) من ابن هشام .

مَذْمُومًا عَصِيًّا وَأَمْرًا أَيْبِنَا

وعن غير ابن إسحق : وِدِيْقَه قَلِيْنَا .

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله أَمَا نَرَاهَا رَأَتْكَ ؟ فقال :
مَا رَأَيْتِي ، لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بِبَصَرِهَا عَنِي .

وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مَذْمُومًا ثم يَسُبُّونَهُ ،
فكان عليه السلام يقول : أَلَا تَعْجَبُونَ لِمَا صَرَفَ اللَّهُ عَنِّي مِنْ أَدَى
قَرِيْشٍ اِيسُبُّونَ وَيَهْجُونَ مَذْمُومًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ اِ

وأمية بن خلف الجُمَحِيُّ ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
هَمْزَهُ وَلَمْزَهُ ، فأنزل الله فيه : « وَبَلَّ لَكُلُّهُمْزَةً لَنُرِيَنَّكَ اِلَى آخِرِ السُّورَةِ .
والعاصُ بن وائل السهْمِيُّ ، كان خِطَابُ بن الأَرْتِ ، قد باع منه سيوفًا
عَمِلَها لَهُ وَكَانَ قَتِيْنَا بِمَكَّةَ بِغَاءَهُ بِقَاضَاهُ ، فقال له : يا خِطَابُ ، أَلَيْسَ يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ
صَاحِبِكُمْ هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَى دِينِهِ أَنْ فِي الْخِطَةِ مَا ابْتَنَى أَهْلُهَا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ
أَوْ ثِيَابٍ أَوْ خَدَمٍ ؟ قال : بَلَى . قال : فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَا خِطَابُ
حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى تِلْكَ الدَّارِ فَأَقْضِيَنَّكَ هُنَاكَ حَقَّكَ ، فوالله لَا تَكُونُ أَنْتَ
وَأَصْحَابُكَ يَا خِطَابُ آتَرَّ عِنْدَ اللَّهِ مِنِّي وَلَا أَعْظَمَ حَقًّا فِي ذَلِكَ اِ

فأنزل الله في ذلك : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ،
أُطْلِعَ الْغَيْبَ أَمْ اِئْتَمَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عِمْدًا اِ كَلَّا سَتَكُنُّ مِنَ الْمَذْمُومِينَ وَمِنْ الْمَذْمُومِينَ مَذْمُومًا ، وَتَرَى لَهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرَحًا ^(١) » .

ولقي أبو جهل ابن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يُلْفِي ، فقال له :
وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ اِ لَنَتَرَكَنَّ سَبَّ اَلْمَلْعُونِ اَوْ لَنَسِيْن اِلَهَكَ الَّذِي يَمْنُوكُ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا تَسْبُحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُحُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ^(١) » .
فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَّ عَنْ سَبِّ آلِهِمْ وَجَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ .

وَالْفَضْرِبُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ ^(٢) ، مِنْ شَيْطَانٍ قَرِيبٍ مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْصَبُ لَهُ الْعِدَاوَةَ ، وَكَانَ قَدِيمَ الْحَيَاةِ وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفَرَسِ ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا فَذَكَرَ فِيهِ بِاللَّهِ وَدَعَا فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَحَذَّرَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ الْأُمَّةَ الْخَالِيَةَ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ ، خَلَقَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَاللَّهُ بِأَمْعَشَرِ قُرَيْشٍ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ ، فَمَهْلَمْ فَأَنَا أَحَدُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ . ثُمَّ يَحْدِثُهُمْ عَنْ رِسْمِ الشَّيْطَانِ ^(٣) وَاسْتِنْدِيَارِ ^(٤) وَمُلُوكِ فَارَسَ ، ثُمَّ يَقُولُ : بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْي ؟ وَاللَّهُ بِمَا مُحَمَّدٌ بِأَحْسَنِ حَدِيثًا مِنْي ، وَمَا أَحَادِيثُهُ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَفَيْتُهَا كَمَا أَكْتَفَيْتُهَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ : « وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَفَيْتُهَا فَهِيَ تُنَمِّلُنِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٥) » وَكُلُّ مَا ذُكِرَ فِيهِ الْأَسَاطِيرُ مِنَ الْقُرْآنِ ^(٦) .
وَأَنْزَلَ أَيْضًا فِيهِ : « وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَكَلِكٍ آثِمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَمِّلُنِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُعَصِّرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَفَرَّاقَبْتُهُ بِمَذَابِ آثِمٍ ^(٧) » .

(١) سُورَةُ الْأَنْعَامِ ١٠٨ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : ابْنُ عُلْقَمَةَ بْنِ كَلْدَةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ .

(٣) ابْنُ هِشَامٍ كَمَا فِي شَرْحِ السِّيَمَةِ لِأَبِي خُرَيْسٍ : رِسْمُ الشَّيْطَانِ .

(٤) ابْنُ هِشَامٍ : اسْتِنْدِيَارُ .

(٥) سُورَةُ الْفُرْقَانِ ٦٠ ، ٦١ .

(٦) أَيْ نَزَلَ فِيهِ كُلُّ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا أَمْرُ الْأَسَاطِيرِ .

(٧) سُورَةُ الْجَانِّيَةِ ٧ ، ٨ .

وهو القائل : سَأَنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ! فَبِأَيِّ ذِكْرٍ يَنْحَرِفُونَ .
قال ابن إسحق : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بلغنى يوماً
مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في المجلس ،
وفيه غير واحد من رجال قريش .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر ، فكلّمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : « إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَحَبِّبُوا إِلَيْهِمْ آلَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهُكُمْ مَا وَدَّعَهُمْ
وَكُلَّ فِيهِمْ خَالِدِينَ ، لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ^(١) » .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزُّبَيْرُ السَّهْمِيُّ
حتى جلس ، فقال له الوليد : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب
أنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعيد من آلمتنا هذه حَصَبُ جَهَنَّمَ .

فقال ابن الزُّبَيْرِ : أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُهُ ، فَسَلُّوا عَمْدًا : أَكُلَّ
مَا يُعِيدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ ؟ فَنَعْنُ نَعِيدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْيَهُودَ
نَعِيدُ عَزْرًا وَالنَّصَارَى نَعِيدُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ .

فغضب الوليد ومن كان معه من قول ابن الزُّبَيْرِ ، ورأوا أنه
قد احتجَّ وخاصم .

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : من أحب أن يعبد
من دُونِ اللَّهِ فهو مع مَنْ عِبَدَهُ ، إِنْما يعبدون الشياطين وَمَنْ أَمَرْتُمْ بِعِبَادَتِهِ .
فأنزل الله عليه : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ مِنْهَا مُنْجَدُونَ ،
لَا يُسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ^(٢) » أَيْ عِيسَى وَعَزْرًا
وَمَنْ عُبِدُوا مِنَ الْأَحْيَارِ وَالرَّهْبَانِ الَّذِينَ مَعَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، فَاتَّخَذَهُمْ
مَنْ يَمِيدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

ونزل فيها يذكرون أنهم يعبدون لللائكة وأنها بنات الله : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عبادٌ مُسْكِرُونَ . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » إلى قوله : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيَنْجَزِ بِهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » .

وأُنزل فيها ذكر من أمر عيسى أنه يُعبد من دون الله وَتَجِبِ الْوَالِدِ وَمَنْ حَضَرَ مِنْ حِجَّتِهِ وَخَصُومَتِهِ : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَدَلًّا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » ثم قال : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ أَنشَاءَ لِحَمِلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ، وَإِنَّهٗ لَعَلِيمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(١) » . أى ما وضعت على يديه من إحياء للوتى وإبراء الأَسْقَامِ فكفى به دليلا على عِلْمِ السَّاعَةِ . يقول : « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

والأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ الثَّقَفِيُّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْقَوْمِ وَعَمَّنْ يُسْتَمْعَمُ مِنْهُ ، فَكَانَ يَصِيبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِثَ عَلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : « وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ مِمَّنْ يَنْهَازُ مِثْلًا بِمِثْمِ ^(٢) » إِلَى قَوْلِهِ « زَيْمٌ » .

وَلَمْ يَقُلْ « زَيْمٌ » لَعَيْبٍ فِي نَسَبِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ ^(٣) لَا يَعْصِبُ أَحَدًا بِنَسَبِهِ وَلَسَكَدَ حَقُّكَ بِذَلِكَ نَعْتُهُ لِيُعْرِفَ ، وَالزَّيْمُ الْمَدِيدُ لِلْقَوْمِ ^(٤) . قَالَ الشَّخْطِيمُ ^(٥) [الْمُتَمِّى] ^(٦) فِي الْجَاهِلِيَّةِ :

زَيْمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً
كَمَا زَيْدٌ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارِخِ ^(٧)

(١) سورة الزخرف ٥٧-٦١ . (٢) سورة ن ١٠-١٣ . (٣) الأصل : إِنَّ اللَّهَ .

(٤) أى القمى فيهم . (٥) قال السهيلي : الأعرف أنه لُحْسان .

(٦) من ابن همام . (٧) الأكارخ : الأطراف .

والوليد بن المغيرة ، قال : أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأُنْزِكَ وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا ، وَيُنْزَكُ أَبُو مَسْعُودٍ وَحَمْرُ بْنُ مُعْمَرٍ التَّنْفِي سَيِّدُ تَهْمِفٍ وَنَحْنُ عَظَمَاءُ قُرَيْشٍ ^(١) .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، فَمَا بَلَغَنِي : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ ؟ أَلَمْ يَنْقَسِمُوا رَحْمَةً رَبِّكَ ؟ إِنْ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتُمِعُونَ ^(٢) » .

وَأَبِي بَنَ خَلْفَ الْجُبْحَى وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُصَيْطٍ ، وَكَانَا مُتَصَافِيَيْنِ حَسَنًا مَا بَيْنَهُمَا ، فَكَانَ عَقِبَةُ بْنُ أَبِي مُصَيْطٍ قَدْ جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَمِعَ مِنْهُ ، فَهَلَعَ ذَلِكَ أَبْيَتًا فَأَتَى عَقِبَةَ فَقَالَ : أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكَ جَالِسٌ مَعَهُ ؟ وَصَمِعْتَ مِنْهُ ؟ ثُمَّ قَالَ : وَجِئْتُ مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ أَنْ أَكَلَّكَ ، وَاسْتَفْلَظْتُ مِنَ الْبَيْنِ ، إِنْ كُنْتُ جَلِسْتُ إِلَيْهِ أَوْ صَمِعْتُ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ تَأْتِهِ فَتَقَطَّلْتُ فِي وَجْهِهِ . فَفَعَلَ ذَلِكَ عَدُوُّ اللَّهِ عَقِبَةُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ : « وَيَوْمَ يَمَئِصُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَايِلًا ، لَقَدْ أَهْلَكُنِي مِنَ الدُّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ^(٣) » .

وَمَشَى أَبُو بَنَ خَلْفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَقْلَمٍ بَالٍ قَدْ ارْقَتْ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعِمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى ^(٤) ؟ ثُمَّ مَقَّتْهُ بِيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَهُ فِي الرِّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا ، ثُمَّ يَدْخُلُكَ النَّارُ .

(٢) سورة الزخرف ٢٠ - ٢٢ .

(٤) ابن هشام : بينما أرم .

(١) ابن هشام : عظماء القريش .

(٣) سورة الفرقان ٢٧ - ٢٩ .

فأنزل الله فيه : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ^(١) »

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما باقى الأسود بن العلاب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : يا محمد علم فلعمري ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشرك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه !

فأنزل الله فيهم : « قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أُعْبِدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنتُمْ تَعْبُدُونَ مَا أُعْبَدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنتُمْ تَعْبُدُونَ مَا أُعْبَدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

أى إن كنتم لا تعبدون الله ^(٢) إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم دينكم ولى دين .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله شجرة الزقوم مخوفاً بها لهم ، قال يا معشر قريش : هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عصوة يثرب بالزبد ! والله لئن استمكننا منها للنرغمكمها نرغمًا !

فأنزل الله فيه : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالثَّمَلِ يُغْلَى فِي الْبُطُونِ كَقَلْبِ الْحَمِيمِ ^(٣) »

(١) سورة يس ٧٨ - ٨٠ .

(٢) ابن هشام : لا تعبدون إلا الله . وما هنا أصح .

(٣) سورة الجاثية ٤٣ - ٤٦ .

وأنزل الله فيه : « والشجرة الملعونة في القرآن ونحوهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً »^(١)

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله يكلمه وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به ابنُ أم مكتوم الأعمى ، فسكَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجعه ، وذلك أنه شغلَّه عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثُر عليه انصرف عنه عابساً وتركه ، فأنزل الله فيه : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُرَكِّىْ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى . إِنَّمَا مِنْ اسْتَفْهِى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ، وَإِنَّمَا مِنْ جَاءَكَ بِسَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلَّا إِنهَا تَذَكِّرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي مُحْفٍ مُسْكَّرَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ »^(٢) .

أى : إنما بمشئتك بشيرا ونذيرا لم أخصَّ بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه من ابتغائه ولا تنصده^(٣) به لمن لا يريد .

[رجوع المهاجرين من الحبشة]

قال ابن إسحق : وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة فأقبلوا لتأبغهم ذلك^(٤) ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ذلك كان باطلا ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستغنيا .

وذكر موسى بن عقبة أن رجوع هؤلاء الذين رجعوا كان قبل خروج جعفر وأصحابه إلى أرض الحبشة ، وأنهم الذين خرجوا أولا قبله ثم رجعوا حين أنزل الله سورة النجم .

(٢) سورة عبس .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٤) ابن هشام : لا بلغهم في ذلك .

(٣) ابن هشام : ولا تنصدين .

قال : وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالفه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر به آلهتنا من الشتم والشر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنته ضلالتهم وكان يتمنى هدام ، فلما أنزل الله تعالى سورة « والنجم » قال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان عندها على لسانه كلمات حين ذكر الطواغيت فقال : وإنهن إن الفرائق العلى وإن شفاعتهن لى التى ترجمى .

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتهاشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين أبائه . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر « والنجم » سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً ، فرفع يده كفه تراباً فسجد عليه .

فمجب الفريقان كلاهما من اجتماعهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما المسلمون فمجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان على ألسنة المشركين .

وأما المشركون فاطمأنت نفوسهم إلى الذى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما ألقى الشيطان في أمنية الذى صلى الله عليه وسلم فسجدوا لتعظيم آلهتهم .

وفشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين ، عثمان بن مظعون وأصحابه ، وحدّثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلّوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود

الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه ، وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة .
 فأقبلوا سراً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقال عز من
 جلاله : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته
 فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي
 الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق
 بعيد ، وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخفت له قلوبهم ،
 وإن الله هادي القوم آمنوا إلى صراط مستقيم » .

فلما بين الله قضاءه فبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم
 وعداوتهم للمسلمين فاشتدوا عليهم ^(١)

فلهذا الذي ذكره ابن عقبة لم يستطع أحد من رجع من أرض الحبشة
 أن يدخل مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، كما ذكر ابن إسحق .

(١) قصة الفرائق تلك التي أوردها المؤلف - رحمه الله - موضوعة ظاهرة الاختلاف
 ويمكن أن تنقد بمجرد العقل وبديريات علم النبوة .

فأولاً : كيف يلقى الشيطان على لسان رسول معصوم كلمات مناقضة لرسائله بل هي
 ارتداد عنها ، وإذا كان مؤرخو السيرة ومنهم السكلاعي يذكرون حادثة شق الصدر وأنها
 كانت لتطهير النبي من حظ الشيطان ، فكيف يعرفون ، بإمكان تسلط الشيطان على عقل
 الرسول ولسانه ؟

ثم كيف لا يجنبه المشركون لما بعد مدح آلهتهم من ذم وهجوم في قوله : « إن هي
 إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وقوله : « إن يتبعون
 إلا الظن وما تهوى الأخرس » وما ورد بعد من نفي الصفاعة عن الأسماء نفياً طامساً في قوله :
 « وكم من ملك في السموات والأرض لا تنفى شفاعتهم شيئاً » وكيف تسرحم كتمان ثم
 لا توقفهم آيات تنمى على آلهتهم وتوجههم إلى التوحيد والإيمان .

وقد يكون محطاً أن يسجد المشركون عند ذكر آلهتهم بالمدح ولكن كيف يسجدون
 عند نهاية السورة عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » مع أنهم كانوا يرفضون السجود لله
 « ولذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم بغورا »

قال : فكان جميع من قدم مكة منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ، دخل منهم بجوار ، فيمن سمى لنا : عثمان بن مظعون الجُمَحِي ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله أبي طالب .

فأما عثمان فإنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يندو ويروح في أمان الوليد ، قال : والله إن عُذُوِي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لقصّ كبير في نفسي

فشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وقّتْ ذمتك وقد رددتْ إليك جوارك . قال : لِمَ يا بن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بنيره . قال : فانطلق إلى المسجد فرُدّ على جوارى علانية كما أجزّتك علانية .

== كذلك كيف يسمع للمعركون ما ألقى الشيطان على لسان الرسول ولا يسمع المؤمنون ؟ إن كان كذلك فالشيطان هو الذي تكلم ، مما يدخلنا في عالم الأوهام والمخترعات ثم إن الاعتماد على آية : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا نعى ألقى الشيطان في أميته » خطأ بالغ فليست الآية تحتمل هذه الرواية ولا تصالح نفسها لها أو حديثاً منها . ثم كيف لا يرتد أحد من المسلمين أو يزلزل حين يعلم أن رسوله قد مدح الأصنام وجعل لها شفاعة ؟ !

وغفر الله لعلائنا الأولين ، فلقد كانوا يخرجون أنفسهم بهذه الروايات ويحملون لها في اعتناقهم حقاً ، هو حق الذكر ، ولو كانت خرافة أو أسطورة من أخبار الأولين لما اهتممت بها ، لكننا فرية ضد الإسلام ومكر برسوله عليه السلام .

وقال السهيلي :

« وأهل الأصول يذهبون هذا الحديث بالحجة ومن صححه قال فيه أقوالاً ، منها :

أن الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه السلام لم ينطق به .

وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لعبد : ما أنتك بهذا .

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها من قبل نفسه وعن بها لللائكة أن شفاعتهم

==

لترجي .

نفرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء برذء على جوارى .
قال : صدق ، قد وجدته وثيقا كريم الجوار ، ولستنى أحببت أن لا أستجير
بغير الله .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة في مجلس ينشدم ، فجلس معهم عثمان ،
فقال لبيد :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

قال عثمان : صدقت . قال

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت ، نعم الجنة لا يزول !

قال لبيد : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليصكم فتي حدث
هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء من طارقوا دينه
فلا تجدن في نفسك منه ^(١) .

== ومنها أن النبي عليه الصلاة والسلام قالها حاكياً عن الكفار وأنهم يقولون ذلك ،
فقالها متعجباً من كفرهم .

والحديث على ما خيلت خير مقطوع بصحته »

وقال القاضي عبد الجبار في كتابه « تترية القرآن من الطاعن » ٢٤٣ :
« فإن قيل : فما المراد بقوله : « إلا إذا تقي ألقى الشيطان في أمنيته » وكيف يصح
ذلك على الأنبياء ؟ وجوابنا أن المراد إذا تلا القرآن يلحقه السهر في قراءته وذلك معروف
في اللغة ، فذلك قال بعده « فليسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » ولو كان المراد
شير ما ذكرناه من التلاوة لم يصح ذلك .

فأما ما يرويه المحضبة من أنه صلى الله عليه وسلم ذكر في قراءته أصنامهم وقال إن
الفرائق الملائكة فاستغفرتن ترجمي ، حتى فرح الكفار ، فلا أصل له ، ومثل ذلك لا يكون
إلا من دعائس للسدة » .

(١) سيرة ابن هشام : من قوله .

فرد عليه عثمان حتى شَرى أمرها ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه
فخَضَرها ^(١) والوليد بن المغيرة قريب يرى ما يبلغ من عثمان ، فقال : أما والله
يا بن أخى إن كانت عينك مما أصابها لثَنِيَّة ، لقد كنت فى ذِمَّة منيعة .
قال : بل والله إن عيني الصبيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله :
وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .
فقال له الوليد : هلم يا بن أخى إن شئت إلى جوارك ؟
فقال : لا .

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فإنه لما استجار بأبى طالب هشى إليه
رجال بنى مخزوم فقالوا : يا أبا طالب هذا مَدَّتْ مَدَا ابن أخيك محمداً ، فمالك
ولصاحبنا نعلمه منا ؟ فقال : إنه استجار بى وهو ابن أخى ، وإن أنا لم أمدح ابن
أخى لم أمدح ابن أخى . فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش والله لقد
أكثرتُم على هذا الشيخ ما تراءون توثَّبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله
لَنَذْنَبُنَّ عنه أو لَنَقُومَنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .
فقالوا : بل ننصرف عما نكره يا أبا عتبة . وكان لهم ولياً وناصراً على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبَقُوا على ذلك .

فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما قال ، ورجا أن يقوم معه فى شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يحرضه على ذلك :
وإن امرءاً أبو عَتِيقَةٍ عُمِّ لَفَى رَوْضَةٍ مَا لِنْ يَسْتَسَامِ الْمُظَالِمَا
أَقُولُ لَهُ وَأَبْنُ مِنْهُ نَصِيصَتِي أَبَا مَعْتَبِرٍ ثَبَّتْ سَوَادَكَ قَائِمَا
وَلَا تَقْبَلَنَّ الدَّهْرَ مَا عَشَتْ خَطَّةٌ نُسِبَتْ بِهَا إِنَّمَا هِطَلَتِ الْمَوَاسِمَا
وَوَلَّ سَبِيلَ الْعَجْزِ غَيْرَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّكَ لَمْ تُخْلُقْ عَلَى الْعَجْزِ لَازِمَا

(١) خضرها : ورد بها .

وحارب فإنت الحرب نصف ولن ترى

أخا الحرب يهوى اتلصفت حتى يسالما
وكيف ولم ينجوا عليك عظيمة ولم يخذوك غائما أو مفارما
جزى الله عنا عبدة شمس ونور فلا وتينا وعضوما عقوقا ومائما
بتفريقهم من بتد ودة وألقة جماعتنا كئيبا يبدلوا الحارما
كذبتم وبيت الله نذرى^(١) محمدا ولما آتوا يوما لدى الشعب قائما
[ابن الدغنة يهجر أبا بكر]

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، كما حدثت عائشة رضى الله عنها ، حين ضاقت
عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تفلأهر قريش على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الحجرة فأذن له ، فخرج مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه
ابن الدغنة ، أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد
الأحابيش^(٢) فقال : أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على . قال : لم ؟ فوالله إنك
لترين العشرة وتمين على اللوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، فارجع
فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش :
إنى قد أجزت ابن أبى قحافة فلا يترضن له أحد إلا بخير .

(١) نبى : سلب

(٢) الأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهمون بن خزيمه بن مكرمة ،
وبنو المصطلق من خزاعة ، سمو الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحابيش بأسفل مكة .

قالت : فكفوا عنه . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني مجع فكان يصلّي فيه ، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكي ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يمجّون لما يرون من هيئته ^(١) .

فشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له : إنك لم تُجر هذا ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرقّ وكانت له هيئة وكهول ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعتنا أن يفقههم ، فأنه فائمه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فشى ابن الدغنة فقال : يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

قال : أو أرد عليك جوارك وأرضي بحوار الله ؟

قال : فارد عليّ جوارى . قال : قد ردته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال : يامعشر قريش إن ابن أبي قحافة قد ردّ عليّ جوارى فشأنكم بصاحبكم .

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سقيه من سفهاء قريش وهو حامدٌ إلى السكبة ، غفا على رأسه التراب ، فرّ الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فقال أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السقيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك وهو يقول : أي ربّ ما أحلّك أي رب ما أحلّك !

[نقض الصحيفة]

قال ابن إسحق : ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تكانبت فيها قريش

على بنى هاشم وبنى المطلب نفرًا من قريش ، ولم يُبَيِّلْ أَحَدٌ فِيهَا أَحْسَنَ مِنْ
بِلَاءِ هِشَامِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حِجْلٍ ، وَذَلِكَ
أَنَّهُ كَانَ ابْنُ أَخِي نَفْثَةَ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَدَفٍ لَأُمِّهِ ، فَكَانَ هِشَامُ
ابْنُ هَاشِمٍ وَاصِلًا ، وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ ، فَكَانَ فِيهَا بِلْفَنِي يَأْتِي لَيْلًا
بِالْمِيرِ قَدْ أَوْقَرَهُ طَعَامًا ، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَهُ فِي فَمِ الشَّعْبِ ^(١) خَلَعَ خِطَامَهُ مِنْ رَأْسِهِ
ثُمَّ ضَرَبَ عَلَى جَبْهِهِ لِيَدْخُلَ ^(٢) الشَّعْبَ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْتِي ^(٣) بِهِ قَدْ أَوْقَرَهُ بُرًّا ^(٤)
فِيَمْلُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ .

ثُمَّ إِنَّهُ مَشَى إِلَى زَهْرٍ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ النَّفِيرَةِ ، وَأُمُّهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ،
فَقَالَ : يَا زَهْرُ أَرْضَيْتِ أَنْ تَأْكُلِ الطَّعَامَ وَتَلْبَسِ الثِّيَابَ وَتَسْكُحِ النِّسَاءَ ،
وَأَخَوَالِكَ حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ لَا يُبَاكُونَ وَلَا يُكْتَتَعُ مِنْهُمْ وَلَا يَنْكَحُونَ
وَلَا يُنْكَحُ إِلَيْهِمْ ، أَمَّا إِنِّي أَحْلَفُ بِاللَّهِ ، أَنْ لَوْ كَانُوا أَخَوَالَ ابْنِي الْحَكَمِ
ابْنِ هِشَامِ ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَا أَجَابَكَ إِلَيْهِ أَبَدًا .

فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا هِشَامَ ، فَمَاذَا أَصْنَعُ ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ . وَاللَّهِ لَوْ كَانَ
مَعِيَ رَجُلٌ آخَرُ لَقَمْتُ فِي نَفْثَتِهَا حَتَّى أَنْقَضَهَا . قَالَ : قَدْ وَجَدْتَ رَجُلًا .
قَالَ : مَنْ هُوَ ^(٥) ؟ قَالَ أَنَا . قَالَهُ لَهُ زَهْرٌ : أَبْنَتَا ثَالِثًا .

فَذَهَبَ إِلَى اللَّطِيمِ بْنِ عَدَى فَقَالَ لَهُ : يَا مَطْلُمُ أَرْضَيْتِ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانُ
مِنْ بَنِي عَبْدِ مَدَفٍ وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ عَلَى ذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقَرِيشٍ فِيهِ أَمَّا وَاللَّهِ لَئِنْ
أَمْكَنْتَهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدَنَّاهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ بَرِعًا . قَالَ : وَيْحَكَ فَمَاذَا أَصْنَعُ ؟

(١) ابْنُ هِشَامٍ : أَقْبَلَ بِهِ فَمِ شَعْبٍ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : فَيَدْخُلُ .

(٣) ابْنُ هِشَامٍ : ثُمَّ يَأْتِي .

(٤) وَتَرَوِي : بَرًّا بِالرَّأْيِ الْمَحْجَةِ .

(٥) ابْنُ هِشَامٍ : فَمَنْ هُوَ .

إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتَ ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال :
أبقنا ثالثاً . قال : قد فعلتُ . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال :
أبقنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البَخَرِيِّ بن هشام ، فقال له نَحْوًا مما قال للمطعم بن
عدى . فقال : وهل من أحد يدين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال :
زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وأنا معك . قال : أبقنا خامساً .

فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن الطلب بن أسد ، فكلّمه وذكر له
قرابتهم ومكانهم ^(١) . فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من
أحد ؟ قال : نعم . ثم سَمَّى له القوم .

فَاتَمَدُّوا خَطَمَ الصَّبْرُونِ ^(٢) لَيْلًا بِأَهْلِ مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا هُنَاكَ فَأَجْمَعُوا
أَسْرَهُمْ وَتَوَاصَلُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي الصَّحِيفَةِ حَتَّى يَنْقَضُوا . وقال زهير : أنا
أَبْدُوكُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَكَلَّمُ .

فلما أصبحوا غَدَوْا إِلَى أُنْدِيتِهِمْ ، وَغَدَا زَهِيرُ عَامِيهِ حُلَّةً ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ .
سَبْعًا ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَنَا كُلُّ الطَّعَامِ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ
وَبَنُو هَاشِمٍ هُنَاكِي لَا يَبْهَامُونَ وَلَا يَبْتَاعُ مِنْهُمْ إِلَّا وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ
هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةَ .

قال أبو جهل ، وكان في ناحية للمسجد : كَذَبْتَ وَاللَّهِ لَا تُشَقُّ .
قال زَمْعَةُ بن الأسود : أَنْتَ وَاللَّهِ أَكْذَبُ ، مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حِينَ
كُتِبَتْ . قال أبو البَخَرِيِّ : صَدَقَ زَمْعَةُ ، لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهِ

(١) ابن هشام : وحققهم .

(٢) خطم المجهون : مقدمه .

ولا تقرأ به . قال المُطِعم بن عدي : صدقنا وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . [و] قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضى بلبيل تشوُّور فيه بغير هذا السكان . وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، وقام للطِعم إلى الصحيفة يشقُّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .

وكان كاتب الصحيفة منصور بن حكمة ، فشلت يده فيما يزعمون .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب : يا هم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا أثبتته فيها ونقت منها القطيعة والغلام والبهتان . قال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . قال فوالله ما يدخل عليك أحدٌ . ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني كذا وكذا ، فسلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فاتهبوا من قطعتنا ، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي . قال القوم : رضينا . فتماقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع الرحط في نقض الصحيفة ما صنعوا .

قال ابن إسحق : فلما مُزقت الصحيفة وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك الذين قاموا في نقضها بمدحهم :

ألا هل أتى بجزينا صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أزوّد^(١)
فتخبرهم أن الصحيفة مُزقت وأن كل ما لم يرضه الله مُفسدٌ

(١) يريد بالبحر هنا من هاجر إلى الحبشة من المسلمين . وأرود : أرفق .

تراوحها إفاك وسحره ججمع
جزى الله رهطاً بالحبجئون تقابموا
لم يلف سحراً آخر الدهر يصعد
على ملا يهدي لحزم وبرشد^(١)
مقاوله بل م أعز وأجعد
إذا ما مشى في رفر فرغ أحرده^(٢)
شهاب بكفى قابس يتوقد
جري على جل الخطوب كانه
من الأكرمين من لؤي بن غالب
إذا سم خسف وجهه يتردد
على وجه نسق النمام وتعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد
ويبنى لأبناء العشيرة صالحاً
ألف^(٣) بهذا الصلح كل مبرل
عظيم الاسواء أمره ثم يجمد
قصوراً ما قصروا في ليلهم ثم أصبحوا
على مهل وسائر الناس رقد
ثم رجعوا سهل بن البيضاء^(٤) راضياً
ومر أبو بكر بها وعهد
مق شرك الأقوام في جل أمرنا
وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديم لا نقر ظلامه
وندر ما شئنا ولا نشدد

(١) أسقط المؤلف من القصيدة أياتاً ذكرها ابن هشام . انظر ابن هشام ٢ / ١٨ .

(٢) رفر فرغ : ما فضل منه . وأحرده بلىء للقى من لعل النرج .

(٣) ألف : أقام ولزم .

(٤) هو سهل بن وهب بن ربيعة بن حلال بن ضبة بن الحارث بن فهر والبيضاء أمه .

فيا لعمري هل لكم في نفوسكم وهل لكم فيا يحيى به غدو
فإني وإياكم كما قال قائل لَدَيْكَ الْبَيَانُ لَوْ تَكَلَّمْتَ أُسْوَدُ
أُسْوَدُ هَذَا اسم جبل كان قُتِلَ فِيهِ قَتِيلٌ لَمْ يَعْرِفْ قَاتِلَهُ ، فَقَالَ أَوْلِيَاءُ الْقَتُولِ
هَذِهِ الْمَقَالَةُ ، يَعْنُونَ بِهَا أَنَّ الْجَبَلَ لَوْ تَكَلَّمَ لَأَبَانَ عَنِ الْقَاتِلِ وَلَعَرَفَ بِالْجَنَانِ ،
وَلَكِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ ، فَذَهَبَتْ مَقَالَتُهُمْ تِلْكَ مِثْلًا .

[حَدِيثُ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرِو الدُّوسِيِّ]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَكَانَ ^(١) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا بَرَى مِنْ
قَوْمِهِ يَهْذُلُ لَهُمُ اللَّصِيصَةَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّجَاةِ مِمَّا فِيهِ ، وَجَمَلَتْ قَرِيشٌ حِينَ
مَدَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ يَحْذَرُونَهُ النَّاسَ وَمَنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ .

فَكَانَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرِو الدُّوسِيِّ [وَكَانَ رَجُلًا شَرِيفًا شَاهِرًا لَهِيْبًا] ^(٢)
يَحْذَرُ أَنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا ، فَشَى إِلَيْهِ رَجُلٌ
مِنْ قَرِيشٍ فَقَالُوا لَهُ : يَا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا ، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ
أَعْظُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بَنَانًا ، فَرَقَّ جَمَاعَتُنَا وَشَقَّتْ أَمْرَنَا ، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسَّحَرِ يَفْرُقُ
[بِهِ] ^(٣) بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ
زَوْجَتِهِ ، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا ، فَلَا تَكَلِّمْهُ
وَلَا تَسْمَعْ مِنْهُ ^(٤) .

قَالَ : فَوَاقَهُ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجَعْتُ أَنْ لَا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أَكَلُهُ ،

(١) ابْنُ هِشَامٍ : وَكَانَ

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : وَكَانَ الطُّفَيْلُ .

(٣) لَيْسَتْ لِي ابْنُ هِشَامٍ .

(٤) ابْنُ هِشَامٍ : وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئًا .

حتى حشوتُ في أذنيَّ حين غدتُ إلى المسجد كَرُشَمًا^(١) قَرَفًا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : ففدرت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند السكبة ، فقممت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يُسمعنى بعض قوله ، فسممت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : وائسكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر وما يعني عليّ الحسن من التبيح ، فما يعني أن أسمع من هذا الرجل [ما يقول]^(٢) ، فإن كان الذي بآني به حسناً قَبِلْتُهُ ، وإن كان قبيحاً تركته .

فكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لكذا وكذا [للذي قالوا]^(٣) ، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددتُ أذنيَّ بكرُشَمٍ لثلاث أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسمعنى [قولك]^(٤) فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك .

فعرض عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسنَ منه ولا أمراً أعدلَ منه ، فأسلت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام فادع الله أن يعمل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أَدْعُوهم إليه . فقال اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت على ثَنِيَّةٍ^(٥) تطلعتُ على الحاضر

(١) الكرشف : القطن .

(٢) من ابن هشام .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : بثنية . والثنية : الفرجة بين الجبلين .

وقع نور بين عينيَّ مثلُ الصباح . قلت : اللهم في غير وجهي ، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثَلَّةٌ وقعت في وجهي لفراق دينهم . قال : فتحوّل فوقه في رأس سوطي ، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك النورَ في سوطي كالقندبل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جثتهم .

فلما نزلتُ أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عني يا أبت فلستُ منك ولستُ مني . قال : لمَ يا بني ؟ قلت : أسلمتُ وتابعت دينَ محمد . قال : أي بني فديني دينك . فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعال حتى أحملك ما علمت . فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم جاء فمرضتُ عليه الإسلام فأسلم

ثم أتني صاحبي فقلت لها : إليك عني فلستُ منك ولستُ مني . قالت : لمَ بأبي أنت وأمي ؟ قلت : فرّق بيني وبينك الإسلام وتابعت دينَ محمد . قالت : فديني دينك . قلت : فاذهبي إلى حمّاذي الشرى . — قال ابن هشام : ويقال يحيى ذى الشرى — فطهرى منه ، وكان ذو الشرى صنبا لدوس وإيلخا^(١) يحيى سمّوه له ، به وشل^(٢) من ماء يهبط من جبل . فقالت : بأبي أنت وأمي ، انخشي على الصنبة من ذى الشرى شيئاً ؟ قلت : لا أنا ضامن لذلك . فذهبتُ فاغتسلتُ ثم عادت فمرضتُ عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوتُ دوساً إلى الإسلام فأبطلوا ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقلت : يا نبي الله إنه غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهْدِ دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم وارق بهم .

(١) ابن هشام : والحي .

(٢) الرشل : القليل .

فلم أزل بأرض دوس أدعوم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأُحُد والخندق ، ثم قَدِمْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن مَي من قومي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فأَسَمَهُمْ لنا مع المسلمين .

ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فُتِحَ الله عليه مكة قلت : يا رسول الله ابعثنِي إلى ذِي الكُفَّينَ ضمِرَ عمرو بنِ حُحَمَةَ حتى أحرقه .

قال ابن إسحق : فخرج إليه فجعل وهو يوقد عليه النار يقول :

يا ذَا الكُفَّينِ ^(١) لستُ مِنْ عِبَادِكَ

مِلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِلَادِكَ

أنا ^(٢) حَشَوْتُ النَّارَ فِي فَوَادِكَ

ثم رجع ، فكان بالمدينة حتى قبض الله رسوله ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فصار معهم حتى فرغوا من طَلِيعَةِ ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن طَقِيل فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه : إني قد رأيتُ رؤيا فاعبروها لي . رأيتُ أن رأسي حُلِقَ ، وأنه خرج من في طائر ، وأنه لقيتُ امرأة فادخلتني في فرجها وأرى ابني يَطْلُبُنِي طلبًا حثيثًا ثم [رأيتُه] ^(٣) حُبَسَ عني .

قالوا : خير ؟ قال : أما أنا فقد أولَّتها . قالوا : ماذا ؟ قال : أما حُلِقَ رأسي فَوَضَعُهُ ، وأما الطائر الذي خرج من في فروحي ، وأما المرأة التي

(١) الكفّين : أسله بالتهديد لطيف للضرورة .

(٢) ابن هشام : إني .

(٣) من ابن هشام .

أدخلني في فرجها فالأرض تُخَفَّر لي فأغيب فيها ، وأما طلبُ ابني إلهي
ثم حبسُهُ عنى فإني أراه سيجتهدُ أن يصيبه ما أصابني .

فقتل رحمه الله شهيداً باليامة ، وجرح ابنه جراحة شديدة ثم استقل^(١)
منها ثم قتل عامَ اليرموك في زمن عمر شهيداً .

[أعشى قيس]

وذكر ابن هشام أن أعشى بن قيس بن ثعلبة خرج إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وقال قصيدة يمدحه فيها ، نذكرها بعد .
فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله
عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليسلم .
فقال له : يا أبا بصير إنه يحرّم الزنا . فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى
فيه من أرب . فقال : يا أبا بصير : فإنه يحرّم الخمر . فقال : أما هذه
فوالله إن في النفس منها كملاآت ، ولكنى منصرف فأترؤى منها عاى
هذا ثم آتته فأسلم .

فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
هذا ما ذكر ابن هشام في قصة الأعشى ، وظاهره يقتضى أن قصده كان
إلى مكة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حينئذ لم يهاجر بعدُ .

ويعارض هذا الظاهر ما ذكر من تحريم الخمر ، فإن أهل النقل مجمعون
على أن الخمر إنما حُرمت بالمدينة بعد أن مضى بدر وأحد ونزل تحريمها في
سورة اللائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن ، فإن صحَّ أن خروج الأعشى
كان قبل الهجرة كما في ظاهر الخبر فلمسل للمشرك الذى لقيه وأخبره عن

(١) ابن هشام : استقبل . والله اعلم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم الخمر ، أراد بهذا القول تنفيذه عن الإسلام وإبعاده عنه ، مع ما كان من كراهية رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً للخمر وتنزيه الله إياه عنها .

الآتراء ليلة الإسراء لما عُرِضَتْ عليه آتية الخمر واللبن اختار اللبن فقيل له هُدَيْتَ للفطرة ، لو أخذت الخمر غَوَتْ أمتك . والإسراء إنما كان بمكة في صدر الإسلام .

وقد يمكن أن يكون قصد الأعشى إلى المدينة بعد الهجرة وبعد تحريم الخمر فتلقاء بعض المشركين من قريش ممن لم يكن أسلم بعد .

ولعل هذا هو الأولى بدليل قوله في قصيدته الآتية بمد :

ألا أبهذا السائل أين يَمْتَمْتُ فإن لما في أهل يَثْرَبَ مَوْعِدَا
والله أعلم بالحقيقة في ذلك كله .

والقصيدة التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

ألم تنقمض عينك ليلة أُرْمَدَا وَبِتْ كَا بَات السليمُ مُسَهَّدَا
وما ذاك من عِشْقٍ للنساء وإنما تناسيتَ قبل اليوم خَلَّةَ مَهْدَدَا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ إذا أصلحت كَفَايَ حَادَ فَأُسَدَا
كهولاً وشباناً فقدتُ وِثْرَةً فله هذا الدهرُ كيف تَرَدَّدَا
وما زلتُ أبني المالَ مُذْ أَنَا يَافِعُ وليدَا وَكَهْلَا حين شَبْتُ وَأُمَرَدَا
وأهْدِلُ العيسَ الرَاقِلَ تَمَعْلَى مسافة ما بين النَجِيرِ فَصَرَحَدَا^(١)
ألا أبهذا السائل أين يَمْتَمْتُ فإن لما في أهل يَثْرَبَ مَوْعِدَا
فإن تسألني عني فإيا رُبَّ سَائِلٍ حَفِيٌّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصَدَدَا

(١) الراقيل : السرعة . والنجير وصرخد موضعان باليمن والجزيرة .

أَجَدْتُ بِرَجُلِيهَا النَّجَاءَ وَرَاجَعْتُ بِدَاهَا خِفَافًا لَيْثًا غَيْرَ أُحْرَدٍ^(١)
وَفِيهَا إِذَا مَا هَجَرْتُ عَجْرَتِيَّةً إِذَا خِلْتُ حِرْبَاءَ الظُّهيرةِ أَصِيدُ^(٢)
وَأَكَلْتُ لَا أَوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقٍّ حَقٍّ تَلَاوِي مُحَمَّدَا
حَقٍّ مَا تَنَاقَى عَسَدَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تَرَاوِي وَتَلَقَّى مِنْ قَوَاضِيهِ لَدَا
لَيْثًا يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي^(٣) فِي الْبِلَادِ وَأَنْجِدَا
لَهُ صَدَقَاتٍ مَا تَقْبِي وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَةً غَدَا
أَجَدَّكَ كَمْ تَسْمَعُ وَصَاةَ عُمْدٍ نَهَى الْإِلَهَ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُكِّلِي بَزَادٍ مِنَ الثَّقَى وَلَا نَهَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
لَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَذَلَا فَتَرِيدَ الْمَوْتَ الَّذِي كَانَ أَرْضَعَدَا
فِيهَاكَ وَالْمَيَاتِ لَا تَقْرَبُهَا وَلَا تَأْخُذْنَ سَهْمًا حَبِيدًا لِقَعِيدَا
وَذَا النُّصْبُ لِلنُّصُوبِ لَا تَنْسُكُنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا^(٤)
وَلَا تَقْرَبِي حَرَّةً كَانَ سِرُّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكُحِي أَوْ تَأْبُدَا
وَذَا الرَّحِمَ الْقَرِيبَى فَلَا تَقْطَعْنَهُ لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرَةَ لِلْقَيْدَا
وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاحْمِدَا
وَلَا تَسْخَرِي مِنَ بَاسِ ذِي ضَرَارَةٍ وَلَا تَحْسِنِي اللَّالَ لِلْعَرْدِ تُخْلِدَا

- (١) الخفاف : أن تلوى يديها في السير من النشاط . والأحرد : الذي ينتقل في السير .
(٢) هجرت : أي سارت في الهجرة وهي حدة الحر ، والجريفة : نسبة إلى الهجرة في السير والحرياء : حويبة يدور بوجهه مع الشمس حيث دارت . والأسيد : مائل العنق .
(٣) قال ابن دريد : وغار الرجل في غور تهامة ، إذا دخله ، ولا يقال أغار ، فإنه خطأ ، قال الأصمعي : بي يرى ما لا ترون وذكره . لمعري : غار في البلاد وأنجدا . ومن روى : « أغار لسرى » فقد لمن وأخطأ . الاعتقاق / ١٨ .
(٤) أصله : فاعبد بالنون الخفيفة فوقف عليها بالالف ، وكذا لما يأتي من الأفعال .
(م ٢٤ - الأكتفا)

[مع أبي جهل وركانة]

قال ابن إسحق : وقد كان عدو الله أبو جهل [بن هشام ^(١)] مع عداوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُغضه إليه وشدة عليه يذله الله له إذا رآه .

حدثني عهد للثلاث بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية قال :
قدم رجل من إراش بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل فطله بأثمانها ،
فأقبل الإراشي حتى وقف على نادر من قریش ورسول الله صلى الله عليه وسلم .
جالس في ناحية المسجد ، فقال : يا معشر قریش ، من رجل يؤذيني ^(٢)
على أبي الحكم بن هشام ، فإني غريب ابن سبيل وقد غلبني على حق .

فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل ؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
يهازون به لئلا يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه
فهو يؤذيك عليه .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قبلك وأنا غريب ابن سبيل ،
وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤذيني عليه ، يأخذني على حق منه ، فأشاروا لي
إليك فخذني حتى منه يرحمك الله .

قال : انطلق إلىه . وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه
قام معه قالوا الرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ما يصنع .

قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه باه -
فقال : من هذا ؟ فقال : محمد ، فأخرج إلى . فخرج إليه وما في وجهه من راحة -
لقد انتقم لونه ، فقال : أعط هذا حقه . قال : نعم لا يبرح حتى أعطيه الذي له .

(١) من ابن هشام .

(٢) يؤذيني : يسيئ .

فدخل نفرج إليه بحقه فدفنه إليه ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاء الله خيراً ، فقد والله أخذ لي حتى .

وجاء الرجل الذي بهنوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟

قال : محباً من المصحب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه نفرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم ، لا يبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل نفرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صعدت قط .

قال : ويحك ! والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعتُ صوته فلتفت رعباً ، ثم خرجتُ إليه وإن فوق رأسه لفعل من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته^(١) ولا أنباه لفعل قط ، والله لو أبقيتُ لأكلني .

وذكر الواقدي عن يزيد بن رومان قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بني زبيد يقول : يا مشر قریش كيف تدخل عليكم السادة أو يُجئلب إليكم جلب أو يُجئل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم . يقف على الخلق خلقاً حلقه .

حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن ظلمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجال كانت خيرة إليه ، فسامه أبو جهل ثلث أمانها ثم لم يسمه بها لأجله سام ، قال : فأكرسته عليّ سلمتي وظلمني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين أجمالك ؟ قال : هي هذه بالحزرة .

(١) القصرة : أسل العنق .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم معه وقام أصحابه ، فنفظر إلى الجلال فرأى جمالا فزها . فساوم الزبيدي حتى ألقاه برضاه ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم قباج جهلين منها بالثمن ، وأفضل بهيرا باعه وأعطى أراملا بنى عهد الطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم .
ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حمرؤ إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فترى منى ما تكره . فجعل يقول : لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليه أمية بن خلف ومن حضر من القوم ، فقالوا : ذللت في يدي محمد ، فلما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعب دخلك معه . قال : لا أنهمه أبداً ، إن الذي رأيتم منى لمّا رأيتم معه ، لقد رأيتم رجلا من يمينه وشماله معهم رماح يشراعونها إلى ، لو خالفته لسكانت إياها . أى لأنوا على نفسى .

وذكر محمد بن إسحق عن أبيه قال : كان رُكّانة بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب أشدّ قريش ، فتحلّا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة ، فقال له : باركّانة ألا تتقى الله وتقبل ما أَدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أن الذى تقول حق لا تبعثك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرأيت إن صرعتك أنعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى أصارعك . فقام إليه رُكّانة فصارعه ^(١) ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه لا يملك من نفسه شيئا .

ثم قال : حدّ يا محمد . فعاد فصّره . فقال : يا محمد إن ذا للمعجب أنصرعنى !! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى .

(١) ابن هشام : يصارعه .

قال : ما هو ؟ قال : أدمو لك هذه الشجرة التي ترى فتأنيثي . قال : ادمها . فدعا بها ، فأقبلت حتى وقعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لما : ارجعي إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها .

فذهب ركاة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أشعر منه قط . ثم أخبرهم بالذي رأى وصنع^(١) .

* * *

قال ابن إسحق : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة مشرون رجلا أو قريئاً من ذلك من النصارى ، يقال إنهم من أهل نجران ، حين بلغهم خبره من الحبشة .

فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه واكلوه وسألوه ، وأرجال من قريش في أندية حول السكبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا [القرآن]^(٢) غاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركبكم بمسكن من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخير الرجل ، فلم نعلمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ! ما نعلم ركباً أحق منكم . أو كما قالوا .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاء لعلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

(١) ابن هشام : واثني سنه .

(٢) من ابن هشام .

فَيَقَالُ اللَّهُ أَعْلَمُ : فِيهِمْ نَزَلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ثُمَّ بِهِ يُوَسِّتُونَ ، وَإِذَا بُتِغِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ إِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يَتُوبُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

وَإِذَا سَمِعُوا الْقَوَاغِرَ ضَوْأً عَنْهُ وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْغَى الْجَاهِلِينَ ^(١) » .

قَالَ : وَقَدْ سَأَلْتُ ابْنَ [شِهَابٍ] ^(٢) [الزَّهْرِيَّ] فَقَالَ : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ مِنْ عُلَمَائِنَا أَنَّهُمْ نَزَلْنَ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ . وَالْآيَاتُ مِنَ الْمَائِدَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنْ نَصَارَى ، ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُفْهَاتًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيقُ مِنَ الدَّمْعِ يَمَّاءَ عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ^(٣) » .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ لَجَسَ إِلَيْهِ الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، خَتَّابٌ وَحَمَارٌ وَأَبُو فُكَيْهٍ يَسَارٌ وَصُهَيْبٌ وَأَشْبَاهُهُمْ هَزَّزْتُ بِهِمْ قَرِيشٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : هَؤُلَاءِ أَصْحَابُهُ كَمَا نَرُونَ ، أَهَؤُلَاءِ مَنْ أَلَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بِالْمَدِينَةِ وَالْحَقُّ أَلَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا هَؤُلَاءَ إِلَيْهِ وَمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ دُونََنَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالشَّجَرِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ

(١) سورة القصص ٥٧ — ٥٥ .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة المائدة ٨٢ ، ٨٣ .

مِنْ شَيْءٍ ، فَتَعَارَفَ مِنْهُمْ فَكَوْنُ مِنَ الظَّالِمِينَ . وكذلك فَنُنَّا بِمَعْضُ بَعْضٍ
يَقُولُوا : أَهْوَاءُ مَنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ،
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ حَمَلَ مَسْئَلَةً سِوَاكُمْ بِمَهَالِكٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) .

وهؤلاء أيضاً ومن قال بقولهم هم الذين عَنِ اللَّهِ سبحانه بقوله : « وقال الذين
كفروا للذين آمنوا لو كان خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ
هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ^(٢) » .

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بلغني كثيراً
ما يحاس عند المرأة إلى متبعة غلام نصراني يقال له جَبْرٌ ، تَبَدَّلَ لَهَا الْخَضِرَى ،
وَكَانُوا يَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا يَلْمُ مُحَمَّدًا كَثِيرًا مِمَّا يَأْتِي بِهِ إِلَّا جَبْرٌ لِلنَّصْرَانِي ، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ : « وَلَقَدْ تَمَلَّكُمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يَلْمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ^(٣) » .

وكان العاصم بن وائل إذا ذَكَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
دَعَاؤُهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أَبْتَرُ ، لَوْ قَدْ مَاتَ لَقَدْ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ فَاسْتَرْحَمَ مِنْهُ ،
فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَانْحَرِ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أَيْ أَعْطَيْنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .
وَالْكَوْثَرُ الْعَظِيمُ . وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ
اللَّهُ ؟ قَالَ : نَهْرٌ كَأَنَّ بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى أَيْلَةَ آتَيْتَهُ كَعَدَدِ نَحْوِ السَّمَاءِ تَرِدُهُ طَيْرُهَا

(١) سورة الأنعام ٥٢ — ٥٤ .

(٢) سورة الأحقاف ١١ .

(٣) سورة النحل ١٠٣ .

أعناق كأعناق الإبل . قال عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لناعمة .
قال : آكلها أنتم منها .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام ، فقال له زمنة بن
الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يفيث وأبي بن خاف والعماس بن
واثل : لو جئنا معك يا محمد مَلَكٌ يحدث عنك الناس ويرى معك ؟ فأنزل الله
في ذلك : « وقالوا لولا أنزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا ملكاً لَقُضِيَ الأمرُ
نم لا يُنظَرُون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ولَلَّابَسْنَا عليهم
ما يلبسون^(١) » .

ومرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوليد بن المغيرة وأميمة بن خلف
وأبي جهل ، فهمزوه واستمزوا به ، فغافله ذلك ، فأنزل الله عليه : « ولقد
استمزي برُسُلٍ من قبلك لَخَاقِقٌ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَمْزِفُونَ^(٢) » :

(١) سورة الأنعام ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الأنعام ١٠ .

ذكرُ الحديث عن مَسْرَى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحق : ثم أُسْرِيَ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها .

فكان من الحديث فيما بلغني عن مَسْرَاهُ صلوات الله عليه وسلامه عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية بن أبي سفيان وأم هانئ بنت أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم ما اجتمع في هذا الحديث ، كلٌّ يحدث عنه بعض ما ذكر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُسْرِيَ به صلى الله عليه وسلم .

وكان في مَسْرَاهُ وما ذكر عنه بلائاً ونحيباً وأمرٌ من الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولي الألباب وهُدًى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق .

(١) لم يذكر ابن إسحق مُهدياً للسنة التي وقع فيها الإسراء ، وقد تعرض لذلك ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ١٠٨ فقال : « ذكر ابن عساكر أحاديث الإسراء في أوائل البقرة ، وأما ابن إسحق فذكرها في هذا الموطن ، بعد البقرة بنحو من عشرين . وروى البيهقي عن طريق موسى بن عتبة عن الزهري أنه قال : « أُسْرِيَ رسول الله (ص) قبل خروجه إلى المدينة بسنة .. ثم روى الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط ابن نصر عن إسماعيل السدي أنه قال : فرض على رسول الله ص الحنس ببيت المقدس ليلة أُسْرِيَ به قبل مهاجره بستة عشر شهراً . فعل قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة . وحتى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول .. ثم ذكر عن جابر وابن عباس قالا : وقد رسول الله (ص) عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وفيه بمث وفيه هرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وفيه انقطاع . ثم ذكر أن المقدسي أورد حديثاً لا يصح سنده أن الاسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب ، والله أعلم » .

وكان من أمر الله على يقين ، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد .

فكان عید الله بن مسعود فيها بلغى عنه يقول أتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالبَرَقِ ، وهى الدابة التي كانت تُحمَل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرهما في منتهى طرفها ، فحُمِل عليه^(١) ، ثم خرج به صاحبه برى الآيات فيما بين السموات والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء عليهم السلام قد جموا له ، فصلّى بهم ثم أتى بثلاثة آنية ، إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، قال : فسمعت قائلا يقول : إن أخذ الماء ففرق^(٢) وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر ففوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هُدِي وهُدِيَت أمته . قال : فأخذت إناء اللبن فشربتُ ، فقال له جبريل : هُدِيَت وهُدِيَت أمتك يا محمد .

قال : وسُئِلت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينما أنا نائم في الحِجْر^(٣) جاءني جبريل فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فمددت لمضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فمددت لمضجعي الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بمضدي ، فقامت معه فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين الينبل والحمار ، في نغذية جناحان يحمزان^(٤) بهما رجليه ، يضع يديه في منتهى طرفه ، فحملني عليه ثم خرج معي لا أقوتني ولا أقوته .

(١) ابن هشام : عليها .

(٢) ابن هشام : فرق .. فوى .

(٣) ابن هشام : إذ جاءني

(٤) أى يدفع .

وفي حديث قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما دنوت منه لأركبه شمس^(١) فوضع جبريل يده على معرفته^(٢) ثم قال : ألا تستحي يا براق مما تصنع ! فوالله ما ركبت عبد الله قبل محمد أكرم عليه منه . فاستحيأ حتى ارفض عرقاً ثم قرأ حتى ركبته .

وفي حديث الحسن من انتهاء جبريل بالذي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وإمامته فيه بمن وجده عنده من الأنبياء ، على جميعهم السلام ، نحو ما تقدم من ذلك في حديث ابن مسعود .

قال : ثم أتى بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، فأخذ إناء الالبن وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هديت للفطرة وهديت أمك وحرمات عليكم الخمر .

وذكر تحريم الخمر هنا غريب جداً ، والذي عليه العلماء أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد سدين من الهجرة .

قال الحسن : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الإمر^(٣) النبئ ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مذبرة وشهرا مقبلة ، أنيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة !

قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر ، فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه جاء هذه الليلة بيتاً للقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس .

(١) شمس : امتنع ولم يمكن أحدا من ظهره .

(٢) المعرفة : اللحم الذي يلبت عليه شعر العرف .

(٣) الإمر : العجيب المنكر .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يمجِّبكم من ذلك ؟
فوالله إنه ليخبرني أن الخليل ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار
فأصدقُه ، فهذا أبعدُ مما تمجِّبون معه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله
أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال . يا نبي الله
فصِّفه لي فإني قد جئتُه .

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لي حتى نظرتُ إليه .
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصِفُه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقتَ
أشهد أنك رسول الله . كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقتَ أشهد أنك رسول الله .
حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت
يا أبا بكر الصديق . فيومئذ سماء الصديق .

قال الحسن : وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا
التي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ونحوَ فهم فما يزيدهم
إلا طغياناً كبيراً ^(١) .

فهذا حديث الحسن عن مسرِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دخل
فيه من حديث قتادة .

قال ابن إسحق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول :
ما قدِّد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أمرى بروحه .
وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرِّى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

فلم يُنكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت في ذلك ، قول الله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ولقوله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لأبيه « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ^(١) » ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تمام عيني وقلبي يقظان .
فإنه أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاب فيه ما عاب من أمر الله ، على أي حاله كان نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق ^(٢) .

وزعم الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة ، صلوات الله على جميعهم ، فقال :

أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ،
وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جند أقي ^(٣) كأنه من رجال شثورة ،

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

(٢) هذه التسوية من ابن إسحق بين كلا الرأيين عجيب جداً ، فإن مذهب جمهور السلف والخلف أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه ، فلو كان مناماً لما بدر كفار قرش إلى التكذيب به واستعباده إذ ليس في ذلك كبير أمر ، فدل على أنه أخرجه بأنه أسرى به بظلة لا مناماً ، والقرآن قال : « سبحانه الذي أسرى بعبده » فالعبء عبارة عن الروح والجسد ، وكذلك التسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة المخارقة .

قال ابن كثير : وقد توفى ابن إسحق في ذلك وجوز كلا الأمرين من حيث الجملة ، وأمكن الذي لا يشك فيه ولا يتأخر أنه كان يقظان لا محالة . وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده صل الله عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناماً ، كما فهمه ابن إسحق ، بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم . . .

ثم قال : « ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له بظلة منام قبله ، ليكون ذلك من باب الإرحاس والتوطئة والثبوت والإنسان وافته أعلم » انظر البداية والنهاية ٣ / ١١٣ — ١١٤ .

(٣) ضرب : أي خفيف اللحم . وجند : متكسر الشعر ، وأقي : مرهق نسبة الأفعى .

وأما عيسى بن مريم فرجل أحر بين القصير والطويل ، سَبَطُ الشَّعر كثير خيَلان الوجه كأنه خرج من دِباس^(١) تخال رأسه يقطر ماء وليس فيه^(٢) ماء ، أشبه رجال السَّكَم به عُرْوَة بن مسعود الثقفي .

قال ابن هشام : وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عمر مولى غُفْرَة عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب قال : كان علي إذا نَعَت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لم يكن بالطويل الممَّط^(٣) ولا القصير المتردد ، كان رُبْعَة من القوم ، ولم يكن بالجمْد القَطَط^(٤) ولا بالسَّيْط كان جَمْدًا رَجُلًا^(٥) ، ولم يكن بالمطهم ولا المُكَلَّم^(٦) ، وكان أبيض مُشْرَبًا أذعَج العينين أهدب الأشفار جليل المشاش والكند^(٧) دقيق السَّرْبَة^(٨) أجرد شَتْن السكتين^(٩) والقدمين ، إذا تَمَشَّى تَقَلَّع كأنما يمشي في صَبَب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم الدبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين أجود الناس كفا وأجرا الناس صَدْرًا وأصدق الناس لهجة وأوفى الناس بذمة واليتهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق : وكان فيما بلغني عن أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله عنها أنها كانت تقول : ما أَسْرَى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في

(١) السيط : المسترسل غير الجمد ، والخيَلان جمع خال وهو الشاة السوداء . والديباس : الحام .

(٢) ابن هشام : به .

(٣) الممط : المتمد .

(٤) القَطَط : الشديد جمود الشعر .

(٥) مسرح الشعر .

(٦) المطهم : العظيم الجسم والكلم : للتدبير الوجه في صفر

(٧) للمشاش : مقام رموس المفاصل ، والكند ما بين الكتفين .

(٨) للسربة : الشعر الذي يحد من الصدر إلى السرة .

(٩) الأجرد : قليل شعر الجسم . وشتن الكتفين : فليظهما .

في بيتي ، نام عندي تلك الليلة ^(١) فصلّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبطنا ^(٢) رسول الله ص الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيته بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت معكم صلاة الغداة الآن كما ترين .

ثم قام ليخرج فأخذت بطرف رداءه ، فتكشفت عن بطنه وكأنه قُبُعِيَّةٌ ^(٣) معوية ، فقلت : يا نبي الله لا تمحّث بهذا الداس فيكذبوك وبؤذوك ، قال : والله لأحدّثنهموه . فقلت لجارية لي حبشية : ويحك اتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسمعي ما يقول للداس وما يقولون له .

فلما خرج إلى الداس أخبرهم فمجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : آية ذلك أني مررت بعمر بنى فلان بوادي كذا ^(٤) ، فأفرم حسن الدابة ، فندّلم بعمر فدلّتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجّان ^(٥) مررت ببهر بنى فلان فوجدت القوم نياماً ولم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرم الآن تصوب من البيضاء ^(٦) ، ثنية التميم ، يقدّمها جل أوزق عليها غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برّقاء ^(٧) .

فابعد القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجبل ، كما وصف لهم ، وسألهم

(١) ابن هشام : نام عندي تلك الليلة في بيتي .

(٢) أمينا : أهبطنا .

(٣) ثياب من كتان تنسج بحصر مسوية إلى القبط على غير قياس .

(٤) ابن هشام : كنا وكذا .

(٥) ضجّان : جبل يناعية تهامة .

(٦) تصوب : تنزل من عل ، والبيضاء : عقبة قرب مكة .

(٧) أي مختلفة الألوان .

عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه بماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه
مُغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق
والله ، لقد أنفَرنا في الوادي الذي ذكر وندَّ لنا بغيره ، فسمعنا صوت رجل
يدعونا إليه حتى أخذناه .

[للمراج]

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله
عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغت مما كان
في بيت المقدس أتيت بالمراج ، ولم أزل شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذي يمدُّ
إليه ميتكم حينئذ إذا حُضر .

فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له :
باب الخفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يديه اثنا عشر
ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بهذا الحديث :
« وما يعلمُ جُودَ ربك إلا هو ^(١) » .

فلما دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : محمد . قال : أو قد بُعث ؟
قال : نعم ، فدعا [لي ^(٢)] بخير وقاله .

قال : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : ثم تلتقني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقني
ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقيتُ ملكاً من
الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمنزل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) من ابن هشام .

أرمد من البُشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : من هذا المَلَك الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضعك ولم أر منه من البُشر مثل الذى رأيت منهم . فقال جبريل : أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ضحك إِلَى أَحَد قَبْلَكَ أَوْ كَانَ ضاحكاً إِلَى أَحَد بِمَدِّكَ لَضَحَكَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضَعُكَ ، هَذَا مَا لَكَ صَاحِبُ النَّارِ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت لجبريل ، وهو من الله بالمكان الذى وصف لكم « مُطَاعٌ تَمَّ آمِينَ » أَلَا تَأْمُرُهُ أَنْ يَرِيَنِي النَّارَ ؟ فقال بلى ، يَا مَالِكَ أَرِحْ مُحَمَّدًا النَّارَ ، فَكَشَفَ عَنْهَا غِطَاءَهَا فَفَارَتْ حَتَّى ظَلَفَتْ لَتَأْخُذَنِي مَا أَرَى . فقلت لجبريل : مُرَّهُ فَلِهَرْدَهَا إِلَى مَكَانِهَا . فَأَمَرَهُ ، فَقَالَ لَهَا : اسْجِي فَرَجَمْتَ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجْتَ مِنْهُ ، فَمَا شَبَّهْتُ رَجُوعَهَا إِلَّا وَقُوعَ الظِّلِّ ، حَتَّى إِذَا دَخَلْتَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ رَدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا .

قال أبو سعيد الخدري فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : لما دخلتُ السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تَعْرِضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ ، فَيَقُولُ لِبَعْضِهَا إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ يُسَرُّ بِهِ ، وَيَقُولُ : رُوحٌ طَيِّبَةٌ خَرَجَتْ مِنْ جَسَدٍ طَيِّبٍ ، وَيَقُولُ لِبَعْضِهَا إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ أَفْتُ ، وَيَمْسِسُ بِرُوحِهِ ، رُوحٌ خَبِيثَةٌ خَرَجَتْ مِنْ جَسَدٍ خَبِيثٍ .

قال : قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ تَعْرِضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ ، فَإِذَا مَرَّتْ بِهِ رُوحٌ لِلْؤَمِنِ مِنْهُمْ سُرَّ بِهَا وَإِذَا مَرَّتْ بِهِ رُوحٌ الْكَافِرِ مِنْهُمْ أَيْفَ مِنْهَا وَكَرِهَهَا .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالاً لَمْ يَمُوتُوا مَشَافِرَ كَشَافِرِ الْإِبِلِ ، فَمِنْ أَيْدِيهِمْ قُطْعٌ مِنْ نَارٍ كَالْأَنْفَارِ ^(١) يَهْدِفُونَهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ فَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هَؤُلَاءِ أَكَلَتْ أَسْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا .

(١) الْأَنْفَارُ : جَمْعُ نَهْرٍ وَهُوَ الْحَجَرُ الصَّغِيرُ لِقَرْمَا يَمْلَأُ السَّكَبَ .

ثم رأيت رجالاً لم يظنوا لم أر مثلاً قط ، بسبيل آل فرعون ، يبرون عليهم كالإبل للبهيمة^(١) حين^(٢) يُمرّضون على النار ، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذاك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم شت مائن ، يأكلون من الفت للفتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بثديّين ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

قال : ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخلة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

قال : ثم أصعد^(٣) بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب ثم أصعد بي إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته من هو ؟ فقال : هذا إدريس . قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورقعتاه مكاناً عليّاً » .

قال : ثم أصعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهّل أبيض الرأس والحية عظيم الثنن^(٤) لم أر كهلاً أجمل منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبب في قومه : هرون بن عمران .

(١) أي الطائش .

(٢) ط : حق .

(٣) ابن همام : أصعدني .

(٤) الثنن : الحية .

قال : ثم أصددني إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدم طويلاً أفقى كأنه من رجال شقوة فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران . ثم أصددني إلى السماء السابعة فإذا كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لمساء^(١) فسألتها لمن أنت ؟ وقد أجهلني حين رأيته ، فقالت : يزيد بن حارثة . فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيناً^(٢) .

ومن حديث عبد الله بن مسعود أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها : من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد . فيقولون أو قد بُعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون حيّاه الله من أنح وصاحب . حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه^(٣) ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً فلما صررت بموسى بن عمران ، ونعمتُ الصاحبُ كان لكم ، سألني : كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة في كل يوم . قال : إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضميقة ، فارجع إلى ربك فستله أن يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فسألت ربِّي فوضع عني عشرًا ، ثم انصرفت فررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت

(١) الهمزة : حمزة في الشفاء تقرب إلى السواد .

(٢) ابن هشام : زيد بن حارثة .

(٣) يحسن هنا الهمز المجازي بما يوفق مع السيدة الإسلامية في البعد عن التجسيم والتشبيه .

فسألت ربي فوضع عني عشرين ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه ،
فارجع فأسال حتى انتهيت إلى أن وضع عني ذلك إلا خمس صلوات في كل
يوم وليلة .

ثم رجعت على^(١) موسى فقال لي مثل ذلك ، فقلت : راجعتُ ربي
وسأله حتى استجيبته منه ، فما أنا بقاهر .
فن أذاهن منكم إيماناً واحتساباً لمن كان له أجر خمسين صلاة .

[حاقبة المستهزين]

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله صابراً
محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة ، على ما يلقي منهم من التكذيب والأذى
والاستهزاء ، وكان عطاء المستهزين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان
وشرف في قومهم : الأسود بن المطلب الأسدي ، أبو زمعة ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيما يلقى قد دعا عليه لئلا كان يبلغه من أذاه واستهزائه به
فقال : اللهم أم بهرته وأثكيله ولده .

والأسود بن عبد يفيث الزهري والوليد بن المغيرة المخزومي ، والماص
ابن وائل السهمي ، والحارث بن العطلالة الخزاعي .

فلما تبادوا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء
أنزل الله عليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك
المستهزين الذين يعملون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون^(٢) »

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون
بالبیت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ، فقرأ به الأسود

(١) ابن هشام : إلى .

(٢) سورة الحجر ٩٤ — ٩٦ .

ابن المطلب فرمى^(١) في وجهه بورقة خضراء فعمى، وسيأتى بعد أن أنه أصيب له يوم بدر ثلاثة من ولده، ابناه زمة وعقيل وابن ابنه الحارث بن زمة، فاستوفى الله سبحانه بذلك فيه لرسوله صلى الله عليه وسلم إجابة لدعوته عليه بالمعى والشكل.

ثم مر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبسًا^(٢).

وعن غير ابن إسحق أنه لما نزل: «إنا كفيناك المستهزين» نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهر الأسود بن عبد يغوث الزهري، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالي خالي فقال له جبريل: خله عنك، ثم حناه حتى قتله.

قال ابن إسحق: ومر به الوليد بن المنيرة فأشار إلى أثر جرحه بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبله^(٣)، فانتفض به فقتله.

ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، ففرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبقارة^(٤) فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتله.

ومر به الحارث بن الملاحلة فأشار إلى رأسه فامتخص قبيعا فقتله.

قال: وكان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حراء الثقفي وابن الأعداء الهذلي، وكانوا جيرانه لم يسلم أحد منهم إلا الحكم.

(١) أي جبريل.

(٢) الحبس حركة: انتفاخ البطن من حاء.

(٣) سبله: فضول ثيابه.

(٤) الأسفل: شبقارة. وما ذكرته عن ابن هشام. والعبارة: شجرة عالية.

فكان أحدهم فيما ذكر لي يَطْرَح عليه رَجَمَ الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في بَرْمَةٍ^(١) إذا نصبت له حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حِجْرًا^(٢) يستتر به منهم إذا صلى .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على التود فيقف به على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق .

[وفاة خديجة وأبي طالب]

قال ابن إسحق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد^(٣) ، فتقامت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهنك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام^(٤) ، يسكن إليها ، وبهم لك أبي طالب همه ، وكان له عَصُدًا وحريرًا في أمره وسَمْعًا وفاصرا على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع فيه^(٥) في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفهاء من سفهاء قريش فنزل على رأسه ترابًا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تفضل عنه التراب وهي

(١) البرمة : قدر من حجر .

(٢) أي حائطًا .

(٣) كان الأسب ، أن يذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الإسراء . كما ذكره البيهقي وغير واحد . وقد روى عن عروة أن خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة ، كما روى عن الزهري أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله (س) إلى المدينة وقبل أن تهرس الصلاة . قال البيهقي : وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة .

(٤) البداية والنهاية : الاجلاء .

(٥) ابن هشام : تطمع به .

تبهكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله حانعٌ أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

قال : ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثَقُلَهُ قال ^(١) بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يَبْتِزُّونا أمرنا .

فمشوا إلى أبي طالب فكلّموه ، وم أشراف قومه ، عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب إنا كنا نأمن بك ما حدثت قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعهم وخُذْ لَهُمنا وَخُذْ لَنَا مِنْهُ لِيَكْفُرَ عَنَّا وَنَكْفُرَ عَنْهُ وَلِيَدَعَنَا وَدِينَنَا وَنُدَعِهِ وَدِينَهُ .

فبعث إليهم أبو طالب فجاءه فقال : يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم كلّة واحدة تعطونيها تملكسون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، عَشْرَ كَلِمَاتٍ ، قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تلبسون من دونه .

قال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أترى يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لمحبب .
ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ،

(١) ابن هشام : قالت قريش بعضها لبعض .

فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا . فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا بن أخي مارأيك . سألتهم شططاً . فلما قالوا طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فجعل يقول له : أي صم ، فأنت فعلتها أستعمل لك بها الشفاعة يوم القيامة . فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قال : يا بن أخي والله لولا مخافة الشبهة عليك وعلى بني أبيك من بعدى وأن تغزن قريش أنى إنما قتلها جزءاً من اللوت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها .

فلما تقارب من أبي طالب اللوت نظر المباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه ، فقال : يا بن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

وخرج مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث السائب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا هم قل : لا إله إلا الله ، كما أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ .

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »^(١)

وأنزل في أبي طالب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ^(١) » .

وفي الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا طالب كان يحوطك ويتصرك وينضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح .

وفيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عنه أبو طالب ، فقال : لعله تدفمه شقاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه ينفث منه دماغه .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بملين ينفث منها دماغه »

وبروي أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا احتزموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للعاش وثباتاً للوطاة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوا لها فإن في صلة الرسم منسأة في الأجل وزيادة في العدد ، وتركوا البني والمعوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيئوا الداعي وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والمات ، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيها عبة في الخناس ومكرمة في العام ^(٢) ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش

(١) سورة الفص ٥٦ .

(٢) تظهر على الخطبة أثر الصنعة في هذه الألفاظ .

والصديق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر
قَبِيلَةِ الْجَنْحَانِ وأَنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله لكأنى أنظر إلى
صعاليك العرب وأهل البئر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا
دعوتَه وصَدَّقُوا كلمته وعظُموا أمره ، فغاض بهم غمرات الموت فصارت
رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً وضمة أوثها أرباباً وإذا أعظمهم
عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أخطأهم عنده ، قد تحضت العرب
وإدادها وأعطته قهادها ، دونكم يا مشر قريش ابن آبيكم ، كونوا له ولاية
وليحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منهم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد
يهديه إلا سَمِد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه المراهز^(١)
ولقد افقت عنه الدواهي .

(١) المراهز : الحروب والشدائد .

ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

بعد مهلك معه أبى طالب

قال ابن إسحق : ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تكن تقال منه في حياته ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وحده يلتمس الفصرة من ثقيف وللمنة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله .

فلما انتهى إلى الطائف حمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة ، عبد ياليل ومسمود وحبيب ، بنو عمرو بن حمير بن عذدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف ، وعند أحدهم امرأة من قريش من نفي الجميع .

فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يمزط^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ! لأن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبئني أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : فيا ذكركم ، إذا فعلتم ما فعلتم فاكمثوا على . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه فيذئروهم^(٢) ذلك عليه .

(١) أى ينزعها ويرى بها .

(٢) يذئروهم : يجرئهم .

فلم يفعلوا ، أغرّوا به سفهائهم وعبيدهم يسئرونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال موسى بن عقبة : وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفّتيهم جعل لا يرفع رجله ولا يضمهما إلا رضخوهما بالحجارة ، حتى أذمتوا رجله .

وزاد سليمان التيمي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعصديه فيتمونه ، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون ! قال ابن عقبة : تغلّص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظلّ في ظل حَبَلَةٍ^(١) منه وهو مكروب مُوجِع ، وإذا في الحائط عَتَبَةٌ وشَيْئَةٌ ابنا ربيعة ، فلما رأهما كره مكانهما إِيَّاهُ يعلم من عدائهما لله ورسوله .

وذكر ابن إسحاق أن الحائط كان لهما وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اطمأن ، يعني في ظلّ الحَبَلَةِ قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقِلَّةَ حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى مَنْ تَكَلَّمْتُ إلى بعيدٍ يتجهّمني ، أم إلى عدوٍّ ملَكْتَهُ أُمْرِي ، إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ولكنّ عافيتك هي أوسع لي ، أهوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، واصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترَضَى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة ، تحركت له رِجْلَاهُما ، فدعّوا غلاماً نصرانياً ، فقال له : عدّاس فقال له : خذ قطعاً من هذا اللعيب ، فضمه في هذا الطبق ،

(١) الحبلّة : شجرة النبق .

ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يا كل منه . ففعل عدّاسٌ ، ثم أقبل به حق وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله ثم أكل ، فنظر عدّاسٌ في وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت يا عدّاس وما ديتك ؟ قال : نصراني وأنا من أهل نيتوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبيٌ . فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءها عدّاس قال له : ويلك ، مالك تقبل رأى هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شيء خيرٌ من هذا لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبيٌ . قالوا : ويحك يا عدّاس لا يصرفتك عن دينك فإن دينك خيرٌ من دينه .

وقد خرج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت لقيت صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

فقال : لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبهى إلى ما أردتُ ، فانطلقت على وجهي وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأس فإذا أنا بسماعة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فناداني ملك الجبال فسلم على فقال : يا محمد ذلك لك ، فما شئت ؟ إن شئت

أن أطلق عليهم الأخشبين^(١) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يمهّد الله لا يشرك به شيئاً .

وذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجهّوه إلى مادعاهم إليه من تصديقه ونصرته ، سار حتى أتى مكة ثم بعث إلى الأخنس بن ثريق ليُجيره ، فقال له : أنا حليف والحليف لا يُجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إن بني عامر لا تجير على بني كعب . فبعث إلى الطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ، ثم تسأع للطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله^(٢) .

ولأجل هذه السابقة التي سهّلت للطعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر : لو كان للطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النفاق ، لركبتهن له .



وفي انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفرهم ، راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف مرّ به الدفر من الجن الذين ذكر الله تعالى في كتابه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة قد قام من جوف الليل يصلي ، فرأى أولئك الدفر من الجن فيها ذكر ابن إسحاق قال : وهم فيما ذكر لي سمعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته وأوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم قال هرّ من قائل :

(١) الأخشبان : جبلان حول مكة .

(٢) ليس في سيرة ابن هشام التي بين أيدينا ذكر لخبر هذا الجوار . . . والله سقط منها .

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ^(١) » .

(١) سورة الأحقاف ٢٩ - ٣١ .

ذِكْرُ عَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نفسه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق : ثم قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة وقومه أشدَّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين من آمن به .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَمْرُضُ نَفْسَهُ في المواسم إذا كانت على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مُرْسَلٌ ، ويسألم أن يُصَدِّقُوهُ ويمنعوه حتى يبيِّنَ عن الله ما بعثَهُ به ^(١) .

قال ربيعة بن عباد الدؤلي : إني لألَامُ شاب مع أبي بَمِصَّى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به ، وخلعَ رجلٌ أحولٌ وضىء له غدبرتان ، عليه حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان إن هذا يدعوكم إلى أن تَسْلُخُوا اللاتَ والمُزَيَّ من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال ربيعة : فقلت لأبي : من هذا الرجل الذي يقيم ويردُّ عليه ما قال ؟ قال : هذا عُمُ عَهِدِ الْمُزَيَّ بن عَهِدِ اللَّطَلَب ، أبو لهب .

وعن غير ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى كِنْدَةَ في منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه ، وأتى كُلباً في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بدو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه

(١) في سيرة ابن هشام : حتى يبين لهم الله ما بعثه به . وهي مضطربة ، وما هنا مستقيم .

حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله : إن الله عز وجل قد أحسن اسمَ أيكم . فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . وعرض نفسه على بني حنيفة فلم يلق أحدٌ من العرب أفتح رداً عليه منهم .

وذكر الواقدي بإسناد له عن عامر بن سلمة الحنفي ، وكان قد أسلم في آخر عُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نسأل الله عز وجل أن لا يُزِمنا الجنة ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا ثلاثة أعوام بمسكاظ وبمحنة وبذي المجاز يدهوننا إلى الله عز وجل وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ رسالات ربه ، ويشترط لنا الجنة ، فما استجبنا له ولا ردّدنا جهيلاً ، لقد ألحشنا عليه وحلّم عنا .

قال عامر : فرجعت إلى حَجْرٍ^(١) في أول عام فقال لي هُوذة بن حلي : هل في موسمكم هذا خبرٌ ؟ فقلت : رجل من قريش يطوف على القبائل ، يدهوم إلى الله وحده ، وإلى أن يمتعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولم الجنة . فقال هُوذة : من أي قريش ؟ قلت : هو من أوسطهم نسباً من بني عبد المطلب . قال هُوذة : أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : هو هو . قال : أتمان أمره سيظهر على ماها هنا ، فقلت : ها هنا قط من بين البلدان ؟ قال : وغير ماها هنا .

ثم وافيتُ السنة الثانية فقدمتُ حَجْرًا ، فقال : ما فعل الرجل ؟ فقلت : رأيته على حاله في العام للماضي . قال : ثم وافيت في السنة الثالثة وهي آخرُ ما رأيته ، وإذا بأمره قد أير ، وإذا ذكره كثير في الناس ، وأسمع أن الخزرج تبعته ، فقدمت حَجْرًا ، فقال لي هُوذة : ما فعل الرجل ؟ فقلت : رأيت أمره قد أير ورأيت قومه عليه أشدّاء . فقال هُوذة : هو الذي قلت لك ، ولو أنا تبعناه كان خيراً لنا ، ولكننا نغضبُ بملكتنا . وكان قومه قد توجّوه وملكوه .

.. (١) حجر : موضع في ديار بني حنيفة .

قال عامر : فرمى بنى سليط بن عمرو العامري ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوزة ، فضيقت له وأكرمه وأخبرني من خبر هوزة ، أنه لم يستلم ، وقد ردّ ردّا دون ردّ . قال : فأخبرت سليطاً خبري لهوزة ، فأخبره سليط رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم عامر بن سلمة ، ومات هوزة . ابن علي سنة ثمان من الهجرة كافرأ على نصرانيته .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبس إلى الإسلام فلم يقبلوا . قال أبو وابصة المبسي فيما ذكر الواقدي : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا بمنى ، فدعانا إلى الله ، فوالله ما استجبنا له ، وما خيرنا له . وكان معنا ميسرة بن مسروق المبسي فقال لنا : أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نخل به وسط رحالنا لكان رأيي . فقال له القوم : من بين العرب نفعل هذا ؟ قال : نعم من بين العرب ، فأحلف بالله ليظهرن أمره ، حتى يبلغ كلّ مبلغ . فقال له القوم : دعنا منك لا تترضا لما لا يقبل لنا به . وطمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ميسرة ، فكلّمه ، فقال . ميسرة : ما أحسن كلامك وأنوره ، ولكن قومي يخالفوني ، وإنما الرجل بقومه . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج القوم مفادين إلى أهلهم ، فقال ميسرة ميلوا بنا إلى فذلك فإن بها يهود ، نسألهم عن هذا الرجل . فقالوا على يهود ، فأخرجوا سيفراً لهم فوضموه ، ثم درسوا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، الأئمة العربي يركب الحمار ويحتزى بالكثرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالجند ولا بالسبط ، في عينيه حمرة مشرب اللون . قالوا : فإن كان هذا الذي دعاكم فأجيبوه ، وادخلوا في دينه ، فإننا ننحسده ولا نعيه ولنا منه في مواطن يلا عظيمة ، ولا يبق في العرب أحدٌ إلا اتبعه أو قتله ، فكونوا ممن يقيمه . قال ميسرة : يا قوم والله ما بقي شيء إن هذا لأمرٌ بين . قال القوم : نرجع إلى الموسم ونلقاه ، ورجع القوم .

إلى بلادهم ، فأبى ذلك عليهم رجالهم ، فلم يتبعه أحد منهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للدينة مهاجراً وحيج حجة الوداع لقيه ميسرة ، فعرفه فقال : يا رسول الله والله ما زلتُ حاربك على اتباعك منذ يوم رأيتك أنمختَ بنا حتى كان ما كان ، وأبى الله عز وجل إلا ما ترى من تأخر إسلامي ، وقد مات عامة التفر الذين كانوا معي ، فأين مدخلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على غير الإسلام فهو في النار . فقال ميسرة : الحمد لله الذي تنقذني . فأسلم ، فحسن إسلامه ، وكان له عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه مكان .

وعن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له يثيرة : ابن فِرَاس : والله لو أتى أخذت هذا الفقى من قريش لأكلتُ به العرب ، ثم قال له : أرايت إن تابعك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيسكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

قال : أفنُهْدِفُ^(١) نحوَرنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا إلا حاجة لنا بأمرك .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركتهم السن حتى لا يقدر أن يوافق معهم موسمهم ، فسكنوا إذا رجعوا إليه حذتوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فقى من قريش ثم أخذُ بنى عَبدِ المطلب يزعم أنه نبي ، يدعوننا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

(١) ابن هشام : أتهدف .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لنا من تلافٍ ،
هل لنا بها^(١) من مَطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقو لها إسماعيل قط
وإنها لحق ، فأين رأسكم^(٢) كان عنكم ؟

وزاد الواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قام عن بني عامر
وانصرف إلى راحلته ليركبها أناه بيّضرة ، ونسبه الواقدي : بيّضرة بن عبد الله
ابن سلمة ، ورجلان معه ففخّسوا به راحلته حتى سقط عنها ، ويقال قطعوا
بطان راحلته .

قال : فقامت امرأة منهم يقال لها ضباعة بنت فُروط ، وكانت قد أرسلت
وكانت تحت عبد الله بن جُدعان ، فكرهته ففارقتها وخلف عليها بمدة
هشام بن المغيرة وهي أم ابنه سلمة ، وصاحت : يا بني عامر أيؤدّي محمد
وأنا شاهدة ؟ فقام إليهم غطفان وغطفان ابنا سهيل وعذرة بن عبد الله بن
سلمة بن قُشَيْر ، فضربوهم حتى هزموهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين صنعوا ما صنعوا : اللهم بارك على هؤلاء ، واليمن هؤلاء الآخرين . فأسلم
الذين بارك عليهم جميعاً ومات الذين لعن وهم كفار .

وذكر الواقدي أيضاً من حديث جهم بن أبي جهم أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله فقام رجل منهم فقال له : هيباً لك
والله ، أعيالك قومك ثم أعيالك أحياء العرب كلها ، حتى تأتينا وتزود علينا مرة
بعد مرة ! والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم .

ونهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جالساً فكسر الله عز وجل
ساقه ، فجعل يصيح من رجليه ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .

(١) مثل يضرب للفوت .

(٢) ابن هشام : فأين رأيكم .

قال الواقدي بإسناد ذكره : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم غسان في منازلهم بمسكاظ ، وم جماعة كثيرة ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله تعالى أن يهدوه ولا يشركوا به شيئا .

قال : وأن تعلموا لي ظهري حتى أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة . فقال رجل منهم : هذا والله يا قوم الذي تذكر النصارى في كتبها والذي يقولون : بقي من الأنبياء نبي اسمه أحمد ، فعملوا نؤمن به ونقبه فـسـكون من أنصاره وأوليائه ، فلنهم يزعمون أنه يظهر على ما بلغ الخلف والحافر ، فيجتمع لنا شرف الدنيا مع ما يكون بعد الموت .

قال القوم : فسكون نحن أول العرب دخل في هذا الأمر فتصيب لنا العرب قاطبة ويبلغ ملوك بني الأصفر فيخرجوننا من ديارهم ، ولكننا نقف عنه وننظر ما تصنع العرب ، ثم ندخل فيما يدخل فيه الناس . قال الرجل : يا عمد تأبى عشيرتي أن يتبعوا قولي فيك ، ولو أطلعوني رشدوا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل . فانصرف عنهم ثم عاد بعد ذلك إليهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : نرجع إلى من وراءنا ثم نلقاك قابلا .

فرجعوا فوفد منهم نفر إلى الحارث بن أبي شمر ، فذكروا له أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الحارث : إياكم أن يتبعه رجل منكم ، إذا يبيد ملكي من الشام ويتهمي هرقل .

قال : فامسكوا عن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى محارب بن خصفة بمسكاظ فوجدهم في محالهم فيهم شيخ منهم وهو جالس في أصحابه ، فنزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن راحلته ودعا إلى الله وطلبَ للنفعة حتى يبلغَ رسالاتَ ربه ، فردَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبحَ الرد وقال له : هجأ لك يا باني قومك أن يبقعوك ، وتأتي إلى محارب تدعوم إلى ترك ما كان عليه آبائهم ! اذهب فإنه غيرُ مُتبعك رجل من محارب آخر الدهر .

وَيُقْبَلُ إِلَيْهِ سَفِيهِ مِنْهُمْ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَا فِي بطنِ نَافِقِي هَذِهِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ؟ فَلَعَمْرِي إِنَّكَ لَتَدْعِي مِنَ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُوْحِي إِلَيْكَ وَيَكْثُمُكَ .

فَأَسْكَتْ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وأقبل إليه رجل منهم يقال له سلمة بن قيس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً قريباً من منزلهم ، فأراد أن يطرحه في البئر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتحنى عن البئر ، فجعل سلمة يقول : لو وقعت في البئر استراح منك أهل الموسم .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بزمام راحلته يقودها وهم يرمونها بالحجارة حتى توارى عنهم وهو يقول : اللهم إنك لو شئت لم يكونوا هكذا ، وإن قلوبهم بيدك وأنت أعلم بهم ، فإن كان هذا عن سخط بك عليّ فلاك المتقي ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وذكر قاسم بن ثابت بن حزم التميمي من حديث عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمرض نفسه على قبائل العرب خرج وأما معه وأبو بكر الصديق ؛ حتى دَفَسَا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر فسلم وكان رجلاً نَسَابَةً ومَقْدَمًا في كل خير ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . قال :

هو من أمة ربيعة ؟ أم من هاشم ؟ أم من لؤي ؟ قالوا : بل من هاشم العظمى ،
قال : وأى هاشم العظمى أتم ؟ قالوا : ذهل الأ كبير .
فذكر الحديث في مناسبة أبى بكر إياهم ومقاولته لهم ، وأنبراء دغفل
ابن حذافة النسابة إليه من بينهم وهو يومئذ غلام حين بقل^(٢) وجهه ،
وموافقته لأبى بكر ، حتى اجتذب أبو بكر زمام العاقبة ورجع إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور تركته لشهرته ، مع أن المقصود
فحيا بعده .

قال علي بن أبى طالب رضى الله عنه : ثم دَفَعْنَا إلى مجلس آخر عليهم
السَّكِينَةَ والوقار ، فقدم أبو بكر فسَلَّمَ وكان مقدِّماً في كل خير ، فقال :
من القوم ؟ قالوا : من شَيبَانَ بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأبى هؤلاء غُرَرٌ في قومهم . وفيهم مفروق بن
عمرو وهانىء بن قبيصة والثقي بن حارثة والعمان بن شريك ، وكان مفروق
ابن عمرو قد غلبهم بهالاً ولساناً ، وكانت له غديرتان نسقطان على تربيتيه^(٣)
وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر .

فقال له أبو بكر : كيف المدد فيكم ؟ قال له مفروق : إنا لتزيد على
أنف ولن تغلب أنف من قلة . فقال أبو بكر : فكيف للنمة فيكم ؟ قال :
علينا الجهد ولكل قوم جد^(٤) ، قال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين
عدوكم ؟ فقال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلتقى ، وإنا لأشد

(١) الهازم : جميع لمزمة بكسر اللام والواو ، وهى عظم نائى والحي تحت الأذن
وهما لهزمتان والمراد : الأطراف .
(٢) بقل : خرج شعره
(٣) الرائب : عظام الصدر .
(٤) الجبد : الحظ :

ما نكون لقاء حين ننضب ، وإنما لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على القناج
فالنصر من عند الله ، يُدِيلنا سرّة ويُدِيل علينا ، لملك أخو قريش ؟
فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فها هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلام تدعو يا أخا قريش ؟
فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أَدْعُو إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِلَى أَنْ تُتَوَنَّى وَتَنْصَرَفُوا ،
فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ ظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ ، وَاسْتَفْتَتْ بِالْبَاطِلِ مِنَ
الْحَقِّ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي
عَلَيْكُمْ ، الْأَشْرَكَاءَ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَاحًا وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا
النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَكُمْ تَعْقِلُونَ » (١) .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٢) .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن
الأعمال ، ولقد أفك قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أراد أن يشرَكَه فيه
الكلّام هاني بن قبيصة .

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة التحل .

فقال : وهذا هاني* بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هاني* : قد سمعتُ مقاتلك يا أخا قريش ، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك ، لمَجْلَسِ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ ، زَلَّةٌ فِي الرَّأْيِ وَقِلَّةٌ نَظَرٌ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ التَّجَلُّةِ ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَسْكُرُهُمْ أَنْ نَمَقَّدَ عَلَيْهِمْ عَقْدًا ، وَلَكِنْ تَرْجِعُ وَتَرْجِعُ وَتَنْظُرُ وَتَنْظُرُ . وَكَأَنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يَشْرَكَ فِي السَّكَلَامِ لِلثَّقِيِّ بْنِ حَارِثَةَ : وَهَذَا الثَّقِيُّ بْنُ حَارِثَةَ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ سَرِّ بَنِي .

فقال الثَّقِيُّ : قد سمعتُ مقاتلك يا أخا قريش ، والجوابُ هو جواب هاني* ابن قبيصة في ترك ديننا واتباعنا إياك لمَجْلَسِ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ وَإِنَّمَا مِنْزِلُنَا بَيْنَ صَرِّي*^(١) الْإِيمَانَةِ وَالسَّامَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا هَذَانِ الصَّرِيَانِ ؟ فَقَالَ : أَنْهَارُ كَسْرَى وَمِيَاهُ الْعَرَبِ ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنْهَارٍ كَسْرَى فَذَنْبُ صَاحِبِهِ غَيْرُ مَقْفُورٍ وَغَدْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنْهَارٍ الْعَرَبِ فَذَنْبُ صَاحِبِهِ مَقْفُورٌ وَغَدْرُهُ مَقْبُولٌ ، وَإِنَّمَا نَزَلْنَا عَلَى عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا كَسْرَى أَلَّا نُحَدِّثَ حَدَثًا وَلَا نُوَوِّيَ مُحَدِّثًا ، وَإِنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ هُوَ مَا تَسْكُرُهُ لِللُّوْكَ ، فَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ تُؤْوِيَكَ وَتَنْصُرَكَ مِمَّا يَكُنِي مِيَاهُ الْعَرَبِ قَعَلْنَا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم في الرد إذ أفصعتم بالصدق ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَغْصَرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَقَّ بِوَرْثِكُمْ اللَّهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفَرِّشَكُمْ نَسَاهُمْ أَنْتُمْ يَجْعَلُونَ اللَّهُ وَتَقْدُسُونَهُ ؟

فقال النعمان : اللهم لك ذا .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا أرسلناك شاهداً ومُنبِّهاً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقال : يا أبا بكر يا أبا حَسَنَ أيةُ أخلاقٍ في الجاهليةِ ما أشرَّها ! بها يدفع الله بأسَ بعضهم عن بعض وبها يتعاجزون فيها بينهم .

* * *

قال ابن إسحق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أناهم يدعو القبايل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، ولا يسمع بقادم قدم^(١) مكة [من العرب]^(٢) له اسم وشرف إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

وقديم سُوَيْدُ بن صامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجباً أو مُقْتَمِراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذي مملك مثل الذي معي .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذي مملك ؟ قال : مجلَّة لقيان ، يعني حكمة لقيان .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها عليّ فعرضها عليه . فقال : إن هذا الكلام حَسَنٌ والذي معي أفضل من هذا ، قرآنٌ أنزله الله عليّ هو هدى ونور .

(١) ابن هشام : يقدم .

(٢) من ابن هشام .

فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حَسَن .

ثم انصرف عنه فقدم المدبَّةَ على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل بُسَاث .

فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراء قد قُتِلَ وهو مُسْلِم .
وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه وهو الفاضل :

أَلَا رَبِّ مِنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى مَقَالَتَهُ بِالْفَيْبِ سَاءَكَ مَا يَفْرِي^(١)
مَقَالَتُهُ كَالشَّهْدِ مَا كَانَ شَاهِدًا وَبِالْفَيْبِ مَا تَوَرَّ^(٢) عَلَى ثُفْرَةِ الدَّحْرِ
يَسْرُكُ بِأَدْبِهِ وَنَحْتُ أَدْبِمِهِ تَمَوُّدُ غِشٍّ تَبْرِي^(٣) عَقَبَ الظَّهْرِ
ثُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأَمَّ مِنَ الْغُلِّ وَالْبَهْضَاءِ بِالظَّرِّ الشَّزِيرِ
فِرْشِي بِغَيْرِ طَالٍ مَا قَدْ بَرَبْتَنِي وَخَيْرُ الْوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي

* * *

ولما قَدِمَ أَبُو الْحَيَّسْرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ مَكَّةَ وَمَعَهُ فَتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ
فِيهِمْ إِبَاسُ بْنُ مَعَاذٍ يَلْتَمِسُونَ الْخِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ ،
سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ
فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ ؟ فَقَالُوا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بِمَشْنَى إِلَى الْمَدِينَةِ
أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْزَلَ عَلَى الْكِتَابِ .
ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ .

(١) يَفْرِي : يَفْرِي .

(٢) التَّوَرَّ : السَّيْبُ لِلْمَوْشَى .

(٣) تَبْرِي : تَقْطَعُ .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَثًا : أَيْ قَوْم ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرُ لَكُمْ
مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ .

فَيَأْخُذُ أَبُو الْحَيْسَرِ حَفَظَةً مِنَ الْبَطْنَاءِ فَضْرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَّاسٍ وَقَالَ : دَعْنَا
مَلِكًا ، فَلَمَرَى لَقْدَ جِئْنَا لِنَهْرٍ هَذَا .

فَصَبَّتْ إِيَّاسَ . وَقَامَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَانْصَرَفُوا إِلَى
الْمَدِينَةِ ، فَكَانَتْ وَقْعَةً بَعَثَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْمُزَرِجِ .

ثُمَّ لَمْ يَلْبِثْ إِيَّاسُ أَنْ هَلَكَ ، فَأَخْبَرَ مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُمْ
لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يَهْتَلِ اللَّهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيُحَمِّدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ .

فَلَمَّا كَانُوا يَشْكُرُونَ أَنْ قَدِمَاتِ مُسْلِمًا ، لَقَدْ كَانَ اسْتَشْمَرَ الْإِسْلَامَ فِي ذَلِكَ
الْمَجْلِسِ حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا سَمِعَ .

بَدَأَ إِسْلَامَ الْأَنْصَارِ

وَذَكَرَ التَّقِيَّةَ الْأُولَى

قال ابن إسحق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإيجاز موعوده له ،
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه الفجر من الأنصار
فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند
العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا :
نفر من الخزرج . قال : أيمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجالسون
أئمتكم ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .
وكان مما صنع الله به^(١) في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ،
وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل ثيرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد
عزّوهم^(٢) ببلادهم ، فسكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً
الآن قد أظلم زمانه نذبه فقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال
بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ،
فلا يسبقكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام
وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن
يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد
آمنوا وصدقوا .

(١) ابن هشام : بهم .

(٢) ابن هشام : عزّوهم . ومزوم : غلبوم

وهم فيما ذكر لي ، ستة نفر من الخزرج : منهم من بنى النجار أسعد بن زُرارة أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عقرأ . ومن بنى زُرَيْق رافع بن مالك بن الديجلان ، ومن بنى سلمة قُطَيْبَة بن عامر بن حديدة ، وعُقْبَة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله بن رثاب .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعواهم إلى الاسلام حتى قُتِلَ فيهم ، فلم يَبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فيهم من الستة المسمَّين قَبْلُ : أبو أمامة وعوف ورافع وقُطَيْبَة وعُقْبَة ، ومن غير الستة من الخزرج أيضاً : ذَكَوان بن عبد قيس بن خَلْدَة الزُرْق وعُبَادَة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة من بني غُصَيْنَة من بَنِي حَلِيف لهم ، والعباس بن عُبادَة بن نَصْلَة التَّيْمَلَانِي ، وماذ بن الحارث بن رفاعة ، وهو ابن عقرأ ، ومن الأوس : أبو الهيثم بن مالك بن النخعيان ، وعُويْم بن ساعدة ، فلقوه بالعُقْبَة ، وهي العقبة الأولى .

قال عُبادَة بن الصامت : كنت ممن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً ، بأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء^(١) وذلك قبل أن تُفَرِّضَ الحرب ، على ألا نَشْرِكَ بالله شيئاً ، ولا نَسْرِق ولا نَزْنِي ولا نَقْتُلَ أولادنا ولا نَأْتِي بُهْتَانًا نَفْتَرِيه بين أيدينا وأرجلنا ولا نَمْصِيه في معروف .

قال : فَإِنْ وَقَّعْتُمْ فلكم الجنة ، وإن غَشِيْتُمْ من ذلك شيئاً [فَأَصْبَحْتُمْ بِمَدَّة

(١) هي البيعة المذكورة في القرآن في قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يهركن بالله شيئاً ولا يسرن من ولا يزبن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يصينكن في معروف » .

في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سئرتُم عليه إلى يوم القيامة^(١) فأمركم إلى الله ،
إن شاء عذب وإن شاء غفر .

قال ابن إسحق : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
معه مَصْنُوبُ بْنُ عُيَيْرٍ بْنُ هَاشِمٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنُ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ ، وأمره
أن يُقْرِئَهُمُ الْقُرْآنَ وَيَمْلَهُمُ الْإِسْلَامَ وَيُفْقَهُمُ فِي الدِّينِ ، فمَكَانَ صَبَبٍ يَسْمَى
الْمَقْرِيءَ بِالْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَنْزِلُهُ عَلَى أَسَدَ بْنِ زُرَّارَةَ بْنِ عَدَسِ أَبِي أَمَامَةَ ،
وَكَانَ يَصِلُ بِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَرِهَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُؤْمِنَهُ بَعْضٌ .

(١) سلطت هذه الجملة من ابن هشام .

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير على يدى

مُصَنَّب بن عمرو رضى الله عنه

ذكر ابن إسحق عن سمى من شيوخه أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمرو يريد به دار بنى الأشهل ودار بنى ظنفر ، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظنفر ، فجلسا فيه واجتمعا إليهما رجال ممن أشلم .

فلما سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما يؤمئذ سيّدا قومهما بنى عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه ، قال سعد لأسيّد: لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضفادنا فازجراهما وإنههما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى حيث علمتَ كفيئتَ ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدّما .

فأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه .

قال : فوقف عليهما متشكّكاً فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضفادنا ، اعزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مُصَنَّب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قيلتَه وإن كرهتَه كُفّ عنك ما تكره .

قال : أنصفتَ ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فسكّله مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر منهما : لمرقنا في وجهه الإسلام قبل أن يسكلم في إشراقه ونسّله .

ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالوا له : نفعل فتتطهروا وتطهروا نوبيك ثم تتشهد الحق ثم تعلى .

فقام فاعفلس ومأثر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما : إنَّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ .

ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بشير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف على الدادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال قلت الرجلين فوالله ما رأيتهما بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : فعل ما أحببت . وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زراراة ليقفوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتهك ليخفروك .

فقام سعد مُتَضَبِّحاً مبادراً متخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ السربة من يده ثم قال : والله ما أراك أُغْنِيَتْ شيئاً .

ثم خرج إليهما فلما رأهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما مشتماً ثم قال : يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتُ هذا مني ، أتفشانان في دارينا بما نكروه !

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير : أي مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنين .

فقال له مصعب : أو تفقد فسمع ، فإن رضيت أمراً ورفضت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما نكروه .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسلله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أتتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟

قالا : فننسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين .
فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم أخذ
حربقه فأقبل حامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير ، فلما رآه قومه مقبلا
قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بنذر الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟
قالوا : سيدنا أفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة . قال : فإن كلام رجالكم ونساءكم
حرام على حق تؤمنوا بالله ورسوله .

قال : فوالله ما أمتى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمات
أو مسلمة . ورجع مضطربا إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس
إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ،
إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوْسُ الله ،
وهم من الأوس بن حارثة

وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأشلت وكان شاعرا لهم قائدا يسمعون
منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومضى بدر وأحد والخندق ، وقال فيما رأى من الإسلام وما اختاف
الناس فيه من أمره :

أرب الناس أشياء أمت يلف الصعب منها بالذلول
أرب الناس إنا إن ضللتنا^(١) فيسرتنا لمعرف السبيل
فلولا ربنا كنا يهودا وما دين اليهود بذي شكول^(٢)

(١) ابن هشام : أما إذ ضللتنا .

(٢) يعنى أنه لا نظير له من الحق ، والفكول جمع شكل وهو القتل والشيء .

ولولا ربُّنا كنا نصارى مع الرهبان في جَبَل الجليل^(١)
ولكننا خَلَقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حنيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ جَيْلٍ
نُسُوقِ الْهَدْيِ تَرْسُفٌ مُذْهَبَاتٍ مُسَكَّغَةُ التَّمَاكِبِ فِي الْجُلُولِ^(٢)

ذكر العقبة الثانية

قال ابن إسحق : ثم إن مُصَنَّبَ بْنَ عُثَيْرٍ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مِنْ خُرُوجِ
مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ حُجَّاجٍ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ ،
فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،
حِينَ أَرَادَ اللَّهُ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ وَالنَّصْرَ لِنَبِيِّهِ وَإِعْزَازَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ
وَإِذْلَالَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ .

حَدَّثَ كَسْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ الْعَقَبَةِ وَبَايَعَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجٍ قَوْمَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا
وَقَفَّيْنَا ، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَقْرُورٍ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا ، فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا
مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ لَنَا الْبَرَاءُ : يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَاللَّهِ مَا أَدْرِي
أَتَوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا . فَقُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ الْأَدْعَ هَذِهِ التَّيَّيَّةَ
مَتَى يَفْطُرُ ، يَعْنِي الْكَعْبَةَ ، وَأَنْ أَصِلَّ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا : وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَبِيدَ
بِصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نَزِيدُ أَنْ نَخَافَهُ . فَقَالَ : إِنِّي لَأُصِلُّ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا لَهُ :
لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ .

فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَالِينَ إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ، حَتَّى
قَدِمْنَا مَكَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَاهَا وَقَدْ كُنَّا جُنُبًا عَلَيْهِ مَا صَبَحَ ، قَالَ لِي : يَا أَخِي انْطَلِقْ
بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَمَّا صَدَمْتُ فِي سَفَرِي هَذَا

(١) قال السهيلي : الجبل بالجمع الشام ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم .

(٢) الجلول : جمع جبل وهو ما تلبسه القباة لتصلن به .

فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه .
 فخرجنا نسال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك ،
 فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عنه فقال : هل تعرفانه ؟ قلنا : لا . فقال :
 هل تعرفان العباسَ حمُّه ؟ قلنا : نعم . وقد كنا نعرف العباسَ كان لا يزال
 يقدِّم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .
 فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
 معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل
 تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه
 وهذا كعب بن مالك .

فوالله بما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشاعر ؟ قال : نعم .
 فقال له البراء بن معرور : يا نبي الله إني خرجت في سفرى هذا وقد هدانى
 الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه التبتية منى بظهير ، فصليت إليها ، وخالفنى
 أصحابى في ذلك ، حتى وقع في نفسي منه شيء ، فإذا ترى يا رسول الله ؟
 قال : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معنا إلى الشام .
 قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس كما قالوا ،
 نحن أعلم به منهم .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو جابر ،
 سيد من ساداتنا أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا ،
 فحسبناهم وقلنا : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ،

وإنا تَرَعَبُ بك أن تكون حطباً للنار خدا . ثم دعونا إلى الإسلام وأخبرناه
بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا النقيّة ، فأُثْلِمَ وشهد معنا وكان نقيّاً .
فإنما تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا
لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتسلل تسأل القملاً مُسْتَضْفِينَ ، حتى اجتمعنا
في الشَّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساءنا ،
نُسَيِّبة بنت كعب أم حُمارة ، إحدى نساء بني مازن بن الجبار ، وأسما بنت
عدي بن عمرو بن نابي ، أم مَتِيع ، إحدى نساء بني سَلَمَة ، فاجتمعنا في الشَّعب
ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس وهو يومئذ
على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

فلما جلس كان أول مقالم العباسُ فقال : يا معشر الخزرج - وكانت العرب
إنما يسمون هذا الحَيَّ من الأنصار الخزرج ، خَزْرَجِها وأَوْسِها - إن عمداً منا
حيث قد علمتم وقد منعناه من قومه ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من
قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم
ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نوهه ممن خالفه فأنتم وما نحمّلتهم
من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُونَ وخاذلوه بعد الخروج به إليكم
فإن الآن فدَعُوهُ ، فإنه في عزو ومنعة من قومه وبلده .

فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلّم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك
ما أحببت .

فتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا القرآن ودعا إلى الله ورعّب
في الإسلام ، ثم قال : أبأيكم على أن تَعْمُوْنِي مِمَّا^(١) تَعْمُونَ منه نساءكم وأبناءكم .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنعمتك مما نمتع

منه أَزْرَنَّا^(١) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الخلقة ورفعاها كابراً عن كابر .

فاترض القول ، والبراء يتكلم ، أبو الهيثم بن التَّيَّهَان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ونحن قاطعوها ، يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهر لك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فقبستم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدمُ والدمُ والهدْمُ الهدْمُ أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم .

قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونون^(٢) على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، من الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زُرَّارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن مسرور ، وعبد الله بن حَرَام ، وشُعَاة ابن الصامت وسعد بن عباد بن ذُكَيْم ، والمُنذر بن عمرو . ومن الأوس : أسيد ابن خُصَيْر ، وسعد بن خَيْثَمَة ورفاعة بن عهد للنفذ .

قال ابن هشام : وأهل العلم يُمدُّون فيهم أبا الهيثم بن التَّيَّهَان ولا يمدون رفاعة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للقباء : أتم على قومكم بما فيهم كغفلة ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كغفلة على قومي . قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عباد بن نَعْلَة ، أخو بني سالم بن عوف :

(١) الأزر : النساء أو الأتس .

(٢) ابن هشام : ليكونوا .

يا معشر الخزرج : هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال :
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم
إذا هُزمت أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلًا استلثتموه فن الآن ، فهو والله
إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه
إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك
يا رسول الله إن نحن وقينًا ؟ قال : الجنة .

قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

قال عامر : والله ما قال ذلك المباس إلا ليشدَّ العقدَ لرسول الله صلى الله
عليه وسلم في أعناقهم . وقال غيره : ما قاله إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء
أن يحضرها عبد الله بن أبيّة بن سكول فيسكون أقوى لأمر القوم . فانه أعلم
أى ذلك كان .

قال ابن إسحق : فبهو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارَةَ كان أول
من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن النخعيان .

وفي حديث معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن أبيه قال : كان أول
من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن مَرزور ، ثم بايع
القوم ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة
بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباية ، وهى المأزلة ، هل لكم في مذمم
والعبداء معه قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أَرَبُ العقبة هذا ابن أَرَب ،
ويقال ابن أَرَب ، أسمع أئى عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفقوا إلى رجالكم . فقال له العباس

ابن عُبَادَةَ بن نَعْلَةَ : والذي بعثك بالحق إن شئت لتميلين على أهل مِيقَ
بأسيافا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا
إلى رحالكم . فرجعنا إلى مضاجعنا فندمنا عليها .

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قریش حتى جاءونا في منازلنا ، فقالوا :
يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من
بين ظهورنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من شيء في العرب أبغض
إليها أن تلشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانهمت من هالك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ،
وما علمناه . وصدقوا ، لم يعلموه ، وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام الخزرجي ، وعليه نملان له جديدان
فقلت له كلمة ، كأنني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ما تستطيع
وأنت سيّد من سادتنا أن تتخذ مثل نمل هذا الفتي من قریش ؟ فسمعها
الحارث فغلمهما من رجليه ، ثم رمى بهما إلى قول : والله لتفعلمائهما .

قال : يقول جابر : منه أحفظت والله الفتي ، فاردد إليه نمليه . قلت :
والله لا أردّها ، قال والله صالح والله لأن صدق القول لأسلبته .

وفي حديث غير كعب أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال مثل
ما قال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمرٌ جسيم ، ما كان قومي
ليغفروا عليّ بمثل هذا ، وما علمته كان . فانصرفوا عنه .

ونشر الناس من مئى ، ففتطّس^(١) القومُ الخليلي ، فوجدوه قد كان ،
وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادَةَ بأذخير والمذَر بن عمرو

(١) التفتّس : الجالفة في النظر في الأمور .

أخا بنى ساعدة ، وكلاهما كان تقيين ، فأما للنذر فأعجز القوم ، وأما سعدٌ
فأخذه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج^(١) رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ،
يضربونه ويمجدونه بِمُجْتَه^(٢) ، وكان ذا شعر كثيف .

قال سعدٌ : فوالله إني أفي أيديهم إذ طلع نفرٌ من قريش ، فيهم رجل
وضيٌّ أبيض شعثاع^(٣) حلوٌ من الرجال .

قال فقلت في نفسي : إن بك عند أحد من القوم خير فمئذ هذا .
فلما دنا مني ، رفع يده فلكفني لكفة شديدة ، فقلت في نفسي : لا والله ،
ما عندهم بمد هذا من خير .

فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى إلى رجلٍ من معهم ، فقال :
ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش مجارة ولا عهد ؟ فقلت : لا والله لقد
كنت أجزئُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ نَحَارَهُ وأمنهم ممن أراد ظلمهم بهلادي ،
وللعارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر
ما بينك وبينهما .

قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدما عند الكعبة ، فقال لهما :
إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح كَيْهَتِفٍ بكما ويذكر أن بينه وبينكما
جواراً . قال : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قال : صدق والله ، إن كان
ليعجز لنا نَحَارُنا ومنهم أن يُظلموا بهله .

قال : فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم ، وكان الذي لكم سعداً سهيل
ابن عمرو .

(١) النسج : الفراء الذي يهد به الرجل .

(٢) الجملة : شعر الرأس المجتبع .

(٣) الشعثاع : الطويل الحسن .

قال ابن هشام : والذى أوى له أبو البختري بن هشام .
قال ابن إسحق : فساكن أول شعر قيل في الهجرة بيتين قالهما ضيرار بن
الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر . قال :

تداركتَ سَمَدًا عَمُوءَ فَأَخَذْتَهُ وَكَانَ شِقَاءَ لَوْ تَدَارَكْتَ مُنْذَرًا
وَلَوْ يَلْتَمِ غَلَّتْ ههناكَ جِرَاحَةٌ وَكَانَ حَقِيقًا أَنْ يُبْهَانَ وَيُهْدَرًا
فَأَجَابَهُ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ :

لَسْتُ إِلَى عَمْرٍو^(١) وَلَا لِلرَّءِ مُنْذِرٍ إِذَا مَا مَطَايَا الْقَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمُرًا
فَلَوْلَا أَبُو وَهْبٍ لَمَرَّتْ قِصَائِدُ عَلَى شَرَفِ الْبَرْقَاءِ^(٢) يَهْوِينَ حُسْرًا
أَتَفْخَرُ بِالْكُتَّانِ ثَمًّا لِهَسْبِهِ وَقَدْ تَلَبَّسَ الْأَنْهَاطُ رِطَاطًا مُقْصَرًا^(٣)
فَلَا تَكُ كَالْوَسْطَانِ يَحْتَلِمُ أَنَّهُ بِقَرْيَةِ كَسْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرًا
وَلَا تَكُ كَالثَّقَلَيْنِ وَكَانَتْ بِمَعْرَلٍ عَنْ الشُّكْلِ لَوْ كَانَ الْفَوَاحِشُ تَفَكَّرًا
وَلَا تَكُ كَالنَّشَاءِ الَّتِي كَانَ حَقْفُهَا بِحَفْرِ ذُرَاهِهَا فَلَمْ تَرَضْ تَحْفَرًا
وَلَا تَكُ كَالْعَاوِي فَأَقْبَلَ نَحْرَهُ وَلَمْ يَحْشَهِ سَهْمٌ مِنَ الثُّبُلِ مُضْمَرًا
فَوَيْلًا وَمَنْ يُهْدِي الْقَهَائِدَ يَهْوِي كَمُسْتَبْضِعٍ نَمْرًا إِلَى أَرْضِ خَيْبَرًا

* * *

قال : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومه بقياء من شيوخ
لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجُمُوح ، وكان ابنه معاذ شهيد
العمية وبايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمرو سيداً من سادات

(١) ابن هشام : سمع .

(٢) البرقاء : موضع بالبادية .

(٣) الریط : الملاحف البيض .

بنى سلمة وشرقيًا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له
مناة كما كانت الأشراف يصعدون ، يتخذها إلها يعظمه ويطهره^(١) ، فلما
أسلم فتیان بنى سلمة ، ابنة معاذ ومعاذ بن جبل ، في فتیان منهم عن أسلم وشهد
العقبة ، كانوا يَدْجُلون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض
حُقَر بنى سلمة وفيها عِذْرُ الناس ، مَسْكَسًا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال :
ويلكم مَنْ عَدَا على أُمَّتِنا هذه الليلة ! ثم يقدو يلتمسه ، حتى إذا وجده
غسله وطهره وطيّبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم مَنْ فعل بك هذا لأخزيتك .

فإذا أَمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيندو فيجده
في مثل ما كان فيه من الأذى فيفسله ويطهره وطيّبه ، ثم يمدّون عليه إذا
أَمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أَكْثَرُوا عليه استخرجوه من حيث ألقوه
يومًا ففسله وطهره وطيّبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إني والله
ما أعلمُ من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتسح بهذا السيف
معك .

فلما أَمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا
كلًّا مِيتًا فقرنوه به بجمل ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها عِذْرٌ من عِذَرِ
الناس ، وغدا عمرو بن الجحوح فلم يجد في مكانه نفرج يَتَبَّعُه حتى وجده
في تلك البئر مَسْكَسًا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه أبصر^(٢) شانه ، وكَلَّمَه
مَنْ أَسْلَمَ من قومه فأَسْلَمَ رحمه الله وحَسُنَ إسلامه ، فقال حين أَسْلَمَ وعرف

(١) ابن هشام : يتخذها إلها يعظمه ويطهره .

(٢) ابن هشام : وأبصر . وما هنا أصح .

من الله ما عرف ، يذكر^(١) صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله
الذى أنقذه عما كان فيه من العى والضلالة :
والله لو حكمت إلهاً لم تكن أنت إكواب وسطاً بثر في قرن^(٢)
ثقت لملقائك إلهاً مستعدن^(٣) الآن ففشتك عن سوء القين
الحمد لله الملى ذى المين الوهاب الرزاق ديان الدين^(٤)
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مزنهن
[الإذن بالقتال]

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة
لم يؤذن له فى الحرب ولم تحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تبارك
وتعالى والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت
من اتبعه من قومه حتى فتلواهم عن دينهم وتقوم عن بلادهم ، فممن من بين
مفتون فى دينه وبين معذب فى أيديهم وبين هارب فى البلاد منهم ، منهم
بارض الحبشة ، ومنهم بالمدينة وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله وردوا عليه ما أرادهم به من السكرامة ،
وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده ووصدق نبيه واعتصم بدينه ،
أذن الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال والامتناع
والانتصار ممن ظلمهم وبني عليهم .

(١) ابن هشام : وهو يذكر .

(٢) القرن : الجبل .

(٣) مستعدن : ذليلاً مستعبداً .

(٤) الدين : جمع دينه وهى السادة ، ويقال لها أيضاً دين . ويجوز أن يكون أراد
بالدين : الأديان أى هو ديان أهل الأديان ، ولكن جمعها على الدين لأنها ملل ومحل . انظر
الروى الألف .

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له السماء والفعال لمن بنى عليهم ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَائِغُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَاللَّهُ طَائِفَةُ الْأُمُورِ ^(١) » .

ثم أنزل الله عليه : « وَقَاتِلُوا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » أى وحتى يُعبد الله لا يُشبد غيره ^(٢) .

(١) سورة الحج ٣٩ - ٤١ .

(٢) ابن هشام : منه غيره .

بَدْءُ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ

قال ابن إسحق : فلما أذن الله تبارك وتعالى لرسوله في الحرب ، وبإيمه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولبن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها والعقود بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها .

فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش من بنى غزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قديم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

قالت أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بهيرته ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بنى يقود بهيرته ، فلما رائته رجال بنى المنيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه علّام تتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت : فترجموا خطام الهمير من يده فأخذونى معه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ تزعموها من صاحبنا . ففجأذبوا ببنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ا وانطلق به بنو عبد الأسد .

وحبسى بنو المغيرة عديم والطلق زوجى أبوسلة إلى المدينة ، ففرقى
بينى وبين زوجى وبين ابنى ، فسكنت أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح فما
أزال أبسكى حتى أُنسى ، سنةً أو قريباً منها . حتى مرَّ بى رجل من بنى مى
فرأى ما بى فرجنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة^(١) !
فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لى : الحق بزوجك إن شئت . وردَّ بنو عبد الأسد إلى عند
ذلك ابنى ، فارتحلت بيمرى ثم أخذت بُنى فوضعت فى حجرى ، ثم خرجت
أريد زوجى بالمدينة وما مئى أحد من خلق الله ، قلت : أتبلِّغ بمن أقيت حتى
أقدم على زوجى .

حتى إذا كنت بالنعيم لقيت عثمانَ بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا
بنى عبد الدار ، فقال : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى
بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : لا والله ، إلا الله وبُنى هذا قال :
والله ما لك من مَنزك . فأخذ بخطام البعير يقودنى معه بهوى بى ، فوالله
ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ للنزل
أمانح بى ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر بيمرى لخط عنه ثم فَيَّده
فى الشجر ، ثم تنصى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواحُ قام إلى بيمرى
فرحله ثم استأخر عنى فقال اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بيمرى أتى فأخذ
بخطامه فقادنى حتى ينزل بى .

فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظرنا إلى قرية بنى عمرو
ابن عوف وكان أبوسلة بها ، قال : زوجك فى هذه القرية فادخلها على
بركة الله .

(١) ابن هشام : ألا تخرجون هذه المسكينة . وذكر محقق الكتاب أن الأصل :
ألا تخرجون من هذه المسكينة . فيكون ما هنا أولى وأصح .

ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً كان أكرم من عثمان بن طلحة !

قال ابن إسحق : ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة طامراً ابن ربيعة حليف بني عدي بن كعب ، معه امرأته ليلى بنت أبي حنيفة ابن غانم ، ثم عهد الله بن جعش بن رثاب من بني قحتم بن دودان بن أسد بن خزيمه حليف بني أمية بن عبد شمس ، استحل بأهله وبأخيه أبي أحمد عبيد ابن جعش ، وكان أبو أحمد رجلاً ضرب البصر يطوف مكة أعلاها وأسفلها بنير قائد ، وكان شاعراً وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب .

فَنَلَقَتْ دَارُ بني جعش هجرةً ، فرَّ بها عنتبة بن ربيعة والعباس بن عهد المطلب وأبو جهل بن هشام فغَطَّرَ إليها عتبةَ تَخْفِقُ أبوابها يَبَاباً^(١) ليس فيها ساكن ، فتنفَسَ الصعداءُ ثم قال :

وكلُّ دارٍ وإن طالت سلامتها يوماً ستُدْرِكها التَّكْهَاءُ وَالْحُوبُ^(٢)

ولما خرج بنو جعش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى طامر بن لؤي ، فذكر ذلك عبد الله بن جعش ، لما بلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عهد الله أن يمطئك الله بها داراً في الجنة خيراً منها ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك .

(١) يَبَابُ : قفرا .

(٢) الحوب : هنا : الحزن والوحشة .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كله أبو أحمد في دارم
خابطاً عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجموا في شيء أصيب منكم
في الله . فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وكان بنو غنم بن دودان أهل الإسلام قد أُوْعِبُوا ^(٢) إلى المدينة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة رجالهم ونسائهم ، فقال أبو أحمد بن جشش
يذكر هجرة بني أسد بن خزاعة من قومه إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ،
وإيعابهم في ذلك حين دُعُوا إلى الهجرة :

فَوَحَّيْتُ بَيْنَ الصَّفَا أُمُّ أَحْمَدٍ وَمَرَّتْهَا بِاللَّهِ بَرَّتْ بِمِثْلِهَا
لَنَحْنُ الْأُولَى كُنَّا بِهَانِمٍ لَمْ نَزَلْ بِمَكَّةَ حَقَّ عَادَ غَنَّا سَمِئْنَا
بِهَا خِثْمَتُ غَنَمِ بْنِ دُودَانَ وَانْهَيْتُ وَمَا أَرَعَدْتُ غَنَمٌ وَخَفْتُ قَطِينَهَا
إِلَى اللَّهِ تَعْدُو بَيْنَ مَتْنَى وَوَاحِدٍ وَدِينُ رَسُولِ اللَّهِ بِالْحَقِّ دِينَهَا
وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ أَيْضًا :

ثُمَّ رَأَيْتُ أُمَّ أَحْمَدَ غَادِيًا بِذِمَّةٍ مَنْ أَخْشَى بِقَيْبٍ وَأَرْهَبُ
تَقُولُ فَإِذَا كُنْتُ لَا يَدَّ فَاعْلَا قَيْبُهُمْ بِهَا الْبُلْدَانُ وَلَقْنَا بَقَرُبُ
خَفْتُ لَهَا : مَا يَثْرِبُ بِمِثْلِهِ وَمَا يَشَارُ الرَّحْمَنُ فَالْمِيدُ يَرْكَبُ
إِلَى اللَّهِ وَجَنِي وَالرَّسُولِ وَمَنْ يُقِيمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يَحْتَجِبُ
فَكَمْ قَدْ تَرَكْنَا مِنْ حِمِيمٍ مُفَاصِحٍ وَنَاصِحَةٍ تَبْكِي بِدَمْعٍ وَتَدْبُ
تَرَى أَنَّ تَرَا نَائِبًا عَنْ بِلَادِنَا وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ الرَّاغِبَ تَطْلُبُ

(١) خبر الاختصاب دار بني جشش عن غير ابن إسحق .

(٢) أي هاجروا جميعاً لم يبق منهم أحد .

دَعَوْتُ بَنِي غَنَمٍ لَحِقْنِ دَمَائِهِمْ وَلِلْحَقِّ لَنَا لَاحٌ لِلنَّاسِ مَلْعَبٌ^(١)
أَجَابُوا بِحَمْدِ اللَّهِ لَنَا دَعَاؤُهُمْ إِلَى الْحَقِّ دَائِعٌ وَالْبَجَائِعُ فَأَوْعَبُوا
وَكُنَّا وَأَصْحَابَنَا لَنَا فَارَقُوا الْهُدَى أَطَانُوا عَلَيْنَا بِالسَّلَاحِ وَأَجْلَبُوا
كَفَوَجَيْنَ أَمَّا مِنْهَا فَوْقُ عَلَى الْحَقِّ مَهْدِيٌّ وَفَوْجٌ مَعْدِبٌ
طَفَقُوا وَتَمَتُّوا كِذْبَةً وَأَزَلَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ إِبْلِيسٌ نَفَّابُوا وَخَبِيبُوا
وَرُفْعًا^(٢) إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فَطَابَ وَلَاءُهُ الْحَقِّ مَعَا وَطُيُبُوا
نَمْتُ بِأَرْحَامِ إِلِهِمْ قَرِيبَةٍ وَلَا قُرْبَ بِالْأَرْحَامِ إِذَا لَا تَقْرُبُ
فَأَيُّ ابْنِ أُخْتٍ بَعْدَنَا بِأَمْتِنَتِكُمْ وَأَيُّ صِنِيرٍ بَعْدَ صِنِيرِي يُزْقَبُ^(٣)
سَتَعْلَمُ يَوْمَ أَهْلُنَا إِذَا تَزَالُوا وَزُيِّلَ أَمْرُ النَّاسِ لِلْحَقِّ أَصْوَبُ

* * *

ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعيَّاش بن أبى ربيعة الخزرجى ،
حتى قدما المدينة .

قال عمر رضى الله عنه : لَمَّا أَرَدْنَا الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعِيَّاشُ
ابْنَ أَبِي رَيْبِيعَةَ وَهَشَامَ بْنَ الْعَاصِ التَّنَاضُبَ مِنْ أَضَاءَةِ بَنِي غِفَّارٍ فَوْقَ بَرَفٍ^(٤) ،
وَقُلْنَا : أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمُضْ صَاحِبَاهُ . فَأَصْبَحَتْ أَنَا
وعِيَّاشُ عِنْدَهَا وَحُبِسَ عِنَا هَشَامُ وَفَتِنَ فَاغْتَنَ .

(١) ملعب : طريق واضح .

(٢) ابن همام : ورعنا . ومناها رجنا .

(٣) ابن همام : ترقب .

(٤) التناضب : يقال هو اسم موضع ، ومن رواه بالكسر فهو جمع تنضب وهو شجر
واحد له تنضبة . وأضاءة بنى غفار : موضع على عشرة أميال من مكة ، وسرف موضع على
سنة أميال من مكة .

فلما قدّمنا اللديفة نزلنا بقُبَاءه ، وخرج أبو جهل والحارث أخوه إلى عِيَّاش ، وكان ابنُ صهما وأخاها لأُمّهما حتى قدما علينا فقالا له : إن أملك نذرت ألاّ تمسّ رأسها بمشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرّق لها ، فقلت له : يا عياش والله إن يريك القومُ إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أُمّك القملُ لامتشطت ! ولو قد اشتد عليها حرٌّ مكة لاستظلت .

فقال : أبزّه قَسَمَ أُمّى ولى هذاك مالٌ فأخذه .

قلت : والله إنك لتعلم أُمّى لمن أكثر قريش مالا ، ففكّ نصفُ مالى ولا تذهب معها .

فأبى على إلا أن يخرج معها ، فلما أبى إلا ذلك قلت : أمّا إذ قد فعلتَ ما فعلتَ فخذ ناقتى هذه فإنها نجبيةٌ ذكُول ، فإزّم ظهرها فإنّ رابك من القوم رَيِّبٌ فانزع عليها .

فخرج عليها معها ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخى^(١) لقد استغلظتُ بعيرى هذا أفلا تُنقِبهى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . قال : فأناع وأناخا ليصحول عليها ، فلما استروا بالأرض عدّوا عليه فأوثقوه رابطاً ثم دخلا به مكة ، وفتحناه فافتتن !

وفى غير حديثٍ عمرُ أنهما دخلا به مكة نهاراً مُوثقاً ثم قالَا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفهيما هذا .

قال عمر رضى الله عنه فى حديثه : فسكنا نقول : ما اللهُ بقابلٍ عن افتتن

(١) ابن هشام : يا بن أخى . وما هنا أسح لتوله قبل : وكان ابن صهما وأخاها لأُمّهما .

صَرَخًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاده أصابهم
وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
المدينة أنزل الله تبارك وتعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : « قل يا عبادي
الذين آمنوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب
جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنهبوا إلى ربكم وأسلوا له من قبل أن
يبأتكم العذاب ثم لا تنصرون * واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ^(١) » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فكتبتها بيدي في صحيفة وبمشت
بها إلى هشام بن العاص .

قال : فقال هشام : لما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى ^(٢) أصمّد بها فيه
وأصوب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهمّنيها . فألقى الله في قلبي أنها إنما
نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا . فرجعت إلى بيمرى فجلست
عليه ، فلعقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

هذا ما ذكر ابن إسحق في شأن هشام .

وذكر ابن هشام عن يثق به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
وهو بالمدينة : مَنْ لِي بِمَيْيَاشِ بْنِ أَبِي رَيْيعة وَهشام بن العاص ؟ فقال الوليد
ابن الوليد بن النخبة : أنا لك يا رسول الله بهما . فخرج إلى مكة فقدمها
مستغنيا ، فلقى امرأة تعمل طعاماً ، فقال لها : أين تريدن يا أمة الله ؟ فقالت :

(١) سورة الإسراء .
(٢) موضع بأسفل مكة .

أريد هذين المسجونين^(١) . تعذيبهما . فحبسهما حتى عرف موضعيهما ، وكنا محبوسين في بيت لاسقف له ، فلما أَسْتَسَى تسوّر عليهما ثم أخذ مروءة^(٢) فوضعهما تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروءة لذلك .

ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه فقال :

هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

ثم قدم بهما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تتابع المهاجرون أرسالا فنزل طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان على خبيب بن إصاف . ويقال : بل نزل طلحة على أسعد بن زُرارة .

قال ابن هشام : ودُّ كرى أن صهيبيّا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيراً فكثُر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهييب : أرايتم إن جمعت لكم مالى أن تخفلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال فإني قد جمعتُ لكم مالى .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رَجِعْ صهييبُ رَجِعْ صهييب !

قال ابن إسحق : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، يفتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه أحد بمكة من المهاجرين ، إلا من خُسِ أو فتن ، إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق .

(١) ابن هشام : المحبوسين (٢) أى حجرا .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له : لا تَعَجَلْ ، لعل الله يجعل لك صاحباً . فيقطع أبو بكر أن يكونه .

[مؤامرة قريش]

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت ^(١) له شيمة وأصحاب من غيرهم بغیر بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه تجتمع ^(٢) لحربهم .

فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يشاورون ما يصنعون في أمره .

فاعرض لهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه ^(٣) بَتٌ ، فوقف على باب الدار في اليوم الذي اتَّمدُّوا له ، ويسمى يوم الزحمة ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتَّمدُّتم له فغضر معكم يسمع ما تقولون وعسى أن لا يُمَدِّمكم منه رأياً ونصيحاً . قالوا أجل فادخل . فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشرف قريش وغيرهم .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

فقتشاوروا ثم قال قائل : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زُهِيراً وللبانة ومن مضى منهم من هذا اللوث حتى يصيبه ما أصابهم .

(١) ابن هشام : قد صارت (٢) ابن هشام : قد أجمع .

(٣) البت : الطيلسان من الخنز وغيره .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه . فلاؤشكروا أن يثيؤوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يظلموك على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أعظمنا فننتفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبألى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقته وغلبته على قلوب الرجال لما^(١) يأتى به ؟ والله لو فلتتم ذلك ما أمنتم أن يحكم على حى من أحياء العرب فينقلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتأبوه ، ثم يسور بهم إليكم حتى يظلمكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أذبروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقتم عليه بعدئ .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم .

قال : أرى أن تأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فيدا ، ثم تعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فلنستريح منه ، فإنهم إن^(٢) فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا مداه بالقتل فقتلناه لهم .

(١) ابن هشام : إذا . (٢) ابن هشام : بما

فقال الشيخ النجدي : القول ما قاله الرجل ، هو الرأي لا رأى غيره ^(١) .

فتفرق القوم على ذلك وهم يجمعون له .

فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبيت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يَرْتَدُّونَهُ حَقِي ^(٢) ينام فينبون عليه ^(٣) ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعل بن أبي طالب : نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجَّ بِرُزْيَ هَذَا الْخَضِرَى الْأَخْضَرِ فَنَمْ فِيهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُسَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ

فاجتمعوا له وفيهم أبو جهل ، فقال وهو على بابه : إِنْ مَحْدًا يَزْعُمُ أَنَّكُمْ إِنْ تَابِعْتُمُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مَلُوكَ الْعَرَبِ وَالْحَجَجُ ثُمَّ بَعَثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فَعَمَلْتُمْ لَكُمْ جَنَّاتٍ كَيْفَ أَنْ الْأَرْضُ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ لَكُمْ فِيهِ ذَبْحٌ ، ثُمَّ بَعَثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فَعَمَلْتُمْ لَكُمْ نَارَ تَصْرَقُونَ فِيهَا
وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : نعم أنا الذي أقول ذلك ^(٤) أنت أحدكم .

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه ، وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات : « يس والقرآن الحكيم . إِنْكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

(١) ابن هشام : هذا الرأي الذي لا غيره .

(٢) ابن هشام : مَنَى .

(٣) المروء من أخلاق العرب أنهم كانوا لا يتناولون خصبهم في داره نائما ، والراجح أنهم اختلصوه حتى يخرج .

(٤) ابن هشام : أنا أقول ذلك .

على صراطٍ مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لئنذر قومًا ما أنذرت آبائهم فمنهم
ظافلون ، لقد حقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وجعلنا من بين
أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون^(١) .

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبقَ منهم
رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .
فأنام آتٍ من لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا .
قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع
على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ، أفلا ترون ما بكم ؟ !

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يطلعون
فيرون عليًّا في الفراش متسججًا بُرِّدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون :
والله إن هذا لحمد ناعمًا عليه بُرِّده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام
على من الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

فكان مما أنزل الله من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له
قول الله سبحانه : « وَإِذْ يَسْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ
أَوْ يُجْرِبُوكَ ، وَيَسْكُرُونَ وَيَسْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهَ^(٢) » .

وأذن الله تبارك وتعالى عند ذلك لنبيه في الهجرة .

ذِكْرُ الْحَدِيثِ عَنْ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ

حَدَّثَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ لَا يَخْطِيُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفِي النَّهَارِ ، إمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أَدْنَى اللَّهُ فِيهِ لِرَسُولِهِ فِي الْمُهْجَرَةِ وَانْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ يَمِينِي ظَهَرَانِي قَوْمَهُ ، أَنَا نَا بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةِ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ : مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا مِنْ حَدَّثٍ^(١) .

فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سِرِّرِهِ ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأَسْمَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخْرِجْ هُنَّ مَنْ عِنْدَكَ . فَقَالَ يَأْنِيَّ اللَّهُ إِنَّمَا هُنَّ ابْنَتَايَ ، وَمَا ذَاكَ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي ؟

فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ أَدْنَى لِي فِي انْخُرُوجِ وَالْمُهْجَرَةِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمُشْجَعَةُ يَارَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : الْمُشْجَعَةُ .

قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا شَمَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ !

نَمَّ قَالَ : يَأْنِيَّ اللَّهُ إِنْ هَاتَيْنِ الرَّاحِلَتَيْنِ قَدْ كُنْتَ أَحَدْتَهُمَا لِهَذَا .

(١) ابْنُ هِشَامٍ : إِلَّا الْأَمْرَ حَدَّثَ .

وكان أبو بكر رجلاً ذا مالٍ فسكر حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال : لا تَعْبَلْ لَكَ اللهُ يحمل لك صاحباً ، قد طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعني نفسه ، فابتاع راحلتين ، فخبسهما في داره يملئهما إعداداً لذلك .

فاستأجر عهداً الله بن أرقط رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر وكان مشركاً ، يذلُّهما على الطريق ، ودفعاً إليه راحتيهما فسكرتا عنده يرهما لميادها .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج أحدٌ ، إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر .

أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بمكة حتى يؤدِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يَنْقُش عليه إلا وضعه عنده ليأعلم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم حَمِدَا إلى غار ثور ، جهل بأسفل مكة ، فدخلاه .

وأمر أبو بكر ابنه عهد الله أن يتسمع لما يقول الناس فيهما نهاراً ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، فسكران بفعل ذلك ، وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يربحها عليهما إذا أمسى في الغار ، فسكران عامر يرعى في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا خَدَا عبدُ الله بن أبي بكر من عندها إلى مكة ، تقبَّ عامر أثره بالغمم حتى يُنْقَى عليه ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأنيهما من الطعام بما يصلحهما .

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن قال : انتهى رسول الله

وأبو بكر إلى النار ليلا فدخل أبو بكر قبله فلمس النار لينظر فيه سبه أوحية ،
 بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . ولما قدت قريش رسول الله صلى الله
 عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة يتبعون أثره في كل وجه ،
 فوجد الذي ذهب قبل نور أثره هناك ، فلم يزل يقيمه حتى انقطع له لما انتهى
 إلى نور . وشق على قريش خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وجزعوا
 لذلك فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم ، ورسولون من يطلبه فيما بعد
 عنهم ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم ، ولما انتهى إلى قم النار ، وقد كانت
 المعكوت ضربت على بابه بعشاش بعضها على بعض ، بعد أن دخل رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فيها ذكروا ، قال قائل منهم : ادخلوا النار ، فقال أمية
 ابن خلف : وما أنبكم إلى النار ؟ إن عليه لمعكوتا أقدم من ميلاد عدا
 قالوا : فدعى النبي صلى الله عليه وسلم يرمثي عن قتل المعكوت ، وقال :
 إنها جدد من جنود الله .

وخرج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي مصعب السكي قال :
 أدركت زيد بن أرقم والنخبة بن شعبة وأنس بن مالك ، يحدثون : أن النبي
 صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في النار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرة
 فنبتت في وجه النار ، وأمر الله عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بقم النار ،
 وآتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر
 أربعين ذراعاً ، معهم قسيهم وعصيهم ، فتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين ،
 فرجع فقال لأصحابه : ليس في النار شيء ، رأيت حمامتين على قم النار فمرفت أن
 أبس فيه أحد .

فسمع قوله النبي صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد ذرأ بهما عنه فشمت
 عليهما^(١) وفرض جزاءهما واتخذت في حرم الله ففرخن . أحسبه قال : فأصل

(١) شمت عليهما : دعا لهما بخير .

كلّ حمامٍ في الحرم من فراخهما .

وذكر قاسم بن ثابت فيما تولى شرحه من الحديث أن الله أثبت الرأفة على باب النار لما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه قال : وهى شجرة معروفة .

قال غيره : تكون مثل قامة الإنسان ، ولما زهر أبيض تُحصى به الحداة للبيده وخفقه .

وحكى الواقدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل النار ، دعا بشجرة كانت أمام النار ، فأقبلت حتى وقفت على باب النار ، فنجبت أعين الكفار وهم يطوفون في الجبل .

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما غلطك باثنين الله ثالثهما !

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في النار ثلاثاً ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه بهما ، وأتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما ، ونسيت أن تحمل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فتعلت نطاقيها فتجعله عصاماً ، ثم تعلقها^(١) به ، فكان يقال لها ذات النطاق ذلك فيما ذكر ابن إسحاق .

وأما ابن هشام فذكر أنها إنما يقال لها ذات النطاقين ، وهو المشهور عنها رضى الله عنها ، وذكر أنه سمع غير واحد من أهل العلم يفترون بأنها شقت نطاقيها باثنين ، فماقت السفرة بواحد وانطقت بالآخر .

قال ابن إسحاق : فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله صلى الله

(١) ابن هشام : ثم علقتها به .

عليه وسلم قدّم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فذاك أبى وأبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأبى . قال : لا ولكن ما التّمنّ الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها بذلك . فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامر بن فهيرة ليهدهما فى الطريق .

قال : أخذت عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أنا نافر من قريش فيهم أبو جهل ، فقالوا : أين أبوك يا بطة أبى بكر ؟ قلت : لا أحدى والله . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدى لطمة طرح منها قرطلى ، ثم انصرفوا فسكرنا ثلاث ليالٍ ما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتخفى بأبيات من شعر غناء العرب وإنّ الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربّ الناس خيراً جزائه رقيقين حلاًّ خيمتّى أم ممّبد
ها نزلاً بالبرّ ثم تروّحاً فأفلح من أمتى رفوق محمد
ليهنّ بنى كعب مكان فحاتهم ومعهدها للمؤمنين بمرّ حسد
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن وجهه إلى المدينة .

[قصة أم معبد]

وعن غير ابن إسحق وهو عندنا بالإسناد من طرق^(١) ، أن أمّ معبد هذه امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قال ابن كثير : وأصلها معبورة مرويّة من طرق يشدّ بشدها بشا .

حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة
ودليلهما الليثي عبد الله بن الأرقط مرثوا على خيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة
برزة جلدة^(١) تحمى بفناء القبة ثم تسقي وتعلم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه
منها فلم يصيبوها عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرمِلين مُسْتَقِينَ^(٢) فظفر
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة
يا أم معبد ؟ قالت : شاة خَلَقَهَا الْجَهْدُ عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟
قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي
أنت وأمي إن رأيتَ بها حَلَبًا فاحلبها . فدعا بها رسولُ الله صلى الله عليه
وسلم فسمح بيده ضرعها وسَمَّى الله ودعا لها في شاتها ففُتِجَتْ^(٣) عليه ودرَّت
واجترت ، ودعا لها يُرِيضُ^(٤) الرهط فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها ، ثم سقاها
حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ، ثم أراضوا^(٥) ، ثم حلب
فيه ثانياً بعد بَدْءه حتى لَأَ الإِنَاء ، ثم غادره عندها وبأيتها وارتحلوا عنها .

فَقُلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أغنراً محبباً يَنْسَاوُكُنْ^(٦)
هزلاً ضيغامين قليل^(٧) ، فلما رأى أبو معبد الابنَ حجب وقال : من أين لك هذا
الابن يا أم معبد ؛ ولشَاء طازب حِيَال ولا حَكُوب في البيت ؟ قالت : لا والله ،
إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا . قال : صِفْه لي يا أم معبد :

(١) البرزة : المرأة العظيمة تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهي المرأة التي أسأت
وخرجت من حد الهجويات . والجلدة : القوية .

(٢) مرمِلين : نفد زادهم فالتفروا ، ومستقِينَ : أصابهم السنة وهي الجذب .

(٣) الفتاج : المبالغة في تضييع ما بين الرجلين . النهاية ٩٩/٣ .

(٤) يريض الرهط : يرويه بعض الرى ، من أراض المروض إذا صب فيه من الماء
ما وارى أرضه . النهاية ٢ / ١١٨ .

(٥) أراضوا : شربوا عللاً بعد نهل . أو صبروا الابن على اللبن .

(٦) ينساوكن : يتمايلن من الضعف .

(٧) كذا بالأصل ، وفي الوفا لابن الجوزي ٢٤٣ : عهن قليل .

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضأة أبلج الوجه حسن الخلق لم يعبه ثجلة ولم تثر به صفة^(١) وسيم قسيم في عينيه دجاج وفي أشفاره غطف^(٢) وفي عنقه سلع^(٣) وفي صوته تحل^(٤) وفي لحيته كثافة ، أزج أقرن^(٥) إن صمت فعليه الوقار وإن تكلم ستما وعلاه البهاء ، أجهل وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو للملحق فصل لا تزر ولا تذر كأن منطقه خرزات نظمهم يصحرون ربة لا يأس من طول ولا تقضمه العين من قصر ، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرأ وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مقند .

قال أبو مبيد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد همت أن أصبهه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .
وأصبح صوت بمكة عال يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه ، وهو يقول :

جرى الله رب الناس خير جزائه رفيقن قالا خيمتي أم معبد
ما نزلها بالهدى فاهتدت به^(٦) فقد فاز من أمتي رفيق محمد
فما قصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجاري وسودد

(١) الثجلة : عظم البطن واسترخاؤه والصعلة : الدقة والتحول يقال صلت الناقة إذا ضرت . وقيل : أرادت أنه لم يكن متفتح الخاصرة جدا ولا لاحلا جدا . النهاية لابن الأثير ٢ / ٢٩٣ .

(٢) الضلف : أن يطول شعر الأجنان ثم ينسلف . وروى بالدين كما يروى بالواو .

(٣) سلع : ارتفاع وطول .

(٤) الصل : كالجمعة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

(٥) الأزج : القوس في الحاجب مع طول في طرفه واستداد . وأقرن : مقرون الحواجب .

(٦) البداية والنهاية : ما نزل بالهدى وارتحلا به .

لَيْبَنٍ بَنِي كَمِيٍّ مَقَامُ فَتَاهِمٍ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدٍ
 سَلُّوا أَخْصَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنْ كُمْ أَنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
 دَمَاهَا بِشِئَاءٍ حَاطِلٍ فَتَحْلَبُ لَهُ بِعَرِيحٍ ضَرْبُ الشَّاةِ مُزِيدٌ^(١)
 فَنَادِيهَا رَهْنًا لَدَيْهَا حَالِيٍّ بِرَدِّدِهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مُؤَرِّدٍ
 فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ جَعَلَ يَحْجُوبُ الْخَائِفَ وَيَقُولُ :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالٌ عَنْهُمْ نَيْبُهُمْ وَقُدْسٌ مَنِ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَفْقِدُ
 تَرْحَلُ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بَنُوهُ مُجِدِّدُ
 هَدَامٍ بِهِ بَمَدِّ الضَّلَالَةِ رُبُّهُمْ وَأَرْشَدُهُمْ ، مَنْ يَنْتَبِهُ الْحَقَّ يُرْشِدُ
 وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٍ تَسْكُمُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْدِي
 لَقَدْ نَزَلْتُ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ يَرْبٍ رَكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْمُدٍ
 نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَطْلُو كُتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةً غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَيْعَى الْقَدْرِ
 لَيْبَنٍ أَبَا بَكْرٍ سَمَادَةٌ جَدَّةُ بِصَحْبَتِهِ ، مَنْ يُشَدِّدِ اللَّهُ يُسْعِدِ

* * *

وذكر أبو منصور محمد بن سعد الماوردي بإسناد له إلى قيس بن النعمان
 قال : لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه يستخفيان في النار
 مَرًّا بِمَبْدٍ يَرَى غَنًا فَاسْتَسْقَاهُ مِنَ الْإِبْنِ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا لِي شَاةٍ تُحْلَبُ ، غَيْرَ
 أَنْ هَاهُنَا عَنَاقًا^(٢) حَلَّتْ أَوَّلَ الشَّاءِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :
 ائْتَدَا بِهَا . فَذَمَّا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْبُرْكَ ثُمَّ حَلَبَ حُسًّا^(٣)
 فَسَقَى أَبَا بَكْرٍ ، ثُمَّ حَلَبَ آخَرَ فَسَقَى الرَّاحِيَّ ، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرِبَ .

(١) الفقرة : أصل الفرع .

(٢) العناق : هي الأنثى من أولاد النحر ما لم تنم لها سنة .

(٣) الحس : اللدح الضخم .

فقال العبد : من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترأى إن حدثتك تسكنم على ؟ قال : نعم . قال : فإني محمد رسول الله . قال : أنت الذي تزعم قریش أنك صابى ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك . قال العبد : فإني أشهد أنك رسول الله وأن ماجئت به الحق ، وأنه ليس يفعل فعلك إلا نبي . ثم قال العبد : أتبعك ؟ قال : لا ، حتى تسمع بنا أنا قد ظهرنا .

وخرّج البرقاني^(١) [في مصالحيه^(٢)] من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما ، وأورده الإمامان البخارى ومسلم في صحيحيهما^(٣) من حديثه قال : اشترى أبو بكر رضى الله عنه من عازب رَحْلًا^(٤) بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر لعازب : مُرِ الْبَرَاءَ أَنْ يَحْمِلَهُ إِلَى أَهْلِ . فقال له عازب : حق محمدنى كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا وللشركون يظلمونكم . قال :

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقاني الموارزى الفقيه المحدث الأديب الصالح له التصانيف المشهورة روى عن الفارطى وخلق كثير روى عنه أبو بكر الخطيب وقال لم تروى شيوختنا أثبت منه . تولى مسهل رجب من سنة خمس وعشرين وأربعمائة وكانت ولادته سنة ست وثلاثين وثلاثمائة الباب ١ / ١١٣ .

(٢) المصالحه : هى شرب من علو السند ، وهى أن تقع المساواة للشيخك لائقه ، يقع ذلك لك مصالحة . كما قال ابن الصلاح . والمساواة كما قال ابن الصلاح أيضا : أن يقل الصدق إسناده لا إلى شيخ مسلم وأمثاله ولا إلى صحيح شيخه بل إلى من هو أبعد من ذلك كالصحابي أو من قاربه ورعا كان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يقع بينك وبين الصحابي مثلا من السدد مثل ما وقع من السدد بين مسام وبين ذلك الصحابي فتكون بذلك مساويا لمسام مثلا في قرب الاسناد وعدد رجاله .

فإذا وقعت هذه المساواة للشيخ وقع ذلك مصالحة لشيخه إذ يكون كأنه لى مسلما في ذلك

الحديث لكونه قد لقى شيخه المساوى لمسلم انظر الباحث الحديث ١٨٣ .

(٣) البخارى ٢ / ١٩٥ مختصرة جدا باختلاف عما هنا .

(٤) ابن كثير : سرجا .

ارحلنا من مكة فَأَحْتَنَّا^(١) يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظُّلُمَةِ ،
فَرَمِيتُ بِبَصْرَى هَلْ أَرَى مِنْ ظِلِّ نَأْوَى إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَنَا بِصَخْرَةٍ فَاتَّهَيْتُ
إِلَيْهَا^(٢) ، فَإِذَا بَقِيَّةُ ظِلِّهَا ، فَفُظِرْتُ بِقِيَةِ ظِلِّهَا فَسَوَّيْتُهُ وَفَرَشْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرُونَ^(٣) وَقُلْتُ : اضْطَجِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فاضْطَجَعَ .

ثُمَّ ذَهَبْتُ أَنْظُرَ مَا حَوْلَهُ هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ
يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يَرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أُرِيدُ ، يَمْنَى الظَّلَّ . فَسَأَلْتُهُ
فَقُلْتُ : لِمَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ ؟ قَالَ : لِنَافِلَانَ ، رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَاءُ ، قَعْرِفَتُهُ ،
فَقُلْتُ : هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : هَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لِي ؟
قَالَ : نَعَمْ . فَاهْتَقِلْتُ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ فَأَمَرْتُهُ أَنْ يَنْقُضَ ضَرْعَهَا مِنَ النَّبَارِ ،
ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْقُضَ كَفَّيْهِ ، فَقَالَ هَكَذَا ، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى
فَنَابَ لِي كُثْبَةٌ^(٤) مِنْ لَبَنٍ وَقَدْ رَوَيْتُ مَعِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِدَاوَةً عَلَى فِهَا خَرْقَةٌ ، فَصَبَبْتُ عَلَى الْإِثْنِ حَتَّى بَرَدَ أَصْفَلُهُ ، فَاتَّهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اسْتَقْبَضَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ . فَشَرِبَ
حَتَّى رَضِيتُ ، وَقُلْتُ : قَدْ آتَى الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا فَلَمْ يَدْرِكُنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرَ سُرَّاقَةَ بْنِ مَالِكٍ
ابْنِ جُبَشْتَمَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ ، فَقُلْتُ : هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .
وَبَكَيْتُ ، قَالَ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا !

قَالَ : فَلَمَّا دَنَا فَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ قَدْرُ رَحْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ قُلْتُ : هَذَا
الطَّلَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ بَلَغَنَا . وَبَكَيْتُ . قَالَ : مَا يَبْكِيكَ ؟ فَقُلْتُ :
أَمَّا وَاللَّهِ مَا عَلَى نَفْسِي أَجْكِي ، وَلَكِنِّي أَجْكِي عَلَيْكَ .

(١) ابْنُ كَثِيرٍ : خَرَجْنَا فَأَدْبَلْنَا فَأَحْتَنَّا .

(٢) ابْنُ كَثِيرٍ : فَأَمَوَيْتُ إِلَيْهَا .

(٣) الْكُثْبَةُ : لَبَنٌ الْحَلِطَةُ .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخنت فرسه في الأرض إلى بطنها ، فوثب عنها وقال : يا محمد قد علمت أن هذا حملك فاذع الله أن يصيبني مما أنا فيه ، فوالله لأعطين على من ورأى من الطلاب ، وهذه كفانتي نخذ منها سهماً فإنك ستمر على إيلي وغنسي بمكان كذا وكذا . نخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لي في إيلك . ودعاه ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه .

وفي حديث البخاري ومسلم : فجعل لا يلقى أحداً إلا قال : قد كفيتكم ما هنا . فلا يلقى أحداً إلا ردّه . قال : ووَقَى لنا .

[حديث سُرَاقَة]

وعن سُرَاقَة بن مالك بن جُشم فبما أورده ابن إسحق قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

قال : فبينما أنا جالس في نادي قومي أَقْبَلَ رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت رَكَبَةً ثلاثة مرؤا على آفا ، إني لأراهم محمداً وأصحابه .

قال : فأومأت إليه ، يعني أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يذهبون ضالّة لهم . قال : لعله . ثم سكنت .

فسكنت قليلاً ثم قت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي وبسلاحي فأخرج لي من دُبُر حجرى ، ثم أخذت قِداحي التي استقسم بها ، ثم انطلقت فليست لأمتي ، ثم أخرجت قِداحي ، فاستقسمت بها بفرج السهم الذي أكره : لا يضره . وكنت أرجو أن أردّه على قريش فأخذ المائة .

فركبت على أئره، فبينما فرسى يشد بي عثرى فسقطت عنه، قلت :
ما هذا؟! ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره :
لا يضره . فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى أئره، فبينما فرسى يشد بي عثرى
فسقطت عنه قلت : ما هذا؟! ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج
السهم الذى أكره : لا يضره . فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أئره، فلما بدا
لى القوم عثرى فرسى وذميت يداه فى الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه
عن الأرض وتبعها دخان كالإعصار، فمرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع
منى وأنه ظاهرٌ.

فدايت القوم : أنا سراقه بن جُعشم، انظرونى أكلكم، فوالله لا أرىكم
ولا يأتىكم منى شيء تكرهونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : قل له :
ما تبعنى ؟ قال : تكتبوا لى كتاباً يكون آيةً بينى وبينك . قال اكتب
يا أبا بكر . فكتب لى كتاباً فى عظم أو فى رقعة أو فى خزقة^(١) ثم ألقاه إلى ،
فأخذته فجعلته فى كنانتى، ثم رجعت فلم أذكر شيئاً .

حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من
حُدَيْن والطائف خرجت ومى الكتاب لألقاه فلقمته بالجِمرانة^(٢) فدخلتُ
فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون : إلبك إلبك
ماذا تريد ؟

فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته، والله لكأنى

(١) ابن هشام : خزقة .

(٢) الجمرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب .

أنظر إلى ساقه في غَزِيهِ كأنها جُجَّارة^(١) ، فرفت يدي بالكتاب ثم قلت :
يا رسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقه بن جُشْم . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يوم وفاه ويرة اذن^(٢) . فذنوت فأسلت . ثم تذكرت شيئاً
أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فأذكر ، إلا أني قلت : يا رسول الله
الضالة من الإبل تنفش حياضى وقد ملأها لإبل ، هل لي من أجر في أن
أسقيها ؟ قال : نعم ، في كل ذات كبد حررى أجر^(٣) .

ثم رجعت إلى قولى فسُقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .
وفي حديث آخر عن غير ابن إسحق أن سراقه بن مالك بن جُشْم هذا
كان شاعراً مجيداً ، وأنه قال يخاطب أبا جهل بن هشام بعد انصرافه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما حَكَمهم والله لو كنت شاهداً لِأَمْرِ جَوَادِي إِذ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ
علت ولم تشكك بأن محمداً رسولاً بهوانٍ فن ذا بقاومه
عليك بكفّ القوم عنه فإننى أرى أمره يوماً ستبدو معالمة
بأمر يود الناس فيه بأسهم بأن جميع الناس طراً يسأله
وذكر ابن إسحق^(٤) من رواية يونس بن بكير عنه شعراً نسبته إلى
أبي بكر الصديق^(٥) رضى الله عنه ، يذكر فيه مسيره مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقصة الفار وأمر سراقه ، وهو :

(١) الحجارة : شحم النمل . يريد يياضها .

(٢) ابن هشام : أدله .

(٣) لم يرد هذا الخبر في ابن هشام ، إذ أن ابن هشام إنما أثبت رواية البكاء عن
ابن إسحق .

(٤) روى السهيلي أن عائشة رضى الله عنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال
بنت شعر في الإسلام .

قال النهي ولم يَجْزَع يوقرنى^(١) ونحن في سُدْفَةٍ من ظِلَّةِ النارِ
لا تَخْشَ شَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَا وقد تَوَكَّلْ لِي مَعَهُ بِإِظْهَارِ
وَأَنَا كَتَيْدٌ مَنْ تَخْشَى بَوَادِرَهُ كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتَهُ لِكْفَارِ
وَاللَّهُ مَهْلِكُهُمْ طَرًّا بِمَا كَتَبُوا وَجَاعِلُ الْمُنْتَهَى مِنْهُمْ إِلَى الْبَارِ
وَأَنْتَ مَرُّ تَحِيلٍ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ إِنَّمَا غَدُّوْا وَإِنَّمَا مُدْلِجٌ سَارِي
وَهَاجِرٌ أَرْضَهُمْ حَقٌّ يَكُونُ لَنَا قَوْمٌ عَلَيْهِمْ ذُووُ حَزٍّ وَأَنْصَارِ
حَقٌّ إِذَا الْبَيْلُ وَارْتَنَّا جَوَائِثَهُ وَسَدٌّ دُونَ مَنْ تَخْشَى بِأَسْتَارِ
سَارِ الْأَرْضِ يَهْدِيهَا وَأَنْتِيقُهُ بَعْدَ بَعْدٍ بِالْقَرْمِ نَعِيمًا نَحْتُ أَكْوَارِ^(٢)
بِمَسْفِينِ عَرْضِ الثَّلَاثَا بَعْدَ أَطْلُومَا وَكُلَّ سَهْبٍ رَفَاقِ التَّرَبِّ مَوَارِ^(٣)
حَتَّى إِذَا قُلْتُ قَدْ أَتَيْتُكَ عَارِضَهَا مِنْ مُدْلِجِ فَارِسٍ فِي مَنَصِبِ وَارِ^(٤)
يُرْدِي بِهِ مَشْرِفُ الْأَقْطَارِ مُعْتَزِمٌ

كَالْتَيْدِ ذِي الْبَيْدَةِ لِلتَّاسُدِ الضَّارِي^(٥)

فَقَالَ كَرُّوا قَتَلْنَا إِنْ كَرَرْنَا مِنْ دُونِهَا لَكِنْ نَصْرُ الْخَالِقِ الْبَارِي
إِنْ يَخْشَفُ الْأَرْضَ بِالْأُخْوَى وَفَارِسِهِ فَانْظُرْ إِلَى أَرْبَعٍ فِي الْأَرْضِ غَوَارِ^(٦)
فَهَيْلٌ لَنَا رَأَى أَرْسَاخَ مُقَرَّبِهِ قَدْ سَخَنَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُخْفَرِ بِعَفَارِ
فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ تُطْلُقُوا قَرْمِي وَتَأْخُذُوا مَوْتِي فِي نَصَبِ أَسْرَارِ

(١) يوقرنى : يطمئنى ، يقال : جنان وائر : لا يستغفه الذنب .

(٢) الأتيق : جمع ناقة . والقرم : السيد : وينين : يمدون .

(٣) بمسفين : يقطعن . والسهب : الغلاة . وللموار : للقطرب للتحرك

(٤) أنجدين : ارتقن . والواري : المفديد ، من وري الزند ، خرجت لاره

(٥) يردى : يجرى . ومعرف الأقطار : مرتفع التواحي . والسيد : الأسد .

(٦) الأخوى : الأسود . يهد الفرس . والأربع : اللواضع .

وأصرف الحق عنكم إن لقيتهم وأن أعورَ منهم عينَ عَوَارٍ
فادْعُ الذي هو عنكم كَفَّ عَدُونَنَا يطلق جوادى وأنتم خيرُ أبرارٍ
فقال قولاً رسولُ الله مبتلأً يارب إن كان منه غيرُ إخفَارٍ
فنجّه سالماً من شر دعوتنا ومهزّه مطلقاً من كَلَمِ آثارٍ
فأظهر الله إذ يدعو حوافره ونار فارسه من هول أخطار^(١)

وسراقه بن مالك هذا الذي أظهر الله فيه هذا التلم العظيم من اعلام
نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أظهر الله فيه أثراً آخر من الآثار
الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه من النيب في حياته ماظهر مصداقه
بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لسرافة بن مالك : كيف بك إذا لبست سيواري^١
كسرى ؟

قال : فلما أتى مصر رضى الله عنه بسيواري^٢ كسرى ومنطقته وتاجه
دعا سرافة بن مالك فألبسه إياها .

وكان سرافة رجلاً أظ^(٣) كثير شعر الساعدين ، وقال له : ارفع
يديك فقل : الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز الذي كان

(١) روى أبو ليم هذه القصيدة من طريق زياد بن محمد بن اسحق فذكرها مطولة
جدا ومع ذلك فسيات النسمة والتكاف بأدية عليها ، وليس بها طابع العصر الأول .

(٢) وذلك سنة ثلاث عشرة من بشته عليه السلام . قال ابن كثير : وذلك أول
التاريخ الإسلامى كما اتفق عليه الصحابة في الدولة المصرية . وروى حديث البخارى عن ابن
عباس : بث النبي (ص) لأربعين سنة ، فسكت فيها ثلاث عشرة يوسى إليه ، ثم أمر
بالمجرة فهاجر عفر سنين ، مات وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(٣) الأظب : الكثير الشعر .

يقول : أنا رب الناس واليهما سراقَة بن مالك بن جُشم أعرابياً من
بنى مُذَلج ۱۱

ورفع بها عمر رضى الله عنه صوته .

* * *

قال ابن إسحق ، وذكر إسناداً رفعه إلى أسماء بنت أبي بكر ، قالت :
لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر احتفل
أبو بكر ماله كله ، خمسة ألف أو ستة ، فدخل عليهما جدى أبو قحافة وقد
ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجّعكم بماله مع نفسه . فقلت : يا أبت
إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . فأخذت أحجاراً فوضعتها في كتوة كان أبى يضع
ماله فيها ، ثم وضعتُ عليهما ثوباً ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضَع يدك على
هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ثم قال : لا بأس إذا كان ترك لكم هذا
فقد أحسن ، وفي هذا بلاغٌ لكم .

ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكفى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

* * *

وذكر ابن إسحق الطريق الذى سَلَكَ برسول الله صلى الله عليه وسلم
وبأبى بكر الصديق رضى الله عنه دليله عبدُ الله بن أَرْيَظَة ، وللناقل الذى سار
بهما عليهما إلى أن قَدِمَ بهما قُبَاء على بنى عمرو بن عوف لا ثنى عشرة
ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحى وكادت
الشمس تمقلد .

وقال غير ابن إسحق : قَدِمَا ثَمَانِ خَلَوْنَ من ربيع الأول .

وقال ابن السكيت : خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول ،
ووصل المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة منه . قاله تعالى أعلم .

[دخول النبي المدينة]

وذكر ابن إسحاق من حديث عبد الرحمن بن عوف بن ساعدة قال :
حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا^(١) :
لما سمعنا يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة توكلنا^(٢) قدومه ،
فكنا نخرج إذا صلينا للصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى
تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلًا دخلنا ، وذلك في أيام حارة .

حتى إذا كان اليوم الذي قديم فيه جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم
يَبْقَ ظِلٌّ دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا
البيوت ، فكان أول من رآه رجل من يهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنا
ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :
يَا بَنِي قَيْلَةَ هَذَا جَدُّكُمْ قَدْ جَاء .

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر
في مثل سبيله ، وَأَكْثَرْنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ ،
وركيه الناس ، وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه فمرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيا يذكرون على
كلثوم بن هذم ، أخى بنى عمرو بن عوف . ويقال : بل نزل على سمعد
ابن خثيمة .

ويقول من يذكر نزوله على كلثوم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج

(١) الأصل : قال .

(٢) قال الزعفراني : ومن المجاز : فلان يتوكل الأخبار نحو : يستعطر الأخبار .

والنبي : تربيته والظفرناه .

من منزل كلثوم جلس للباس في بيت سعد بن خيثمة ، لأنه كان عزباً
لا أهل له ، فَبُنْ هناك يقال نزل عليه . وكان يقال لبنت سعد : بيت
المُزَاب^(١) ، لأنه كان منزل للمهاجرين منهم . فَاَلله أعلم أى ذلك كان .
ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خُبَيْب بن إساف ، أحد
بنى الحارث بن الخزرج بالشَّعْب ، ويقال على خاتمة بن زيد بن أبي زهير منهم .

• • •

وأقام على بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أَدَّى من
رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للباس ، حتى إذا فرغ
منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه .

فَسَكَنَ على رضى الله عنه . وإنما كانت إقامته بَقَاءَ ليلة أوليلتين -
يقول : كانت بَقَاءَ امرأة مسلمة لا زوج لها ، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف
الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيه شيئاً معه فتأخذه .

قال : فَاسْتَرْبَتْ شَأْنَهُ ، فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الذى يضرب
عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدرى ما هو ، وأنت
امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

قالت : هذا سَهْل بن حُتَيْف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا
أمسى عَقَدَا على أوئان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال : احتطى بهذا !
فَسَكَنَ على رضى الله عنه بِأَمْرٍ ذَلِكَ فى أمر سهل بنت حُتَيْف ، حين^(٢)
هلك عنده بالعراق .

• • •

(١) فى شرح السيرة لأبى ذر : الأعراب .

(٢) ابن هشام : حتى .

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسّس مسجدهم ثم أخرجهم الله تعالى من بين أظهرهم يوم الجمعة .

وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك^(١) ، فإله أعلم .

فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، وادي رانونا ، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة .

فأتاه عتيان بن مالك وعباس بن عبيدة بن نضلة ، في رجال من بني سالم ، فقالوا : يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أقيم عندنا في المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . لفاقه . فخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وقروة ابن عمرو ، رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله . هلم إلينا إلى المدد والمدة والسنة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد ابن الربيع وخارجة بن زيد بن أبي زهير وعبد الله بن روضة ، رجال من بصرى^(٢) ، فقالوا يا رسول الله هلم إلينا إلى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدى بن النجار وهم أخواله دنيا

(١) ترددت روايات الزيادة عن ذلك بين أربع عشرة ليلة وثمان عشرة ليلة والثنين وعشرين .

(٢) ابن همام : مل بن الحارث بن الخزرج .

أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ، اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أشيرة بن أبي خارجة ، في رجال منهم ، فقالوا : يا رسول الله هم إلى أخوالك إلى العدد والمدة واللمنة . قال . خلوا سبيلها .

حق إذا أنت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ ميربذ لفلامي يقيم من بني مالك بن النجار ، في حِجْر مُقَاز بن عفرأ فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وتثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضح لها زيماءها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحللت وورزمت ووضعت حِجْرانها^(١) فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب رَحْلَه فوضعه في بيته .

[بناء المسجد]

ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بنى مسجده ومساكنه ، وسأل عن الميربذ لمن هو ؟ فقال له . ما ذ بن عفرأ : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان له وسأرضيهما منه ، فاحتذاه مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبْنَى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فصل المهاجرون والأنصار ودأبوا . فقال قائل من المسلمين :

لئن قمصدنا والنبي يَمَكُنْ لَكَ منّا العمل للضلل

(١) تحللت . تحركت وانزجرت . ورزمت : ألفت من الكلام . والجران ما يصيب الأرض من صدر الناقة وياطن حلقها .

وحدث أبو أيوب قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في الشغل وأنا وأم أيوب في الملو ، فقلت له : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ! إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت فسكن في الملو ونزل نحن فسكون في الشغل . فقال : يا أبا أيوب ، إن أرقت بها وبمن ينشأنا أن نكون في سفلى البيت .

فلقد انكسر حُبُّنا فيه ماء ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها تَلَشَّف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذي به .

فكنا نصنع له العشاء ثم نبيت به إليه ، فإذا رَدَّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، لبيتى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعثائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أرَ ليدِّه فيه أثر ، لحشته فزعاً فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك لبيتى بذلك البركة . قال : إني وجدتُ فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي ، فأما أنها فكلوه . فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعد .

* * *

قال ابن إسحق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يؤعب أهلُ هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهلُ دُورِ مُسَوِّن .

بنو مَظَلَمُونَ من بني مُجَمِّع ، وبنو جِشَّ بنِ رِثَاب ، حلفاء بني أمية ،

وبنو البُكَيْر من بنى سعد بن ليث ، خلفاء بنى عدى بن كعب ، فإن دورم غلقت بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

[أول خطبة للنبي بالمدينة]

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، بُني له فيها مسجده ومساكنه .

قال : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بانفى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل - أنه قام فيهم لحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تملنّ والله ليُصنعهنّ أحدكم ثم ليَدَعَنّ غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك فما قدّمتَ لنفسك ؟

فليَنظُرُنَ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظُرُنَ قدامه فلا يرى غير جهنم .

فمن استطاع أن يَتَّقِي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال : - إن الحمد لله أحده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله

تبارك وتعالى ، قد أفلح من زَيَّنَه الله في قلبه ، وأدْخَلَه في الإسلام بمدِّ الكفر ،
فاختاره^(١) على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبْلَغُهُ ،
أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللهُ أَحَبُّوا الله من كل قلوبكم ، ولا تَمْلُوا كلامَ الله وذِكْرَهُ ،
ولا تَقْسُ عَنْهُ قلوبكم ، فإنه مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللهُ يَخْتَارُ وَيَصْطَلِي ، فقد سَمَّاهُ
[الله]^(٢) خَيْرَهُ من الأَعمال ومصطفاه من المباد ، والصالح من الحديث
ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً
واتقوه حق تقاته ، وصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح
الله بينكم ، إِنَّ الله يَنْضَبْ أَنْ يُنْكِتَ عَهْدَهُ ، والسلام عليكم .

[الإخاء ، وموادعة لليهود]

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين
للمهاجرين والأنصار واتَّعَ فيه يهودَ وطاهم وأقرَّهم على دينهم وأموالهم ،
واشترط عليهم وشرط لهم .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ،
فقال فيما بلغنا - ونمود بالله أن نقول عليه ما لم يَقُلْ : تَأَخَّوْا فِي اللهِ أَخْوَيْنِ
أَخْوَيْنِ . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، سيدُّ الرسلين وإمامُ اللقيين ورسولُ رب العالمين الذى
ليس له خطير ولا نظير من الوجود ، وعلى بن أبي طالب أَخْوَيْنِ .

ثم سَمَّى ابن إسحق قرأ من آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أصحابه تركنا ذكرهم اختصاراً .

(١) ابن مغازي : واختاره .

(٢) من ابن مغازي .

[وفاة أسعد بن زرارة]

قال : وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة ، والمسجد جيتى ، أخذته الذبحة أو الشبهة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بُسِ الميث أبو أمامة ليهود ولينافق^(١) العرب ، يقولون : لو كان نبيا لم يمت صاحبه ! ولا أمك لنفسى ولا لصاحي من الله شيئا .

ولما مات أبو أمامة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو أمامة نقيبهم ، فقالوا : يا رسول الله إن هذا كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أخوالى وأنا أؤتى بكم ، فأنا نقيبكم . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخص بها بعضهم دون بعض . فكان من فضل بنى النجار الذى يمدون على قومهم أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

[الأذان]

قال ابن إسحق : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود وفُرض الحلال والحرام وتبوا الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار الذين توبوا والدار والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها^(٢) بنير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) ابن هشام : ومنافق .

(٢) ابن هشام : حين مواقيتها .

أن يجعل بُوقًا كهوق يهود الذى يذمون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس فنُصت ليُصْرَب به للمسلمين للصلاة .

فَبَيَّنَّا هُمْ عَلَى ذَلِكَ رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ أَخُو بَلْعَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ الْغَدَاءَ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ طَافَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ طَائِفٌ ، مَرَّ بِي رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ ، فَقُلْتُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتُبِيعُ هَذَا النِّاقُوسَ ؟ قَالَ : وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟ قُلْتُ : نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ . قَالَ : أَفَلَا أَدَلَّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ ، حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ ، حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ ، حَتَّى عَلَى الْبَلَاحِ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

فَلَمَّا أَخْبَرَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّمَا تَرَوْنِي حَقًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَمَعَ بِلَالٌ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهِ فَلْيُوْذَنْ بِهَا فَإِنَّهُ أَنْدَى ^(١) صَوْتًا مِنْكَ .

فَلَمَّا أَذَّنَ بِهَا بِلَالٌ سَمِعَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ ، فَخَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَجْرِي رِدَاءَهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي رَأَى . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ^(٢) .

وَذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ عَنْ عُثَيْبِ بْنِ مُخَيْرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَبَّحَنَا هُوَ يَرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ خَشَبَتَيْنِ لِلنَّاقُوسِ عِنْدَ مَا اتَّعَمَّرَ ^(٣) بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ إِذْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنْ لَا تَحْمِلُوا النَّاقُوسَ ، بَلْ أَدْنُوا بِالصَّلَاةِ .

(١) أَنْدَى : أَجَدُ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ .

(٣) اتَّعَمَّرَ : مَ بِه .

فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، فسا راعه
إلا بلالٌ يؤذّن ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بذلك . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره : سبّك^(١) بذلك الوحي .

* * *

قال ابن إسحق : فلما اطمانت برسول الله صلى الله عليه وسلم داره
وأظهر الله بها دينه وسرّه بما جمع من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته
قال أبو قيس صيرمة بن أبي أنس أخو بني عديّ بن النجار ، يذكّر
ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام ، وما خصّهم به من نزول
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً يذكّر لو يلقى صديقاً موثقاً^(٢)
ويقرض في أهل اللوازم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير داعياً
فلما أنا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضياً
والتي صديقاً واطمانت به الذوى وكان له عوناً من الله هادياً^(٣)
يقهر لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب للنادياً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من جُل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتأسياً
ونعلم أن الله لا شيء غيره ونعلم أن الله أفضل هادياً

(١) ابن هشام : قد سبّك .

(٢) ثوى : أقام . والوجه : العام . وللوائى : للمساعد .

(٣) الثوى : السد . وى ابن هشام : موثاً من الله هادياً .

نُسَادي الذي عَادَى من الناس كُلَّهُمْ جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
أقولُ إذا أَدْعوك في كل بَيْتَةٍ تباركتَ قد أكرمتَ لاسمك دَاعِيًا^(١)
أقول إذا جاوزتُ أرضاً مَخُوفَةً حَنَانِيكَ لا تُظْهِرْ عَلَى الْأَعَادِيَا^(٢)
فَطُلًّا مُتْرَعًا إن المَخُوفَ كَثِيرَةٌ وإنك لا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فوالله ما يدرى التقي كيف يَبْقَى إذا هو لم يَفْعَلْ له اللهُ واقِيَا
ولا يَجْعَلُ النخلَ المقيمةُ رَبَّهَا إذا أصبحتُ رَبِّيَا وأصبحتُ ثَاوِيَا^(٣)
وكان أبو قيس هذا رجلاً قد تَرَهَّبَ في الجاهلية وَلَيْسَ السُّوْحَ وفارق
الأوثانَ واغتسل من الجنابة وتطَهَّرَ من الحائض من النساءِ وَهَمَّ بالنصرانية
ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فَاخْذَهُ مسجداً لا يدخل فيه طامِثٌ
ولا جُنُبٌ وقال : أعبدُ رَبَّ إبراهيمَ . حتى قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه
وسلم المدينة فأسلمَ وحَسُنَ إسلامه وهو شيخ كبير ، وكان قَوَّالاً بالحنى . معظمًا
لله في جاهليته يقول في ذلك أشعاراً حَسَنًا ، هو الذي يقول :

يقول أبو قيس وأصبحَ غادِيَا أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَائِي فافْعَلُوا
أَوْصِيَكُمْ بالله والبرِّ والتقى وأَعْرَاضَكُمْ وَاللَّيْثُ بالله أولُ
وإن قومكم سَادُوا فَلَاحِشْدَنِهِمْ وإن كنتم أهلَ الرِّياسَةِ فاعْدِلُوا
وإن زلت إحدَى الدَّوَاهِي بقومكم فَأَنْفَسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فَاجْعَلُوا

(١) البيعة : مكان الميابة . ومى في الأصل : مبدى النصارى .

(٢) حنانيك : رحلتك .

(٣) ابن هشام : ولا تخفل النخل المقيمة . . ومعنى البيت غير واضح . ولعل مراده .

ربها : أصلها .

وإن ناب غُرْمٌ فادحٌ فارقوم^(١) وما تحلوكم في اللغات فاحادوا
وإن أنتم أممركم^(٢) فتمفقوا
وإن كان فضلُ الظير فيكم فأفضِلوا

وقال أبو قيس أيضاً :

سَبَّحُوا اللَّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ طلعت شمسُه وكلُّ هِلَالٍ
عالم السرِّ والبيانِ لَدَيْنَا ليس ما قال رُبُّنا بضلالٍ
وله للظهيرِ تستدير^(٣) وتَأْوِي في وكورٍ من آمِناتِ الجبالِ
وله الوحشُ بالقِلاَةِ تراها في حِقَافٍ وفي ظلالِ الرمالِ^(٤)
وله هَوْدَتُ يَهُودٍ ودانت كلُّ دينٍ إذا ذَكَرْتَ عُضَالَ^(٥)
وله شَمْسُ^(٦) الذناري وقاموا كلُّ عَمِيدٍ لَدَيْهِمْ^(٧) واحتفالِ
وله الراهبُ الحَبِيسُ تراه رَهْنٌ بُوَيْسٍ وكانَ ناعِمَ بَالِ
يا بَنِي الأَرْحَامِ لا تَقْطَعُوهَا وصلوها قصيرةً من طَوَالِ
وانقُوا اللَّهَ في ضِعَافِ اليَتَامَى ربِّما يَسْتَحِلُّ غَيْرُ الحلالِ
واعلموا أن لليقيم ولِيا طالما يَهْتَدِي بخيرِ السَّوَالِ

(١) ط : فارقوم .

(٢) أمركم : التفرم .

(٣) ابن هشام : تستدير .

(٤) القلاة : الصحراء . والخفاف : جم غف ، وهو الرمل العظيم للمستدير .

(٥) العضال : الشديد .

(٦) شمس : عميد .

(٧) ابن هشام : لريمهم .

نَمَّ مَالُ الْيَتِيمِ لَا تَأْكُلُوهُ إِنَّ مَالَ الْيَتِيمِ بِرِهَاءٍ وَالْيَ
يَا بَنَى النَّجُومَ لَا تَخْزُلُوهَا إِنَّ خَزَلَ النَّجُومِ ذُو عَقَالٍ^(١)
يَا بَنَى الْأَيَّامَ لَا تَأْمَسُوهَا واحْذَرُوا مَسْكَرَهَا وَمَرَّ اللَّيَالِي
واعلموا أن أمرها لنفاد الخلق ما كان من جسدٍ وبالي
واجمعوا أمركم على البر والتقوى وترك الخلفاء وأخذ الحلال

قال ابن إسحق : ونصب^(٢) عند ذلك أحرار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم العداوة بغيًا وحسدًا وضيقتا لما خصَّ الله العرب من أخذه رسوله منهم .
وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى^(٣) على
جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ،
إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام
واخذوه جنة من القتل ، وناقضوا السر فكان هوام مع يهود لتكذيبهم
الذي صلى الله عليه وسلم وجعدهم الإسلام .

وكانت أحرار يهود هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويحتمقونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، [إلا ما كان من عبد الله
ابن سلام ومُحَمَّدٍ] ^(٤) فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه إلا قليلًا من
المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

(١) النجوم : الأسفل وتخلوها : تظلموها . المقال : ذاء في رجل الفأية ، إذا
معى ظلم ساعة ثم انبسط . ورواية البيت في ابن هشام :
يا بني النجوم لا تخرلونها .. إن خزل النجوم ذو عقال
ولس السبيل النجوم بالحدود بين القرى .. وأرى أن ما هنا أصح .
(٢) ابن هشام : ونصبت .
(٣) عسى : خلط ، أى كبر وتقدم به السن .
(٤) ليست في ابن هشام .

[إسلام عبد الله بن سلام]

وكان من حديث عبد الله بن سلام وإسلامه ، وكان حَبْرًا عالمًا قال :
لما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صِفَتَهُ واسمه وزمانه الذي
كنا نتوكلُ^(١) له ، فسكّدتُ مُسِيرًا لذلك صامعًا عليه حتى قدِمَ المدينة .

فلما نزل بَقْبَاءُ في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه
وأنا في رأس نخلة لي أهل فيها ، وحمى خالدة بنت الحارث تَحْمِي جالسة ،
فلما سمعتُ أخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبُرْتُ ، فقالت لي
حمى حين سمعتُ تسكبيروني : حَيِّيك الله ! لو كنتُ سمعتُ موسى بن عمران
قادمًا ما زِدْتُ !

فقلت لها : أي حمى ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دُبْعِهِ ، بُمْتُ
بما بُمْتُ به .

فقالت : أي ابن أخي ، أهو الذي الذي كُنا نُخْشِرُ أنه يُبْمُت مع نفس
الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذلك إذا .

قال : ثم رُحْتُ^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ ثم رجعت
إلى أهلي فأمرتهم فأسلموا وكنتمُ إسلامي من يهود .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن يهود
قَوْمٌ بُهْتٌ ، وإنّي أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتنبئني عنهم ،
ثم تسألهم عني حتى ينزروك كيف أنا فيهم قبل أن يملوا بإسلامي ، فإنهم
إن عادوا به بهتوني وعابوني .

(١) توكل : تنتظر .

(٢) ابن هشام : ثم رجعت .

قال : فأدخَلَنِي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فسكِّمُوهُ وسألوه ثم قال لهم : أيُّ رجلٍ اُخْصَيْنُ بن سلام فيكم ؟ فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وسخِّرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تعبدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأوَّمن به وأصدقُه وأعرفه . قالوا : كذبت . ثم وقعوا بي أ

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا نبي الله ^(١) أنهم قوم بُهت أهل شذر وكذب وخبور ؟ !

قال : فأظهرتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي ، وأسلمت عنى خالدة فحَسُنَ إسلامها .

[إسلام مخبريق]

قال ابن إسحق : وكان من حديث مُخْبِرِيق ، وكان حَبْرًا عالمًا غنيًّا ^(٢) كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلفُ دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يومُ أُحُدٍ ، وكان يومَ السبت ، قال : يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصرَ محمد عليكم لحقٌّ . قالوا : إن اليومَ يومَ السبت . قال : لا سبت عليكم ^(٣) ثم أخذ سلاحه نفرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم [وأصحابه] ^(٤)

(١) ابن هشام : يا رسول الله .

(٢) ابن هشام : وكان رجلاً غنياً .

(٣) ابن هشام : لكم .

(٤) ليست في ابن هشام ،

بأُحْدٍ ، وَعَهْدَ إِلَى مَنْ وَرَّاهُ مِنْ قَوْمِهِ : إِنْ قُتِلْتَ هَذَا الْيَوْمَ فَأَمَّا إِلَى لِحْمَدٍ يَصْنَعُ فِيهَا مَا أَرَاهُ اللَّهُ .

فَلَمَّا اقْتَتَلَ الدَّاسُ قَاتِلَ حَقِّ قُتْلٍ ، وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْوَالَهُ ، فَمَاةً صَدَقَاتِهِ بِالْمَدِينَةِ مِنْهَا .

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِلْفَنِي يَقُولُ : تَخْذِرُ بَقِي خَيْرُ يَهُودٍ .

[المداوة]

قَالَ : وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثْتُ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ حُمَيٍّ أَنَّهَا قَالَتْ : كُنْتُ أَحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيَّ وَإِلَى عَمِّي أَبِي يَاسِرٍ ، لَمْ أَلْقِهُمَا مَعَ وَلَدٍ لَهَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ غَدَا عَلَيْهِ أَبِي وَعَمِّي مُمْلَسَيْنِ فَلَمَّا يَرَجَعَا حَتَّى كَانَ مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَأَتَيْتَا كَالْبَيْنِ كَسَلَايْنِ سَاطِعَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنِي فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ ، فَوَاللَّهِ مَا لَتَفْتُ إِلَيْهِ وَاحِدَ مِنْهُمَا مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ النِّعَمِ ، وَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي : أَوَ هُوَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَاللَّهِ . قَالَ : أَتَعْرِفُهُ وَتَثْبُتُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ قَالَ : عِدَاوَتُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ .

وَكَانَ^(١) هَذَانِ الْأَخَوَانِ الشَّقِيَانِ مِنْ أَشَدِّ يَهُودِ الْعَرَبِ حَسَدًا لِمَا خَصِمَهُمُ اللَّهُ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَا جَاهِدَيْنِ فِي رَدِّ الدَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ بِمَا اسْتَطَاعَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمَا : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَيْتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِمَا فِيكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ عَدُوِّ أَنْفُسِهِمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » ، فَاحْفَظُوا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٢) .

(١) لَيْسَتْ مِنْ أَبِيْن مَعَامٍ .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ١٠٩ .

ومرّ شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسى ^(١) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه ، فناظره ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بَيْنهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائكة قبيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤم بها من قرار .

فأمر شاباً من يهود كان معه فقال : اعد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعث وما كان فيه وأنشدكم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار . وكان يوماً قد اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ، وكان عليها يومئذ حُصْبُزُّ أبو أُسَيْد ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَيَّاضِي فُقَيْلاً جِيماً .

فعمل الشاب ما أمره به شأس ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى ثواب رجلان من الحَيَّيْنِ على الرُّكْبِ وهما أوس بن قَيْطِي وَجَبَّار ابن صخر فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم ردّناها الآن جَذَعَة . وغضب الفريقان منه جميعاً وقالوا : قد فعلنا موعِدكم الظاهرة - وهي الحرّة - السلاح السلاح .

تفرجوا إليها ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، تفرج إليهم فبين معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا مشر المسلمين الله الله ! أَيْدِعُوا الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واسقنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ^(٢) .

(١) عسى : أسن .

(٢) ابن هشام : بين قلوبكم .

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وطافوا
الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس .
فأنزل الله تبارك وتعالى في شأن شأس^(١) وما صنع : « قل يا أهل الكتاب
لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبْفُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »^(٢) .

وأنزل الله في أوس بن قَيْظَى وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ ومن كان معهما من
قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُلَيْمُكُمْ فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُ وَمَنْ يَمْتَعْهُم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »^(٣) .

* * *

قال^(٤) : وحُدِّثت عن سميد بن جببر أنه قال : أتى رهط من يهود
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فن

(١) ابن هشام : في شأس .

(٢) سورة آل عمران ٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٣ .

(٤) ترك المؤلف ذكر كثير من حوادث اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذكرها ابن هشام ٢ / ٢٠٤ — ٢٢٠ .

خَلَقَهُ ؟ قَالَ : فَنَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَفِعَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ سَاورِم^(١) غَضِبًا لِرَبِّهِ ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَسَكَّنَهُ فَقَالَ : خَفَضَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

فَلَمَّا تَلَاهَا عَلَيْهِمْ قَالُوا : فَصِيفْ لَنَا يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ خَلَقَهُ ؟ كَيْفَ ذَرَأَهُ كَيْفَ عَصَدَهُ ؟

فَنَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ وَسَاورِم ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا : « وَمَا قَدَّرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) » .

* * *

وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْتَ الْمَدْرَاسِ^(٣) عَلَى يَهُودٍ ، فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَاسًا كَثِيرًا قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ فِنْحَاصُ وَكَانَ مِنْ عِلْمَانِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ ، وَمَعَهُ خَبَرٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ يُقَالُ لَهُ أَشْيَعُ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفِنْحَاصَ : وَيْلَكَ^(٤) ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَسْلِمِ ، فَوَاللَّهِ إِنْكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ ، تَعْبُدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .

(١) سَاورِم : وَاجِبِهِمْ .

(٢) سُورَةُ الزُّمَرِ ٦٧ .

(٣) بَيْتُ الْمَدْرَاسِ : الْبَيْتُ الَّذِي جُنْدَارُسُ لِيهِ الْيَهُودُ كَتَبَهُمْ .

(٤) ابْنُ عَمَامٍ : وَبَعْدَكَ .

فقال فنحاص لأبي بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا الفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغيث ، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، إنها كم عن الربأ وبعطيتاه ، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربأ .

فغضب أبو بكر فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا التمسك الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله . فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربت وجهه . فجدد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك .

فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر : « لَقَدْ تَمَسَّحَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ^(١) »

ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : « وَلَنَسْمَنَنَّ مِنَ الَّذِينَ اتَّوَا السَّكَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تُصْبِرُوا وَنَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(٢) » .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٦ .

[المذاقون]

وكان من انصاف إلى يهود من المذاقين من الأوس والخزرج فيما ذكروا والله أعلم :

من الأوس : جُلَّاسُ بْنُ سُؤَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ مِنْ بَنِي حَبِيبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَهُوَ الْقَاتِلُ : - وَكَانَ مِنْ نَحَافٍ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ : لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقًا لَنَحْنُ شَرُّهُ مِنَ الْخَمْرِ .

وكان في حجره حُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ، خَلَفَ جُلَّاسٌ عَلَى أُمِّهِ بَعْدَ أَبِيهِ ، فَقَالَ لَهُ عَمِيرُ : وَاللَّهِ يَا جُلَّاسُ إِنَّكَ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُ عِنْدِي وَأَعَزُّهُ عَلَيَّ أَنْ يَصِيبَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ ، وَلَقَدْ قُلْتَ مَقَالََةً لَئِنْ رَفَعْتُمَا عَلَيْكَ لَأَفْضَحَنَّكَ ، وَلَئِنْ سَمِعْتُ عَلَيْهَا لَيَهْلِكَنَّ دِيْنِي ، وَإِلْحَادُهُمَا أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الْآخَرَى .

ثُمَّ مَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالِ جُلَّاسٌ ، فَخَلَفَ جُلَّاسٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللَّهِ لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ عَمِيرُ وَمَا قُلْتُ مَا قَال .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ : « يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِمَنْدِ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ، وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ يَتَعْبَرُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَقُولُوا يَعْذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (١) .

فَرَضُوا أَنَّهُ تَابَ فَحَسَنَتْ تَوْبَتُهُ حَتَّى عُرِفَ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَالْخَيْرُ .
وَأَخُوهُ الْحَارِثُ بْنُ سُؤَيْدٍ ، قَتَلَ الْحِذْرَ بْنَ ذِيادِ الْبَكْلِيِّ .

وذلك أن المجذرة - فيما ذكر ابن هشام - قتل أباه سويد بن الصامت في بعض الحروب إذ كانت بين الأوس والمخزج ، فلما كان يوم أحد طلب الحارث غيرة المجذرة لقتله بأبيه ، فقتله .

وذكر ابن إسحق أن سويدا إنما قتله مما ذنب عن غفراء غيلة في غير حرب ، رماه بسهم فقتله قبل يوم بُعث .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون قد أمر عمر ابن الخطاب بقتل الحارث إن هو ظفر به ، فقاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « كيف بهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ^(١) » إلى آخر القصة .

وتبطل بن الحارث من بني ^(٢) ضبيعة بن زيد بن مالك ، وهو القاتل : إنما محمد أذن من حديثه شيئاً صدقه .

فأنزل الله تعالى : ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ^(٣) »

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر : « من أحب أن

(١) سورة آل عمران ٨٦ .

(٢) كذا بالأصل وهو خطأ ، فنبط كما ذكر ابن هشام : من بني لؤذان بن عمرو ابن عوف ، أما الذي من بني ضبيعة بن زيد بن مالك فهو بجاد بن هبان بن عامر . ابن هشام :

٢ / ١٦٨ .

(٣) سورة التوبة ٦١ .

ينظر إلى الشيطان فليَنظر إلى تَبَتُّلِ بن الحارث « وكان جسيماً أَذَلَمُ ^(١) »
 نازع شعر الرأس أحر العينين . وذكر أن جبريل أتى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فقال : إنه يجلس إليك رجل أَذَلَمُ نازع شعر الرأس أَشَفَعُ
 أَخْلَدَيْنِ ^(٢) أحر العينين كأنهما قِدران من صُفَرٍ ^(٣) كَيْدِه أغلظ من كبَدِ
 الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين ، فاحذره .

وعروة بن خِيَذَام ، وعبد الله بن نَبْتَل ، وجارية بن عامر بن العَطَاف
 وابناء زيد ومَجْمَع وم من اتخذ مسجد الضرار .

وكان مجتمَعٌ ، غلاماً حَدَّثَنَا جمع من القرآن أكثره ، وكان يصلى بهم
 فيه ، فلما كان زمان عمر بن الخطاب كَلَّمَ في مُجْمَع ليصلى بقومه بنى عمرو
 ابن عوف في مسجدهم ، فقال : لا ، أو ليس بإمام للمنافقين في مسجد الضرار ؟
 فقال له مجتمَع : يا أمير المؤمنين والله الذي لا إله إلا هو ما علمتُ بشيء
 من أمرهم ، ولكنني كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا لا قرآن معهم ،
 فقدموني أصلى بهم وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا .
 فزعموا أن عمر رضى الله عنه تركه فصلّى بقومه .

* * *

ومن الخوارج ، ثم من بنى عوف : عبد الله بن أَبِي بن سَلُول ، وكان
 رأساً للمنافقين وإليه يجتمعون .

وهو الذي قال في غزوة بنى المصطلق : لئن رجعنا إلى المدينة لَيُفَخِّرَنِي

(١) الأذلم : الأسود الطويل .

(٢) الأشفع : الفاحش .

(٣) الصفر : النحاس .

الأعز منها الأذل . وسيماني ذكر ذلك مستوفياً ويان سببه عند الانتهاء إلى
غزوة بنى المصطلق ، إن شاء الله تعالى .

وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله
ابن أبيّ هذا ، ولا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس
وانخرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين .

حتى جاء الإسلام ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف
مطاع ، أبو عامر عبد عمرو بن صنيّ بن النعمان أحد بنى ضُبَيْعَةَ بن زيد ،
وهو أبو حَنْظَلَةَ النَّسِيلُ يوم أُحُد ، وكان قد ترهب ولبس للسوح فكان
يقال له الراهب ، فشَقِيًّا بشرفها !

أمّا عبد الله بن أبيّ فكان قومه قد نظموا له أَنْطَرَزَ لِيَقُوجُوهُ وَيَمْلِكُوهُ
عليهم ، فجاءهم الله تبارك وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ،
فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضَفِنَ ورأى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد استعَلَّبه مُسَكًّا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه
كارهاً مُعِيراً على نفاق وضفن .

وحدث أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادته يعمده من شَكْوِ أَصَابِهِ
على حمار عليه لحاف^(١) فوقه قطعة فدَكِيَّة^(٢) غَطَّمَهُ^(٣) بحبل من ليف
وأزْدَفَنِي خَلْفَهُ ، فرّ بعبد الله بن أبيّ وحوله رجال من قومه ، فلما رآه
رسول الله صلى الله عليه وسلم تَدَمَّعَ أَنْ يَجَاوِزَهُ حَتَّى يَنْزِلَ ، فنزل فسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ
فَقَلَّ التَّرَاكَبَ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَذَكَرَ بِهِ وَحَذَرَ وَيَشَّرَ وَأَنْذَرَ ، وعبد الله زَامٌ

(١) ابن هشام : لكاف .

(٢) فدكية : ملسوبة إلى فدة وهي قرية بالجواز قرب المدينة .

(٣) ابن هشام : غططه .

لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فن جاءك لخدمته أيامه ، ومن لم يأتك فلا تنفسه^(١) به ولا تأتاه في مجلسه بما يكره .

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاعشينا به وانكنا في مجالسنا ودورنا ويوتنا ، فهو والله ما نحب وما أكرمنا الله به وهذا ناله .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :
مَنْ يَكُنْ مَوْلَاكَ خَصْمُكَ لَمْ تَزَلْ^(٢) تَذِلُّ وَيَصْرَعَكَ الَّذِينَ تَصَارِعُ
وهل ينهض البازي بغير جفاحه وإن جُدَّ يوماً ريشه فمَوَّ واقع
قال : وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادته
وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي ، فقال : والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً : لكأنك سمعت شيئاً تسكره ؟ قال : أجل . ثم أخبره بما قال
ابن أبي . فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له النمرز للتوجه ، فإنه أكره أن قد سلبته ملكاً !

* * *

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحذيفة دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها^(٣) .

قال : إنك أدخلت يا محمد في الحذيفية ما ليس منها . قال : ما فعلت

(١) ابن هشام : فلا تنفسه . وهي رواية .

(٢) ابن هشام : لا تزل .

(٣) زاد في ابن هشام : « قال بلى » .

ولكني جئتُ بها ببيضاء نقيّة . قال : الكاذب أمانه الله طريداً غريباً وحيداً . برّض رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذب يقلل الله ذلك به .

فكان هو ذلك عدو الله ، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : الراهب ، ولكن قولوا الفاسق .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فأت بها طريداً غريباً وحيداً !

* * *

قال ابن إسحق : وكان من تموّذ الإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود ، من بنى قَيْنِقَاع : سمئ بن حَنْبَل ، ونبهان ابن أَوْق ، وعُثان بن أَوْق ، وزيد بن اللصّيت ، وهو الذي قال حين ضلّت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلّ على ناقته وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله : « إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، وإنّي والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلفي الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكا وصف .

* * *

وكان هؤلاء المناقضون للمؤمن وغيرهم ممن لم يُسمَّ بمحضرون السجدة فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم .

فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عفيفاً .

فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بنى غنم بن مالك ابن النجار ، وكان صاحب آلتهم في الجاهلية ، فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أخرجني يا أبا أيوب من مزبد بنى ثعلبة ! ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة أحد بنى النجار فلقيه بردائه ثم تهره نكراً شديداً ثم لطم وجهه وأخرجه^(١) من المسجد وهو يقول : أف لك مدافقاً خبيثاً ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام ثمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قوذاً عفيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع ثمارة يديه فلذمه^(٢) بهما في صدره لذمة خمر منها . قال : يقول : خدشني يا حماره ! قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقرن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام أبو محمد ، رجل من بنى النجار ، وكان بدرياً ، إلى قيس بن عمرو فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد . وكان قيس غلاماً شاباً لا يعلم في المناققين شاب غيره .

وقام رجل من بلخذرة^(٣) يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جعة فأخذ يئمه يسحباً سحباً عفيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد .

(١) ابن هشام : ولطم وجهه ثم أخرجه .

(٢) الدم : الضرب يطن الكف .

(٣) بلخذرة : بنو الخثيرة ، وهم رعاة أبي سعيد الخدري .

قال : يقول للنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث . فقال له : إنك أهل
لذلك باعدوا الله لِمَا أنزل الله فيك ، فلا تقرب مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه ذُؤَيْب بن الحارث فأخرجه
من المسجد إخراجاً عنيفاً وأقف منه وقال : غلب عليك الشيطانُ وأمره .
فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بإخراجهم .

ففي هؤلاء من أجهار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدرُ
سورة البقرة إلى المائة منها ، فيما بلغني والله أعلم^(١) .

[وفد نصارى نَجْرَانَ]

وقدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وفدُ نصارى نَجْرَانَ ،
سقون راكباً ، فدخلوا عليه المسجد حين صَلَّى العصرَ عليهم ثياب الخِزِرَاتِ
جُبَّ وأردية ، في جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، يقول بعضُ من رآهم
يومئذ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأينا بمتدّم وفداً مثلهم .

وحانت صلاتهم فقاموا يصَلُّون في المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : دَعُوهم . فصَلُّوا إلى المشرق ، وكان فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم ،
في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يقول أمرُهم : العاقبُ أميرُ القومِ
وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يَصْدُرُون إلا عن رأيه ، واسمه
عبد المسيح ، والسيدُ نِجَالَمُ^(٢) وصاحبُ رَحْلهم وعجتمهم واسمه الأَيْهَمُ ،

(١) استعرج ابن هشام صدر سورة البقرة التي ذكر فيه المنافقون واليهود . انظر

١٧٧/٢ — ١٩٤ .

(٢) أي العالمُ بأمرهم .

وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقّفهم وحزبهم وإمامهم وصاحب
ميدانهم وكان أبو حارثة هذا قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن
علمه في دينهم ، فكان ملوكهم قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس
وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما وجّهوا^(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَجْران جلس
أبو حارثة على بذلة له موجهة وإلى جنبه أخ له يقال له كوز بن علقمة ، ويقال
كوز بن علقمة ، فمثرت بذلة أبي حارثة فقال كوز : تمس الأبعد . يريد
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تمست . قال :
ولم بأخى ؟ قال : والله إنه قلبي الذي كنا ننتظره . فقال له كوز : فما بمنك
منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا
وأكرمونا وقد أبونا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما نرى .

فأخبر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان
حدث عنه هذا الحديث .

وكان أبو حارثة هذا من كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو والمقاب
والسيد ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم [في عيسى
عليه السلام^(٢)] ، يقولون هو الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ،
ويقولون هو والله الله كبرت . كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ،
ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لله هب كل إله بما خلق ولما لا
بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فعالى
عما يشركون . ويقولون هو ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد .

(١) ابن همام : رجعوا . وما هنا أقرب .

(٢) سقطت من ابن همام وهي متحينة .

ففي كل^(١) هذا من قولهم قد نزل القرآن مُدْحِضًا حُجَجَهُمْ وَمُبْطِلًا دَعَاوِيَهُمْ ، والله يقول الحق وهو يَهْدِي السبِيل .

قال الله العظيم : « لقد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وقالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينهوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيم ، ما المسيح ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ حَيْدِقَةُ كَانَا بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ ، انظُرْ كَيْفَ نَبِّئِينَ لَمْ الْكَلَامِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٢) » .

وقال عز من قائل : « وقالت اليهودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وقالت النصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ، اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٣) » .

ولما كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإسلام ، فقال له

(١) دفع الآراء والتعليق عليها لم يذكره ابن هشام .

(٢) سورة المائدة ٧٢ — ٧٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٠ — ٣١ .

حَتَرَانِ مِنْ كَلِمَةٍ مِنْهُمْ : قَدْ أَسْلَمْنَا . فَقَالَ لَهَا : إِنَّكُمْ لَمْ تُسَلِّمُوا فَاسْلِمُوا . فَقَالَا : بَلَى قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ .

فَقَالَ : كَذَّبْتُمَا ، بِعَصِيَّتِكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاؤُكَمَا لِلَّهِ وَلَدَا وَعِبَادَتُكَمَا الْعَلِيِّ وَأَكْلُسَا الْخَلِيزِيرَ .

قَالَا : فَمَنْ أَبَوْهُ يَا مُحَمَّد ؟

فَصَدَّتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَجِبْهُمَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ [كَلَهُ] ^(١) صَدْرَ سُورَةِ آلِ هِرَانَ إِلَى بَعْضِ وَثْمَانِينَ آيَةٍ مِنْهَا .

فَانْتَبَحَ السُّورَةُ بِتَنْزِيهِ نَفْسِهِ سَبْعَانَهُ مِائَةً ^(٢) قَالُوا ، وَتَوْحِيدِهِ إِيَّاهَا بِأَنْتَلَقِ وَالْأَمْرَ ، رَدًّا عَلَيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوا مِنَ الْكُفْرِ وَجَعَلُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ لِيُفَرِّقَهُمْ بِذَلِكَ ضَلَاتِهِمْ . فَقَالَ جَبَلٌ قَوْلَهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ : « أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هَدَى لِنَاسٍ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَمْ حَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ » .

ثُمَّ اسْتَمَرَ سَبْعَانَهُ فِيمَا شَاءَ مِنَ التَّبَيُّانِ لَهُمُ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ ، وَإِرْشَادِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى سَبِيلِ الضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ بِأَنْ لَا يُزَيِّغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ، وَأَنْ يَهَبَ لَهُمْ مِنْ لَدُنْهِ رَحْمَةً ، وَمَا وَصَلَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ الْحَقُّ وَذِكْرُهُ الْحَكِيمُ .

(١) مِنْ ابْنِ هِشَامٍ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : مِائَةً .

ثم استقبل لهم أمر عيسى وكيف كان بذه ما أراد به ، فقال : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذُرِّيَّةً بِمَصْنُوعٍ مِنْ بَعْضِ وَاللَّهُ تَبِيعٌ عَلِيمٌ »

ثم ذكر امرأة عمران ونذرها لله ما في بطنها محرراً ، أى تمبده له سبحانه لا ينتفع به لشيء من الدنيا ، ثم ما كان من وضعها مريم وتمويذها إياها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم .

يقول الله تبارك وتعالى : « فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أى ضمها وقام عليها بعد أيها وأمها .

ثم قص خبرها وخبر زكريا وما دعا به وما أعطاه ، إذ وهب له يحيى ، ثم ذكر مريم وقول اللائكة لها : « يا مريمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

يقول الله جل وعز : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَسِيحَ إِذْ يُنْقَلُونَ أَفْلاَهُمْ أَهْلَهُمْ بِكَفَلٍ مَرْيَمَ » أى يستقيمون عليها ، أيهم يخرج سؤمهم يسكنها . « وَمَا كُنْتَ لَسِيحَ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى ما كنت معهم إذ يختصمون فيها .

بخبره بحق ما كنتموا عنه من العلم ، تحقيقاً لبيوته وإقامة للحجة عليهم^(١) بما يأتيهم به مما أخفوا منه .

ثم قال تعالى : « إِذْ قَالَتِ اللَّائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكْلِمَةٍ مِنْهُ »

(١) ابن عباس : لتطيق بيوته والحجة عليهم .

اسمهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُتَرَبِّينَ ، وَبُكَتَامِ
النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكِبَالاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ .

أى هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه ، وإن هذه حالته التي يتقلب بها
في عمره كقلب بنى آدم في أعمارهم صفاراً وكباراً ، إلا أن الله خصه بالسكلام
في مهده . آية لقبوته ، وتمريفاً للعباد مواقع قدرته .

« قَالَتْ : رَبِّ أَنْتَى يَكُونُ لِي وَلَكَدْ وَلَمْ يَخْسِفْ بَشَرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . »

أى يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر . [ويصور في الأرحام
ما يشاء وكيف يشاء بذكر وبشر ذكر^(١)] .

« إِذَا قَعَى أَمراً فَلَنَمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم أخبرها بما يريد به من كرامته وتعليمه الكتاب والحكمة والوراة
المنزلة على موسى قبله والإنجيل المنزل عليه ، وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ،
مؤيداً من الآيات بما هو صادر عن إذنه موقوف على مشيئته تحقيقاً لما أراد من
نبيوته ، لإبراء الأكنة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وغير ذلك
بما أبداه الله به من العجايب المصدقة له ، وأمره إياهم بقوى الله وطاعته
وقوله لهم : « إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ » تزييلاً من الذي يقولون فيه واحتجاجاً
لربه عليهم . « فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » أى هذا الهدى قد حملتكم
عليه وجئتكم به .

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا
بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُفْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

ثم ذكر رَقْمَهُ إِيَّاهُ إِلَيْهِ حِينَ اجْتَمَعُوا لِقَاتِهِ ، فَقَالَ : « وَمَسْكُرُوا
وَمَسْكُرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

ثم أخبرهم وردَّ عليهم فَيَا أَفْرُوا لِلْيهودِ بِصَلْبِهِ ، كَيْفَ رَقْمَهُ وَطَمَرَهُ مِنْهُمْ
فَقَالَ : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَلِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الدِّينِ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الدِّينِ اتِّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . ثُمَّ الْقِصَّةُ
حَقِّ اتِّبَعِي إِلَى قَوْلِهِ : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .
إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

أَيُّ قَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تُرَايَيْنَ بِهِ وَلَا تَمْتَرِينَ فِيهِ ، وَإِنْ قَالُوا
كَيْفَ خُلِقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ فَقَدْ خَلَقْتَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ بِتِلْكَ الْقُدْرَةِ
مِنْ غَيْرِ أَشْيٍ وَلَا ذَكَرٍ ، فَكُنْ كَمَا كَانَ عِيسَى لَحْمًا وَدَمًا وَشَعْرًا وَبَشَرًا ،
فَلَيْسَ خُلِقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا .

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أَيُّ مِنْ بَعْدِ مَا قَصَصْتَ
عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِهِ وَكَيْفِيَةِ أَمْرِهِ ^(١) « فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَ نِسَاءِنَا
وَنِسَاءَنَا وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لِمَنْ أَهْلُ الْكَذِبِ » .
نَبْتَهِلُ : نَدْمُو بِالْأَمْعَةِ ، وَنَبْتَهِلُ أَيْضًا نَجْتَمِدُ بِالْأَعْدَاءِ ^(٢) .

« إِنْ هَذَا لَكُوهُ الْقَصَصُ الْحَقُّ » أَيُّ مَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ مِنْ أَمْرِ عِيسَى
« وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِالْمُنْكَدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) ابْنُ هِشَامٍ : وَكَيْفَ كَانَ أَمْرُهُ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : فِي الْفُجَاءِ .

أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
فدعاهم إلى النِّصَف وقطع عنهم الحجة .

فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله عز وجل في شأن عيسى وقُصِّلَ القضاء بينه وبينهم بما أُبِيرَ به من مُلَاعَنَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ عَلَيْهِ ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا يا أبا القاسم دَعَاكَ نَظَرُ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نَرِيدُ أَنْ نَعْمَلَ فَيَا دَهَوْتَنَا إِلَيْهِ .

فانصرفوا عنه ثُمَّ خَلَوْا بِالْعَاقِبِ ، وَكَانَ ذَارِئِهِمْ ، فَقَالُوا : يَا عَبْدَ السَّيِّحِ مَا نَرَى ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ عَمْدًا لَيْفِي مُرْسَلٌ ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ بِالْحَقِّ ، وَاقْدِرْتُمْ مَا لَا عَنْ قَوْمٍ نَبِيًّا قَطُّ فَبَقِيَ كِبِيرُهُمْ وَلَا تَبَيَّنَ صَغِيرُهُمْ ، وَإِنَّهُ لِلْإِسْتِثْمَالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ أَتَيْتُمْ إِلَّا أَلْفَ دِينَكَمُ وَالْإِقَامَةَ عَلَى أَتَمِّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي صَاحِبِكُمْ فَوَادِعُوا الرِّجْلَ وَانصَرِفُوا^(١) إِلَى بِلَادِكُمْ .

فَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا أبا الْقَاسِمِ قَدْ رَأَيْنَا أَلَّا تُلَاعِنَكَ وَأَنْ تَتَرَكَّ عَلَى دِينِكَ وَنَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا ، وَلَكِنْ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا بِحُكْمٍ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءِ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أُمُورِنَا ، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رِضَى .
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ائْتُونِي بِالْمِشْيَةِ ابْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوَى الْأَمِينَ .

فَكَانَ حَبْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ قَطُّ حَتَّى

(١) ابن هشام : ثُمَّ انصرفوا .

إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فُرِخت إلى الظاهر مهتجراً ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ثم نظر عن يمينه ويساره فجعلت أتعاول له ليراني ، فلم يزل يلتبس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعا فقال اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

[مرض للهاجرين بالمدينة]

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى جمدوا فما كانوا يصلون إلا وهم قعود ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم صوات الله عليه وهم يصلون كذلك ، فقال لهم : اهدوا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فنجسهم للساكنين القيام على ما بهم من الضعف والسقم الخامس الفضل !

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ممن أصابه الحمى وكذلك مؤلفاه عامر بن فهيرة ، وبلال ، قالت عائشة : فدخلت أعودهم قبل أن يضرب علينا الحجاب وهم في بيت واحد وبهم ما لا يملوه إلا الله من الوعك ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرئ مصتبح في أهله ولوث أدنى من شركائه ثم قلت : والله ما يدري أي ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر فقلت ، كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت للوث دون ذوقه^(١) إن الجبان حتمه من قوته

(١) ان مقام : قبل -

كل امرئ مجاهد بطوقه كالنور يحمي جلاله برؤفه
قالت : وكان بلال إذا تركه الحى اضطلع بفناء البيت ثم رفع
عقيرته وقال :

الآنيت شغرى هل أبيتن ليلته^(١) وحولى إذخر وجليل
وهل أريدن يوماً مياه بحنة وهل يبدون لى شامة وطفيل
قالت عائشة : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب لنا المدينة كما حببت
[إلينا]^(٢) مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدنها وصاعها ، وانقل وباءها إلى
منهممة . وهى الجنة .

انتهى الجزء الأول من كتاب « الاكتفاء فى مناقب رسول الله والثلاثة
الخلفاء » بحمد الله ، ويليه الجزء الثانى وأوله : « شروع رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى حرب للمشركين ، وذكر مناقبه التى أعز الله بها
الإيمان والمؤمنين » .

تصويبات

الصفحة	السفر	الصواب
٤١	١٦	مُسَرِّ
١٢٣	٨	وَحَانَتْ
٢٨٦	١٨	وَأَمْسَكَتُ
٢٨٧	١٣	تَبِيرًا
٢٨٩	١	اِخْتَلَفَا
٢٩٦	٣	لَا تَنْشَوِي
٢٩٦	١١	يَخْبِرْكُمْ
٤١٤	١٩	بَعْدَ
٢٩٠	١٢	رَحِي
٤٥٤	هَامِش	الْجُتَارَة

255442155000